
رواية
الأشجار
تمشي في
الاسكندريّة
علاء الأسواني
نوفل

رواية

الأشجار تمشي في الاسكندريّة

علاء الأسواني

نوفل

صدرت في شباط 2024 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
instagram.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

صورة الغلاف: **Nikaa / Trevillion Images ©**
تصميم الداخل: **ماري تريز مرعب**
تحرير ومتابعة نشر: **رنا حايك**

ر.د.م.ك. (النسخة الورقية): 978-614-06-0276-2
ر.د.م.ك. (النسخة الإلكترونية): 978-614-06-0277-9

إلى صديقي العزيز جون بول كابيتاني (Jean Paul Capitani)
الذي أحبَّ هذه الرواية منذ أن كانت فكرةً ثمّ رحل عن عالمنا قبل أن يقرأها.

«ستلاحقك هذه المدينة
ستهيم في الشوارع ذاتها
ستدركك الشيخوخة في هذه الأحياء
وفي الأحياء ذاتها سيدبُّ الشيبُ في رأسك
ستصل دائمًا إلى هذه المدينة
لا تأمل في أماكن أُخرى
ما من سفينةٍ لأجلكَ
ما من سبيل»...

قسطنطين كافافيس

1

10 سبتمبر 1964

إن كنت تزور مطعم أرتينوس لأوّل مرّة فلا شك أنّهم أخبروك بأنّه يستحيل أن تجد مائدةً بدون حجز مسبق ولا شك أيضًا أنّهم حكوا لك ما حدث مع شخصيّات بارزة مصريّة وأجنبيّة عندما اعتبروا «أرتينوس» مطعمًا عاديًّا فجاؤوا ليتناولوا الطعام بدون حجز. عندئذٍ استقبلهم صاحب المطعم جورج أرتينوس واعتذر لهم بأدب وحزم ثمّ دعاهم إلى تناول الطعام على البار إذا أحبّوا. قبل بعضهم ورفض بعضهم وانصرفوا لكنّهم جميعًا أدركوا أنّ القواعد في «أرتينوس» قد وُضعت ليتمّ تطبيقها.

ما إن تدخل من الباب حتّى تدرك أنّ سمعة أرتينوس مستحقّة تمامًا فهو قطعًا من أفضل المطاعم في الاسكندريّة ومصر كلّها. كلّ ليلةٍ يُقدَّم العشاء على أنغام عازف البيانو آرام الأرمني، هناك أيضًا حفلة راقصة ينظّمها المطعم مساء الجمعة الأوّل من كلّ شهر. تضاف إلى ذلك حفلات الكريسماس ورأس السنة وشمّ النسيم وعيد القيامة. سترى على الجدران صورًا للمشاهير المصريّين والعالميّين الذين زاروا المطعم. نجوم سينما ومغنّون وموسيقيّون وأبطال رياضيّون ورجال دولة.

على الحائط المواجه للباب الرئيسي كانت هناك صورة ضخمة بإطار ذهبيّ لجلالة الملك المعظّم فاروق الأول الذي أسبغ عطفه السامي على العاملين في أرتينوس عام 1947 ومنحهم شرف زيارته الملكيّة. يومئذٍ خُصّص المطعم بالكامل لجلالة الملك وحاشيته وقد أذن جلالته بالتقاط هذه الصورة التذكاريّة. في عام 1952 استولى الجيش على السلطة وطرد الملك وأعلن الجمهوريّة، عندئذٍ تخلّص جورج أرتينوس من صورة الملك ووضع بدلًا منها صورةً، بذات الحجم، لأعضاء مجلس قيادة الثورة بالزيّ العسكريّ والجماهير تحيط

بهم. ظلّت هذه الصورة معلّقةً بضع سنوات حتّى انفرد عبد الناصر بالسلطة وصار رئيسًا لمصر. كان جورج أرتينوس قد تُوفّي وحلّت مكانه ابنته ليدا في إدارة المطعم، وبناءً على نصيحة بعض الزبائن، أزالت ليدا صورة أعضاء مجلس القيادة وعلّقت مكانها صورةً بالحجم الطبيعيّ للرئيس عبد الناصر وحده في إطارٍ مذهّبٍ فخمٍ كلّفتها جنيهًا كاملًا.

باستثناء تبديل صور الحكّام فقد ظلّ مطعم أرتينوس، كما كان دائمًا، في القمّة. صحيحٌ أنّ بعض الزبائن القدامى هاجروا من مصر، ولكنّ الصحيح أيضًا أنّ كثيرين ظلّوا على ولائهم لمطعمهم المفضّل. كما أنّ أبناء الطبقة الحاكمة الجديدة (الضبّاط وأسرهم) لم يكونوا يحبّون مطعم أرتينوس، كانت لديهم رغبةٌ ملحّةٌ في التمتّع بالحياة الرغدة ومحاكاة الأرستقراطيّين في كلّ شيء فحصلوا مجّانًا على بيوتٍ وشققٍ فاخرة انتزعتها إدارة الحراسات من «أعداء الشعب» ومنحتها لهم مجّانًا أو بأجورٍ رمزيّة، كما أنّهم اشتركوا مجّانًا في النوادي الرياضيّة الشهيرة مثل الجزيرة وسبورتنج وأرسلوا أولادهم إلى أرقى المدارس في مصر. كلّ ذلك كان متاحًا للحكّام الجدد، أمّا في مطعم أرتينوس فقد كان الجوّ بالنسبة إليهم خانقًا ومحرجًا. كانت قائمة الطعام مطبوعةً بالفرنسيّة بدون ترجمة وكانت أسماء الأطباق طويلةً ومعقّدةً يستحيل عليهم حفظها أو حتّى نطقها بطريقةٍ صحيحة، ومنذ لحظة دخولهم المطعم حتّى لحظة دفع الحساب كانوا يصطدمون بالعديد من الإجراءات الأرستقراطيّة الصغيرة التي يجهلونها. كلّ ذلك منعهم من متعة السيادة التي يبحثون عنها، ممّا جعلهم يتجنّبون أرتينوس ويفضّلون عليه مطاعم الأكل الشرقيّ الشهيرة حيث يتمّ بالاحتفاء بهم بلا تحفّظ ويجدون الطعام الذي يعرفونه ويحبّونه.

كان كلّ شيءٍ في أرتينوس نظيفًا وأنيقًا: المفارش والأكواب والصحون وحتّى دورات المياه التي تقوم الإدارة بتزويدها بمنظّفات وعطورٍ خاصّة. كلّ من يعمل في المكان يتقن فنّ معاملة الزبائن بدءًا من كامل موظّف الاستقبال ثمّ كريستينا الجميلة التي تلقاك بابتسامتها الساحرة وتأخذ معطفك وتعطيك رقمًا، إلى الجرسونات الرجال بستراتهم الحمراء وقمصانهم البيضاء الناصعة المكويّة والبابيونات السوداء وذقونهم الحليقة المصقولة وشعورهم المصفّفة

جيّدًا وأظافرهم المقصوصة بعناية التي كان جورج أرتينوس يفحصها بنفسه قبل أن يسمح لهم بالخدمة، أمّا الجرسونات البنات بزيّهنّ ذي اللونين الأبيض والأحمر، فهنّ جميلاتٌ أنيقات شعورهنّ مصفّفةٌ بعناية يغطّي وجوههنّ ماكياج بسيط هادئ وهنّ بالضرورة رشيقات إذ كان جورج أرتينوس، و من بعده ا بنته ليدا، يحذّران ا لجرسونة ا لتي يزيد وزنها وإن لم تستجب يتمّ فصلها بلا تردّد ولا هوادة.

مبنى أرتينوس يتكوّن من دورين. المطعم في الدور الأرضيّ له مدخلٌ ناحية البحر ومدخلٌ آخر على شارع الترام، وفي الدور العلويّ قاعتان صغيرتان للمناسبات الخاصّة وبارٌ صغير.

بالإضافة إلى الطعام الجيّد والخمور والأنبذة المعتّقة المستور دة والموسيق ى، فإ نّ أك ثر ما يج ذب زبا ئن أرتين وس هو شعورهم بالتميّز. ما إن تدخل المطعم حتّى تحسّ بأنّك شخصٌ مهمّ ومرموق كأنّك تتحرّك أمام الكاميرات أو كأنّك تعيش لحظةً تاريخيّة على نحوٍ ما. الحفاوة التي تلقاها هناك ليست مصطنعةً ولا تسويقيّة والفضل في ذلك يعود إلى جورج أرتينوس الذي كان يقول دائمًا للعاملين:

– إيّاك أن تنسى: الزبون هو من يدفع مرتّبك وقد ترك عشرات الأماكن واختار مطعمنا. يجب أن تشعره دائمًا بأنّك سعيدٌ وممتنّ لوجوده.

إذا كانت مائدتك بجوار النافذة ناحية البحر وحانت الساعة السادسة مساءً فسوف ترى سيّارة فورد سبور (موديل 1957) بيضاء مكشوفة بمقعدين تغطّيهما كسوةٌ من الجلد الأحمر الفاخر. ما إن تظهر السيّارة حتّى يهرع عربي المنادي نحوها ويفتح الباب لينزل منها شابٌ وسيمٌ للغاية يرتدي ثيابًا غير تقليديّة تحمل طابعًا فوضويًا متمرّدًا سرعان ما يشكّل جماله الخاصّ. إن كنت لا تعرف هذا الشابّ فسوف تعتقد – قطعًا – أنّه نجمٌ سينمائيّ أو ثريٌّ مدلّل، لكنّك سرعان ما ستكتشف – لدهشتك – أنّه يعمل في المطعم. بعد قليلٍ سيظهر أمامك بالسترة الحمراء والقميص الأبيض والبابيون الأسود ثمّ ينحني ويقول بابتسامة مستئذنة:

– بونسوار. أنا كارلو ساباتيني المتر دوتيل. أرجو أن يكون كلّ شيء على ما يُرام.

ليدا أرتينوس تدير المطعم من الصبح حتى الساعة السادسة مساءً ثمّ تسلّم الإدارة إلى كارلو ساباتيني. إذا شبّهنا المطعم بأوركسترا فإنّ كارلو هو المايسترو الذي يقود العازفين ويضبط الإيقاع ليخرج اللحن قويًّا مؤثّرًا. كارلو يتابع الجميع: بدءًا من الطبّاخين الذين يدخل إليهم بين حين وآخر ليتأكّد من نظافة ملابسهم وارتدائهم القفّازات ويتفحّص أداءهم ويعطيهم تعليمات محدّدة ثمّ يتابع تنفيذها بحزم، إلى الجرسونات الذين يراقبهم بحرص ليتأكّد من اتّباعهم أصول الخدمة، وحتّى زبائن المطعم الذين يخدمهم كارلو بحماسةٍ وتبجيل وهو يمنح اهتمامًا خاصًّا للزبائن الجدد. هؤلاء عادةً ما تنتابهم بعض الرهبة من وسامته الساطعة ومظهره السينمائيّ الأخّاذ لكنّه سرعان ما يبدّد رهبتهم بحركاتٍ احترافيّةٍ مدروسة: كأن يرفع الأطباق بيده أو يغيّر منفضة السجائر بنفسه أو ينحني ويشعل سيجارة الزبون بولّاعته وكأنّه يقول له: «نعم.. كما ترى. أنا هنا في خدمتك».

المطعم يغلق أبوابه رسميًّا في منتصف الليل. عندئذٍ يتحوّل وجه كارلو من التعبير البروتوكوليّ المهذّب المستأذن الذي يخدم به الزبائن إلى تعبيرٍ آخر أليفٍ ودّي يصعد به إلى البار الصغير في الطابق العلويّ حيث يستقبل مجموعةً قليلة من الأصدقاء يسمّون جلستهم: الكوكاس (The Caucus).

هذا اللقب أطلقه عليهم من سنوات، من باب الدعابة، صديقهم القنصل الأمريكي في الاسكندريّة الذي شرح لهم أنّ كلمة الكوكاس معناها اجتماع دوريّ لمجموعة من الناس لهم اهتماماتٌ سياسيّة مشتركة. أنهى القنصل الأمريكي خدمته وغادر الاسكندريّة لكنّ أعضاء الكوكاس ظلّوا يحملون اللقب وهم يلتقون آخر الليل ويطلقون العنان لأفكارهم التي تنطلق مع الشراب بلا رقيب ولا حدود. بعضهم يتناول العشاء في المطعم ثمّ يصعد إلى البار العلويّ من السلّم الرئيسيّ وبعضهم يأتي إليه مباشرةً من بابٍ صغيرٍ على شارع الترام يفضي إلى سلّمٍ خلفيّ (لا يعرفه كثيرون). يستمرّ أعضاء الكوكاس في الحديث والشراب إلى أيّ وقت يشاؤون ويخدمهم كارلو بنفسه مقابل بقشيشٍ سخيّ يمنحونه بكرم المحبّين.

تلك الليلة كان أعضاء الكوكاس حاضرين بكامل هيئتهم: في أقصى البار جلس عبّاس القوصي المحامي وقد ارتدى بدلة لونها

رصاصيّ فاتح وقميصًا أبيض وربطة عنقٍ زرقاء منقوشة، وبجواره جلست زوجته نهى الشواربي (ابنة المرحوم إسماعيل باشا الشواربي) وهي سيّدةٌ في الثلاثينيّات سمراء جميلة تعمل مرشدةً سياحيّة. من الناحية الأخرى للبار جلست ليدا أرتينوس صاحبة المطعم وبجوارها، دائمًا، يجلس الفنّان التشكيلي أنس الصيرفي وقد ارتدى بابيون لونه نبيذيّ على قميصٍ أبيض وجاكيت زرقاء من الكتّان. في منتصف البار يجلس توني كازان. رجلٌ أربعينيّ وديعٌ بدين، يرتدي بنطلونًا وقميصًا بخطوطٍ بيضاء وزرقاء عريضة، له حاجبان ثقيلان وشعر صدره الكثيف يصل إلى أسفل رقبته وعلى وجهه نظرة تعبيرٍ بريء وعابث. تعوّد توني كلّ ليلةٍ أن يعرّج على أرتينوس ليتناول بضع كؤوس قبل أن يذهب إلى بيته. مع الرشفات الأولى من الويسكي ينتعش توني ويصفو مزاجه ويتطلّع حوله باحثًا عن أيّ شيءٍ طريف. بين توني كازان ونهى الشواربي جلست مدام شانتال لوميتر (Chantal Le Maitre) صاحبة مكتبة بلزاك الشهيرة في شارع فؤاد، سيّدةٌ فرنسيّة رشيقة في الأربعينيّات من العمر، ملامحها جميلةٌ لكنّها تعكس اضطرابًا ما. ثمّة شيءٌ غريبٌ نافرٌ في مظهرها... طابعٌ ما غير ملائمٍ وخارجٌ عن السياق لدرجةٍ تثير الانزعاج أو العطف. أعضاء الكوكاس جميعًا يتحدّثون بالفرنسيّة في وجود شانتال وهم يحبّونها ويفتقدونها إذا غابت برغم الضجّة (وأحيانًا المشاكل) التي تصنعها خلال السهرة. شانتال شخصيّةٌ معروفة في الاسكندريّة وتتمتّع بشعبيّة كبيرة بين المثقفين الذين يشترون من عندها الكتب والمجلّات الفرنسيّة. بفضل علاقاتها الواسعة أفلتت شانتال من قرار الترحيل الذي طبّقته الحكومة على الفرنسيّين المقيمين في مصر بسبب اشتراك فرنسا في العدوان الثلاثيّ على مصر عام 1956. شانتال تسرف دائمًا في الشراب ويظهر سكرها على مراحل: الكؤوس الأولى تثير فيها نوعًا من الشجن الحالم فتبدو خجولةً ووديعة وإذا حادثها أحدٌ تردّ بلطفٍ وابتسامةٍ عذبة، ومع تقدّمها في الشراب تبدأ المرحلة الثانية فيغلب عليها المرح والصخب وقد تصفّق أو ترقص أو تضحك كثيرًا حتّى تدمع عيناها وأخيرًا، في المرحلة الثالثة، ينتاب شانتال شعورٌ بالمرارة وتتابع ما يحدث حولها وقد بدا على وجهها الحنق والاستنكار كأنّها تعرّضت لظلمٍ بالغٍ تحمّلته طويلًا حتى فاض بها الكيل فقرّرت الآن فقط أن تعلن الحقيقة على الجميع. الليلة

شربت شانتال زجاجةً كاملةً من النبيذ الورديّ وذهبت إلى الحمّام وهي تترنّح قليلًا ثمّ عادت وطلبت كأسًا جديدةً رشفت منها وتطلّعت إلى الجالسين بابتسامةٍ متحفّزة ثمّ صاحت فجأة:

– Attention tout le monde (انتباه للجميع).

تطلّع الحاضرون إليها فاستطردت بمرح:

– هذا تحذيرٌ منّي إلى أعضاء الكوكاس... كلّ رجل عيناه جميلتان يجب أن يخفيهما بنظّارةٍ سوداء وإلّا فإنّ الشرطة العسكريّة ستقبض عليه.

ضحك عبّاس القوصي وقال:

– كارلو هو الوحيد هنا الذي يملك عينين جميلتين أمّا نحن فلا يجب أن نقلق.

قالت شانتال:

– ضابط الشرطة العسكريّة وحده هو من يحدّد جمال عينيك.

ضحك توني وقال:

– عزيزتي شانتال... ها أنتِ تسكرين من جديد وتردّدين الحماقات.

صاحت شانتال:

– توني. أنا لا أردّد حماقات بل أنت الذي لا تعرف ما يحدث في الاسكندريّة.

تدخّل أنس قائلًا بصوته الأجشّ:

– ما تقوله شانتال حدث فعلًا الأسبوع الماضي في شاطئ المعمورة. كانت هناك مسابقةٌ بين الشبّان لاختيار صاحب أجمل عينين في الاسكندريّة، فلمّا قرأ عبد الناصر الخبر في الجرائد أرسل الشرطة العسكريّة وقبض على الشباب المتسابقين جميعًا.

قالت ليدا:

– هذا غريب... لماذا قبضوا على المتسابقين؟

ردّ أنس ساخرًا:

– لأنّه لا يليق بالشابّ أن يتباهى بجمال عينيه، المفروض أن يتباهى بإتقانه لعمله أو تفوّقه في التعليم.. أمّا أن يتباهى بوسامته فهذه خلاعة ورقاعة لا تجوز في مجتمعنا الاشتراكيّ.

سأل كارلو بدهشة:

– وماذا فعلوا بالشباب الذين قبضوا عليهم؟

أجاب أنس وهو يرجّ الكأس بين كفّيه:

– حلقوا لهم رؤوسهم تمامًا وأرسلوهم إلى معسكرات الجيش حتّى يعلّموهم الرجولة..

ساد الصمت لحظةً ثمّ استطرد أنس:

– سيادة الرئيس عبد الناصر حريصٌ على تربية المصريّين وتأديبهم.

ضحكت نهى الشواربي وقالت:

– سيادة الرئيس يحمينا من شرّ أنفسنا..

رشف أنس من كأسه وأشعل سيجارةً وقال:

– إنّ ما يحدث في مصر عبثيّ بامتياز.. عبد الناصر يعقد مؤتمر قمّة فيحضره رؤساء وملوك 13 دولة عربيّة.. الغريب أنّ نصف هؤلاء الحكّام علاقتهم سيّئة بعبد الناصر وهو يهاجمهم بضراوة في خطبه وبرغم ذلك ما إن وجّه لهم الدعوة حتّى هرولوا إليه.

قالت شانتال:

– هؤلاء الحكّام العرب جاؤوا إلى القاهرة مرغمين لأنّ شعبيّة عبد الناصر كاسحةٌ في العالم العربي ولو تخلّفوا عن دعوة عبد الناصر فقد تثور الشعوب ضدّهم.

سكت أنس لحظة ثمّ قال:

– سأفترض أنّ تحليلك صحيح لكنّ الهدف المعلن للمؤتمر مقاومة الاستعمار وأنا لا أفهم.. إن كان عبد الناصر سيضع خطّةً لمقاومة الاستعمار فلماذا لا ينفّذها سرًّا؟ لماذا يعلن الخطّة في مؤتمرٍ عامّ أمام شاشات التلفزيون؟

ضحك عبّاس وقال:

– عبد الناصر يريد أن يثبت أنّه زعيم الأمّة العربيّة كما أنّه، مثل أيّ ديكتاتور، نرجسيّ لا يطيق البعد عن الأضواء والكاميرات لحظةً واحدة.

صاحت شانتال فجأة:

– عبّاس وأنس.. ألا تتعبان من الهجوم على عبد الناصر؟! إنّني فعلًا أشفق عليكما. كلّ هذه ثرثرةٌ بلا جدوى. المصريّون جميعًا يحبّون عبد الناصر.

قالت نهى الشواربي:

– غير صحيح.. هناك مصريّون يكرهون عبد الناصر.

شانتال:

– من يكرهون عبد الناصر قلّةٌ قليلة بلا تأثير.

قال عبّاس:

– المسألة ليست حبًا أو كرهًا لكنّها مبدأ.. أنا أرفض أيّ ديكتاتورٍ مهما تكن شعبيّته أو إنجازاته.

قال أنس:

– أنا أتّفق مع عبّاس.. أرفض الديكتاتوريّة كما أكره الشعارات.. الشعارات تحمل دائمًا شيئًا زائفًا وشرّيرًا وتمهّد لارتكاب الجرائم. هكذا يعلّمنا التاريخ.

ضحكت شانتال باستخفافٍ وقالت:

– اعترضوا كما تشاؤون. هناك حقائق. المصريّون يؤمنون بعبد الناصر، يعبدونه، تمامًا كما فعل أجدادهم الفراعنة الذين عبدوا الحاكم الإله. عبد الناصر يستطيع أن يحرّك ملايين المصريّين بإشارةٍ واحدة من يده بينما أعضاء الكوكاس يأتون كلّ ليلةٍ إلى أرتينوس ليشربوا الويسكي ويطلقوا النظريّات التي لا يستمع إليها أحدٌ سواهم. أليس هذا بؤسًا؟

ردّ عبّاس قائلًا:

– لن أتخلّى عن قناعاتي أبدًا.

قالت شانتال:

– هل تنكر أنّ عبد الناصر أقام مشروعاتٍ مفيدةً للمصريّين؟

– أهمّ فائدةٍ للمصريّين تطبيق الديمقراطيّة.

– عبّاس، كن موضوعيًّا من فضلك... ما رأيك في مجّانيّة التعليم والمصانع الجديدة.. بل ما رأيك في السدّ العالي.. إنّه قطعًا إنجازٌ تاريخيّ.

– كلّ إنجازات الديكتاتور تشبه القصور التي يبنيها الأطفال على الرمال. موجةٌ واحدةٌ تأتي من البحر تكفي لهدمها.

التفت أنس إلى توني كازان وابتسم. قال:

– لماذا لا تشترك في المناقشة؟

– أنا غير مهتمّ بالسياسة.

– عزيزي توني، سامحني.. أنا مضطرٌّ إلى إعلان السرّ الذي تخفيه.

– أيّ سرّ؟ ما هذا الهراء؟

– توني كازان، أنت من أكبر مؤيّدي عبد الناصر. لقد رأيت بعينيّ عمّال مصنعك يحملون لافتةً كبيرةً مكتوبًا عليها «نبايع الزعيم عبد الناصر بطل القوميّة العربيّة».

قال توني باستياء:

– لا أريد أن أتكلّم في هذا الموضوع.

ضحك أنس وربّت كتف توني وقال:

– إنّ حبّك لعبد الناصر لا يعيبك أبدًا. من المعروف أنّك مناضلٌ تقاوم الإمبرياليّة أينما وُجدت.

ضحك الجالسون لكنّ توني ردّ بجدّية:

– أوّلًا دعابتك سخيفة، وثانيًا أنا لست مع عبد الناصر ولست ضدّه. لا يعنيني من يحكم مصر ولو كنت في أيّ بلد آخر لما اهتممت بمن يحكمه. أنا أريد فقط أن أعمل وأنجح بدون مضايقات.

قالت ليدا بحماسة:

– أنا أتّفق مع توني. أظنّ أنّ معظم المصريّين يفكّرون بطريقتنا. أهمّ شيءٍ أن نعمل ونكسب ونعيش.

رشفت شانتال آخر ما في الكأس وأشارت لكارلو ليصبّ لها كأسًا أخرى ثمّ قالت بحدّة:

– مع احترامي لأنس وعبّاس. أنتما تعيشان في فقّاعة من الأفكار والنظريّات. أنتما منفصلان تمامًا عن الواقع ولا تفهمان الشعب. المصريّون لم يعرفوا في تاريخهم إلّا الاستبداد ولذلك فهم مذعنون بطبيعتهم وهم يحسّون بالأمان في ظلّ الديكتاتور.

قال عبّاس:

– هذا الكلام خطأ.

– إذعان المصريّين حقيقة تاريخيّة.

هكذا قالت شانتال بثقة فابتسم أنس وقال بهدوء:

– عزيزتي شانتال، سأحضر لك بعض الكتب عن كفاح المصريّين من أجل الحرّية. عندئذ ستكتشفين خطأ تفكيرك وستكونين مدينةً لنا باعتذارٍ علنيّ.

قالت شانتال:

– لقد قلت إنّك تكره الشعارات وها أنت تستعملها. أنا أحبّ المصريّين جدًّا لكنّني أراهم كما هم فعلًا لا كما أحبّ أن يكونوا. المصريّون متحضّرون. أذكياء وطيّبون وظرفاء لكنّهم مذعنون

للحاكم. هكذا طبيعتهم وأنا أتقبّلهم كما هم. اقرأ مذكّرات أنطوان كلوت بك، الطبيب الفرنسيّ الذي عاش في مصر أيّام محمّد علي وأنشأ أوّل مدرسةٍ للطبّ في مصر. لقد كتب كلوت بك أنّ الفلّاحين المصريّين غير قابلين للثورة وأنّهم قد يهيجون أحيانًا ويعترضون على الظلم لكنّهم سرعان ما يفكّرون في عواقب التمرّد فيخافون ويذعنون للسلطة من جديد.

قال أنس:

– فليكتب كلوت بك ما يشاء لكنّ التاريخ يؤكّد أنّ المصريّين صنعوا ثوراتٍ عظيمة.

ارتفعت أصوات الحاضرين وتداخلت حتّى اضطرّ كارلو إلى أن يطرق بملعقةٍ على كأسٍ فارغة ثمّ قال:

– هدوء من فضلكم حتى يسمع بعضنا بعضًا.

صاحت ليدا بانفعال:

– بصراحة أنا لا تعجبني هذه المناقشة. لماذا تعتبرون المصريّين إمّا أبطالًا أو مذعنين؟ لماذا نحاسب المصري وفقًا لتوقّعاتنا نحن؟! لماذا لا نفهم منطقه الخاصّ؟! الإنسان المصري لديه أولويّات في حياته يجب أن نحترمها. إنّه يقاتل كلّ يومٍ بضراوةٍ حتّى يطعم أولاده ويكفل لهم أفضل تعليم. أليس هذا كفاحًا عظيمًا؟

قال أنس:

– شانتال تعتقد أنّ المصريّين لا يحتاجون إلى الحرّية مثل الشعوب الغربيّة. هذه وجهة نظر عنصريّة.

صاحت شانتال بغضب:

– أنا لست عنصريّة.. لا أسمح لك.

– ممكن أقول رأيي؟

هكذا قالت نهى الشواربي ثمّ رشفت من كوب البيرة واستطردت:

– أرجو ألّا تغضبوا منّي لكنّي أعتقد أنّ شانتال على حق. المصريّون فعلًا مذعنون بطبيعتهم وهم يطيعون أيّ حاكمٍ ما دام في السلطة. إنّ عملي مرشدةً سياحيّة جعلني أقرأ التاريخ. المصريّون كانوا دائمًا يراقبون الصراع على السلطة من بعيد ثمّ يقدّمون فروض الطاعة للمنتصر.

– هذا كلامٌ مرسَلٌ بلا دليل.

هكذا قال أنس بهدوء فردّت نهى بانفعال:

– تريدني أن أقدّم الدليل؟ حسنًا... الدليل ما حدث في أسرتي. لقد كان أبي، إسماعيل الشواربي، وطنيًّا مخلصًا، وبعد أن حصل على الدكتوراه في القانون من السوربون رفض كلّ العروض التي تلقّاها في فرنسا وقرّر العودة إلى مصر لينقل علمه إلى الطلّاب المصريّين. وعندما صار وزيرًا للعدل، بناءً على طلبٍ رسميّ منه، كان مرتّبه يتمّ توزيعه على السعاة في الوزارة. لقد وهب أبي حياته لخدمة بلده بمعنى الكلمة. ثمّ قام العسكريّون بالانقلاب فاعتقلوه وصادروا أرضه التي ورثها عن أجداده. صادروا خمسة آلاف فدّانٍ في يومٍ واحد. عندما أسترجع الآن ما حدث لا أعرف كيف استطاع أبي أن يحتفظ بصلابته للنهاية. لقد أحالوا أبي إلى المحكمة العسكريّة وعندما قال له القاضي: «أنت متّهم بالفساد»، ابتسم أبي وقال: «كنت أعمل متطوّعًا ولم أتقاضَ جنيهًا واحدًا من الحكومة المصريّة فأين هو الفساد؟» عندئذ قال له القاضي: «أنت متهم بالفساد السياسيّ» ردّ أبي بصوتٍ عالٍ في وسط المحكمة: «كنت وزيرًا في حكومة الوفد. جئنا إلى مناصبنا بانتخاباتٍ حرّةٍ وجئتم أنتم على ظهور الدبّابات فمن فينا الفاسد؟».

قال أنس:

– منتهى الشجاعة.

قال عبّاس:

– كان رجلًا عظيمًا الله يرحمه.

– وماذا فعلوا معه؟

هكذا سأل توني فابتسمت نهى بحزن وقالت:

– طبعًا حدثت ضجّة في المحكمة وطلب القاضي من سكرتير الجلسة حذف أقوال أبي من المضبطة ثمّ حكموا عليه بالسجن أربع سنوات خرج بعدها مريضًا ومات.

– شيءٌ محزن.

هكذا دمدم كارلو وهو يصبّ البيرة ببطء حتى فارت الرغوة البيضاء فوضع الكأس أمام نهى التي رشفت منها وقالت:

– السؤال هنا يا أصدقائي: ماذا فعل الشعب المصري العظيم لأبي الذي ناضل من أجله طوال حياته؟! هل تضامن مع أبي زملاؤه وتلاميذه في كليّة الحقوق؟ هل سانده أحدٌ وهو محبوسٌ ظلمًا؟ هل

ساعدنا أحدٌ أنا وأخي مصطفى وقد عشنا في بؤسٍ بعد سجن أبي ومصادرة أملاكه؟ إطلاقًا. باستثناء صديقٍ أو اثنين فقد تنكّر لنا الجميع، لم يساندنا أحد، الناس الذين قضى أبي حياته في الدفاع عن حقوقهم لم يكتفوا بالتخلّي عنه في محنته بل إنّ كثيرين منهم فرحوا عندما صودرت أرضه واعتبروه من رموز العهد البائد وصاروا يتحاشون التعامل معه.. كان جحود الناس أكثر ما يؤلم أبي. قبل أن يموت بأيّامٍ سألته: «لو عادت بك الأيّام فهل كنت ستعود إلى مصر وتترك فرنسا؟» فأجابني: «لو عادت بي الأيام لفعلتُ نفس ما فعلته لأنّ هذا واجبي نحو بلادي. الفرق أنّني لن أتوقّع أيّ امتنانٍ أو مساندةٍ من المصريّين لأنّني أصبحت الآن أعرفهم».

سكتت نهى لحظةً ثمّ استطردت بحزن:

– المصريّون ظلموا أبي أكثر من عبد الناصر.

قالت شانتال:

– هذه قصّةٌ حزينة لكنّها تؤكّد رأيي في المصريّين. أعتقد أنّ تديّن المصريّين هو السبب في إذعانهم. عندما يتحرّر المصريّون من سلطة الدين سيحصلون على العدل والحرّية.

قالت ليدا:

– عفوًا.. ما علاقة الدين بالموضوع؟

– الدين يجعلك تتقبّلين الظلم وتنتظرين العدل في الحياة الأخرى. الدين يدرّبكِ على الطاعة. أنتِ تطيعين الربّ ثمّ تطيعين رجل الدين ثمّ تطيعين زوجك وبالتالي من الطبيعيّ بعد ذلك أن تطيعي الديكتاتور. الزواج مثل الدين يؤدّي إلى الإذعان.

– شانتال. أعتقد أنّك تخلطين الأشياء بعضها ببعض؟

– لو فكّرت قليلًا ستكتشفين أنّني على حقّ. الزواج في جوهره عقد ملكيّة الرجل للمرأة.

التفتت نهى إلى عبّاس وابتسمت وقالت:

– يا عبّاس من فضلك أعطِني عقد الملكيّة الذي اشتريتني به.

ضحك الجميع ثمّ قال توني ليغيّر الموضوع:

– نهى، أنتِ مسؤولة السينما في الكوكاس. ما هو آخر فيلم أعجبك؟

ردّت نهى:

– للأسف.. الأفلام العالميّة أصبحت تُعرض في مصر بعد فترةٍ طويلةٍ من عرضها في الخارج.

قال أنس ساخرًا:

– طبعًا لا بدّ أن يتأكّد الرقيب أنّ مضمون الفيلم لا يهدّد الدولة ولن يمزّق الجبهة الداخليّة.

استطردت نهى بمرح:

– الأسبوع الماضي شاهدت مع عبّاس فيلم «الليلة» من إخراج أنطونيوني. معروض في سينما أمير.

صاح عبّاس:

– أصدقائي أحذّركم من هذا الفيلم. ساعتان من التعذيب.

نظرت شانتال إليه باستنكار وقالت:

– ألا يعجبك فيلم أنطونيوني؟

– فيلم مملّ جدًّا.

– أنطونيوني يصف شخصيّاتٍ تعاني من الملل.

– إذا كانت الشخصيّات تعاني من الملل فلا يجب أن ينتقل الملل إلى المشاهد.

صاح أنس:

– صح. في الفنّ هناك فرقٌ بين المحتوى والأسلوب. عندما يصف الفنّان شخصيّةً بذيئةً لا يجب أن يكون الأسلوب بذيئًا. القدرة الفنّية تجعلك قادرًا على التعبير الجميل عن أقبح الأشياء.

قالت شانتال بلهجةٍ متحدّية:

– أنطونيوني من أهمّ المخرجين في العالم.

قال توني باستياء:

– شانتال لماذا تصرّين على استفزازنا؟ حتى لو كان أنطونيوني أعظم مخرجٍ في التاريخ من حق أيّ إنسانٍ أن يرفض أفلامه.

ابتسمت نهى وقالت:

– أنا وعبّاس اختلفنا حول فيلم أنطونيوني لكنّنا اتّفقنا على الإعجاب بفيلمٍ آخر اسمه The Roman Spring Of Mrs. Stone.

– الفيلم معروضٌ في سينما مترو. فيفيان لي تؤدّي دور ممثّلة تتقدّم في السنّ فتعتزل وتذهب لتعيش في روما وتقع في حبّ جيجولو إيطالي فيبتزّها ويسبّب لها معاناة.

اندفعت شانتال تقول:

– لقد شاهدت هذا الفيلم في باريس وأحببته لكن لا أعتقد أنكم مؤهّلون لفهم مشاعر البطلة.

صاح أنس:

– عزيزتي شانتال.. كم أنتِ مهذّبةٌ الليلة!

ضحكوا عاليًا.

شربت شانتال ما بقي من كأسها مرّةً واحدة وأشارت لكارلو ليحضر كأسًا جديدة ثمّ صاحت:

– اضحكوا كما تريدون. لكنّي أقول الحقيقة. أنتم فهمتم الفيلم باعتبار أنّ البطلة قد خدعها الجيجولو الإيطاليّ. هذا ليس صحيحًا. لقد كانت تعرف أنّه مجرّد جيجولو رخيص ولم تصدّقه لكنّ هذا الشابّ التافه استطاع أن يثير شهوتها. إنّ الشهوة الجنسيّة موضوعٌ غامضٌ ولا يستطيع أحدٌ أن يفهمها تمامًا..

قال أنس وكأنّه يستفزّها:

– الفيلم بسيطٌ وواضح: جيجولو خدع امرأةً مسنّة. لماذا الحذلقة إذن؟

هنا صاحت شانتال بغضب:

– لست متحذلقةً يا أنس. أنت لا تريد أن تفهم. لقد قلت إنّ الشهوة عناصرها معقّدة وأستطيع أن أعطيك أمثلةً كثيرة من حياتي. لقد عشت مع رجلٍ سنوات وكانت علاقتنا الجنسيّة ممتازة ثمّ اكتشفت بعد ذلك أنّه يحبّ ممارسة الجنس مع الصبيان أيضًا. لم أستسلم. كنت أريد أن أحتفظ به فقصصت شعري لأبدو كالولد وطلبت منه أن يفعل معي في الفراش نفس ما يفعله مع الصبيان..

قاطعها كارلو فجأة:

– مدام شانتال هل أطلب لك تاكسي؟

– سأقود سيّارتي بنفسي.. أعطني كأسًا أخرى.

تطلّع إليها كارلو وابتسم وقال:

– مدام شانتال. من فضلك.. سأطلب لك تاكسي.

خبطت شانتال بيدها على البار وصاحت في وجه كارلو:

– أنا الوحيدة التي أقرّر متى وكيف أنصرف. فاهم؟

أطرق كارلو وقال بهدوء:

– آسف.

بينما قال عبّاس:

– كارلو يريد أن يطمئنّ عليكِ.

صاحت شانتال:

– أوه. اللعنة عليكم جميعًا. كفّوا عن ممارسة هذه الوصاية الذكوريّة اللعينة.. لو كنت أحتاج إلى مساعدتكم كنت طلبتها.. أعطني كأسًا أخرى مع الشيك.

هكذا قالت لكارلو الذي صبّ لها كأسًا جديدةً شربتها دفعة واحدة ثمّ راحت تقرأ الشيك وأخرجت عدّة أوراق ماليّة ألقتها على البار. بذلت مجهودًا واضحًا حتّى أخرجت مفاتيح سيّارتها وقالت بصوتٍ مسموع:

– أعتذر لكم إن كنت سخيفةً الليلة.

ارتفعت ضحكات ثمّ توالت تعليقات الحاضرين:

– أنت سخيفةٌ دائمًا.

– سنسامحك على سخافتك.

– ليلة سعيدة. يجب أن تنامي فورًا.

ابتسمت شانتال ولوّحت بيدها ثمّ مشت وهي تترنّح حتى خرجت وارتجّت خلفها ضلفتا الباب. عندئذٍ سأل توني:

– لماذا اعتذرت شانتال لنا ولم تعتذر لكارلو؟

ابتسم كارلو وقال:

– أظنّها غاضبةً منّي. كنت أؤدّي عملي. إذا أسرف الزبون في الشراب وبدأ يفشي أسرارًا قد تسيء إليه يجب على البارمان أن يتدخّل.

بدا على أنس التفكير وقال:

– أعتقد أنّ هناك مشكلةً في حياتها تدفعها إلى الشراب بهذا الشكل.

ردّ كارلو قائلًا:

– إنّها تتحمّل ضغوطًا كبيرة. لقد فقدت مكتبة بلزاك كثيرًا من زبائنها ولم تعد شانتال تكسب مثل زمان.

قال توني:

– يجب أن نتّصل بها بعد قليل لنطمئنّ على وصولها إلى البيت؟

فكّر كارلو قليلًا وقال:

– مرّة كانت سكرانة واتّصلت لأطمئنّ عليها فطلبت منّي ألّا أفعل ذلك مرّةً أخرى.

صاح عبّاس:

– كارلو، من فضلك دورة جديدة من المشروبات حتى ننسى ما حدث مع شانتال.

2

انصرف أعضاء الكوكاس حوالي الثالثة صباحًا وشرع كارلو في إجراءات الإغلاق: تخلّص من الزجاجات الفارغة ووضع الكؤوس المستعملة في الحوض ليغسلها عامل النظافة في الصباح ثمّ سجّل المشروبات المستهلكة في كرّاسة البار وعدّ الإيراد ووضعه في الدرج وأغلقه بالمفتاح. بعد ذلك أطفأ الأنوار ونزل على درجات السلّم إلى الشارع. هرع عمّ عربي المنادي ليفتح له باب السيّارة فحيّاه كارلو ودسّ في يده ورقةً ماليّةً تقبّلها شاكرًا.

قاد كارلو سيّارته بسرعةٍ فائقة على الكورنيش حتّى وصل إلى المنتزه ثمّ عاد مرّةً أخرى في اتّجاه محطّة الرمل. كان الجوّ خريفيًا رائعًا وثمّة هواءٌ بارد منعش يلفح وجهه فأحسّ كارلو بانسجام وفكّر أنّ سيّارته السبور برغم طرازها القديم ما زالت قادرةً على الانطلاق بسرعةٍ فائقة ثمّ خطر له فجأةً أنّه يستحيل أن يعيش خارج الاسكندريّة. هنا وُلد وهنا عاش. كلّ شارعٍ وكلّ ركنٍ في هذه المدينة شهد جزءًا من حياته وهو قطعًا محظوظ بعمله في أرتينوس. لا يتخيّل نفسه في مكانٍ آخر. إنّه يستمتع بخدمة الزبائن، أمّا عندما يخدم أعضاء الكوكاس فهو لا يشعر بأنّه بارمان. إنّهم أصدقاؤه المقرّبون وهم يعتبرونه واحدًا منهم. تذكّر لقاءه الأوّل مع جورج أرتينوس. كان كارلو حينئذٍ صبيًّا لا يتجاوز الثامنة عشرة من العمر وقد تخرّج لتوّه في مدرسة دون بوسكو وجاء يطلب عملًا. تطلّع إليه جورج بمزيجٍ من الفضول والحنان وسأله:

– أنت خرّيج دون بوسكو. تستطيع أن تجد عملًا في أيّ ورشةٍ وتكسب كثيرًا.. لماذا تريد أن تعمل معنا؟

أجاب كارلو بسرعة:

– أحبّ العمل في المطاعم والبارات.

– لماذا؟

– حتّى أخدم الناس وأجعلهم سعداء.

– أيّهما تفضّل... خدمة الناس أم كسب المال؟

– بصراحة أحبّ الاثنين.

ضحك جورج أرتينوس وسأله:

– هل عملت في مطعمٍ من قبل؟

– عملت في بار يملكه أبي في كامب شيزار.

– ولماذا تركت بار أبيك؟

– أبي تُوفّي وأمّي باعت البار..

هزّ جورج رأسه وبدا على وجهه العجوز تعبيرٌ متفهّم والحق أنّه ارتاح لكارلو من البداية وتحمّس لتعليمه. ألحقه بالعمل في المطبخ وقال له:

– لازم تبدأ السلّم من تحت لأجل تفهم الصنعة على أصولها.

تحمّل كارلو عن طيب خاطر صعوبة الشغل في المطبخ، كان يقضي ساعات في تقشير البطاطس وتقطيع الخضروات وتنهمر دموعه أثناء تخريط البصل ثمّ يظلّ يغسل الصحون حتّى تنتفخ أصابعه من أثر الماء الساخن. بعد شهورٍ من العناء ترقّى كارلو من مرمطون إلى مساعد طبّاخ وبعد عامٍ آخر أصبح طبّاخًا. كان يترقّى بسرعةٍ بفضل كفاءته واجتهاده. بعد ذلك نقله جورج إلى البار فعمل مساعدًا لبارمان عظيم هو فابيو الإيطاليّ الذي علّمه الصنعة ثمّ تُوفّي وحلّ كارلو محلّه. لا ينسى كارلو فضل جورج أرتينوس الذي أحبّه كأنّه ابنه وكثيرًا ما كان يدعوه إلى بيته وقال له مرّةً وهما يشربان معًا.

– سأموت وأنا مطمئنّ على المطعم. أنت وليدا تعرفان كلّ شيء..

عندما علم جورج أنّ كارلو يبحث عن شقّةٍ لنفسه سأله عن السبب فأجاب كارلو:

– أريد أن أكون قريبًا من المطعم.

تطلّع إليه جورج متشكّكًا وقال:

– أنت ساكن مع أمّك في كامب شيزار. المسافة قريبة.

– بصراحة، أريد أن أسكن وحدي.

لو كان جورج سأله لحكى له كارلو مشكلته مع أمّه لكنّ جورج فكّر لحظة ثمّ أنهى الحوار قائلًا:

– افعل ما تشاء لكن حافظ على علاقتك الطيّبة بأمّك.

كان ذلك درسًا آخر من جورج أرتينوس تعلّم منه كارلو كيف يحافظ على خصوصيّة الآخرين ولا يتطفّل على حياتهم مهما كان يحبّهم.

لا يكاد يمرّ يومٌ بدون أن يتذكّر كارلو جورج أرتينوس معلّمه وصاحب الفضل عليه.

وصل بالسيّارة إلى قلعة قايتباي ثمّ استدار وعاد مرّةً أخرى في الاتّجاه المقابل على الكورنيش. كان يحسّ بالجوع ولم تكن به رغبةٌ للنوم. لا ينام عادةً قبل الصبح. عادةٌ اكتسبها من عمله الليليّ. ذهب إلى فندق سان جيوفاني حيث وجد بعض الأصدقاء فتناول الطعام معهم ثمّ راحوا يشربون ويتحدّثون حتّى طلع النهار. عندما قاد سيّارته إلى البيت كانت الشوارع قد بدأت تزدحم بالمارّة.. فكّر أنّه سيأخذ حمّامًا ساخنًا ثمّ ينام. ركن السيّارة في الجراج ومشى حتّى مدخل العمارة واستقلّ المصعد إلى الدور الرابع. وهناك، على المقعد المواجه لشقّته، وجد سميحة جالسة تنتظره...

3

كانت شانتال سكرانة تمامًا.

قادت سيّارتها بصعوبةٍ وركنتها أمام المكتبة ثمّ صعدت الدرج وهي تترنّح حتّى وصلت إلى شقّتها في الدور الأول. استغرقت بعض الوقت حتّى فتحت الباب بالمفتاح ثمّ دخلت وألقت بنفسها على الأريكة. سيكون عليها الآن أن تستجمع تركيزها لتقوم بالإجراءات المعتادة:

ستسخّن الشوربة وتشربها على مهل حتّى تدفئ معدتها ثمّ تأكل زبادي سادة (بدون سكّر أو عسل) وأخيرًا تشرب عدّة أكوابٍ من المياه قبل النوم. في الصباح ستتناول على الريق ملعقتين من دواء المعدة الذي يقوم ألبير الصيدليّ بتركيبه لها خصّيصًا، بعد ذلك ستأكل إفطارًا ساخنًا (ثلاث بيضات أومليت) وأثناء حمّامها الصباحيّ ستضع رأسها تحت الدش الساخن لعدّة دقائق وبعد ذلك ستحتسي ثلاثة أكواب من القهوة الإسبرسو القويّة. كانت هذه طريقتها الفعّالة في الوقاية من الصداع القاتل الذي يفتك برأسها صبيحة السكر... برغم ذلك ستظلّ بعض آثار السكر تلازمها حتّى المساء: اربداد وجهها وإحساسها بالإرهاق وارتعاشٌ خفيف في يديها.. هل تستحقّ متعة الشراب كلّ هذه المعاناة؟ لماذا تسكر شانتال إلى هذه الدرجة المؤذية؟ لماذا لا تكتفي بكأسين أو ثلاث تصل بها إلى النشوة ثمّ تتوقّف؟ إذا وجّهت لشانتال هذا السؤال فسوف ترمقك بنظرةٍ غاضبة ثمّ تقول ببطءٍ وهي تضغط على مخارج الحروف كأنّما تطعنك بالكلمات:

«عذرًا يا عزيزي... أنا أعرف كم تستمتع بدور الواعظ الحريص على الفضيلة لكنّي سأحرمك من هذه المتعة. وفّر نصائحك السخيفة لنفسك. أنا وحدي سأحدّد كيف أشرب ومتى أتوقّف».

هذا الردّ العنيف تستعمله شانتال كسلاح ردع لكنّها برغم ذلك، في أعماقها، تدرك الحقيقة: هناك دائمًا كأس واحدة تفصل بين الشرب اللطيف المبهج والسكر الصاخب المحفوف بالمخاطر. تعرف شانتال حدود هذه الكأس لكنّها تتجاوزها دائمًا لأنّ النشوة العاديّة لم تعد تكفيها. إنّها تشرب الآن سعيًا إلى إغلاقٍ كامل، إلى حالةٍ ذهنيّةٍ معتمةٍ يتوقّف فيها التفكير وتظلم الذاكرة ويستوي كلّ شيء.. هذه الحالة المعتمة كانت في البداية سهلة المنال ثمّ صارت تبتعد شيئًا فشيئًا فتستمرّ شانتال في الشراب حتّى تدركها أخيرًا وقد سكرت تمامًا.

على أنّ شانتال ليست مجرّد امرأةٍ سكّيرة. مهما فعلت في سهرة الكوكاس فإنّها، ظهرَ اليوم التالي، ستتحوّل إلى سيّدةٍ وقورةٍ فاضلة، ترتدي ثوبًا بسيطًا أنيقًا وتضع ماكياجًا صباحيًّا لا يكاد يُلحظ وتلمّ شعرها الكستنائيّ المصبوغ على هيئة «ذيل حصان» وتضع نظّارتها المستديرة ذات الإطار الأسود فتبدو كأمٍّ حنونٍ أو مديرةٍ مسؤولة. ستقف شانتال في مكتبتها في شارع فؤاد لتشرف على بيع الكتب والأدوات المدرسيّة وتتابع ورشة الرسم التي تنظّمها للأطفال. في يومي الثلاثاء والخميس، ستقف شانتال أمام تلاميذ مدرسة سان مارك لتدرّس اللغة الفرنسيّة. سيرتفع صوتها المحشرج قليلًا من أثر التدخين في أنحاء الفصل وهي تشرح القواعد أو تصريف الأفعال أو تقرأ قصيدة لافونتين «الغراب والثعلب».

لماذا تركت شانتال باريس واستقرّت في الاسكندريّة؟

مهما شرحنا فستكون الأسباب ناقصة لأنّ عشق الاسكندريّة، مثل أيّ عشق، لا يمكن تفسيره تمامًا.. البحر والشمس وضوء النهار الساطع والجوّ المعتدل.. كلّ هذه مزايا عظيمة لكنّ مدنًا عديدة تتمتّع بها.. الاسكندريّة تنفرد بغوايةٍ ما. غير قابلة للتعريف.. أقرب معانيها الائتناس (عكس الوحشة). في الاسكندريّة لن تكون وحيدًا أبدًا. يستحيل أن تشعر بأنّك مهمّش أو منبوذ. يمكنك أن تتبادل الحديث مع أيّ شخصٍ في أيّ وقت. الجرسون في المطعم أو سائس الجراج أو بائع الصحف. كلّ هؤلاء يتعاملون مع شانتال كصديقةٍ قديمةٍ ويعبّرون لها عن آرائهم في الحياة ويحكون لها عن أسرهم وعيالهم. تلقّت شانتال دروسًا في اللغة العربيّة جعلتها تقرأ بصعوبةٍ وتفهم ما تسمعه لكنّها تردّ بكلماتٍ عربيّةٍ متعثّرة تثير في مستمعيها

إحساسًا مختلطًا بين الفكاهة والحنان (وكأنّهم يشاهدون طفلًا ينطق كلماته الأولى). كم تحبّ هؤلاء البسطاء الفقراء المبتسمين الذين يقابلونها بترحاب:

– أهلًا يا ست «شِنتال».. منوّرة اسكندريّة.

ينطقون اسمها مضغومًا مع كسر الشين وهي تردّ عليهم بلغتها العربيّة المهشّمة:

– صباح الفلّ يا جدع.

قبل عشرين عامًا جاءت شانتال إلى الاسكندريّة مع حبيبها أوليفييه. دفعت كلّ مدّخراتها ومنحها أوليفييه بعض المال وافتتحا مكتبة بلزاك التي حقّقت دخلًا معقولًا واستطاعت شانتال بسرعة أن تكوّن دائرةً واسعةً من المعارف السكندريّين. كانت علاقتها بأوليفييه رائعة ثمّ شيئًا فشيئًا تغيّر كلّ شيء. اكتشفت أنّ حبيبها عنده ميولٌ مثليّة. ضبطته مرّتين مع عشّاقٍ شباب. بعد زوبعةٍ من المشاجرات وتبادل الاتّهامات قال أوليفييه بلهجة تحدٍّ:

– شانتال، ها أنا أقول لك بوضوح. أنا أحبّ الرجال أيضًا. هكذا طبيعتي. بإمكانك أن تقبليها أو ترفضيها لكنّي لن أتغيّر..

بعد ذلك ببضعة شهورٍ قرّر أوليفييه أن يعود إلى فرنسا. افترقا بهدوءٍ واتّفقت معه على أن تدفع له نصيبه في المكتبة بالتقسيط. استمرّت الحياة كما كانت بلا منغّصات ولكنّها افتقدت أوليفييه. كان عاشقًا خرافيًا في الفراش، يتعامل مع جسدها بخبرةٍ وحنانٍ وثقةٍ ويحلّق بها في سماوات النشوة. قرأت بعد ذلك أنّ مزدوجي الهويّة الجنسيّة يتميّزون بأداءٍ جنسيّ بارع لأنّهم اطّلعوا على أسرار الجنسين.

بالإضافة إلى عملها في المكتبة قامت شانتال بالتدريس في عدّة مدارس حتّى استقرّت في سان مارك. كانت مكتبة بلزاك تنظّم حفلات توقيعٍ للكتّاب الذين يكتبون بالفرنسيّة. تستضيفهم شانتال وتحجز لهم في فندق الكونتيننتال بالمنشيّة ثمّ تنظّم لهم حفلات توقيعٍ عادةً ما تزدحم بالجمهور. بعد انقلاب 1952 لم يعد هذا النشاط ممكنًا لأنّ دعوة أيّ كاتبٍ من الخارج تحوّلت إلى عمليّةٍ معقّدةٍ تستدعي تحرّياتٍ وموافقات من جهاتٍ أمنيّة عديدة.

أصعب فترةٍ عاشتها شانتال عام 1956 عندما تعرّضت مصر لعدوانٍ عسكريّ اشتركت فيه فرنسا ممّا أدّى إلى قطع العلاقات

الدبلوماسيّة بين مصر وفرنسا وترحيل الفرنسيّين المقيمين في مصر. لكنّ شانتال حصلت على استثناءٍ بفضل علاقاتها مع ذوي النفوذ.

– مدام شانتال، نحن نعرف أنّك صديقةٌ لمصر. لا تقلقي وإذا تعرّضت لأيّ مشكلة اتّصلي بي فورًا.

هكذا قال لها مدير أمن الاسكندريّة الذي كانت تدرّس ابنه في سان مارك.

تلك الأيّام أغلقت شانتال المكتبة واعتكفت في بيتها ولم تعد تخرج إلّا للضرورة.

بعض الناس كانوا يعاملونها بتحفّظٍ وأحياناً بعدوانيّةٍ أو باسترابةٍ وتوجّس. وعلى الجانب الآخر كان هناك سكندريّون كثيرون من البسطاء يحسنون التعامل معها برغم العدوان لأنّهم يعرفونها من زمان كما أنّهم أدركوا بفطرتهم أنّها غير مسؤولةٍ عن حكومتها وبالتالي لا ذنب لها في العدوان . كان هذا دليلًا لا تنساه على تحضّر المصريّين. المسؤوليّة الفرديّة مبدأ أساسيّ في الحضارة. لا توجد حضارةٌ بلا قانون والمبدأ الأول في أيّ قانونٍ أنّ المسؤوليّة فرديّة. كلّ إنسانٍ مسؤولٌ فقط عن أفعاله. المصريّون فقراء ومعظمهم قليلو التعليم لكنّهم أذكياء ومن ألطف شعوب الدنيا كما أنّهم يتمتّعون بروحٍ إنسانيّةٍ وفهمٍ متحضّر للحياة يتجلّى خلال الأزمات. هذا ما تحاول شانتال أن تشرحه لأنس وعبّاس في سهرات الكوكاس لكنّهما ببساطة لا يفهمان الشعب المصري. إنّهما مثقّفان رومانسيّان يتعاملان مع الأفكار النظريّة بعيدًا عن الواقع.. أيّ محاولة لتطبيق الديمقراطيّة في مصر محكومٌ عليها بالفشل لأنّ المصريّين تعوّدوا الخضوع لمستبدٍّ قويّ، يقمعهم ويحميهم. المصريّون لم يعرفوا طوال تاريخهم سوى الاستبداد وهم يفضّلون الظلم الذي يحقّق الاستقرار على العدل الذي يستلزم نضالًا يؤدّي إلى قلاقل واضطرابات.

ما الذي يحزن شانتال ويجعلها تدفن همومها في الشراب؟

قال لها أنس مرّة:

– هل تعرفين أنّ جمالك دراميّ؟

تطلّعت إليه بدهشةٍ وقالت:

– ماذا تقصد؟

– الحزن يختلط بالجمال فيك.

– كيف عرفت؟

– أنا فنّان. عملي أن أقرأ الوجوه.

لقد قال أنس الحقيقة. إنّها تعيش أزمةً مزمنةً وغامضة. تحاول أن تستبعد الأسباب المحتملة لتصل إلى جوهر الأزمة. هل كانت في أعماقها تتوق إلى الأسرة؟ هل كانت تحتاج إلى زوجٍ وأطفال؟ الإجابة نفيٌ قاطع. إنّها ترفض نظام الأسرة وتعتبره سخيفًا ومتخلّفًا، أمّا الأطفال فقد يمنحونها السعادة في البداية حتّى يكبروا فيتعاملوا معها غالبًا ببرودٍ وجحود. ما الذي يحزن شانتال إذن؟ لقد تراجع إيراد مكتبتها كثيرًا فهل قلّة النقود هي المشكلة؟ لقد تدرّبت على تقليل النفقات. باستثناء ما تدفعه في سهرات الكوكاس فإنّها تكاد لا تنفق. تعوّدت قلّة الأكل وهي لم تشترِ ثيابًا جديدةً من سنوات. هل تعاني من حرمانٍ جنسيّ؟ لو أرادت لحصلت على عشيقٍ بسهولة وقد مرّت فعلًا بتجارب سريعةٍ عابرة وبعد انقضاء اللذّة انتابها إحساسٌ ثقيلٌ بالكآبة. هل تريد العودة إلى باريس؟ ماذا ستفعل هناك؟ تنتظر الشيخوخة؟ ستكون عجوزًا باريسيّة أخرى، تعيش وحيدةً في ستوديو ضيّق وتربّي بضع قططٍ لتؤنسها. لن تجد في باريس أصدقاء رائعين مثل أعضاء الكوكاس. ستشرب كلّ ليلةٍ وتقرأ وتشاهد التلفزيون حتى تنام، دائمًا وحدها، وربّما تموت ولا يعرف الجيران إلّا بعد أيّام من رائحة تعفّنها. في يوم 26 مايو ستبلغ شانتال ستة وأربعين عامًا. إنّها تتقدّم في السنّ، جسدها يتغيّر كلّ يومٍ وكأنّه ينهي مرحلةً ليبدأ مرحلة أخرى، أحيانًا تحسّ بأنّ روحها تشيخ، بأنّها صارت تنتمي إلى عصرٍ يأفل، بأنّ رحلتها قاربت النهاية. إنّها ملحدةٌ لا تؤمن بوجود حياةٍ أخرى. سيكون الموت إذن انطفاءً وتلاشيًا ثمّ تأخذ طاقة جسدها أشكالًا أخرى في الطبيعة. إنّها لا تخاف من الموت لكنّها تخاف من المرض. تخاف من الألم والعجز. تتمنّى أن تموت فجأةً بهدوء، بكرامة. تسكر ذات ليلة ثمّ تدخل لتنام ولا تصحو أبدًا. تموت هنا في الاسكندريّة وسط أصدقائها ومحبّيها..

يومٌ جديد...

كانت الساعة تقترب من الثانية عشرة ظهرًا وقد استعدّت شانتال للنزول إلى المكتبة. كانت ترتدي بلوزةً بيضاء بكمّ طويل وجونلة زرقاء بليسيه (Plissée). خرجت من الشقّة وعندما استدارت لتغلق الباب بالمفتاح حدثت المفاجأة. وجدت صورةً كبيرةً للرئيس

عبد الناصر معلّقةً على باب شقّتها. ظلّت تحملق في الصورة لوهلةٍ ثمّ أحسّت بخوف. خطر لها أنّها ما زالت سكرانة لم تفق بعد. تذكّرت مقالًا في جريدة لوموند قرأت فيه أنّ كثرة السكر قد تؤدّي إلى هلاوس سمعيّةٍ وبصريّة. هل هذه صورة عبد الناصر فعلًا أم هي تتخيّل؟ تردّدت لحظةً ثمّ مدّت يدها تتحسّسها فتأكّدت من ملمس الصورة. تطلّعت إليها من جديد.. كان عبد الناصر واقفًا في الصورة يلوّح بيده وينظر إليها، كأنّه يراقبها أو يتحدّاها. ظلّت شانتال واقفةً أمام الصورة لمدّة دقيقةٍ كاملة وهي لا تعرف كيف تتصرّف. طافت بأبواب الشقق المجاورة فلم تجد أيّ صورة. إذن، لقد وضعوا هذه الصورة على بابها هي بالذات. من فعل ذلك ولماذا؟ لا يمكن أن تتجاهل الصورة وتنزل إلى المكتبة لتبدأ يومها وكأنّ شيئًا لم يحدث. ليس من حقّ أحد – أيًّا يكن – أن يضع على بابها أيّ صورةٍ بدون إذنها، حتى لو كانت صورة عبد الناصر.. فجأةً أحسّت بالغضب فمدّت يدها وأمسكت بطرف الصورة لتنزعها عن الباب لكنّها أدركت أنّ الصورة ملتصقةٌ بالغراء. عندئذٍ دفعت الباب بيدها وعادت إلى شقّتها ثمّ توجّهت بسرعةٍ نحو التليفون. تصفّحت النوتة بسرعة حتّى عثرت على الاسم ثمّ رفعت السمّاعة وطلبت الرقم.

4

في عام 1915 هاجر ديمتري كازان من الأناضول إلى الاسكندريّة هربًا من المذابح التي ارتكبها العثمانيّون ضدّ اليونانيّين. كان تاجرًا شابًّا ثريًّا وبطريقةٍ ما (لم يفصح عنها قطّ) تمكّن من تهريب أمواله ثمّ استثمرها في تجارة القطن فحقّق نجاحًا باهرًا ولم تمضِ عشر سنواتٍ حتى أصبح من أكبر تجّار الاسكندريّة واتّخذ لنفسه مكتبًا أنيقًا في ميدان المنشيّة بالإضافة إلى الفيلا الفخمة التي اشتراها في محرّم بك. تعرّف ديمتري إلى جالا في منزل بعض الأصدقاء فأعجبته وتزوّج بها وأنجبا ولدين: فيليب الكبير ثمّ توني الذي يصغره بعامين. حرص ديمتري على أن يمنح ولديه أفضل تعليم فألحقهما بمدرسة فيكتوريا ك ولدج التي يطلق ون عليه ا كليّ ة إيتو ن الشر ق. بالإ ضافة إلى المصروفات الباهظة تحمّل ديمتري الحرب العاطفيّة الشرسة التي شنّتها عليه زوجته جالا، فقد اتّهمته بحرمانها من ولديها اللذين صارا يقضيان معظم الأسبوع في المدرسة الداخليّة. كان ديمتري يتعامل مع غارات جالا بحكمة. يدخّن السيجار في صمتٍ حتّى تكفّ عن البكاء والصياح ثمّ يقول بهدوء:

– أنا أيضًا أحبّ فيليب وتوني ويؤلمني أن يعيشا بعيدًا عنّي لكنّي أحكّم عقلي ولا أستسلم للعاطفة الهوجاء مثلك. مصلحتهما تقتضي أن يلتحقا بمدرسة فيكتوريا حتّى يتلقّيا تعليمًا جيّدًا ويتعوّدا الاعتماد على النفس.

مساء الجمعة عندما يعود توني وفيليب من المدرسة كانت أمّهما تستقبلهما كأنّهما جنديّان عائدان من الحرب: صرخاتٌ وبكاءٌ وأحض ان ودم وع فر حٍ وقائ مة من الأطع مة المفضّ لة الشهيّة تأمر الطبّاخ بإعدادها. في المدرسة سرعان ما اتّضح الفرق الكبير بين الأخوين. كان توني يجمع الذكاء البالغ إلى قدرةٍ مدهشةٍ على العمل، الأمر الذي جعل تفوّقه كاسحًا، بينما ظلّ أخوه فيليب مجرّد طالبٍ

عاديّ مستواه متوسّط لا يميّزه شيء. راحت شهادات التقدير وهدايا التفوّق تنهمر على توني لدرجةٍ دفعت ديمتري إلى تحذير زوجته من المبالغة في الاحتفاء بنبوغ توني لئلّا يؤثّر ذلك على نفسيّة أخيه الأكبر. مشكلة توني الوحيدة كانت وزنه الزائد حتّى اشتهر بين زملائه في المدرسة بلقب توني البدين (Fat Tony).

كان يلتهم يوميًّا كمّياتٍ كبيرةً من الشوكولاته (بكلّ أنواعها) وقد فشلت كلّ محاولات أبيه للسيطرة على هذا النهم حتى بدأ يشكّ في أنّ توني يعاني من اضطرابٍ نفسيّ أو خللٍ ما في الغدد فاصطحبه إلى عيادة الدكتور كابيس (Cabis) في محطّة الرمل.

فحص الدكتور الطفل البدين بعنايةٍ ثمّ ابتسم وقال: «مسيو كازان، لا تقلق. توني في حالةٍ ممتازة. صحيح أنّ وزنه زائد ولكن لا يمكن إخضاعه الآن لنظامٍ غذائيّ لأنّ جسمه في مرحلة النموّ. كلّ ما يهمّني أن يمارس الرياضة بانتظام».

ظلّ توني على تفوّقه وبدانته حتّى أنهى دراسته في فيكتوريا ثمّ أرسله أبوه إلى جامعة أكسفورد وكان قد ألحق أخاه فيليب بالجامعة الأمريكيّة في القاهرة. بعد أربع سنوات عاد توني بدرجة في الاقتصاد من أكسفورد وبدا حينئذٍ كأنّه يحمل روحين مختلفتين في جسده: فقد اكتسب لكنةً بريطانيّةً أنيقة وطابعًا أرستقراطيًّا مترفّعًا لكنّه مع ذلك احتفظ بروحه السكندريّة الودودة المنفتحة، وكثيرًا ما كان ينتقل من حالةٍ إلى حالة: يبدأ حديثه مع الناس بذلك العبوس الإنجليزيّ البارد ثمّ تخطر له فكاهةٌ ما فيلقيها ويقهقه عاليًا حتّى يترجرج جسده الضخم. بعد شهر من الاحتفالات بعودته المظفّرة من أكسفورد دعاه أبوه إلى الغداء في نادي السيّارات حتّى يتكلّما على انفراد (Tête à tête).

جلسا إلى مائدةٍ في أقصى الرصيف الملكيّ يحيط بهما البحر من ثلاث جهات. احتسيا زجاجتين من البيرة المثلّجة مع وجبةٍ شهيّةٍ من الأسماك. بعد الأكل طلب توني قطعة جاتوه من نوع Mousse au chocolat، بينما راح أبوه يحتسي كأسًا من الكونياك وأشعل سيجارًا ثمّ تنحنح وقال بلهجةٍ عاطفيّة:

– توني، أنت ابني ويجب أن أصارحك بالحقيقة. لقد تقدّمت في السنّ ولم أعد قادرًا على العمل مثل السابق. آن لي أن أستريح

وأسلّمك أنت وأخاك الشركة بالكامل. فيليب يعمل معي منذ عامين وقد تعلّم الكثير. متى ستنضمّ إلينا؟

التهم توني القطعة الأخيرة من الشوكولاته ومسح شفتيه بالفوطة ثمّ رشف على مهلٍ من كوب الماء المثلج فأحسّ بانتعاشٍ لذيذٍ ثمّ قال:

– بابا، أشكرك على ثقتك ولكنْ هناك موضوعٌ أريد أن أناقشه معك.

تطلّع إليه الأب مترقّبًا فاستطرد توني بصوتٍ خافت:

– بصراحة، تجارة القطن لا تستهويني.

– ألا تعجبك مهنة أبيك؟

– بالعكس، إنّها مهنةٌ عظيمة لكنّي فقط لا أجد نفسي فيها. أنا أفكّر في مشروع آخر.

– ما هو؟!

– أريد أن أفتح مصنعًا للشوكولاته.

استغرق الأب لحظاتٍ حتّى استوعب الفكرة ثمّ استهجنها فورًا. حاول توني أن يتكلّم لكنّ الأب قاطعه بغضب:

– إن كنت في النهاية ستتحوّل إلى حلواني فما فائدة الأموال التي أنفقتها على تعليمك؟ إنّ مصنع الشوكولاته لا يحتاج إلى شهادةٍ من أكسفورد وإذا افترضنا جدلًا أنّني سأوافق على فكرتك الخائبة فلا يجب أبدًا أن تنفّذها في مصر. ربّما كنت أفهم لو أنّك أقمت هذا المصنع في أوروبا لكنّك تقيمه في بلدٍ غير مستقرّ قد تندلع فيه ثورةٌ أو حربٌ أهليّة في أيّ وقت وعندئذٍ ستخسر كلّ شيء. إذا سقطت مصر في الفوضى وكانت صنعتك في ذهنك وأموالك في الخارج مثلي فسيكون بإمكانك أن تنجو لكن إذا كان لديك مصنع فسوف تخسر كلّ شيء لأنّك لن تجد من يشتري مصنعك في بلدٍ تمزّقه الاضطرابات.

استمع توني إلى أبيه بصبرٍ ثمّ ردّ عليه بنبرةٍ مهذّبة:

– لقد تعلّمت في أكسفورد أنّ أول شروط النجاح أن أعمل ما أحبّه لا ما يحبّه الآخرون. سأقيم المصنع في الاسكندريّة أولًا لأنّها بلدي التي أعرفها جيّدًا وثانيًا لأنّ أوروبا مليئةٌ بمصانع الشوكولاته الشهيرة التي يستحيل أن أنافسها بينما لا يوجد في مصر كلّها سوى مصنع شوكولاته واحد، بإمكاني أن أتفوّق عليه بسهولة.

تحوّلت المناقشة إلى مشادّةٍ أفضت إلى مشاجرةٍ وقطيعة. تدخّل الأقارب والأصدقاء لتقريب وجهات النظر لكنّ رفض الأب كان نهائيًا إذ إنّه، بالإضافة إلى الغضب وخيبة الأمل، كان يشعر بالخديعة فقد تبيّن أنّ توني قد تلقّى – سرًا – تدريبًا على صناعة الشوكولاته في لندن بل إنّه أعدّ دراسة جدوى كاملةً للمصنع.

كان ديمتري كازان يقول للوسطاء:

– لم يعد لديّ ما يمكن أن أقدّمه لهذا الولد المخادع. لقد قمت بواجبي على أكمل وجه فمنحته حياةً مريحةً لم أعرفها في طفولتي ووفّرت له أفضل تعليمٍ في الدنيا. إنّه يرفض أن يساعد أباه في شيخوخته ويرفض الثروة المضمونة التي ستمنحها له تجارة القطن. كلّ ذلك حتّى يصنع الشكولاته بالفستق؟!! حسنًا. أتمنّى له حظًّا سعيدًا كحلوانيّ لكنّي لن أساعده بجنيه واحد.

كان توني يحتاج إلى عشرة آلاف جنيه لشراء الأرض وإقامة المبنى واستيراد الماكينات اللازمة، ولمّا يئس من أبيه راح يتوسّل إلى أمّه ويستعطفها حتّى دفعت له المبلغ من مالها وأخذت عليه عهدًا بألّا يخبر أباه. وهكذا افتتح توني كازان مصنع الشوكولاته على أرضٍ اشتراها في شارع قناة المحموديّة. بدأ بعشرين عاملًا فقط: خمسة منهم يونانيّون وثلاثةٌ إيطاليّون واثنان من الأرمن والباقون مصريّون. قام ببناء مدرّجٍ صغير للتدريس وأعطى لكلّ عاملٍ كرّاسةً وبضعة أقلامٍ ثمّ وقف أمامهم ليشرح على السبّورة مراحل صنع الشوكولاته بالتفصيل بدءًا من حصاد ثمار شجرة الكاكاو ثمّ تخميرها وتحميصها وسحقها وطحنها وإضافة السكّر والحليب والكرامل إليها ثمّ إنتاجها في القوالب المعدّة لها. بعد ذلك قام توني بتدريبهم بصبرٍ ودأبٍ حتّى تمكّنوا من الصنعة. لم يحقّق المصنع أرباحًا في العام الأول، ثمّ تضاعفت خسائره في العام الثاني الأمر الذي اضطرّ توني إلى محاولة الاقتراض مرّةً أخرى من أمّه التي رفضت تمامًا وفي النهاية استجابت لتوسّلاته لكنّها حذّرته بحزم: «هذه آخر مرّةٍ أدفع لك.. إمّا أن تكسب أو تغلق المصنع».

في العام الثالث حقّق المصنع أرباحًا للمرّة الأولى، وفي العام الذي يليه تضاعفت الأرباح وتوالت طلبات توريد الشوكولاته ثمّ بدأت الطلبات تصل من الدول العربيّة. وبناءً على فكرةٍ ملهمةٍ خطرت لتوني بدأ المصنع يستعمل الأعياد الدينيّة: ينتج شوكولاته

على شكل بيضٍ وأرانب في أعياد الفصح والكريسماس، وشوكولاته على شكل قطع نقودٍ في عيد «حانوكا» اليهوديّ بالإضافة إلى شوكولاته على شكل هلالٍ وحصان وسيف في المولد النبويّ وعيد الفطر. نجحت الفكرة واشتدّ الطلب على شوكولاته كازان قبل الأعياد الدينيّة. مع هذا النجاح المتصاعد تحقّق الصلح بين توني وأبيه الذي أدرك أنّ ابنه يفكّر بطريقةٍ مختلفة لكنّه قادرٌ على النجاح. بعد سبعة أعوامٍ من افتتاح المصنع مات ديمتري كازان بنزفٍ مفاجئ في المخّ ولحقت به زوجته جالا بعد عامين.

انفرد فيليب بإدارة شركة القطن بينما ظلّ مصنع الشوكولاته هو العالم الحقيقيّ الوحيد لتوني. كان يتابع أنواع الشوكولاته التي تظهر في أوروبا وأمريكا ويخصّص ربع أرباح المصنع من أجل التجديد وشراء أحدث الماكينات. كان يملأ جيوبه بقطعٍ من شوكولاته كازان ويوزّعها على أطفال العائلة وأطفال العمّال وأحيانًا أطفال لا يعرفهم إذا لقيهم بالصدفة ثمّ يسألهم عن رأيهم في طعم الشوكولاته ويصغي إلى ملاحظاتهم باهتمام.

كان ولع توني بالشوكولاته، للغرابة، يحمل أيضًا طابعًا غيبيًّا إذ يعتقد أنّ الحالة النفسيّة لصانع الشوكولاته تؤثّر في طعمها. لا يوجد أيّ دليلٍ علميّ على ذلك لكنّ توني يؤمن بأنّ طاقة البهجة التي تحملها الشوكولاته ستضيع حتمًا إذا صنعها عمّالٌ غاضبون أو مكتئبون. كانت هذه فكرةً راسخةً يلقّنها لكلّ عاملٍ يتولّى تدريبه فيقول له بجدّية:

– إيّاك تقرّب من عجينة الشوكولاته وأنت زعلان. لو فيه حاجة ضايقتك وقّف الشغل وتعالَ قل لي مشكلتك وأنا أحلّها لك.

وهكذا، لأسبابٍ إنسانيّةٍ وعمليّةٍ أيضًا، كان توني كازان يبذل كلّ ما في وسعه لإسعاد العمّال. كان يمنحهم مرتّباتٍ سخيّة، ضعف ما يمكن أن يحصلوا عليه في أيّ مكانٍ آخر، ويتكفّل بنفقات علاجهم وأسرهم ويتابع مشكلاتهم ويسعى إلى حلّها أولًا بأول كما يوزّع عليهم تذاكر مجّانيّةً لعروض السينما والمسرح. أمّا عن رعاية توني كازان لأبناء العاملين فحدّث ولا حرج... كلّ أسبوع بعد صلاة الجمعة يظهر في شوارع الاسكندريّة أتوبيس كبير لونه أزرق مكتوب عليه بالعربيّة والفرنسيّة «مصنع كازان للشوكولاته».

يمرّ الأتوبيس على أبناء العاملين واحدًا واحدًا ليصطحبهم من بيوتهم إلى النادي الذي أنشأه توني من أجلهم بجوار المصنع. يضمّ النادي ملعبًا لكرة القدم الخماسيّة (التي يتنافس فيها فريقان يتكوّن كلٌّ منهما من خمسة لاعبين فقط). هناك أيضًا ملعبٌ لكرة السلّة للصغار (Minibasket)، وملعبٌ للكرة الطائرة، بالإضافة إلى مبنًى من دورين: الدور الأرضيّ يحتوي على مكتبةٍ وقاعةٍ لمشاهدة التليفزيون (الذي اشتراه توني منذ أن بدأ بثّه في مصر عام 1960) وفي الدور العلويّ قاعةٌ كبيرة فيها ماكينات البيبي فوت وطاولة ودومينو وشطرنج. يستقبل توني في النادي أبناء وبنات العاملين في المرحلتين الابتدائيّة والإعداديّة. كانت البنات يشتركن في كلّ الألعاب ما عدا كرة القدم. عندما يكبر الأولاد ويلتحقون بالثانوي تنتهي عضويّتهم في نادي المصنع وإن كانوا موهوبين في الرياضة فإنّ توني يساعدهم على الالتحاق بالأندية الرياضيّة الكبيرة مثل الاتحاد السكندري والنادي الأوليمبي. بالطبع كان الأطفال يحبّون مسيو توني ليس فقط لأنّه يوفر لهم أسباب اللهو يوم الجمعة لكنّه أيضًا، بجسده البدين والحمّالات التي يرفع بها البنطلون ووجهه البريء الطيّب وضحكاته الصاخبة، لم يكن يبدو كشخصٍ حقيقيّ تمامًا وإنما كان الأطفال يعتبرونه، على نحوٍ ما، شخصيّةً غرائبيّة خرجت لتوّها من مجلة أطفالٍ أو فيلم كرتون. بالمقابل، لا يتعامل توني مع الأطفال باستعلاء الكبار أو صرامتهم كما أنّه لا يدلّلهم أو يداعبهم بلا سبب ولا يعتبرهم كائناتٍ ساذجةً لا تفهم ما يحدث حولها. إنّه يتعامل معهم بودٍّ وندّيةٍ كاملة كأنّهم كبار، وهو يتحدّث معهم في أيّ موضوعٍ بلا مقدّماتٍ ولا تمهيد. عندما يرى طفلًا يرتدي بلوفر جديدًا مثلًا سيقول: «مبروك على البلوفر. بصراحة شيك جدًّا. المهم تكون دفيان».

عندئذٍ يمسك الطفل بقماش البلوفر بإصبعين ليريه سمك النسيج ويقول بحماسة: «بص يا مسيو توني. ده صوف ثقيل، بيدفّي جدًّا».

وعندما يرى طفلةً غيّرت تسريحة شعرها يقول لها: «على فكرة.. تسريحة ديل الحصان حلوة عليكي. خلّي ماما تعملها لك دائمًا». عندئذٍ تمسح البنت بيدها على شعرها وقد بدا على وجهها مزيجٌ من الزهو والامتنان.

كان توني يعرف الأطفال واحدًا واحدًا ويهتمّ بأخبارهم ويحقّق في أيّ شكوى تصل إليه من أولياء الأمور. عند اللزوم يسحب توني الطفل من يده إلى حجرة التليفزيون ويغلق الباب ويقول باستياء: «بص.. أنا عرفت انك بتردّ على ماما بطريقة مش لطيفة. أنا زعلان منك جدًّا. من فضلك ما تكلّمنيش لغاية لمّا تصالح ماما»، أو يمسك بالشهادة (التي أعطاها له والد الطفل) ثمّ يقول: «بصراحة أنت خيّبت أملي. ازاي تسقط في الحساب؟ مش مكسوف من نفسك؟»).

يرتبك الطفل أو ينكر أو يعتذر، وخلال الأسابيع التالية يظلّ توني يتابعه حتى يتأكّد من أنّ الخطأ تمّ إصلاحه. في مباريات الكرة يكون توني هو الحكم: يرتدي فانيلة وشورتًا لونهما أسود وحذاءً رياضيًا ويعلّق الصفّارة في فمه ويضع كروت الإنذار والطرد في جيبه وبرغم وزنه الزائد يظلّ يجري لاهثًا ويتابع الكرة بكفاءةٍ ثمّ يطلق صفّارةً ليحتسب أيّ خطأ. غالبًا ما يتقبّل الأطفال قرارات مسيو توني وأحيانًا يعترض أحدهم فيصيح بنبرة المظلوم: «واللّه العظيم يا مسيو توني ما لمست الكرة بيدي»، أو يصيح إذا تمّت عرقلته أمام المرمى: «بنالتي يا مسيو توني... واضحة جدًّا».

كان هذا الحدّ الأقصى للاعتراض إذ إنّ مسيو توني لا يجوز التطاول عليه أولًا لأنّهم يحبّونه ويحترمونه وثانيًا لأنّه يستطيع كحكم أن يبرز الكارت الأحمر ويطرد أيّ لاعبٍ بل ويحرمه من اللعب عدّة مباريات (حدث ذلك مرّةً واحدة عندما ضرب طفلٌ طفلًا آخر في وجهه بعيدًا عن الكرة).

الشيء بالشيء يُذكر.. لا بدّ هنا أن نحكي ما جرى للغزالة ميمي التي ما زال السكندريّون يذكرونها حتّى اليوم. ذات يوم، كان الأطفال يلعبون كرة القدم في نادي المصنع وبينما المباراة في ذروتها فوجئوا بغزالة جاءت من الأرض المجاورة للمصنع ووجدت نفسها وسط اللاعبين فراحت تجري في كلّ اتّجاه. كانت جميلةً ورشيقة، لها قرنان صغيران وعينان صافيتان رائعتان وجسدها لونه خليط بين البرتقاليّ والبنّي الداكن. راحت الغزالة تنفث الهواء من منخاريها وتهزّ ذيلها وبدت كأنّها مندهشة ممّا يحدث. أوقف توني المباراة واقترب من الغزالة وربّت عليها ثمّ نادى الأطفال الذين اقتربوا على حذر وشرح لهم أنّ الغزالة مخلوقٌ لطيفٌ غير مؤذٍ. وفي اليوم التالي أحضر توني شوالين ملأ أحدهما بالفاصوليا والآخر

بحبوب الذرة، بالإضافة إلى جردلٍ ممتلئ بالمياه. كان هذا عربون الصداقة للغزالة التي سمّاها الأطفال «ميمي» وأصبحت تأتي وهم يلعبون الكرة فتأكل وتشرب وتجري بعيدًا (وكأنّها تفهم أنّهم مشغولون باللعب) ثمّ تعود إليهم بعد انتهاء المباراة وتقف وسطهم وترفع رأسها وتصدر صوتًا طويلًا وكأنّها تحيّي أصدقاءها. عندئذٍ يصفّق الأطفال ويتحلّقون حول الغزالة ويربّتون عليها بأيديهم الصغيرة ويسألونها: «ازيّك ياميمي..»، «أنت مبسوطة الحمد لله؟»، «الأكل عجبك يا ميمي؟».

توطّدت الصداقة بين الأطفال والغزالة ميمي، وذات يوم بينما كان توني يبدّل ثيابه استعدادًا لتحكيم المباراة فوجئ بالأطفال يركضون نحوه ويصيحون: «اِلحق ميمي يا مسيو توني!».

ركض معهم إلى الملعب واجتازوه إلى الطريق العامّ فوجد ميمي مسجّاةً على الأسفلت وقد انسحق رأسها والدم ينزف منه بغزارة. كانت سيّارةٌ قد خبطتها وولّت هاربة. انحنى توني ونظر إليها لحظةً ثمّ أجهش بالبكاء. تأثّر الأطفال من موت ميمي وبكاء توني فراحوا يصرخون ويبكون وراح بعضهم يربّتون على توني ليواسوه. أمر توني بدفن الغزالة ميمي في الفناء الخلفيّ للمصنع وكتب على شاهد القبر بالفرنسيّة والعربيّة «صديقتنا الغزالة ميمي»، ثمّ ذهب بنفسه إلى أتيلييه الاسكندريّة للفنّانين وتعاقد مع نحّاتٍ معروف وأعطاه صورةً كان قد التقطها للغزالة ميمي فصنع لها تمثالًا من البرونز وضعه توني في مدخل المصنع. لم يكتفِ توني بكلّ ذلك، بل إنّه جعل شعار شوكولاته كازان رسم الغزالة الذي نجده حتّى اليوم على كلّ منتجات المصنع.

بالإضافة إلى كلّ ذلك، هناك حكاياتٌ أخرى تتردّد في الاسكندريّة عن توني كازان وسوف نتناولها بالتفصيل بعد قليل.

5

أخيرًا.. وجدت نعمت الحلّ.

أصبحت تستيقظ في الفجر مع أمّها. تفطران معًا وتشربان الشاي ثمّ تذهب الأمّ إلى عملها في مستشفى «المواساة» بينما تنهمك نعمت في تنظيف البيت وإعداد الغداء وبعد أن تفرغ تستحمّ وترتدي جلابيّة نظيفة ثمّ تدخل حجرتها الصغيرة وتغلقها من الداخل بالترباس. قدري زوج أمّها لا يصحو قبل الظهر. تعرف نعمت باستيقاظه عندما تشمّ رائحة الحشيش. ما إن يفتح قدري عينيه حتّى يمدّ يده إلى علبة السجائر الملفوفة التي يضعها على الكومودينو. بعد سيجارة الاصطباحة يصنع لنفسه سندوتشًا مكوّنًا من رغيف فينو كامل محشوٍّ بالعسل الأبيض والقشدة ثمّ يأخذ حمّامًا ساخنًا ويعود إلى حجرته ليستأنف تدخين الحشيش وشرب القهوة التي صار يصنعها لنفسه بعد أن امتنعت نعمت عن خدمته. نعمت تكره قدري من أعماقها لأنّه السبب في كلّ مصائبها. ما زالت تذكر، بعد وفاة أبيها، كيف كانت أمّها تحنو عليها وعلى أخيها مصطفى وكيف تغيّرت تمامًا بظهور قدري. ما زالت تذكر وجه أمّها المرتبك الذي يشي بفرحتها وكلماتها المتلعثمة المتلهّفة وهي تتحدّث عن قدري لأوّل مرّة. بدأت بـ«قال الله وقال الرسول» وذكرت آياتٍ وأحاديث كلّها تؤكّد أنّ الزواج نصف الدين لأنّه يستر المرأة ويعفّها ثمّ أعلنت أنّ هناك عريسًا تقدّم لها. كانت نعمت في السادسة عشرة من عمرها ومصطفى أصغر منها بسنتين. ظلّ مصطفى صامتًا بينما قالت نعمت:

– مبروك.

ابتسمت أمّها وقالت بفرح:

– أنا عزمته يتغدّى هنا يوم الجمعة.

كان قدري رجلًا أسمر نحيفًا في أواخر الأربعينيّات من عمره. على وجهه تعبيرٌ قاسٍ متهكّم ونظرةٌ ذاهلة من أثر الحشيش والأفيون. كرهته نعمت من اللحظة الأولى. كان لزجًا ووقحًا وراح يغازل أمّها بطريقةٍ مكشوفة حتّى إنّه تحسّس جسدها أكثر من مرّةٍ أمام نعمت ومصطفى. بعد الزواج ظهر قدري على حقيقته. يتهرّب من عمله كنقّاش ويقضي اليوم في تدخين الحشيش والنوم.

سيطر قدري على أمّها تمامًا: صارت تمنحه مرتّبها بالكامل وتؤيّده في كلّ ما يقول ولا تجرؤ على الاعتراض على رغباته ولا تخاف في الدنيا قدر خوفها من إغضابه. كثيرًا ما تتساءل نعمت كيف يمكن للّذة الجنسيّة أن تذلّ المرأة إلى هذه الدرجة..

ظلّ قدري يتربّص بأخيها مصطفى ويضربه بقسوةٍ على أهون سبب حتّى دفعه إلى الهروب من البيت ثمّ أقنع أمّها بإخراج نعمت من المدرسة. رفضت نعمت واستغاثت بأبلة تهاني مدرّستها الطيّبة التي زارتهم في البيت وقالت بحماسة:

– نعمت بنت ذكيّة وشاطرة. حرام تسيب التعليم.

قالت الأمّ:

– ظروفنا صعبة.

ردّت أبلة تهاني:

– التعليم بقى مجّاني ولو كمّلت نعمت على تفوّقها ستدخل الجامعة بدون ما تغرّمكم جنيه واحد.

سألها قدري باستهزاء:

– وبعد ما تتعلّم حتبقى إيه؟

– ممكن تبقى دكتورة أو مهندسة.

– تبقى دكتورة وأمّها عاملة نظافة؟

قالت أبلة تهاني بغضب:

– الفقر عمره ما كان عيب والثورة غيّرت بلدنا وطالما البنت مجتهدة وشاطرة حتتخرّج في الجامعة وتبقى أحسن من بنات الباشوات.

أطلق قدري ضحكةً ساخرة وقال:

– بصّي يا أبلة. الكلام ده بتاع الراديو والجرايد. إحنا عندنا البنت مصيرها تتجوّز وتقعد مع جوزها وعيالها.

كانت نعمت تتابع النقاش بغيظ واندفعت فجأةً تقول:

– أنا عاوزة أكمل تعليمي.

رمقها قدري باستنكار وقال بحزم:

– أنتِ صغيرة وأهلك أدرى بمصلحتك.

كادت نعمت تقول لقدري «أنت لست من أهلي ولا تريد مصلحتي»، لكنّها خافت فأجهشت بالبكاء وراحت تصرخ:

– عاوزة أتعلّم! حرام عليكم...

عندئذٍ، إنهاءً للموقف، شدّتها أمّها من يدها بعنف وأدخلتها إلى حجرتها وأغلقت الباب. انصرفت أبلة تهاني وتركت نعمت المدرسة ثمّ دفعها قدري للخدمة في البيوت. كان يستولي على معظم مرتّبها وبرغم ذلك كانت أمّها تجبرها على أن تشكره. عملت نعمت عامين في الخدمة ثمّ أحضر لها قدري عريسًا ليبيًّا اسمه مصباح تزوّجها، كان رجلًا بدينًا يكبرها بثلاثين عامًا، سخيفًا وثقيل الظلّ، كما أنّه في الفراش كانت له رغبات غير طبيعيّة أنهكتها جسديًّا ونفسيًّا. قبض قدري المهر وعاشت نعمت مع مصباح بضعة شهور في شقّة مفروشة في الشاطبي ثمّ قال لها إنّه سيسافر إلى ليبيا ويعود بعد أيّام لكنّها فوجئت بطلاقها وقد استولى قدري على مؤخّر الصداق. حمدت نعمت ربّنا لأنّها لم تنجب من مصباح ورفضت أن تعود إلى الخدمة في البيوت وقالت لأمّها:

– أرجع الشغل لأجل أشقى طول النهار وقدري يقبض على الجاهز؟! لو عاوزاني أشتغل يبقى أنا آخذ مرتّبي لوحدي.

غضب قدري لكنّه لم يتشاجر معها كما توقّعت بل على العكس راح يعاملها بلطفٍ زائد. عرفت السبب بعد ذلك عندما أحضر لها عريسًا جديدًا وقال بسماجة:

– المرّة دي عريس لقطة فعلًا. أحسن من مصباح ميت مرّة.

صاحت نعمت بغضب:

– قبضت منه كم؟

نظر إليها مستنكرًا وصاحت أمّها:

– عيب يا نعمت. كلّمي عمّك قدري بأدب.

ردّت نعمت:

– أولًا هو مش عمّي وثانيًا مش حأتجوز.

قال قدري:

– طيب شوفي العريس. اقعدي معاه واحكمي بنفسك.

– مش حأشوف عرسان.
– أنا وعدته انه يشوفك.
– روح شوف له واحدة تانية ينطّ عليها ويدفع لك.
صفعها قدري فأمسكت به من صدر الجلباب وراحت تهزّه وهي تصرخ:
– مالكش ضرب عليّ فاهم ولا لأ؟!
خلّصته أمّها من يدها وسحبتها بعيدًا وهي تردّد:
– عيب يا نعمت.
صاحت في أمّها:
– ولمّا يبيعني ويقبض عليّ ما يبقاش عيب؟
ردّت أمّها:
– عمّك قدري في مقام أبوك وهمّه مصلحتك.
ذلك الانكسار على وجه أمّها يصيبها بالإحباط. ألحّ عليها قدري حتّى ترى العريس ولمّا تأكّد من رفضها استعمل طريقةً غريبةً في الانتقام منها. بدأ يداعب أمّها أمامها ثمّ تطوّر الأمر فأصبح يوارب باب حجرة النوم عمدًا حتى يصل إليها صوت أمّها وهي تتأوّه من اللذّة. لمّا تكرّر الأمر شكت نعمت لأمّها ففوجئت بها تقول:
– وانت إيه اللي مضايقك. مش راجلي وحلالي؟
لم تكلّم أمّها في الموضوع مرّة أخرى وصارت تغطّي رأسها بالوسادة وتفتح الشبّاك حتّى تغطّي ضجّة الشارع على تأوّهات أمّها، لكنّ مضايقات قدري زادت وتطوّرت في اتّجاهٍ لم تتوقّعه فقد فتح عليها الحمّام مرّةً وهي عارية ومرّةً أخرى كانت تمسح الأرض فالتصق بها من الخلف. برغم إحساسها بالغضب والإهانة، لم تخبر أمّها. كانت تعرف أنّها ستأخذ صفّ قدري مهما فعل... عندئذٍ بدأت نعمت بتنفيذ نظامها الجديد: تنهي كلّ شيءٍ قبل أن يصحو قدري ثمّ تغلق حجرتها عليها ولا تراه إلّا عندما تعود أمّها من العمل، وبعد الظهر تصعد إلى شقّة صديقتها نوال في الدور العلويّ. نوال أبوها سائق قطار كثيرًا ما يعمل في ورديّة الليل وأمّها متوفّاة وأختها الكبرى متزوّجة. كانت نعمت ونوال تستمتعان بوقتهما معًا. تتكلّمان وتضحكان وتطالعان صور نجوم السينما المنشورة في مجلّة الكواكب التي تشتري نوال أعدادها القديمة من غطّاس بائع الجرائد. والأجمل من كلّ ذلك عندما تستعملان الـ«بيك آب» القديم فتدير نوال

أسطوانةً لفريد الأطرش أو كارم محمود، عندئذ تتحزّم نعمت وترقص. تقول نوال إنّ نعمت ترقص أحسن من راقصات السينما. عندما ترقص نعمت تنسى الدنيا. تترك جسدها للموسيقى ويأخذها الإيقاع تمامًا فتنسى بؤس حياتها ولا تفكّر في شيء. تغمض عينيها وتحلم. تحلم برجلٍ وسيمٍ يحبّها ويتزوّجها وتنجب منه ثلاثة أطفال. كانت تعرف أنّها جميلة وجسدها متناسق ورشيق وكانت، بقدر إمكانيّاتها، تحرص على مظهرها. تنزع شعر جسدها بمساعدة نوال وتستعمل ماكياج أمّها: تضع الكحل والروج والبودرة. في البداية كانت أمّها توبّخها عندما تضع الماكياج حتّى تزوّجت مصباح الليبي فلم تعد تعترض. في أفراح الأقارب كانوا يلحّون عليها حتّى ترقص وكان المدعوّون يصفّقون لها بحماسة. ذات مرّةٍ رقصت في فرح ابن عمّها فأعجبت بها العالمة وأعطتها بطاقة مكتوبًا عليها عنوانها ورقم تليفونها. ما زالت نعمت تحتفظ بالبطاقة في دولابها تحت المفرش. تخرجها وتعيد قراءتها كلّ فترة «العالمة نظلة.. إحياء حفلات وأفراح».

على مدى أسابيع نجحت نعمت في تجنّب قدري. لم تعد تراه طوال النهار حتّى تعود أمّها فيجتمعون على مائدة الطعام. قالت لصاحبتها نوال:

– الحمد لله.. أخيرًا خلصت من سحنة قدري.

ضحكت نوال وقالت:

– على رأي المثل.. «يا نحلة لا تقرصيني ولا عايز عسلك».

ردّت نعمت بمرارة:

– قدري مش نحلة.. ده عقربة.

بدا الأمر لنعمت وكأنّ متاعبها مع قدري انتهت ثمّ حدث ذات يوم ما لم تتوقّعه.. كانت أمّها في الشغل واستيقظ قدري الظهر كعادته وقام بطقوسه المعتادة ثمّ فوجئت به يطرق باب حجرتها وسمعته يقول:

– افتحي يا نعمت. أمّك سابت لك أمانة ولازم تأخذيها.

– أنا شفت أمّي الصبح وما قالت ليش حاجة.

– أمّك أكيد نسيت.. افتحي الباب لحظة.. خذي الأمانة واقفلي.

تردّدت نعمت قليلًا ثمّ فتحت بحذر لكنّ قدري دفع الباب بقوّة واندفع إلى الداخل فصاحت بأعلى صوتها:

– فين الأمانة يا كذاب.. اطلع بره.

اندفع نحوها واحتضنها بقوّة وحاول تقبيلها وبدا في تلك اللحظة هائجًا ومغيّبًا تمامًا. صرخت نعمت وراحت تلكمه في صدره لكنّه تحمّل ضرباتها واستمرّ في احتضانها. عندئذٍ لمحت صندوق الخياطة على الرفّ، جذبته بيدها فانفتح وتبعثرت محتوياته ثمّ رفعت يدها وهوت بالصندوق الحديدي بكلّ قوّتها على رأس قدري فصرخ وانحنى وأمسك رأسه بيديه بينما انطلقت نعمت هاربة ودخلت حجرة أمّها بسرعةٍ وأغلقت الترباس من الداخل.

– افتحي يا نعمت.

هكذا صاح قدري بصوتٍ مشروخ وهو يلهث من فرط الرغبة والغضب. تجاهلته نعمت وراحت تتفقّد آثار المعركة أمام المرآة. كان هناك جرحٌ صغير في وجهها وخرابيش على ذراعيها ورقبتها. ظلّ قدري يخبط على الباب لفترة ثمّ انصرف. آخر النهار، سمعت نعمت صوت أمها ففتحت الباب. كان وجه أمّها مربدًّا وقالت بنبرةٍ متحفّزة:

–إنتِ عملت إيه مع عمّك قدري؟

بكت نعمت وحكت ما حدث لأمّها التي قالت بغضب:

– قدري بيقول إنّه كان بيكلّمك وإنتِ ردّيتي بقلّة أدب وضربتيه بعلبة الخياطة. أنا شفت الجرح اللي في رأسه.

– مهما قلت لك عمرك ما تصدّقيني. كلام قدري مصدّق عندك لأنّه كاسر عينك.

– اخرسي!

– لأ مش حأخرس. أنتِ بعتي عيالك لأجل مزاجك.

صاحت أمّها وكأنها تريد أن يسمعها قدري:

– أنا فاهماكِ كويس. كلّ الحركات اللي بتعمليها دي عشان تخربي بيتي لأجل أبقى مطلقة زيّك. لكن أبدًا. قدري راجلي وحبيبي وأنت خليكِ على نار. موتي بغيظك.

عند هذا الحدّ، برغم إحساسها بالإهانة والمرارة، سكتت نعمت وأزاحت أمّها بيدها وذهبت إلى حجرتها ثمّ خرجت بعد قليلٍ

واتّجهت إلى باب الخروج. كانت أمّها جالسةً في الصالة بجوار قدري الذي غطّى رأسه بضمادة. سألتها أمّها بتحفّز:

– رايحة فين يا روح أمّك؟

قالت نعمت بنبرةٍ عاديّة:

– طالعه عند صاحبتي نوال.

– ما تتأخّريش.

خرجت نعمت لكنّها لم تصعد إلى شقّة نوال. نزلت الدرج وخرجت من باب البيت ثمّ مشت إلى الشارع العموميّ وأشارت إلى أول تاكسي.

6

رشف أنس من كأسه ثمّ قال:

– عزيزي عبّاس، هات لي مكانًا واحدًا في الاسكندريّة يخلو من صورة عبد الناصر. المطعم الذي نجلس فيه الآن يعلّق صورة كبيرة لعبد الناصر. توني يعلّق صورة عبد الناصر على باب مصنعه. صور عبد الناصر في المدارس والجامعات والمكاتب الحكوميّة بل وعند الحلّاقين والسبّاكين ومحلّات العصير. بالتالي، أعتقد أنّ وجود صورة لعبد الناصر على باب شانتال لا يستدعي كلّ هذا القلق.

قال عبّاس:

– هناك فرق. شانتال لم تعلق الصورة لكنّها وجدتها معلّقةً على بابها.

حرّك أنس يده علامة الاستهانة وقال:

– ربّما علّق شخصٌ ما الصورة بطريق الخطأ.

أفرغ عبّاس كأس الويسكي وأشار لكارلو لكي يعدّ له كأسًا جديدة وقال:

– لقد عاينت الشقق في العمارة كلّها. لا توجد صورةٌ لعبد الناصر على أيّ شقّةٍ أخرى. معنى ذلك أنّهم اختاروا شانتال بالذات ليعلّقوا الصورة على بابها.

قال أنس:

– شانتال، لو كنت مكانك لنزعت الصورة فورًا.

قالت شانتال:

– كنت أريد نزعها لكنّ عبّاس منعني.

قال أنس:

– أنت تبالغ يا عبّاس.

ابتسم عبّاس وقال:

– هل سمعتم عن التنظيم الطليعيّ؟

لم يردّ أحد فاستطرد عبّاس:

– التنظيم الطليعيّ تنظيمٌ سرّيٌ أنشأه عبد الناصر داخل الاتّحاد الاشتراكيّ. طبعًا هذا التنظيم فريدٌ من نوعه في التاريخ. الطبيعي أن تتكوّن التنظيمات السرّية حتّى تصل إلى السلطة. أول مرّة تنشئ السلطة نفسها تنظيمًا سرّيًا. آلاف الأعضاء السريّين ينتشرون في أنحاء مصر الآن وكلّ مهمّتهم أن يتجسّسوا على زملائهم وجيرانهم وأصدقائهم ثمّ يكتبوا عنهم تقارير يرسلونها لوزير الداخليّة الذي يقرأها بعنايةٍ ثمّ يختار التقارير المهمّة ويرفعها لعبد الناصر ليصدر تعليماته بشأنها. أنا واثق من أن عضوًا في التنظيم الطليعيّ هو من علّق الصورة.

قالت شانتال:

– ما غرضه من ذلك؟

أشعل عبّاس سيجارةً وقال:

– اختبار ولاء.. يريدون أن يعرفوا ماذا ستفعلين بالصورة. كما أنّ الصورة ملتصقةٌ بالغراء على الباب وبالتالي لا يمكن نزعها بدون تمزيقها.

صاح أنس بغضب:

– لا أصدّق أنّنا وصلنا إلى هذه الحالة. كنّا نخاف من عبد الناصر فأصبحنا نخاف من صورته؟ يا للعار!

قالت ليدا:

– ماذا سيحدث لو نزعت شانتال الصورة؟

قال عبّاس:

– سيُلقى القبض عليها وتُحاكَم بتهمة إهانة رئيس الجمهوريّة.

قالت شانتال:

– أذكّرك بأنّي مواطنةٌ فرنسيّة.

– شانتال العزيزة، النظام العسكريّ في مصر لا يعترف بأيّ تقاليد دبلوماسيّة. هل سمعتِ عن استمارة «خروج بلاعودة»؟

– لا.

– لقد استحدث عبد الناصر تقليدًا لم تعرفه مصر من قبل. قبل انقلاب 1952 كان قرار إبعاد الأشخاص عن مصر يصدر عن وزير الداخليّة ومن حقّ المبعد أن يستأنف القرار أمام القضاء الإداري وفي أحوالٍ كثيرة كان القاضي يلغي قرار وزير الداخليّة بل ويحكم أحيانًا

بالتعويض الماديّ للمتضرّر من القرار. الآن يستطيع أيّ ضابطٍ في المخابرات أن يتّخذ قرارًا بإبعاد أيّ شخصٍ فيتمّ تنفيذ القرار فورًا. يطلب ضابط الجوازات من المبعد التوقيع على تعهّد بعدم العودة ثمّ يختم جواز السفر بهذه الجملة «خروج بلا عودة».

قال كارلو:

– ماذا يحدث لو رفض المبعد التوقيع؟

ابتسم عبّاس وقال:

– سيستضيفونه في السجن الحربيّ حتّى يقتنع بالتوقيع.

ساد الصمت ثمّ استطرد عبّاس:

– عزيزتي شانتال، إذا أردت البقاء معنا في الاسكندريّة، فلا تنزعي الصورة.

نهض أنس وقال:

– عندي موعد في القهوة التجاريّة بخصوص معرض البورتريه. سأذهب وأعود بسرعة لأستأنف هذه المناقشة العجيبة.

انصرف أنس وأعدّ كارلو كأسًا جديدة لتوني الذي قال:

– بصراحة. لقد اقتنعت بكلام عبّاس.

قالت ليدا:

– وأنا أيضًا. شانتال، تجاهلي هذه الصورة وكأنّها غير موجودة.

– أنا أيضًا أؤيّد التجاهل.

هكذا قال كارلو بودٍّ وهو يصبّ كأسًا من النبيذ لشانتال التي لاذت بالصمت واستغرقت في التفكير. بعد قليلٍ نظرت ليدا إلى شانتال وقالت:

– هل لديكم شخصٌ مسؤول عن العمارة؟

– العمارة مملوكةٌ لشركة التأمين الأهليّة.

– ماعلاقة شركات التأمين بالعمارات؟

قال عبّاس:

– عندما تمّت مصادرة ممتلكات «أعداء الشعب» استولى الضبّاط على شققٍ وفيلاتٍ كثيرة وبقيّة العقارات مُنحت لشركات التأمين.

قالت ليدا:

– ما رأيكم لو كتبت شانتال خطابًا لشركة التأمين مالكة العمارة. خطاب مهذّب لا علاقة له بالسياسة، تؤكّد فيه أنّها تحبّ

الزعيم عبد الناصر لكنّها فقط تعترض على وضع الصورة بهذه الطريقة.

صاحت شانتال:

– لن أفعل ذلك.

انتقل أعضاء الكوكاس إلى الحديث في موضوعات أخرى وبعد ما يقرب من ساعةٍ انفتح باب البار وظهر أنس. تقدّم إلى وسط البار ثمّ ضحك وصاح بلهجةٍ مسرحيّة:

– أصدقائي الكوكاس. إليكم نبأً عاجلًا.

– ما هو النبأ؟

– لن أخبركم قبل أن تصفّقوا.

انهالت التعليقات:

– لن نصفّق لك.

– أنت لم تفعل شيئًا يستحقّ التصفيق.

– أنت سكران.

صاح أنس:

– أنا فعلًا سكران لكنّي أحمل لكم خبرًا مهمًّا. من فضلكم صفّقوا.

ضحكوا وصفّقوا وفجأةً رفع أنس يده ممسكًا بلفّةٍ طويلةٍ مطويّةٍ وقال:

– لقد ذهبت إلى شقّة شانتال ونزعت صورة عبد الناصر... ها هي...

صاحت شانتال بحماسة:

– برافو!

مرّت لحظات حتّى استوعب الحاضرون ما حدث ثمّ قال عبّاس بصوتٍ غاضب:

– اسمح لي يا أنس.. إنّ ما فعلته تصرّفٌ غير حكيم.

بدا القلق على وجه ليدا وقالت:

– أنس شخصٌ مندفع بطبعه.

قال أنس بصوتٍ عالٍ:

– بصراحة لم أتحمّل أن نتحوّل جميعًا إلى فئرانٍ مذعورة.

ردّ عبّاس بحدّة:

– لسنا فئرانًا مذعورة. كلّ ما في الأمر أنّنا نحبّ صديقتنا شانتال ونريد أن نجنّبها أيّ مشكلةٍ مع النظام.

ابتسم توني وسأل أنس:

– كيف استطعت أن تنزع الصورة بدون أن تمزّقها؟

ضحك أنس وقال:

– أنا فنّان تشكيليّ.. لا تستعصي عليّ أيّ مادّة. أخذت مذيب الغراء من مرسمي وعالجت به الصورة فانفصلت بسهولة عن الحائط.

سأله عبّاس:

– هل رآك البوّاب وأنت تنزع الصورة؟

– لا أعرف.

– لا بدّ أنّه رآك. كلّ البوّابين في الاسكندريّة يعملون مرشدين للأمن.

– لا يهمّني. فليبلّغ عنّي البوّاب. أنا انتزعت صورة عبد الناصر وإن كان هذا التصرّف جريمةً فأنا فخورٌ بارتكابها.

أشعل عبّاس سيجارة وقال:

– كلّ ما أخشاه أن تدفع شانتال ثمن موقفك الشجاع.

قالت شانتال:

– إن كانوا يراقبونني فلا شكّ في أنّهم يعرفون أنّني لا أعترض على عبد الناصر بل إنّني كما تعرفون أعتقد أنّ الديكتاتوريّة تناسب المصريّين أكثر من الديمقراطيّة.

ضحك أنس وقال:

– عزيزتي شانتال. لو قبضوا عليك اتّصلي بي وأنا سأعترف بأنني نزعت صورة زعيم الأمّة العربيّة.

التفتت ليدا إلى عبّاس وقالت:

– ماذا تتوقّع الآن؟

ردّ عبّاس بهدوء:

– المؤكّد أنّ خبر نزع الصورة سيصل إليهم في الصباح. ليس أمامنا إلّا أن ننتظر ردّ الفعل.

7

لا شيء يميّز عدلي الأسود...

إذا رأيته يقف على محطّة الترام أو يجلس في المقهى أو يمشي على الكورنيش، لا يمكن أن يلفت نظرك. بشرته سمراء غامقة كأيّ صعيدي كما أنّه لا يتمتّع بالوسامة فأسنانه بارزة معوجّة وعيناه جاحظتان قليلًا وهو نحيفٌ ضئيل لدرجةٍ يستحيل معها أن تتوقّع وظيفته في الحياة. فقط إذا دقّقت النظر، فستلاحظ أنّ عدلي يزكّ قليلًا في مشيته وأنّ ساقه اليمنى ممدودةٌ لا تنثني أبدًا وإذا دقّقت النظر أكثر فستكتشف جيبًا طويلًا يمتدّ على الجانب الأيمن للبنطلون. في هذا الجيب، الذي لا يكاد يُلحظ، تربض سكّينٌ طويلة حادّة لها شفرتان ومقبضٌ خشبيّ يستطيع عدلي أن يشهرها في لمح البصر ويوجّهها لأيّ هدف فيصيبه فورًا. هذه السكّين لا تفارق عدلي أبدًا، وكذلك المطواة «السوسته» التي يحملها في جيب البنطلون الخلفي. يمتلك عدلي، أيضًا، مسدّسًا من طراز بيريتا (Beretta) يحفظه مع الذخيرة في حقيبةٍ جلديّة محكمة لكنّه قلما يستعمله لأنّه يفضّل الأسلحة البيضاء التي يمتلك تشكيلة كبيرة منها صنعها بالطلب طبقًا لمواصفات تجعله قادرًا على حسم الموقف في أيّ لحظة. فهو مثلًا يستعمل السكاكين الطويلة والسيوف للترويع عندما يكون بمفرده أمام حشد من الخصوم أمّا إذا أراد أن يترك جرحًا تذكاريًّا في وجه الخصم فلا يوجد أفضل من مطواة صغيرة بشفرة حادّة لتنفيذ المهمّة. أول مطواة عرفها عدلي في حياته أحسّ بنصلها على رقبته. كان صبيًّا في الرابعة عشرة ينام في فراشه في دار الأيتام عندما أفاق فجأةً على جسمٍ يلتصق به ويشلّ حركته. كان بكري زميلهم في الدار قد تعوّد أن يغتصب الأيتام الأصغر منه. يتسلّل ليلًا ويفتح المطواة ويضعها على رقبة الضحيّة ثمّ ينزع عنه بنطلون البيجاما واللباس ويقضي وطره منه. وجد عدلي نفسه في موقفٍ

صعب. فقد أحسّ بوخز المطواة على رقبته من الخلف بينما كان بكري قد بدأ بالفعل بانتهاكه، ربّنا وحده ألهم عدلي ما فعله، فقد مدّ يده خلفه بسرعة وقبض بكلّ قوّته على قضيب بكري وضغط عليه بشدّةٍ حتّى صرخ بكري من الألم وارتخت يده، عندئذٍ استدار عدلي وانتزع المطواة وغرز النصل في وجه بكري فأحدث جرحًا عميقًا في خدّه الأيمن. مع تدفّق الدم انهار بكري تمامًا وراح يولول فقهره عدلي وأوسعه ضربًا.

كانت هذه الواقعة نهايةً لجبروت بكري في دار الأيتام ولقد أصرّ عدلي على الاحتفاظ بالمطواة كذكرى لانتصاره. كالعادة تكتّمت إدارة الملجأ على الواقعة ولم تبلّغ الشرطة تجنّبًا للفضيحة والمساءلة الإداريّة لكنّ عدلي اكتسب مكانةً متميّزةً في الملجأ جعلته بعد ذلك يتأخّر ليلًا كما يريد بل ويبيت في الخارج فلا يجرؤ أحدٌ على مساءلته. وجد عدلي عملًا في غرزة حشيش خلف محطّة مصر لكنّه لم يسترح في خدمة الزبائن فكلّفه المعلم بمهمّة «الناضورجي» فكان يقف خارج الغرزة طوال الليل ليراقب الجوّ وإذا رأى علامة «كبسة» من البوليس يصيح بأعلى صوته: «اللهمّ صلّ على حضرة النبي»، عندئذٍ يفرّ الزبائن من طريق خلفيّ ويتمّ التخلّص من الحشيش في لمح البصر فتتحوّل الغرزة عندئذ إلى مجرّد مقهى يدخّن فيه الناس أحجار المعسّل البريئة.

تلك الأيّام كسب عدلي كثيرًا وأنفق كثيرًا وعرف النساء لأول مرّة وتعلّم شرب الخمر فأحبّ تأثيرها الدافئ الرحب، ثمّ حدثت واقعةٌ أخيرة اختتم بها 17 عامًا قضاها في الملجأ. كان الأيتام يطلقون على مدير الملجأ لقب «الحاج سيّد الحرامي» إذ كان يستولى على معظم التبرّعات التي تأتي للأيتام. منذ الصغر كان نصيب عدلي من التبرّعات قليلًا لأنّ أهل الخير كانوا يتأثّرون أكثر لمرأى الطفل اليتيم إن كان جميلًا وكانوا يتجاهلون عدلي لأنّه أسود وقبيح. قلّةٌ من المحسنين كانوا يتبرّعون لعدلي باعتباره يعاني من مصيبةٍ مزدوجة (اليتم والقبح)، وقد عرف عدلي من سكرتيرة الدار – بالصدفة – أنّ تبرّعات أهل الخير باسمه قد بلغت على مدى شهورٍ مبلغ خمسين جنيهًا وكالعادة استولى عليها الحاج سيّد الحرامي ولم يشر إليها من قريبٍ أو بعيد. انتظر عدلي حتّى آخر النهار وذهب إلى مكتب الحاج

سيّد الذي انزعج لرؤيته وكاد ينهره لأنّه دخل بدون استئذان لكنّ عدلي لم يمهله فقد اقترب حتّى وقف بجواره وقال:

– فيه خمسين جنيه تبرّعات باسمي.

ارتبك الحاج سيّد وهمّ بالكلام لكنّ عدلي الذي كان قد رسم الموقف في ذهنه مسبقًا أخرج المطواة وفتحها في لمح البصر ثمّ وضعها على رقبة الحاج وقال بصوتٍ خافت ولهجةٍ حاسمة:

– يا تعطيني حقّي يا اما أذبحك.

استولى الرعب على الحاج سيّد ونهض – وعدلي يتبعه بالمطواة، ثمّ فتح الخزينة وهو يرتجف وأخرج المبلغ فالتقطه عدلي ودسّه في جيب الجاكيت وقال:

– أنا ماشي من المخروبة دي. لو بلّغت البوليس أو عملت قلق حاقتلك. فاهم؟ حاستنّاك في الشارع وأركب المطواة في قلبك يا ابن الزانية.

وكأنّها نقطةٌ في آخر السطر، وجّه عدلي صفعةً هائلة للحاج سيد الذي ترنّح وسقطت نظّارته على الأرض.

حدث ذلك قبل ثلاثةٍ وعشرين عامًا وعدلي الأسود الآن في الأربعين وقد أكسبته السنوات معرفةً عميقةً بطباع الناس. أحيانًا، عندما يخلو إلى نفسه، تلحّ عليه فكرةٌ واحدة لا تتغيّر: أنّ أباه وأمّه قد تركاه وهو رضيعٌ أمام باب الملجأ ولم يهتمّا بعد ذلك بمصيره ولا سعيا إلى رؤيته مرّةً واحدة. كثيرًا ما يتملّكه الغضب تجاههما ويقول لنفسه «الإنسان لو عنده كلب يصعب عليه يرميه في الشارع».

لكنّه، كلّما زادت خبرته بالحياة، كان يلتمس لأبيه وأمّه العذر. لا شكّ في أنّهما تورّطا في علاقةٍ سرّية لا يمكن إعلانها وكان لا بدّ من أن يتخلّصا منه لأنّه جسم الجريمة وقد نشأ بعيدًا عنهما والبعد يؤدّي حتمًا إلى النسيان.. هل كانت أمّه زوجةً خائنة أنجبته من عشيقها أم خادمةً أغواها سيّدها؟ لعلّها كانت ساقطةً تنام مع الرجال بالأجر ولعلّها لم تعرف من هو أبوه وسط زبائنها ولعلّها، وسط الشقاء الذي تعيشه، كان يستحيل عليها أن تتحمّل مسؤوليّة طفلٍ يحتاج إلى عنايةٍ وتربية وإنفاق. بعد أن يستعرض عدلي كلّ الاحتمالات يميل إلى أنّ أصله صعيدي أولًا بسبب بشرته الداكنة وثانيًا لأنّ الصعيد عبارةٌ عن مجتمعاتٍ صغيرة مغلقة يعرف الناس فيها بعضهم بعضًا فمن المنطقيّ أن تسافر أمّه به بعيدًا عن الصعيد لتتركه في

الاسكندريّة إمعانًا في إخفاء الفضيحة وثالثًا لأنّه يحسّ بحنينٍ غامضٍ غريب كلّما استمع إلى المواويل الصعيديّة لدرجة أنّه اشترى أسطوانات الريّس حفني وعندما يستمع إليها وهو سكران يتملّكه الشجن حتّى تدمع عيناه. بعد مصاعب جمّة وكفاحٍ مرير انتزع عدلي حقوقه واستقرّت أحواله. إنّه الآن مسؤول الأمن في كباريه الأنجلو في محطّة الرمل. خصّص له «بونانزا» صاحب الكباريه مكتبًا صغيرًا في أقصى الصالة تتوسّطه نافذةٌ مغطّاة بستارةٍ من القطيفة يراقب عدلي من خلفها كلّ ما يحدث في الصالة ويتدخّل فورًا لمنع الشغب. ليست هذه وظيفة عدلي الوحيدة فهو أيضًا يبيع الحشيش داخل الملهى (مقابل نسبةٍ يقبضها بونانزا بالطبع) وهو يتولّى حماية الراقصات في الأفراح التي يتّفق عليها بونانزا كما أنّه يؤدّي بعض المهامّ الخاصّة لمن يستأجره من الزبائن. كلّ هذه الأنشطة تتمّ بعلم أجهزة الأمن في الاسكندريّة.

في البداية كانت علاقة عدلي بالأمن صعبةً ومؤلمة فقد اعتقله ضبّاط المباحث في قسم شرطة الرمل ومديريّة الأمن أكثر من مرّة، ضربوه وعذّبوه وهدّدوه بتلفيق قضايا كفيلةٍ بحبسه سنوات. كلّ ذلك حتّى يجبروه على العمل مرشدًا لكنّ عدلي تحمّل كلّ هذه الأهوال بجلدٍ وفي النهاية صرخ في وجه رئيس المباحث:

– يا سعادة البك سيادتك تقدر تقتلني أو ترميني في السجن لكن واللّه العظيم أنا ما أنفعش أشتغل مرشد. سيادتك استعملني في أيّ حاجة تانية وأنا خدّامك.

أخيرًا، تحقّق «التعايش السلميّ»، فصار عدلي يؤدّي كلّ ما يكلّفه به ضبّاط المباحث (ما عدا التجسّس) فهو يحشد الأنصار لدعم مرشّحي الحكومة في الانتخابات ويمنع أنصار المرشّح المغضوب عليه من دخول اللجان أساسًا، وفي عمليّاتٍ نوعيّةٍ مبتكرةٍ يتعامل عدلي مع الشخصيّات العامّة التي تريد الحكومة تأديبها وإسكاتها بدون اعتقالها. يدبّر عدلي الاعتداء على السياسيّ المغضوب عليه وأحيانًا على أهله أيضًا وبالطبع تصدر وزارة الداخليّة بيانًا تدين فيه الاعتداء «الهمجيّ» وتؤكّد أنّ البحث جارٍ عن منفّذيه لتقديمهم للعدالة لكنّ الرسالة تكون قد وصلت للسياسيّ فإمّا أن يلزم الصمت أو يغادر البلاد إلى الأبد. في عام 1954 أثناء ذروة الصراع على السلطة بين محمد نجيب وعبد الناصر، استطاع عدلي الأسود،

بتكليفٍ من الأمن، أن ينظّم تظاهرةً حاشدةً انطلقت من جامع المرسي وتوجّهت إلى محافظة الاسكندريّة. كان المتظاهرون يهتفون بحماسة: «تسقط الأحزاب.. تسقط الديمقراطيّة.. يعيش جمال عبد الناصر».

كلّ هذه المهامّ «الوطنيّة» يؤدّيها عدلي متطوّعًا وهو يترك للمخبر ين مهمّة د فع الأمو ال اللاز مة للمتظاهر ين و لا يتقا ضى هو جنيهًا واحدًا. بالمقابل، يترك الأمن عدلي الأسود ليمارس نشاطه كما يحلو له ولكن بشرطين تمّ الاتّفاق عليهما مع ضبّاط المباحث: أولًا أن يبيع الحشيش داخل ملهى الأنجلو فقط لا في الشارع ولا في أيّ مكان آخر وثانيًا ألّا تفضي أيّ مشاجرةٍ يخوضها عدلي إلى جريمة قتل.

هل اكتمل تعارفنا إلى عدلي الأسود؟

ليس تمامًا..

بقي أن نعرف أنّ عدلي يتمتّع بحسٍّ أخلاقيّ «خاصّ» فهو مثلًا يعتبر نفسه «فتوّة» وليس «بلطجيًّا» بمعنى أنّه يكسب رزقه بقوّته وشجاعته لكنّه لا يفتري على الناس أو يبتزّهم ليدفعوا له إتاوةً كما يفعل البلطجيّة، وعندما يتدخّل في أيّ نزاع فإنّه يساعد المظلوم ويرفض مساعدة الظالم مهما يكن الإغراء المادّي، وقد ذاعت سيرة شهامته في الاسكندريّة فصار المظلومون يلجؤون إليه لينصفهم. أضف إلى ذلك أنّ عدلي يبيع الحشيش فقط وقد رفض مرارًا أن يبيع الكوكايين والأفيون والهيروين مع أنّ مكسبها أضعاف مكسب الحشيش. عدلي يؤمن بأنّ الحشيش له فوائد جمّة على عكس المخدّرات الأخرى التي تدمّر الإنسان وتقضي عليه.

«الحشيش نعمة من ربّنا وعلاج لأمراض كثيرة.. الإنسان إذا انسطل تلاقيه يفكّر ويأكل وينام أحسن من الصاحي»، هكذا يقول عدلي دائمًا. صحيح أنّه شخصيًّا لا يدخّن الحشيش لكنّ ذلك يرجع إلى طبيعة عمله التي تتطلّب الإقدام والمبادرة بينما الحشيش يدفع متعاطيه إلى الهدوء والتأمّل. الخمر وحدها تضع عدلي في حالةٍ مناسبة لعمله وهو منذ العصر عندما يتناول وجبته الأولى حتّى صباح اليوم التالي عندما يأوي إلى الفراش لا ينقطع عن شرب الويسكي، يشربه صرفًا بلا ثلج ولا ماء ولا صودا وهو لا يسكر ولا يطرب ولا ينتشي لكنّه فقط، بفضل الويسكي، يحتفظ بجسارته وقدرته على التعامل السريع الحاسم مع أيّ موقف.

كلّ ليلةٍ يتردّد على كباريه الأنجلو أنواعٌ مختلفة من البشر، زبائن الكباريه ومتعاطو الحشيش وأصحاب المظالم (الذين يستنجدون بعدلي). بالخبرة يستطيع بوّاب الملهى أن يميّز بين الأنواع الثلاثة وهو يتعامل باحترامٍ بالغ مع الزبائن والحشّاشين طمعًا بالبقشيش لكنّه أيضًا يحنو على المظاليم ويسألهم بودّ:

– عاوزين عمّ عدلي؟ تفضّلوا.

ثمّ يصطحبهم وسط الصخب والرقص إلى مكتب عدلي. منذ أسبوع جاءت امرأةٌ شابّة ترتدي السواد وتحمل طفلًا نائمًا على كتفها. بدا منظرها متنا فرًا مع المكان واستقبلها عدلي بترحابٍ وطلب لها كوبًا من عصير المانجة. حكت السيدة قصّتها باختصار. خصمها هو الحاج صبحي الفطاطري الشهير في حيّ بحري. الحاج صبحي له أخٌ أصغر كان عنده محلّ فطاطري في سيدي بشر، هذا الأخ تزوّج هذه المرأة وأنجب منها ابنها أيمن ثمّ تُوفّي في حادث. عندئذٍ وضع الحاج صبحي يده على محلّ أخيه وهو يستولي على إيراد المحلّ ويعطي أمّ أيمن ملاليم لا تفي باحتياجاتها.

كان عدلي يستمع إلى السيّدة وهو يحتسي الويسكي ببطءٍ ثمّ بدت عليه علامات التفكير وسألها:

– طلباتك يا أمّ أيمن؟

قالت أمّ أيمن بدون تفكير:

– يسيب لنا المحلّ الصغير لأنّه حقّنا.

– أنتِ تكلّمتِ معه؟

– كلّمته كثير وآخر ما زهقت رفعت قضيّة لكنّ المحاكم حبالها طويلة وهو مقتدر ويده طايلة وعنده بدل المحامي عشرة. حتّى لو كسبت القضيّة من يقدر يخرجه من المحلّ؟

صبّ عدلي كأسًا جديدة وقال بصوتٍ خافت:

– عجيبة. الحاج صبحي ما شاء اللّه مليونير. مش محتاج.

– طمع وافتراء.. حسبي اللّه ونعم الوكيل.

هكذا قالت أمّ أيمن بمرارة..

أشعل عدلي سيجارة وجذب نفسًا عميقًا ثمّ قال:

– خلاص يا أمّ أيمن. سيبي لي الموضوع وإن شاء اللّه خير.

ثمّ فتح كرّاسةً أمامه وقال:

– اكتبي لي تليفونك هنا وأنا حأقابل الحاج صبحي وأقول لك على النتيجة.

– ربّنا يبارك لك.

بدت أمّ أيمن محرجة وكأنّها تريد أن تقول شيئًا. أدرك عدلي ما تفكّر فيه فابتسم وقال:

– فيه حاجة تاني؟

قالت أمّ أيمن بصوتٍ متردّد:

– بالنسبة لأتعاب حضرتك.

أطلق عدلي ضحكةً عالية وقال:

– أتعابي بسيطة: فطيرة كلّ أسبوع.

تطلّعت إليه أمّ أيمن باستغرابٍ فاستطرد مؤكّدًا:

– بجدّ.. تعملي لي فطيرة على مزاجك أبعت آخذها كلّ جمعة بعد الصلاة.

ابتسمت أمّ أيمن وقالت بحماسة:

– تحت أمرك يا عمّ عدلي.

في اليوم التالي أرسل عدلي أحد مساعديه ليقوم بالتحرّيات اللازمة فعاد وأخبره بأنّ حكاية أم أيمن صحيحة وأنّ الحاج صبحي يذهب إلى المحلّ المغتصب بعد منتصف الليل ويجلس هناك ما يقرب من ساعتين كلّ يوم ليراجع الحسابات ويتسلّم الإيراد. اتّصل عدلي بأمّ أيمن وكلّفها بمهامّ محدّدة ثمّ ذهب بعد منتصف الليل مع اثنين من مساعديه فوجد الحاج صبحي جالسًا على باب المحلّ يدخّن الشيشة. كان في الخمسينيّات من العمر ضخم الجثة يرتدي جلبابًا أبيض وجاكت كحليّة. ألقى عدلي السلام فردّ الحاج صبحي بفتور وسحب عدلي كرسيًّا وجلس عليه بينما ظلّ مساعداه واقفين. ابتسم وقال:

– محسوبك عدلي الأسود متعهّد أفراح.

لم يردّ الحاج صبحي وإنما جذب نفسًا عميقًا من الشيشة أصدر قرقرةً عاليةً وقال باقتضاب:

– طلباتك يا سي عدلي؟

– الست أمّ أيمن أرملة المرحوم أخوك كلّفتني أقابلك بخصوص المحلّ.

– وأنت مالك بالموضوع ده؟

هكذا قال الحاج صبحي بغضبٍ فردّ عدلي بنبرةٍ عاديّة:

– أمّ أيمن طلبت منّي أتدخّل.

– بصفتك إيه؟

– اعتبرني محامي وأمّ أيمن وكّلتني... صلِّ على النبي يا حاج.

دمدم الحاج صبحي بكلماتٍ غير مفهومة فاستطرد عدلي بهدوء:

– أنت ربّنا فتح عليك وعندك المحلّ الكبير. سيب المحل ده لأمّ أيمن لأجل تربّي ابنها اليتيم. المحلّ من حقهم. تحبّ تسلّمنا المحلّ إمتى؟ يوم السبت يناسبك؟

هنا صاح الحاج صبحي:

– بأقولك إيه يا عين أمّك.. قل للوليّة اللي باعتاك أنا مش حاسلّم محلّات. مش هي راحت المحاكم؟ خلّي المحكمة تنفعها.

– يا حاج صبحي الطيّب أحسن. والنبي تسيب لهم المحلّ إكرامًا للمرحوم أخوك.

– بأقول لك إيه يا بربري الكلب أنت! امشي من هنا أحسن لك!

سار الحوار كما توقّع عدلي فوقف واقترب من الحاج صبحي وقال:

– أنا كنت عاوز أعطيك فرصة تجهّز أمورك لكن حيث إنّك قليل الأدب أنت حتسلّم المحلّ دلوقت حالًا.

انتفض صبحي غاضبًا ورفع الشيشة وعليها الفحم المشتعل وألقى بها بكلّ قوّته على عدلي.

8

ثمّة حكاياتٌ تتردّد في الاسكندريّة عن توني كازان يجب أن نناقشها:

أولًا: هل يتعاون توني كازان مع المخابرات؟

عندما أنشأ توني مصنع الشوكولاته عيّن مديرًا ماليًّا اسمه زكي شحاته وأثناء العدوان الثلاثي على مصر عام 1956 أُلقي القبض على زكي لأنّه يهودي وبعد أن قضى بضعة شهور في المعتقل طُرد مع أسرته من مصر. عندئذٍ راح توني يبحث عن مسؤولٍ ماليّ آخر حتى عثر على بدوي خضير الذي، بالإضافة إلى كفاءته في المحاسبة، أسدى لتوني نصائح مفيدة، فهو الذي اقترح عليه تعليق صورة بالحجم الطبيعيّ للزعيم عبد الناصر على بوّابة المصنع ثمّ حثّه على نشر إعلان مدفوع الأجر على نصف صفحة كبيرة في جريدة الأهرام لتهنئة سيادة الرئيس عبد الناصر بفوزه الساحق في الاستفتاء بنسبة 99,9 ٪. تكرّرت نصائح بدوي خضير حتّى استدعاه توني كازان إلى مكتبه ذات يوم وقال:

– اسمع يا بدوي، بصراحة أنا أفهم في الشوكولاته لكنّي لا أفهم في السياسة. أنا عيّنتك المسؤول السياسي للمصنع بالإضافة إلى عملك كمحاسب. مهمّتك تجنيب المصنع أيّ مشاكل مع الحكومة.

تولّى بدوي خضير هذه المسؤوليّة باقتدار فصار يطلب إجراءاتٍ معيّنة يتمّ تنفيذها فورًا. عندما كان عبد الناصر يزور الاسكندريّة كان بدوي يجمع العمّال ويخرجهم في تظاهرة حبٍّ يحملون فيها لافتةً لمبايعة الزعيم وكان (بالإضافة إلى إعلانات الأهرام) يرسل برقيّات تهنئةٍ لرئاسة الجمهوريّة يؤكّد فيها أنّ توني كازان والعمّال والإداريّين في المصنع يقفون جميعًا صفًّا واحدًا خلف زعيم الأمّة العربيّة جمال عبد الناصر ويدعون الله أن يسدّد خطاه على طريق النصر. لم يتعاون توني كازان إذن مع المخابرات لكنّ مستشاره السياسيّ بدوي خضير نجح في إنشاء منطقةٍ عازلة (Buffer

zone)، لحماية المصنع من التقلّبات السياسيّة العنيفة التي شهدتها مصر منذ استيلاء الجيش على السلطة عام 1952.

ثانيًا: هل يعاني توني كازان من داء البخل؟

قد يكون سبب السؤال أنّ توني برغم ثرائه لا يملك إلّا سيّارةً واحدة (ماركة بويك طراز 1960). الحقيقة أنّ توني شخصٌ بسيط لا تستهويه المظاهر كما أنّه يعيش وحده بلا أسرة وبالتالي فإنّ سيّارةً واحدةً تكفيه. لكن هل هو بخيل؟.. لن نتحدّث عن المرتّبات الكبيرة التي يمنحها توني للعمّال ولا عن النادي الرياضيّ الذي أنشأه خصّيصًا لأولاد العاملين.. سنذكر واقعةً واحدة معروفة:

ذات صباح كان توني جالسًا في مكتبه عندما جاءه صوت السكرتيرة ناتالي عبر الديكتاتفون: «الأسطى كرّار يريد مقابلتك».

كان توني يراجع الطلبيّات التي وصلت من البلاد العربيّة فقال لناتالي:

– أنا مشغول الآن.. ممكن يقابلني آخر النهار؟

قالت ناتالي بالفرنسيّة:

– إنّه يصرّ على رؤيتك حالًا.

بعد لحظات دخل رجلٌ ضخم الجثّة في منتصف الأربعينيّات يرتدي أفرول المصنع. رحّب توني به وسأله فحكى ما حدث..

كرّار في الأصل صعيدي من بلدة دراو في محافظة أسوان وقد هاجر إلى الاسكندريّة بحثًا عن الرزق والتحق بالعمل في مصنع كازان منذ عشرة أعوام. تزوّج كرار بآمنة ابنة عمّه وأنجب منها ولدًا وبنتًا. كانت الحياة طبيعيّة حتّى لاحظ كرّار أنّ زوجته تتصرّف بطريقةٍ غريبة. عندما يستيقظ أثناء الليل ليذهب إلى الحمّام يجدها جالسةً في الصالة وقد أطفأت الأنوار. لمّا تكرّر الأمر سألها كرّار فأجابت بنبرةٍ غريبة:

– عاوزين يؤذوني.

تحدّثت آمنة عن أرواحٍ من الجنّ تهاجمها وتصرخ في أذنها وهي نائمة وقد فسّرت ذلك بأنّ رقيّة (وهي فتاةٌ من دراو كانت تريد الزواج بكرّار) قد سحرت لها. فوجئ كرّار بكلام آمنة ونصحها بقراءة القرآن لأنّه، وحده، الحماية الحقيقيّة من السحر. كان لديه أملٌ غامض بأن تعود زوجته إلى حالتها الطبيعيّة لكنّ الأمر ازداد سوءًا فقد عاد يومًا من المصنع فوجد الطفلين يبكيان بينما جمعت آمنة

ثيابها في حقيبة وقالت: «رقيّة سحرت كلّ حاجة في البيت وأنا قرّرت أرمي كلّ الهدوم لأنّها تجلب لنا النحس».

كان هذا المشهد كافيًا لكي يتّخذ كرّار قراره فأخذ الطفلين ليعيشا عند أخته في الأزاريطة واتّفق مع سائق تاكسي لكي يوصلهما إلى المدرسة ويرجعهما بدلًا من آمنة التي تفاقمت حالتها وصارت تتصارع مع الجنّ وتصرخ فيهم بينما لا يراهم أحد سواها. وقد استيقظ كرّار هذا الصباح فوجد آمنة وقد أغلقت على نفسها الحمّام وراحت تقرأ القرآن بصوتٍ مرتفع. خبط كرّار على باب الحمّام فخرجت إليه عارية. قال لها إنّه لا تجوز قراءة القرآن في الحمّام لأنّه مكان غير طاهر. عندئذٍ نظرت إليه آمنة بغضبٍ وصرخت فيه:

– أنت بقيت معهم يا كرّار؟ حتّى أنت بقيت ضدّي؟!

هنا لم يتمالك كرّار نفسه فانهمرت دموعه وقال:

– يا مسيو توني أنا صعبان عليّ أشوف آمنة في الحالة دي.

تطلّع إليه توني بأسى وقال:

– شدّ حيلك. المرض النفسي ممكن يصيب أيّ حدّ. إن شاء اللّه تخفّ وترجع أحسن من الأول.

طلب توني من السكرتيرة استدعاء بدوي خضير الذي جاء بسرعةٍ فبادره توني قائلًا بلهجةٍ رسميّة:

– الأسطى كرّار في إجازة مفتوحة بمرتّب كامل. المدام عنده مريضة والمصنع راح يتحمّل تكاليف علاجها بالكامل، مهما تكون.

هذه الواقعة يشهد عليها كلّ العاملين في المصنع وقد تصرّف توني بنفس الطريقة مع عمّال آخرين تعرّضوا لظروفٍ مماثلة.

ثالثًا: لماذا لم يتزوّج توني كازان رغم أنّه جاوز الأربعين؟ هل هو عاجزٌ جنسيًّا أم هو مثليٌّ يميل إلى الرجال؟

هناك صديقان لتوني تحدّثا معه في مسألة زواجه: كارلو ساباتيني وعبّاس القوصي.

قال له كارلو:

– عزيزي توني. أحذّرك.. إيّاك أن تتزوّج.. الزواج شركة فاشلة يتمّ فيها استغلالك وابتزازك. المرأة لا تحبّك أنت لكنّها تحبّ المشروع الذي ستقدّمه لها. تحبّ نوع الحياة التي ستضمنها لها. تحبّ لقب الزوجة الذي ستمنحه لها وتحبّ الأطفال الذين ستنجبهم منك. أنت بالنسبة للمرأة مجرّد أداة لا أكثر ولا أقلّ. هذه الحقيقة

فلا تخدع نفسك. أضف إلى ذلك أنّ المرأة ممثّلة بالطبيعة وهي تكذب كما تتنفّس. إيّاك أن تحبّ المرأة أو تصدّقها. استمتع بها كما تشاء ولا تتزوّجها وإذا مللتها اهجرها فورًا ولا تتأثّر بدموعها لأنّكما لو تبادلتما الأدوار وكانت هي الطرف الأقوى فلسوف تسحقك بلا رحمة.

عندئذٍ ضحك توني وقال:

– برغم كلّ هذا العداء للمرأة فأنت تبدّل عشيقاتك مثل الجوارب.

ردّ كارلو بجدّية:

– أنا لا أعادي المرأة لكنّي أراها على حقيقتها.

على عكس كارلو الموتور فإنّ عبّاس القوصي سأل توني باهتمام:

– متى تتزوّج؟

ردّ توني:

– سأتزوّج يومًا ما.

– قل لي سببًا واحدًا يمنعك من الزواج.

– حتّى الآن لم أجد امرأةً أحبّها..

– كثيرًا ما يأتي الحبّ بعد الزواج.

– وقد لا يأتي.

– تزوّج بالطريقة التقليديّة.

ابتسم توني وقال:

– الرجل والمرأة في الدنيا كلّها يحبّان بعضهما بعضًا لفترةٍ كافية ثمّ يتّخذان قرار الزواج ونحن في مصر نتزوّج أولًا ثمّ نتعارف.. يستحيل أن أفعل ذلك.

– اسمح لي.. كيف تزوّج والدك ووالدتك؟

– صحيح أنّهما تزوّجا بالطريقة التقليديّة وصنعا أسرةً ناجحة وربّياني أنا وأخي بأفضل ما استطاعا لكنّني متأكّد من أنّهما لم يكونا سعيدين.

– أنت رجلٌ رومانسيّ.

– أنا رجلٌ طبيعيّ.

– بهذه الطريقة لن تتزوّج أبدًا.

ضحك توني وقال:

– Les mariages se font au ciel (الزواج يُكتب في السماء).

كان توني يعرف – طبعًا – أنّ جميلاتٍ كثيرات في الاسكندريّة يتمنّين الزواج به لأنّه ناجحٌ وثريّ لكنّهنّ – كما يقول كارلو – لا يحببن شخصه بل يحببن المشروع الذي يقدّمه لهنّ. ليس هذا ما يبحث عنه.. كان يريد أن يعيش قصّة حبٍّ حقيقيّة. امرأة تحبّه هو دون سواه، تتعلّق به وتقرّر البقاء معه حتّى لو خسر ثروته وأصبح فقيرًا. أين هي هذا المرأة؟ لو ظهرت هذه الحبيبة لتشبّث بها وعاش معها حتّى نهاية العمر. لكنّها لم تظهر. كثيرًا ما يسأل توني نفسه لماذا لا تنجذب النساء إليه.. هل تكون بدانته السبب أم قلّة أناقته؟ أخوه فيليب رشيق وهو يتأنّق دائمًا فيبدو كنجمٍ سينمائيّ أمّا هو ففي غير المناسبات الرسميّة لا يهتمّ بأناقته. كلّ ما يهمّه أن تكون ثيابه مريحةً حتى لا تعوق حركته أو ترهقه أثناء ساعات عمله الطويلة. كان يحسّ أحيانًا أنّ النساء لا يأخذنه بجدّية، يعتبرنه طيّبًا ومسلّيًا لكنّه خامل، مترهّل، عاجز عن الغواية، إنّه ببساطةٍ يفتقر إلى ذلك «الشيء» الذي يجذب المرأة إلى الرجل. أحيانًا أخرى يخطر له أنّه يخدع نفسه. إنّه يتظاهر بالبحث عن الحبّ وهو في الحقيقة يهرب منه.. إنّه يدرك أنّ الحبّ سيغيّر حياته وهو، في أعماقه، لا يريد أن يغيّرها. الحبّ علاقةٌ معقّدةٌ تحتاج إلى وقتٍ ومجهود. لا بدّ من أن تمنح حبيبتك كلّ اهتمامك وترعاها في كلّ لحظة، لا بدّ من أن تقابلها كثيرًا وتكلّمها في التليفون يوميًّا وتنصت باهتمامٍ إلى كلّ أحاديثها (مهما تكن مملّةً أو تافهة). يجب أن تطارحها الغرام وتدلّلها وتداعبها وتخاصمها ثمّ تصالحها. لا يملك توني هذه الرفاهية ولن يفعل ذلك أبدًا.. لقد نشأ على حبّ التفوّق ويستحيل أن يضيّع وقته. يشعر دائمًا بأنّه في سباقٍ يجب أن يفوز فيه بالمركز الأول. هل كان يفضّل لو كان أقلّ نجاحًا وأكثر حظًّا مع النساء؟ ليس متأكّدًا من الإجابة. يستحيل أن يتصوّر حياته بغير الإنجازات التي حققها. إنّ مشكلته مع النساء ليست جديدة، لقد لازمته منذ كان يدرس في أكسفورد، اتّخذ معظم زملائه العرب خليلاتٍ إنجليزيّات أمّا هو فكان في نهاية الأسبوع يستقلّ القطار من أكسفورد إلى لندن ليصرّف شهوته مع فتيات الليل. ما زال حتّى الآن يفعل نفس الشيء. يصرف السائق ويقود السيّارة بنفسه ثمّ يلتقط الساقطات على الكورنيش أمام كازينو الشاطبي. الساقطات يعرفن مسيو توني. ينتظرن دعوته ويتسابقن إلى الركوب معه في السيّارة بسبب كرمه ومعاملته الطيّبة. الرجل

المتزوّج قد يضاجع الساقطة لأنّها تشعره بالسيادة عليها أو لأنّه يتفحّش معها ولا يستطيع ذلك مع زوجته. الأعزب يصاحب الساقطات ليصرف عنه الشهوة الملحّة التي تقوّض أعصابه. معظم الرجال يستعملن الساقطات بفظاظةٍ واحتقار. توني، على العكس، يتعامل مع الساقطات ببساطةٍ وندّية. يطلب إليهنّ أن ينبسطن معه وينادينه باسمه مجرّدًا. كان يمارس معهنّ الجنس بلا عنفٍ ولا استعلاء وإنما على نحوٍ مستأذنٍ لطيف. بعد أن تنقضي شهوته لا يصرف المرأة ولا يفقد اهتمامه بها ولا يستسلم للنوم كما يفعل رجالٌ كثيرون بل يحتضنها بمحبّةٍ وامتنان. كان يعطف بصدقٍ على الساقطات ويستمع إليهنّ بتفهّمٍ عندما يحكين عن الظروف التي دفعتهن إلى «المقدّر» (هكذا يصفن عملهنّ)، كان توني يقدّم لهن عشاءً ساخنًا ويجزل لهنّ في العطاء وفي نهاية السهرة يكلّف بوّاب الفيلا فيطلب لهنّ تاكسي ويدفع حسابه مقدَّمًا لكي يوصلهنّ إلى حيث يردن. وكم يكون المشهد غريبًا عندما تخرج المرأة الساقطة في الفجر من فيلا كازان، بفستان السهرة القديم البائس وعلى وجهها بقايا الماكياج الثقيل بينما هي تحتضن كيسًا كبيرًا ممتلئًا عن آخره بأنواعٍ مختلفةٍ من شوكولاته كازان.

في النهاية كانت علاقته بالساقطات تلائم نظام حياته: متعةٌ مؤقّتةٌ مع امرأةٍ خبيرةٍ يدفع ثمنها ثمّ يعود بسرعة إلى العمل.

أخيرًا: لماذا لم ينشئ توني كازان إدارةً قانونيّة للمصنع واختار عبّاس القوصي كممثّله القانونيّ لمجرّد أنّه صديقه؟ أليس هذا دليلًا على المحسوبيّة وانعدام الموضوعيّة؟

عبّاس القوصي صديقٌ قديمٌ لتوني كازان، كانا زميلين في فيكتوريا كوليج ثمّ سافر توني إلى أكسفورد بينما التحق عبّاس بكليّة الحقوق وتخرّج ليعمل في مكتب القوصي الذي تولّى إدارته بعد وفاة أبيه. كلّ هذا صحيح، لكنّ الصحيح أيضًا أنّ عبّاس القوصي من أكبر المحامين في الاسكندريّة وصاحب أيّ مصنع يتمنّى أن يكون عبّاس القوصي محاميًا عنه (إذا استطاع أن يدفع أتعابه). اختيار توني لعبّاس القوصي المحامي يستند إذن إلى أسبابٍ موضوعيّة لا شخصيّة. ثمّ لماذا نذهب بعيدًا ولدينا دليلٌ قاطعٌ على موضوعيّة توني؟ عندما تمّ إغلاق مكتب المحاسبة الذي يعمل فيه جليل شقيق

عبّاس طلب عبّاس من توني مساعدة أخيه جليل. فكّر توني قليلًا ثمّ قال بلهجةٍ جادّة:

– المصنع فعلًا محتاج محاسب لكن ما أقدرش أوعدك أن جليل يشتغل. لازم نعمل له امتحان محاسبة في الأول. لو نجح أعيّنه ولو سقط يبقى ما ينفعش. سأنتظره في مكتبي يوم الاثنين 10 الصبح.

9

لأول وهلةٍ ظنّت نعمت أنّها أخطأت في العنوان لأنّ السيّدة التي فتحت لها الباب لم تكن تشبه نظلة العالمة التي قابلتها في الفرح. كان وجهها خاليًا من الماكياج فبدت شاحبةً ومتقدّمةً في السنّ وقد لفّت شعرها على الرولو وارتدت فستانًا منزليًا بسيطًا لونه أخضر غامق وشبشبًا تبرز منه أصابع قدميها المطليّة بلونٍ أحمر. تطلّعت نظلة إليها باسترابة وقالت:

– أيّ خدمة؟

– أنا نعمت.

– نعمت مين؟

ذكّرتها نعمت بنفسها فابتسمت وصافحتها ودعتها للدخول. كانت الشقّة من الطراز القديم حجراتها فسيحة وسقفها مرتفع. وقفت نظلة في الممرّ وهمست بودّ:

– احضري معايا البروفة وبعدين نتكلّم براحتنا.

أجلستها بجوارها وطلبت لها كوبًا من الشاي قدّمته لها الخادمة. راحت نعمت تتفرّج. كان هناك بضعة موسيقيّين يعزفون وراء مغنّيةٍ شابّة صوتها جميل. لسببٍ ما كانت نعمت تتخيّل الموسيقيّين دائمًا بملابس السهرة واستغربت الآن وهي تراهم يعزفون وقد ارتدوا ملابس عاديّةً مثل المارّة في الشارع. راحت نظلة تتابع البروفة وأحيانًا تمسك الإيقاع بتصفيقةٍ خافتةٍ بيديها وقد أوقفت المغنّية أكثر من مرّة لتوجّهها. مرّةً تصلح النطق ومرّةً تبيّن لها النشاز الذي عملته وتعيدها إلى المقام الموسيقيّ الصحيح. كانت المغنّية تستجيب وتجتهد لتنفّذ توجيهات نظلة. في النهاية صاحت نظلة بمرح:

– برافو عليك يا جميلة. فاضل حاجة واحدة: لازم تبتسمي وأنتِ بتغنّي. أنت بتغنّي في فرح. الناس جايين يفرحوا.

– تحت أمرك.

لاحظت نعمت أنّ المغنّية والموسيقيّين يعاملون أبلة نظلة باحترامٍ وودّ. انتهت البروفة وانصرف الجميع وقالت نظلة للخادمة:

– اعملي لنا سندوتشات نتعشّى.

حاولت نعمت الاعتراض فنهرتها نظلة بدعابة:

– اسكتي يا بنت!

كانت نعمت جائعةً فعلًا وأكلت بشهيّة وبينما هما تتناولان الشاي بالنعناع أشعلت نظلة سيجارة حشيش انبعثت رائحتها القويّة في المكان ثمّ نظرت إلى نعمت وقالت بودّ:

– خطوة عزيزة يا نعمت.

– يعزّ مقدارك يا أبلة نظلة.

– أيّ خدمة يا حبيبتي؟

– حضرتك عجبك رقصي لمّا تقابلنا في الفرح.. فاكرة؟

– فاكرة.

– أنا نفسي أشتغل في الرقص.

– أهلك موافقين؟

– أنا سبت أهلي.

– عندك كم سنة؟

– أتم 21 سنة بعد شهرين.

– إيه سبب الزعل مع أهلك؟

تردّدت نعمت لحظة لكنّ نظلة تطلّعت إليها بحنانٍ وقالت:

– احكي لي..

لم تتمالك نعمت نفسها وبكت. عندئذٍ قامت نظلة من مكانها وجلست بجوارها واحتضنتها. حكت نعمت كلّ شيء ثمّ ساد الصمت. أشعلت نظلة سيجارةً ملفوفة أخرى وقالت:

– بصّي يا نعمت. صلّي على النبي..

– اللهمّ صلِّ عليه.

– عاوزة رأيي؟

– طبعًا.

– أولًا احمدي ربّنا أنّك ماجبتيش عيال من الرجل الليبي كانت تبقى مشكلة. ثانيًا أمّك بتحبّك لكن السكّينة سارقاها. عندها غشاوة

على عينيها. مسيرها تفوق وترمي الجربوع قدري في الشارع وترجع لك.

– عمري ما أسامحها.

– يا ما بيحصل في البيوت.. أمّك عمرها ما تهون عليك ولا أنت تهوني عليها.

أطرقت نعمت في صمت ثمّ سألتها نظلة:

– معاكِ شنطة؟

– لو كنت خذت الشنطة كانوا فهموا أنّي طفشانة.

– ولا يهمّك.. بسيطة.

أخذتها نظلة إلى حجرةٍ كبيرةٍ بجوار الحمّام في آخر الممرّ ثمّ أعطتها فوطًا نظيفة وقميص نومٍ وتطلّعت إليها وقالت:

– حتلاقي الهدوم واسعة عليكي.. معلهش.. نامي الليلة بها والصباح رباح.

قبّلتها نظلة وخرجت. أخذت نعمت حمّامًا ساخنًا ثمّ ارتدت قميص النوم وارتمت على السرير وسرعان ما استغرقت في نومٍ عميق حتّى أيقظتها نظلة في الصباح وقالت:

– لازم نروح زنقة الستات ونرجع قبل العصر لأجل ألحق البروفة.

لن تنسى نعمت أبدًا فضل أبلة نظلة. اشترت لها فستانين وحذاءً وجوارب وملابس داخليّة وقميص نوم. شكرتها نعمت بحرارة فقالت نظلة:

– دي حاجة بسيطة.

قالت نعمت بامتنان:

– حضرتك اشتريتي لي حاجات كتيرة.

ضحكت نظلة وقالت:

– كله سلف ودين.. بكره تشتغلي وتكسبي وآخذ منك كثير.

كانت الثياب الجديدة أنيقة حقًّا حتّى إنّ نعمت استعرضتها أمام المرآة أكثر من مرّة.

بعد العشاء قالت نظلة:

– بصّي يا نعمت. هاللّه هاللّه على الجدّ.

– والجدّ هاللّه هاللّه عليه.

– من بكره نبتدي الشغل.

– تحت أمرك.

في اليوم التالي أحضرت نظلة بدلة رقص على مقاس نعمت وشرحت لها مكوّناتها وعلّمتها كيف تلبسها وتخلعها بدون مساعدة من أحد ثمّ أوقفتها في وسط حجرة البروفات وسألتها:

– تحبّي ترقصي بجزمة ولا حافية؟

ابتسمت نعمت وقالت:

– بصراحة أنا متعوّدة أرقص حافية.

– مفهوم. وأنتِ حافية تبقي على راحتك. المشكلة لمّا ترقصي حافية أنّ رجلك تتوسّخ من أرضيّة المسرح ويبقى شكلها مش لطيف. أنا أجيبلك جزمة رقص قماشها خفيف حتحسّي كأنّك حافية بالضبط.

أشارت نظلة إلى جهاز الـ«بيك آب» الموضوع في ركن الحجرة وقالت:

– روحي اختاري أسطوانة ترقصي عليها.

اختارت نعمت أسطوانة كارم محمود «والنبي يا جميل حوش عنّي هواك» التي كانت ترقص عليها عند جارتها نوال. راحت نظلة تراقبها وقد بدا على وجهها تعبيرٌ جادّ ولما انتهت الأغنية قالت:

– رقصك حلو يا نعمت.. عندك مشكلة واحدة.

– إيه هي؟

– دراعك.. أنا حاسّة أن جسمك في مكان ودراعك في مكان.. كأنّك حيرانة مش عارفة تعملي إيه بدراعك..

– ممكن حضرتك تعلّميني أعمل إيه بدراعي.

ضحكت نظلة عاليًا وبدت مستمتعةً بالحوار. تطلّعت إلى نعمت وسألتها:

– شفت الستّات الأجانب وهم بيرقصوا بلدي؟

– لا.

– عمر الست الأجنبيّة ما تحسّ بروح الرقص البلدي. همَّ بيتعلّموا حركات يعملوها كأنّها تمرينات رياضيّة. الرقص روح مش حركات.. أيّ ستّ مصريّة لازم تعرف ترقص. الرقص في دمّنا. في الأفراح ممكن تلاقي واحدة معزومة بترقص أحسن من الرقّاصة نفسها. أنا عمري ما أعلّم الرقص على أنّه حركات. أنا أسيب الواحدة تطلع كلّ الرقص اللي جوّاها. مجرّد أقول لها ملاحظات.

– يعني حضرتك عاوزاني أعمل إيه؟

– عاوزاكِ تنسي كلّ حاجة وتسيبي جسمك للموسيقى.. ساعتها حتلاقي دراعك بيتحرّك صح.

أدارت نعمت الموسيقى من جديد بينما راحت نظلة تراقبها وقالت:

– جميل.. أحسن كتير.. ناقص حاجة أخيرة.

– تحت أمرك.

– لازم تعرفي أنّ الرقص استعراض حلاوة. الست ترقص قدّام الرجل لأجل تعجبه وتجذبه... صحّ؟

هزّت نعمت رأسها فاستطردت نظلة:

– يبقى لازم وأنتِ بترقصي تحسّي أنّك حلوة ولازم تبيّني لي الدلع.. الدلال.. فاهمة؟

– فاهمة.

– فرجيني.

أدارت نعمت أسطوانة «على شطّ بحر الهوى» واندمجت تمامًا كما طلبت منها أبلة نظلة التي بدت سعيدةً وقالت:

– دي أحسن مرّة.. برافو!

سألتها نعمت:

– يعني خلاص حاشتغل يا أبلة؟

– لا طبعًا.. لازم نعمل بروفات لغاية ما تبقي جاهزة.

– تحت أمرك.

خلال أسبوعين عقدت معها عشر جلسات تدريب وفي النهاية قالت لها:

– أنتِ بقيت جاهزة.. بكره بالليل نروح نقابل المعلّم بونانزا.

– من بونانزا؟

– صاحب كباريه الأنجلو في محطّة الرمل.

– اسمه غريب.

ضحكت نظلة وقالت:

– هو اسمه الحقيقي فرج لكن الناس سمّته بونانزا.

– إيه السبب؟

– بونانزا ده مسلسل أجنبي كان معروض في التليفزيون. أنا طبعًا عمري ما شفته لكن حميدو الطبّال قال لي إنّ فرج شبه بطل المسلسل الخالق الناطق. ده السبب انهم سمّوه بونانزا.

صمتت نظلة ثمّ استطردت:

– لازم تعرفي أنّ الريّس بونانزا طبعه عجيب. ما تستغربيش منه.

– عجيب ازاي؟

– يعني مثلًا ما بيتكلمش.

– هو أخرس؟

ضحكت نظلة وقالت:

– لا لسانه سليم لكن طبعه قليل الكلام جدًّا..

– نفسي أعرف رأيه في رقصي.

– هو في الغالب حيكلّمني أنا.

ارتبكت نعمت قليلًا فوضعت نظلة يدها على كتفها وقالت:

– بصّي يا نعمت، بونانزا كلامه قليل وله أحوال غريبة لكنّه في نفس الوقت جدع وابن حلال وبيفهم. إن شاء اللّه يكون لك نصيب وتشتغلي عنده.

في اليوم التالي أخذتها إلى الأنجلو حوالي الثامنة مساءً. كان بونانزا في نحو الخمسين، متوسّط القامة وأميَل إلى السمنة شعره ناعم وأشيب تمامًا. وتمامًا كما قالت نظلة، كان صامتًا ومتجهّمًا. تفرّج بونانزا على رقص نعمت ولمّا انتهت وقفت أمامه وهي تلهث. لم يوجّه بونانزا إليها كلمةً واحدة لكنّه قام ببطءٍ من مكانه وأشار لنظلة فتبعته إلى ركن القاعة. تبادلا حديثًا هامسًا قصيرًا ثمّ عادت نظلة إلى نعمت وسحبتها من يدها إلى الخارج وعندما ركبت التاكسي بجوارها ابتسمت لها وقالت بمرح:

– بوسيني يا بت يا نعمت!

قبّلتها نعمت على خدّها فقالت نظلة بدعابة:

– ادعيلي.

– ربّنا يخلّيكِ ويكرمك يا أبلة نظلة.

عندئذٍ أطلقت نظلة ضحكةً مجلجلة وقالت:

– مبروك! من بكره حترقصي في الأنجلو.. نمرتك حتكون في نصّ الليل. لازم تبقي موجودة قبل نمرتك بساعة لأجل تجهّزي نفسك.. حتشتغلي كلّ ليلة لمدّة أسبوع بدون أجر ولو بونانزا انبسط منك راح يرتّب لك مرتّب شهري.

10

تطلّعت شانتال إلى أعضاء الكوكاس وابتسمت وقالت:

– أصدقائي.. أريد أن أستشيركم في موضوع قبل أن أسكر.

صاح توني بمرح:

– الليلة فقط سوف تتصرّف شانتال بحكمة.

ضحك الحاضرون لكنّ شانتال استطردت بجدّية:

– أرجو أن تؤجّلوا دعاباتكم لأنّ الموضوع مهمّ.

قال عبّاس:

– نحن نستمع إليكِ.

أشعلت شانتال سيجارة ثمّ قالت:

– هل تعرفون ما هو الـ Department of Moral Guidance (إدارة التوجيه المعنويّ)؟

ساد الصمت لحظة وسأل توني:

– أليست هذه إدارةً في الجيش؟

قال أنس:

– التوجيه المعنويّ تعبيرٌ عسكريّ.

رشف عبّاس من كأسه وقال:

– التوجيه المعنويّ إدارة تابعة الجيش مهمّتها الأساسيّة رفع الحالة المعنويّة للجنود لكنّها في ظلّ الحكم العسكريّ أصبحت الآن تتحكّم في الإعلام والثقافة.

قالت شانتال بحماسة:

– تلقّيت اليوم خطابًا باللغة الإنجليزيّة من إدارة التوجيه المعنويّ.

سألها أنس:

– ماذا يريدون منكِ؟

قالت ليدا:

– احذري وأنتِ تتعاملين معهم.
قالت شانتال:
– لم أتعامل معهم بعد.
سألها عبّاس:
– هل هو منشور تمّ توزيعه على المكتبات أم أنّ الخطاب موجّهٌ لكِ بشخصك؟
أخرجت شانتال الخطاب من حقيبتها وقالت:
– سأقرأ لكم الخطاب.

السيدة شانتال لومتر
مديرة مكتبة بلزاك
تتقدّم إدارة التوجيه المعنويّ بالاسكندريّة بالشكر لكم على المجهود الذي تبذلونه من أجل توثيق الروابط الثقافيّة بين فرنسا والجمهوريّة العربيّة المتّحدة. إنّ بلادنا في مرحلة النهضة العظيمة التي تمرّ بها تحت قيادة الرئيس جمال عبد الناصر تفتح ذراعيها إلى شعوب العالم كلّها. إنّ الثقافة هي أرقى لغةٍ يتبادلها البشر بغضّ النظر عن اختلافهم في الجنس والدين.
إذا كان لديكم أيّ مشكلة أو تحتاجون لأيّ مساعدة في أيّ نشاط يخصّ المكتبة، برجاء الاتّصال لتحديد موعد لمقابلتي.
مع جزيل الشكر
العقيد سليم عبد الجواد
رئيس إدارة التوجيه المعنويّ بالاسكندريّة

طوت شانتال الخطاب وقالت:
– ما رأيكم؟
قال عبّاس القوصي:
– فخّ جديد.
نظرت إليه شانتال بضيقٍ وقالت:
– لماذا هو فخّ؟
– لا يمكن أن يكون شيئًا آخر.
– لماذا تتوقّع دائمًا مؤامرةً ما؟
– ببساطة لأنّي أعرف أساليب النظام.. هذا العقيد يريد تجنيدك.

– ما غرضه من تجنيدي؟

– حتّى تنقلي إليه معلومات عن روّاد المكتبة.

– ليس لديّ أيّ معلومات كما أنّ عندي في المكتبة موظّفين مصريّين يمكن تجنيدهم بسهولةٍ لو أرادوا.

– ومن قال لكِ إنّهم لم يجنّدوا الموظّفين فعلًا..

سكتت شانتال وبدت كأنّها تبحث عن عباراتٍ مناسبة ثمّ قالت:

– عبّاس.. أنا طبعًا ممتنّة لخوفك عليّ لكنّي أعتقد أنّ كراهيتك لنظام عبد الناصر تدفعك أحيانًا إلى المبالغة.

– أنا لا أبالغ.

– لقد حذّرتني بشدّةٍ من نزع صورة عبد الناصر من باب شقّتي وعندما انتزعها أنس لم يحدث شيء.

– من قال لكِ إنّ شيئًا لم يحدث.. ربّما يكون هذا الخطاب نتيجةً لنزع صورة عبد الناصر.

رشفت شانتال من كأسها وقالت:

– ألا يوجد احتمالٌ ضئيل أن يكون غرضهم مساعدة المكتبات فعلًا؟!

ابتسم عبّاس وقال:

– الغرض الوحيد لأيّ ديكتاتور هو السيطرة على كلّ شيء والتنكيل بالمعارضين حتّى يضمن استمراره في السلطة.

قال توني:

– عبّاس، ما الذي يجب على شانتال أن تفعل في رأيك؟

– تتجاهل الخطاب وكأنّه لم يكن.

– ألا يُعتبر ذلك استفزازًا لهذا العقيد؟

قال عبّاس:

– التجاهل سيدفع العقيد إلى اتّخاذ خطوةٍ أخرى تكشف عن غرضهم الحقيقيّ.. لاحظ أنّه قال حدّدي موعدًا لمقابلتي إذا احتجتِ إلى مساعدة. إذن، الدعوة مشروطة بالاحتياج. إذا كانت شانتال لا تحتاج إلى مساعدة فبإمكانها تجاهل الدعوة.

قال توني:

– وإذا قام باستدعائها من جديد؟

– عندئذٍ سأذهب معها.

قالت شانتال:

– شكرًا على النصيحة.

ابتسم توني وقال:

– الآن انتهى كلام الجدّ وبإمكان شانتال أن تستأنف حماقتها.

ضحكوا جميعًا واستمرّت السهرة. شربت شانتال كثيرًا كعادتها وعندما عادت إلى البيت قامت بإجراءاتها المعتادة: الشوربة الساخنة والزبادي وزجاجة المياه ثمّ نامت. وفي الصباح بعد الحمّام والقهوة أخرجت خطاب العقيد وأعادت قراءته على مهل. تذكّرت ما قاله عبّاس القوصي ثمّ أشعلت سيجارةً وتناولت التليفون وطلبت الرقم وقالت بالإنجليزيّة:

– صباح الخير، اسمي شانتال لومتر. أريد مقابلة العقيد سليم عبد الجواد..

11

أنس

ليست هذه مذكّرات، ولا أنا كاتبٌ محترف... هذه شهادتي على ما حدث. أسجّلها كما عشتها. اسمي أنس الصيرفي. معروفٌ في اسكندريّة باسم «أنس» الذي أوقّع به أعمالي. لو كنتَ من روّاد المطاعم والبارات في اسكندريّة فلا شك أنّك تعرفني أو على الأقلّ رأيتني من قبل. أنا فنّان تشكيليّ. تخرّجت في كليّة الفنون الجميلة. تحمّلت الدراسة في القاهرة المزعجة خمس سنوات كاملة ثمّ عدت إلى الاسكندريّة ولم أغادرها بعد ذلك قطّ. الاسكندريّة عالمي الحقيقيّ. عندما أخرج منها أفقد سلامي النفسيّ وتضطرب روحي. أتحوّل إلى شخصٍ آخر يشبهني. فقط في الاسكندريّة أكون نفسي، بتفاصيلي وأفكاري ومشاعري وحماقاتي. الاسكندريّة ليست مجرّد مدينةٍ ساحليّة وليست مدينةً عربيّة فقط. الاسكندريّة كانت موجودةً لمئات السنين قبل الغزو العربي. الثقافة السكندريّة تحمل طبقةً عربيّة على السطح وتحتها عدّة طبقاتٍ من ثقافاتٍ أخرى. هذا التنوّع الثقافيّ لم يعرفه التاريخ من قبل إلّا في الأندلس حيث عاش المسلمون والمسيحيّون واليهود في تسامحٍ وسلام. الاسكندريّة بالغة اللطف والرقّة.. سوف تحتضنك هذه المدينة بغضّ النظر عن لغتك

ودينك وأصلك. أين في هذا العالم ستجد مدينةً أخرى تقصّ فيها شعرك عند حلّاقٍ يونانيّ وتتناول غداءك في مطعمٍ مملوكٍ لزوجين إيطاليّين وتعلّم أولادك في مدرسةٍ فرنسيّة ثمّ إذا وقعت في مشكلةٍ قضائيّةٍ يدافع عنك محامٍ أرمنيّ؟ كم مدينةً في العالم تحتفل، بنفس الحماسة والبهجة، بأعياد المسلمين والأقباط الأرثوذكس والمسيحيّين الكاثوليك والبروتستانت واليهود؟ معظم روّاد الفنّ التشكيليّ عاشوا في اسكندريّة. في كلّ مكانٍ في الاسكندريّة هناك منظرٌ طبيعيّ ينتظر من يرسمه: البحر في الصباح والظهر والغروب، الشوارع الضيّقة العتيقة المرصوفة بالبلاط الصغير، قلعة قايتباي التي يسمّيها السكندريّون «الطابية»، عمود السواري والفنار.. مشاهد بديعة ملهمة لن يجدها الفنّان في مدينةٍ أخرى. أستطيع أن أتحدّث عن الاسكندريّة ساعات ولا أفرغ. إنّها المدينة المصريّة الوحيدة التي نجت – حتّى الآن – من طوفان القبح والغباء والتعصّب. الاسكندريّة تعرفني، تفهمني وتحبّني، كثيرًا ما أتخيّل الاسكندريّة على هيئة امرأةٍ أعشقها. عندما أنتقل من مكانٍ لآخر، عندما أشرب فنجان قهوةٍ في القهوة التجاريّة ثمّ فنجانًا آخر في «التريانون» وأعبر الشارع لأشرب زجاجة بيرةٍ مثلّجة في «ديليس».. عندئذٍ أشعر كأنّني أتحسّس وجه حبيبتي بأصابعي. إنّ حبّي لليدا مرتبطٌ بالاسكندريّة. مرّةً انحنيت أمامها وقبّلت يدها وقلت بخشوع:

– سموّ الأميرة ليدا. سيّدة قلبي... لقد منحتك الاسكندريّة فتنتها وأسرارها جميعًا.. الأمر الذي أدّى إلى انهيار مقاومتي.

اعتادت ليدا شطحاتي وصارت تتعامل معها باعتبارها نوبات جنونٍ مؤقتة، مسلّيةً وغير مؤذية.. عندما أرتكب

حماقاتٍ تنظر إليّ بحبٍّ ثمّ تبتسم وتقبّلني وكأنّها تقول «أنت مجنون لكنّي أحبّك».

أعترف بأنّ إحساسي كثيرًا ما يكون مبالغًا فيه ولكنّ هذه المبالغة تفتح أمامي آفاق الخيال. الفنّ في جوهره مبالغة. أعظم الشعراء هم أقدرهم على المبالغة. لو كان الفنّان شخصًا متعقّلًا نمطيًّا يخضع حياته للحسابات الدقيقة مثل الآخرين لما استطاع أن يبدع شيئًا. الاتّهام بغرابة الأطوار يلاحقني دائمًا وأنا لا أنكره وأكاد أعتزّ به. منذ أيّام كان أصدقائي أعضاء الكوكاس مضطربين لأنّ صديقتنا شانتال وجدت صورة عبد الناصر معلّقةً على باب شقّتها. خاف الأصدقاء من عواقب انتزاع الصورة. أحسست بمهانة. بإذلال.. هل تدهورت بنا الحال إلى هذا الحدّ؟ كنّا نخاف من الديكتاتور فأصبحنا نخاف من صورة الديكتاتور؟!

أحضرت من مرسمي مذيب الغراء وانتزعت الصورة عن باب الشقّة، فعلت ما يجب فعله بدون تنظيرٍ ولا فلسفة. فرحت شانتال بانتزاع الصورة لكنّ عبّاس القوصي حذّرني من العواقب فأجبته قائلًا:

– لا يوجد أسوأ من أن نتحوّل إلى فئرانٍ مذعورة.

يتّهمني أصدقائي بالتهوّر وأنا أقبل الاتّهام.. قد أكون متهوّرًا لكنّي لست جبانًا. بعض أصدقائي الفنّانين يتّهمونني بالكسل وانعدام الطموح. يقولون إنّني لا أعمل بما يكفي كما أنّ بقائي في الاسكندريّة يقلّل من فرص نجاحي. إجابتي على هؤلاء الحمقى بسيطة: أنا أعمل كثيرًا لكنّي اخترت طريقًا في الفنّ لن يوصلني إلى الشهرة والثروة بل إلى اكتشاف الحياة والناس. الشهرة ليست مقياس النجاح لأنّك لو ارتكبت جريمة قتل لنشرت الصحف صورتك ولأصبحت مشهورًا في يومٍ وليلةٍ كما أنّ الثراء ليس أبدًا مقياس العظمة فما أغنى القوّادين واللصوص. نجاحي الحقيقيّ أن أعيش كما أريد وأقول ما أنا مقتنعٌ به وأرسم ما

أحبّ بمتعةٍ وحرّية. عوّدت نفسي على تقليل احتياجاتي. أستطيع أن أستمتع مهما كان المال قليلًا. وجبة فول وفلافل لا تقلّ في متعتها عندي عن أكلة الكباب. ثيابي أنيقة لكنّي أشتريها رخيصةً وأحافظ عليها حتّى تعيش طويلًا. البابيون الذي أرتديه أصنعه بيدي. بقيت مصاريف البهجة: ثمن الحشيش والويسكي. هذه أيضًا أستطيع أن أدبّرها. باختصار، أنا «مستور». «الستر» كلمةٌ جميلة في تراثنا المصريّ معناها ألّا تحتاج إلى أحد. لديّ إيرادٌ بسيط من بيتٍ صغير ورثته عن أبي في حيّ الجمرك كما أنّني في المناسبات الدينيّة، الكريسماس ورأس السنة وأعياد القيامة والفطر والأضحى، أرسم كروت تهنئة مناسبةً لكلّ عيدٍ وأضعها في عدّة مكتباتٍ لتباع لحسابي مقابل نسبةٍ يحصل عليها صاحب المكتبة. بالاضافة إلى ذلك فأنا أعمل مدرّسًا للرسم في مدرسة الـ«مير دو ديو **Mère de Dieu**» للبنات، أدرّس فصلين في المرحلة الثانويّة. تلميذاتي الرائعات في مرحلة المراهقة المضطرمة. في وجوههنّ حيرةٌ وبراءة، خجل الوردة، همسها الخافت وهي تتفتّح. كلّ مشاعرهنّ الجيّاشة المتناقضة يعبّرن عنها بالرسم. بعضهنّ يملكن موهبةً أصيلة. هؤلاء أمنحنهنّ كلّ ما أملك من معرفةٍ وخبرة. تدريس الفنّ تجربةٌ لطيفة لكنّ التدريس للموهوبين متعةٌ عظمى. كأنّني أعلّم الطيور الصغيرة كيف تطير، أدرّبها بصبرٍ فتحاول الطيران وتفشل، مرّةً بعد أخرى، حتّى تنجح أخيرًا وتحلّق عاليًا فأتطلّع إليها بفرحٍ وفخر. بعد الظهر أرسم الناس في المقاهي والمطاعم. الذين لا يعرفونني سيندهشون قطعًا عندما أفتح الباب وأدخل إلى المكان. سيستغربون شكلي: قامتي الطويلة وشعري الأكرت الكثيف، وجهي الأسمر وملامحي المصريّة التي تشبه الوجوه المرسومة على جدران المعابد الفرعونيّة ثمّ ذلك البابيون الضخم الملوّن الذي أعقده على ياقة

القميص. كثيرون سيظنّون أنّني أقدّم فقرةً مسلّية بالاتّفاق مع إدارة المحلّ. سيتطلّعون إلى بفضولٍ مرح لا يخلو من تهكّم لكنّي سأتجاهلهم وأشرع في العمل: أطوف بالموائد وأحيّي الجالسين بابتسامة ودٍّ وانحناءة ترحيبٍ وكأنّني صاحب دعوةٍ يحتفي بمدعوّيه، على كلّ مائدةٍ أترك بطاقةً مكتوبًا عليها بالعربيّة والفرنسيّة: «احصل على رسم كاريكاتير لوجهك في دقائق بريشة الفنّان أنس».

أوزّع البطاقات وأخرج إلى الشارع. أدخّن سيجارة على مهلي ثمّ أعود لأجمع البطاقات بهدوء وابتسامة، بلا كلمةٍ واحدة. لا أحاول إقناع الزبائن أبدًا. أنا أقدّم فنّي ولا أسوّق له. الفرق بين التقديم والتسويق شعرةٌ دقيقة إذا قطعتها فستسقط فورًا في الابتذال. وأنا لا أحدّد أجري أبدًا، أرفض الحديث عنه وأطمئن من يسألني أنّني سأقبل أيّ مبلغٍ يدفعه. ما إن يطلبني زبونٌ حتّى أشرع في العمل: أنصب الحامل وأضع عليه اللوحة وأجلس لأرسم. عندما أفرغ أعطيه الرسم وآخذ الورقة الماليّة التي يمنحها لي. أضعها في جيب الجاكيت بدون أن أنظر فيها ثمّ أشكره وأنصرف. المقاهي والمطاعم في الاسكندريّة لا ينقطع عنها الباعة الجوّالون. من أول باعة السميط وأوراق اليانصيب وباعة العصافير المقليّة (التي تؤكل كمزة) إلى باعة الفستق السودانيّ (الذين يمارسون لعبة زوج وفرد مع الزبائن) حتى تجّار البضائع المهرّبة ولعب الأطفال وقرّاء الكفّ وضاربي الودع. الجرسونات عادةً ما يعاملون الباعة الجوّالين بجفاءٍ وأحيانًا يطردونهم لكنّهم يتعاملون معي باحترامٍ ومحبّة. ربّما لأنّني أهديت لوحاتٍ عديدةً لأصحاب المطاعم وربّما لأنني كثيرًا ما أتناول الطعام عندهم وأمنح الجرسونات بقشيشًا كبيرًا، لكنّ السبب الأهمّ لهذا الاحترام، في رأيي، أنّ هؤلاء الجرسونات السكندريّين غير المتعلّمين لديهم من التراث الحضاريّ ما يجعلهم يحترمون الفنّ، إنّهم

يفهمون لماذا أسعى إلى رسم الزبائن مع قلّة الأجر الذي أحصل عليه وهم يدركون، على نحوٍ ما، مدى احتياجي للاختلاط بالناس. هذا المعنى المتحضّر للفنّ الذي يدركه هؤلاء البسطاء بفطرتهم كثيرًا ما يصعب على آخرين فهمه. كلّ ليلةٍ أسهر في أرتينوس. أعضاء الكوكاس أصدقائي المقرّبون. لا أتخيّل حياتي بدونهم.. نحن نعتصم بعضنا ببعض، كأنّنا أقليّةٌ من الغرباء المنبوذين على طريقة الأساطير الدينيّة. كأنّنا نجتمع لنمارس عقيدتنا سرًّا بينما الناس يعتنقون دينًا آخر يعادينا ويتوعّدنا بالعقاب. نحن ركّاب سفينة نوح الناجون من طوفان الهيستريا الجماعيّة. ما زلنا نحتفظ بقدرتنا على التمييز والتفكير المستقلّ بينما معظم المصريّين قد أغلقوا عقولهم وانساقوا إلى عبادة الزعيم. سلامتنا العقليّة والنفسيّة وسط الجماهير المريضة حقيقةٌ تسعدني لكنّي أشعر بأنّها لن تدوم ولسوف ندفع ثمنها يومًا. نحن لا نرتكب جريمة. نحن نتكلّم فقط في بارٍ صغيرٍ مغلق بعد منتصف الليل لكنّ الكلام أصبح جريمةً في عهد عبد الناصر. أعرف أشخاصًا تمّ حبسهم لأنّهم ردّدوا نكتةً أو قالوا تعليقًا على المقهى. هل يغفل عنّا النظام الفاشيّ أم يتغافل؟ لست خائفًا لكنّ ما يؤسفني خنوع الناس.. بعدما خاض المصريّون نضالًا طويلًا وعظيمًا وقدّموا آلاف الشهداء من أجل الحرّية، كيف ينتهي بهم الأمر إلى الإذعان للقمع وعبادة الزعيم؟

يوم الثلاثاء الماضي بدأت جولتي المسائيّة المعتادة. دخلت فندق سيسيل وبينما كنت أوزّع البطاقات في الكافتيريا سمعت نداءً خلفي:

– مسيو أنس.

كان الصوت رقيقًا مألوفًا ولمّا استدرت وجدتها نوال نوفل. تلميذتي في مدرسة المير دو ديو. نوال بنتٌ لطيفة ومهذّبة. ذهبت لأحيّيها وأنا سعيد. كانت جالسةً مع رجلٍ

أربعينيّ أدركت أنّه أبوها. بينما صافحتني نوال بحرارةٍ حيّاني أبوها بهزّةٍ من رأسه وهو يطالع صحيفةً في يديه. تحمّلت هذه الغطرسة إكرامًا لنوال التي أحبّها كثيرًا. استأذنتني نوال في أن أرسمها فوافقت بحماسة. جلست ورسمتها وفرحت هي كثيرًا بالرسم ثمّ فوجئت بأبيها الجلف يسألني بوقاحة:

– حسابك كم؟

قلت بهدوء وأنا أتحاشى النظر إليه:

– هذه اللوحة هديّة منّي لنوال.

شكرتني البنت وبدا الامتنان على وجهها الجميل وانتهى الأمر عند هذا الحدّ. قرّرت أن أنسى تصرّف الأب السخيف. درّبت نفسي من زمان على تجاهل الوقاحة والبذاءة حتّى لا أبدّد طاقتي، أقابل يوميًّا متنطّعين كثيرين. بالخبرة أصبحت أميّزهم وأتجاهلهم حفاظًا على صفاء ذهني. يوم الخميس كانت عندي حصّة في المدرسة وما إن خرجت من الفصل حتّى وجدت سكرتيرة المدرسة في انتظاري. أخبرتني أنّ الأخت ريتا (Soeur Rita)، مديرة المدرسة تريد رؤيتي لأمرٍ ضروري. فوجئت لكنّي تبعتها عبر الردهة الطويلة حتّى وصلنا إلى مكتب الأخت ريتا التي رحّبت ودعتني إلى الجلوس. الأخت ريتا إيطاليّة ولا تعرف العربيّة ولذلك تحدّثنا بالفرنسيّة. قالت لي:

– كيف حالك مسيو أنس؟!

– أنا بخير.. شكرًا.

– أنت تعمل معنا منذ خمس سنوات.. أليس كذلك؟

– نعم.

– هل أنت سعيدٌ معنا؟

– بالتأكيد.

– ونحن أيضًا سعداء بك.

صمتت الأخت ريتا لحظةً ثمّ قالت:

– طلبت مقابلتك اليوم بسبب مسألةٍ دقيقة وحسّاسة لكنّني أثق بحسن تقديرك.
– ماذا حدث؟
– أنت تعلم أنّ أكبر العائلات في الاسكندريّة ترسل بناتها إلى مدرستنا ومعنى ذلك أنّهم يثقون بنا.
– طبعًا.
– نحن نعتبر البنات أمانةً عندنا.
– وهل فعلت أنا ما يخالف هذه الأمانة؟
– بالعكس، أنت مدرّس عظيم والبنات يحببنك كثيرًا.
– أين المشكلة إذن؟
سألتني الأخت ريتا بلهجةٍ ودّية مصطنعة:
– مسيو أنس هل ترسم الزبائن في المقاهي؟
– نعم.
– هل تتلقّى أجرًا من هؤلاء الزبائن؟
– طبعًا.
– منذ متى وأنت ترسم في المقاهي؟
– من سنين طويلة.
– الاسكندريّة مدينة صغيرة ولا شكّ في أنّك أثناء تجوالك في المطاعم تقابل أحيانًا بعض تلميذاتك.
– يحدث ذلك كثيرًا وأكون سعيدًا برؤيتهنّ.
– وماذا يكون ردّ فعل أهالي التلميذات؟
– يكونون سعداء..
– هل أنت متأكّد؟
– اسمحي لي.. ما الهدف من كلّ هذه الأسئلة؟!
– هل رأيت التلميذة نوال نوفل في أوتيل سيسيل يوم الثلاثاء الماضي؟
– حدث فعلًا. كنت في سيسيل وقابلت نوال مع والدها وقد طلبت منّي أن أرسمها كاريكاتير فرسمتها وأهديتها اللوحة وكانت سعيدة جدًّا.

– ربّما البنت كانت سعيدة لكنّ والدها لم يكن سعيدًا وقد تقدّم بشكوى رسميّة ضدّك.

– لماذا يشكوني؟

– قال في الشكوى إنّه لا يليق بمدرّس في مدرسة المير دو ديو أن يطوف بالمقاهي ليرسم الناس بأجر.

– اسمحي لي. هذا الرجل جاهل.

– والد التلميذة نوال هو العقيد أحمد نوفل نائب محافظ الاسكندريّة.

– كونه ضابطًا في الجيش أو نائب المحافظ لا ينفي عنه صفة الجهل. لو لم يكن جاهلًا لعرف أنّ لقاء الفنّان بالناس من ضرورات الفنّ. أنا لا أرسم الناس في المقاهي من أجل المال. المقابل الذي أتقاضاه لا يُذكر وكثيرًا ما أرسم مجّانًا. أنا أخالط الناس بحثًا عن الإلهام ولست وحدي من يفعل ذلك. أكبر الفنّانين في فرنسا يرسمون الناس في الشوارع.

– لسنا في فرنسا.

– صحيح لسنا في فرنسا لكنّنا في الاسكندريّة عاصمة الفنّ التشكيليّ في مصر. كبار الفنّانين الأوروبيّين الذين افتتحوا مراسمهم في اسكندريّة كانوا جميعًا يرسمون في المقاهي.

– الظروف تغيّرت.

– ماذا تقصدين؟

– أنت تعلم أنّ مصر الآن في عصرٍ جديد وطبيعيّ أن تتغيّر آراء المصريّين في أشياء كثيرة.

– أولًا العقيد نوفل لا يمثّل كلّ المصريّين وثانيًا قبل أن يقبل العقيد نوفل شيئًا أو يرفضه يجب أن يفهمه أولًا.

– أرجو أن تقدّر أنّ العقيد نوفل حريص على سمعة المدرسة.

– إذن.. أنت توافقين على موضوع الشكوى؟!

– رأيي الشخصيّ لن يغيّر شيئًا. هناك شكوى رسميّة لا بدّ من التصرّف فيها وأنا بالطبع لن أوقع مدرستي في خصومة مع مكتب المحافظ.

– اسمحي لي أتّصل بالعقيد نوفل وأشرح له الأمر.

فكّرت الأخت ريتا قليلًا ثمّ قالت:

– هذا الاتّصال سيكون غير مفيد وربما يعقّد الأمور أكثر.

– ماذا تريدين منّي إذن؟

– خدمة تقدّمها للمدرسة.

– ما هي الخدمة؟

– تتعهّد لي الآن بأنّك لن ترسم الناس في الشارع مرّةً أخرى وسأنقل هذا التعهّد للعقيد نوفل وتنتهي المشكلة.

– لن أقدّم تعهّدات ويؤسفني أصلًا أن تطلبي منّي ذلك.

– مسيو أنس. أرجو أن تضع نفسك مكاني.

– لو كنت مكانك يستحيل أن أتصرّف مثلك. لا يمكن أن أطيع الضابط الجاهل المتغطرس لمجرّد أنّه نائب المحافظ.

– انتبه لألفاظك من فضلك.

– ألفاظي دقيقة. حضرتك تطلبين من فنّان أن يقيّد حرّيته خوفًا من ممثّل السلطة الذي لا يعرف شيئًا عن الفنّ. إذا كانت هذه الرسالة التي سنوصلها للتلميذات فليس هناك جدوى من التعليم أساسًا.

– هل يمكن أن تهدأ قليلًا حتّى نتناقش؟

لم يعد بوسعي أن أتحمّل المزيد. فقدت السيطرة على نفسي. نهضت من مكاني وخرجت من المكتب بسرعة. سأظلّ أذكر وجه السكرتيرة وهي تحدّق فيّ بذهول وصوت الأخت ريتا وهي تناديني. لم ألتفت خلفي. ما إن خرجت من باب المدرسة حتّى أخذت تاكسي إلى البيت. كنت أحسّ بصدمة، بحزن ومهانة. حضرة الضابط يتعامل معي باعتباري خادمه. جنديّ المراسلة الذي يلمّع حذاءه. إنّه

يتوقّع منّي أن أكفّ عن رسم الناس حتّى أحظى برضاه السامي. يا للوقاحة! ثمّ كيف تجرؤء الأخت ريتا على أن تطلب منّي أن أكفّ عن الرسم في المقاهي؟! إنّ خضوعها الذليل للسلطة يصيبني بالغثيان. أكثر ما ضايقني أنّني لم أردّ عليها كما يجب. هذه مشكلةٌ مزمنة طالما عانيت منها. عندما أتعرّض للإهانة كثيرًا ما أعجز عن الردّ. ربّما بتأثير المفاجأة أو ربّما لأنّني تلقّيت تربيةً تفرض عليّ التصرّف بأدبٍ في كلّ الظروف. بعد ذلك يظلّ عجزي عن ردّ الإهانة يعذّبني أكثر من الإهانة نفسها. عندئذٍ ألجأ إلى الخيال فأتصوّر سيناريوهاتٍ كنت أتمنّى أن أؤدّيها.. كيف لم أخبر الأخت ريتا، مثلًا، بأنّ معرضي القادم سيكون مخصّصًا لأعمال البورتريه وأنّني أمشي في الشوارع وأطوف بالبارات والكباريهات لكي أعثر على وجوهٍ معبّرة أرسمها. كيف لم أخبرها أنّني لا أحكم على الناس وفقًا لمناصبهم وطبقاتهم الاجتماعيّة وأنّ لديّ أصدقاء أعزّاء من الراقصات والساقطات وخرّيجي السجون. كان لا بدّ أن أعلمها أنّ الحياة أوسع وأغنى بكثيرٍ من التصنيفات البورجوازيّة المحشورة في عقل الضابط نوفل. استلقيت على الأريكة في الصالة ودخّنت سيجارة حشيش حتّى أهدّئ أعصابي ووجدتني فجأةً أفكّر في ليدا. أحسست أنّني بحاجة إليها. اتّصلت بها في المطعم وطلبت منها الحضور. كنت مرهقًا فاستغرقت في النوم ثمّ صحوت على وجه ليدا الجميل وهي تهمس:

– أنس.. خير.. مالك؟

12

عندما تكون لديه قضيّة منظورة، كما حدث أمس، يستيقظ عبّاس القوصي في الفجر ويصنع لنفسه إفطارًا سريعًا وفنجانًا من القهوة السادة ثمّ يراجع لمرّةٍ أخيرة تفاصيل القضيّة وخطّة المرافعة. بعد ذلك يبدأ بطقوس الصباح: يحلق لحيته بعناية ويأخذ حمّامًا ساخنًا ثمّ ينتقي ملابسه الأنيقة بعنايةٍ فائقة كأنّه سيحضر حفل زواج: البدلة لونها فاتح مناسب للصباح والقميص الأبيض اللينوه والأزرار الذهبيّة وروب المحاماة الأسود المكويّ. ثمّ بضع رشّات من Brute، عطره المفضّل.

ينزل الأستاذ عبّاس من الفيلّا ليجد مساعده فتح اللّه ينتظره في السيّارة بجوار السائق. لم تأت شهرة عبّاس القوصي من فراغ، فهو يمتلك أدوات المحاماة مكتملة: المعرفة العميقة بالقانون والخبرة والبلاغة والمظهر الأنيق والثقة بالنفس والذهن المرتّب والقدرة على العمل المتواصل الشاقّ، بالإضافة إلى ملكةٍ أخرى لا يمكن تعريفها بدقّةٍ لأنّها أشبه بطاقةٍ غامضة مؤثّرة، حضور أثيريّ جذّاب كذلك الذي يتمتّع به الممثّل الموهوب على خشبة المسرح...

ما إن تتوقّف السيّارة أمام باب المحكمة حتّى يقفز السائق ليفتح الباب للأستاذ عبّاس الذي ينزل بتؤدةٍ ثمّ يتبعه فتح اللّه. في الطريق إلى حجرة المحامين يتلقّى عشرات التحيّات:

– صباح الخير يا عبّاس بك.

ما زال لقب «بك» يلازمه في المحكمة برغم أنّ حكومة الثورة قد ألغت الألقاب من سنوات. يتسابق الفرّاشون والسعاة وموظّفو المحكمة في الترحيب به. إنّهم يحبّونه لأنّه يتعامل معهم بلطف واحترام ويوزّع عليهم الإكراميّات بسخاء. هؤلاء الصغار فوائدهم كثيرة:

إنّهم يقومون بإنهاء أيّة أوراقٍ يحتاج إليها بسرعةٍ وكفاءة كما أنّهم ينقلون للأستاذ عبّاس الأخبار الهامّة ويحذّرونه من مشاكل محتملة ويعطونه تقارير مفصّلة عن أحوال الدائرة ومزاج القاضي وشخصيّته وتاريخه في المحاكم.

معرفة أحوال القضاة شرط أساسي لنجاح المحامي. إنّ شهرة عبّاس القوصي كمحامٍ سلاحٌ ذو حدّين فهي تجلب له غالبًا احترام القضاة إلّا أنّها أحيانًا تزعج القاضي إذ يشعر بأنّ مكانته العالية يهدّدها ذلك التألّق الذي يتمتّع به عبّاس كمحامٍ. ما إن يستشعر عبّاس ذلك حتّى يمعن في إظهار الاحترام للقاضي حتى يتّقي شرّه. في حجرة المحامين عندما ينتظر عبّاس القوصي دور قضيّته لا يكون أبدًا في كامل تركيزه. إنّه يشبه الممثّل في اللحظات التي تسبق ظهوره على المسرح. يتكلّم ويضحك ويحيّي الناس بنصف ذهن لأنّه يكون في أعماقه في انتظار اللحظة التي يحتشد من أجلها. لحظة وقوفه أمام القاضي. قضيّة أمس كان المتّهم فيها طالبًا في السنة النهائيّة في كليّة الطبّ، تشاجر مع ضابط مباحث فلفّق له قضيّة حيازة مخدّرات. طلب الأستاذ عبّاس من أهل المتّهم ارتداء أفضل ما لديهم من ملابس والجلوس في الصفّ الأول وقال لهم: «القاضي ينظر دائمًا إلى من سيحكم بحبسه. كلّما بدا أهل المتّهم من كرام الناس كان حبس المتّهم أصعب نفسيًّا على القاضي».

في الجلسة السابقة طلب الأستاذ عبّاس شهادة ضابط المباحث ونجح في إرباكه حتّى اعترف بأنّ مشادّةً حدثت بينه وبين الطالب قبل أن يفتّش سيّارته ويعثر على الحشيش. بدأ الأستاذ عبّاس المرافعة بتذكير السادة القضاة بأنّهم ينفّذون عدل الله على الأرض وأنّ المتّهم طالبٌ في كليّة الطبّ ابن لأسرةٍ كريمة وهنا أشار إلى أهل المتّهم في الصفّ الأول الذين نفّذوا التعليمات وجاؤوا بملابس أنيقةٍ فخمة. بعد ذلك صال وجال في قواعد التلبّس واستعمل التناقض في شهادة ضابط المباحث وفي النهاية سدّد الأستاذ عبّاس ضربته القاصمة. ارتفع صوته في أنحاء القاعة وهو يقول:

– يا حضرات المستشارين، المتّهم، طالب الطبّ، اسمه محمّد أحمد جادو بينما السيّد ضابط المباحث كتب المحضر باسم محمّد أحمد جاد الله، الأمر الذي يؤكّد كيديّة الاتّهام لأنّ الضابط لفّق

القضيّة على عجل ولم ينتبه إلى هذا الخطأ الذي هو إشارةٌ من ربّنا سبحانه وتعالى لإنقاذ المتّهم البريء. يا حضرات المستشارين، إنّ هذا الشابّ سيصبح طبيبًا بعد شهور قليلة ويريد ضابط المباحث أن يضيّع مستقبله ويزجّ به في السجن مع المجرمين لمجرّد أنّه لم يقبل الإهانة من الضابط ودافع عن كرامته. حضرات المستشارين، لم يعد لديَّ ما أقوله سوى أنّ مستقبل هذا الشابّ الشريف المجتهد وسعادة أسرته أو شقاءها أمانةٌ بين أيديكم، فاحكموا بما تمليه عليكم ضمائركم.

حُجزت القضيّة للحكم آخر الجلسة وترك الأستاذ عبّاس فتح اللّه في المحكمة وعاد إلى البيت حيث تناول الغداء ونام ساعة كعادته، وعندما استيقظ، وبينما هو يحتسي القهوة، اتّصل به فتح اللّه وأخبره بأنّ المحكمة قضت ببراءة المتّهم. ابتسم عبّاس وقال لنهى زوجته بمرح:

– استعدّي سنحتفل الليلة مع أعضاء الكوكاس.

– خير؟

– طالب الطبّ أخذ براءة.

– مبروك.

هكذا هتفت نهى ثمّ احتضنته وطبعت قبلةً على خدّه وفي الليل، قبل أن يخرجا إلى السهرة، لم ينسَ عبّاس أن يتّصل بأخيه جليل ليذكّره بموعده مع توني كازان وأكّد عليه مرّة أخرى:

– جليل، لازم توصل المصنع قبل الميعاد واستعدّ لأنّهم حيعملولك امتحان في المحاسبة.

13

ليس كارلو ساباتيني «زير نساء» عاديًّا كما أنّه ليس «جيجولو» (Gigolo) يبيع جسده للعجائز. إنّ علاقة كارلو بالنساء، الفريدة من نوعها، قد تأثّرت بعوامل عديدة.

أولًا، كانت مارتا أمّ كارلو في شبابها من أجمل نساء الاسكندريّة وقد ورث كارلو جمالها كاملًا: العينان الزرقاوان الآسرتان والشفتان الرقيقتان الشهيّتان والملامح المنمنمة المتناسقة والبشرة البيضاء الناصعة والشعر الأسود الفاحم الناعم. هذه الوسامة الساطعة ليست باردةً أو خاملة لكنّها تحمل طابعًا دراميًّا على نحوٍ ما. إنّ وجه كارلو يحمل في ثنايا فتنته حزنًا ما، انكسارًا ما، نظرةً ضائعة مهزومة تثير في النساء – مع الإعجاب والشهوة – عطفًا أموميًّا جارفًا فيزددن تعلّقًا به من أجل رعايته وحمايته. على أنّ جاذبيّة كارلو للنساء لا يمكن تفسيرها فقط بوسامته أو أحزانه. هناك اتّصالٌ ما، غامضٌ لكنّه مؤكّد، أشبه بذبذبةٍ أو شفرة تجذب النساء إليه. هذا الاتّصال صاحب كارلو منذ مرحلة البلوغ، حينئذٍ صارت البنات في نادي سبورتنج يولينه اهتمامًا خاصًّا ويبحثن عن أيّ فرصةٍ للحديث معه وراحت بعضهنّ يكتبن له عباراتٍ غراميّةً على أوراقٍ ملوّنةٍ صغيرة ثمّ يطوينها ويدسسنها في يده أثناء المصافحة كما أنّ بعض صديقات أمّه (اللاتي حملنه وهو رضيع) بدأن بالتحرّش به، حتّى إنّ أول قبلةٍ في حياته اختلستها منه طنط هدى صديقة أمّه. كانت أمّه قد أرسلته إليها ليدفع قسط الجمعيّة التي اشتركتا فيها. رحّبت به طنط هدى ودعته إلى الدخول. أخذت منه ظرف النقود وقدّمت له كوبًا من عصير البرتقال ثمّ جلست بجواره على الكنبة وبعد حوارٍ قصير مضطرم لاهث بلا معنى احتضنته فجأة ثمّ وضعت شفتيها على فمه وقبّلته بحرارةٍ وبدأت تتحسّس ما بين فخذيه. أحسّ كارلو بالذعر وانطلق يعدو خارجًا. لم يخبر أمّه بما فعلته طنط هدى لكنّه أصبح

بعد ذلك يتجنّبها ولمّا تكرّرت واقعات شبيهة مع نساءٍ أخريات أدرك كارلو مبكرًا قوّة تأثيره وتكوّنت لديه تلك الثقة الراسخة وهو يتعامل مع المرأة.

ثانيًا، لا يحبّ كارلو البنات في مرحلة العشرينيّات. لا يطيق سذاجتهنّ وغرورهنّ ورعونتهنّ وثرثرتهنّ الفارغة وطاقتهنّ الزائدة الطائشة ومشاعرهنّ الجيّاشة المتقلّبة. وهو يعتبر قلّة خبرتهنّ في الفراش عبئًا حقيقيًا عليه لأنّه كما يقول لأصدقائه يحب أن يكون عاشقًا لا مدرّب جنس. مهما تكن الفتاة العشرينيّة جميلة فإنّ كارلو يتجاهلها تمامًا وكأنّه لا يراها. المرأة الحقيقيّة في عقيدة كارلو تتجلّى بعد الثلاثين، عندئذٍ يجتمع الجمال مع النضج فتستعمل المرأة خبرتها في الفراش من أجل إسعاده. لقد قرأ مرّةً أنّ الجنس في الديانات القديمة كان يُعتبر سرًّا مقدّسًا تحجبه الآلهة عن الفتاة ثمّ تمنحه عندما تسمح لها بممارسة الجنس لتكتمل أنوثتها. إنّ كارلو يؤمن بهذه الأسطورة. ثمّة لمعةٌ متفهّمةٌ عميقة تتجلّى في نظرة المرأة، ثمّة إيقاعٌ هادئ راسخ مشبع بالراحة، ثمّة نعومةٌ واستدارة في الجسد وثمّة نبرةٌ رخيمة في الصوت. كلّ هذه التحوّلات تنتاب المرأة عندما تمارس الجنس، عندما تعرف السرّ المقدّس. إنّ كارلو يأنف من الفتاة المبتسرة الفجّة وتستهويه المرأة التي أنضجتها السنون كالنبيذ المعتّق، المرأة التي يحمل جسدها تاريخًا يسعى كارلو لاكتشافه أو تخيّله. حتّى ذلك التهدّل الهيّن أو تلك التجاعيد القليلة المبكرة هنا وهناك، لا ينفر منها كارلو بل يعتبرها آثارًا فاتنة تدلّ على تجارب سابقةٍ مفعمة باللذّة قابلة للتكرار. ذات مرّةٍ سأله صديقه توني كازان:

– لماذا تتعمّد إغواء المتزوّجات؟

ضحك كارلو وقال وهو يصبّ كأسًا جديدةً لتوني:

– إغواء المرأة وهمٌ اخترعه الرجل ليغطّي قلّة حيلته.. المرأة وحدها هي التي تسمح للرجل بالعلاقة أو تمنعه منها، ثمّ تتظاهر بعد ذلك بأنّها ضحيّة غواية.

ضحك توني وقال بودّ:

– مع احترامي لكلّ نظريّاتك ما زلت متمسّكًا بسؤالي.. كيف تفسّر أنّ معظم عشيقاتك متزوّجات؟

تردّد كارلو لحظة ثمّ قال بلهجة جادّة:

– العشيقة المتزوّجة لن تطالبك بالزواج لأنّها تريد الاحتفاظ بالزوج والعشيق معًا، ولن تحاول الاستئثار بك لأنّ وقتها مشغول ببيتها كما أنّها تمتلك غواية إضافيّة لأنّك تختلس لذّتك معها.

ثالثًا، يستيقظ كارلو عند الظهر ويمارس طقوسه اليوميّة على مهل: الحمّام الساخن وحلاقة اللحية وإفطار بسيط ثمّ فنجانان من القهوة وبعد ذلك تصفيف الشعر واختيار الثياب التي تمنحه ذلك الطراز المتمرّد الفوضويّ الأنيق (على طريقة جيمس دين).

في الصيف يرتدي بنطلونًا ضيّقًا، جينز كاوبوي يظهر رشاقة ساقيه وحزامًا جلديًا عريضًا بواجهة معدنيّة عريضة وقميص هاواي يترك أزراره مفتوحة لينكشف شعر صدره الكثيف وقد غاص فيه صليب ذهبيّ معلّق في رقبته أهدته إليه سائحةٌ أمريكيّة امتنانًا للسعادة التي منحها لها أثناء زيارتها للاسكندريّة. في الشتاء يستحيل أن ترى كارلو ببدلةٍ تقليديّة ورباط عنق لكنّه يرتدي بلوفر برقبةٍ وجاكيت من الجلد أو القطيفة أو الصوف السكوتلندي (Scottish wool blanket coat)، ويضع في قدميه حذاء بوت طويل بكعب عالٍ يدقّ الأرض فيبدو وهو يمشي كأنّه راعي بقر في فيلمٍ أمريكيّ (بالطبع سيستبدل بالبوت حذاءً بسيطًا ومريحًا أثناء العمل في المطعم). ينزل كارلو من بيته حوالي الثانية بعد الظهر ويكون أمامه أربع ساعات حتّى يبدأ عمله في مطعم أرتينوس. يجول بسيّارته السبور الأنيقة في أنحاء الاسكندريّة التي يعرفها عن ظهر قلب. قد يتناول غداءه في فندق سيسيل أو نادي السيّارات أو مطعم بسترودس أو النادي السوريّ. العاملون في كلّ هذه الأماكن يعرفون كارلو و يحبّونه و يستقبلونه بحفاوة. لا يبحث كارلو أبدًا عن عشيقة لكنّه، ببساطة، يجدها أمامه. هل نصدّق كارلو عندما يؤكّد أنّ إلهامًا ما ينبئه مسبقًا بالمرأة قبل أن يراها؟ هل نصدّقه عندما يقول إنّ إحساسًا مفاجئًا يدفعه لتناول غدائه في مكانٍ معيّن وعندئذٍ يدرك أنّه سيجد هناك عشيقته الجديدة؟ سواء كان ذلك صحيحًا أو مجرّد خيالٍ فإنّ كارلو عندما تعجبه امرأةٌ لا يطاردها ولا يغازلها ولا يتلطّف معها ولا يحاصرها بكلماتٍ منمّقة وابتسامات مصطنعة كما يفعل معظم الرجال. إنّه فقط يدخل إلى مجال المرأة ويسجّل وجوده: أنا هنا. يقترب منها في صمت، يراقب ويترقّب، يظلّ كامنًا، رابضًا، ينتظر بهدوءٍ وصبر وثقة. سوف تتجاهله المرأة أو تتشاغل عنه أو

تنهمك في الحديث مع آخرين وربّما تضحك عاليًا لتبدو كأنّها غير مهتمّة. كلّ ذلك لن يجديها شيئًا لأنّ كارلو ساباتيني قد حضر وهو ينتظرها كقدرٍ متربّصٍ صارمٍ يستحيل إيقافه أو تغييره. يظلّ كارلو يرمق المرأة بنظرةٍ بطيئة متفحّصة وقد بدا على وجهه الجميل تعبيرٌ ساخر حنون كذلك الذي نراقب به طفلنا المحبوب وهو يرتكب حماقة. في لحظةٍ ما، حتمًا، ستعطي المرأة الإشارة وتفتح الطريق، سيكون ذلك بابتسامةٍ أو كلمةٍ أو سؤالٍ بريء. عندئذٍ يتقدّم كارلو بثقة محارب منتصر وينتزع فرصته بحسم وجدارة.

قبل ثلاثة شهور، حوالي الساعة الثانية بعد الظهر، كان كارلو جالسًا إلى البار المطلّ على حمّام السباحة في نادي السيّارات عندما ظهرت امرأة جميلة في الثلاثينيّات من العمر ترتدي بنطلونًا أزرق هيلانكا وبلوزة بيضاء مفتوحة الصدر بدون كمّ. كان البار خاليًا ولاحظ كارلو أنّها جلست قريبًا منه فقال وهو يوزّع نظراته بينها وبين البارمان:

– يا ساتر! الحرّ رهيب..

ابتسم البارمان ولم يعلّق بينما قالت هي برقّة:

– فعلًا! كلّ الحرّ ده واحنا في شهر أبريل؟! حنعمل إيه في الصيف؟

كانت هذه إشارة البدء. تمّ التعارف على مهلٍ وهما يحتسيان البيرة المثلّجة، عرّفها بنفسه وقالت إنّ اسمها سميحة، معيدة في كليّة التجارة ومتزوّجة بمديرٍ في الجمارك ولديها ابنٌ صغير. عندئذٍ سألها ببراءةٍ لماذا لا يأتي زوجها معها. تطلّعت إليه بنظرةٍ ساهمة حزينة وقالت بصوتٍ خافت:

– أفضّل أكون وحدي.

تحدّثا في موضوعاتٍ مختلفة ثمّ طلبت سميحة الحساب وأصرّ كارلو على دعوتها فشكرته برقّةٍ ثمّ قالت للبارمان بصوتٍ مسموع:

– ممكن تطلب لي تاكسي من فضلك؟

عندئذٍ تدخّل كارلو قائلًا:

– أنا نازل وسط البلد. تحبّي أوصلّك في أيّ مكان؟

بدت مرتبكة قليلًا وقالت بتردّد:

– لا أريد أن أعطّلك عن عملك.

– اليوم الاثنين إجازتي الأسبوعيّة.

ما إن ركبت بجواره في السيّارة حتّى ارتدت نظّارتها السوداء وأحكمت إغلاق الدرج الأماميّ في التابلوه ثمّ أعادت مقعدها قليلًا إلى الخلف واستلقت عليه وبدت فجأةً كأنّها زوجته التي تجلس في مكانها المعتاد بجواره. فكّر كارلو أنّ معظم النساء ممثّلاتٌ بالفطرة. ما أسهل أن يتقمّصن أيّ دورٍ حسب الظروف. اقترح عليها أن يشربا زجاجة بيرة أخرى في مكانٍ آخر.

ابتسمت وقالت:

– بشرط ما نتأخّرش.

اصطحبها إلى بار بسترودس في وسط البلد. جلس معها في مائدة بعيدة منعزلة وتبادلا حوارًا طويلًا. حكت عن حياتها وابنها لكنّها لم تتحدّث عن زوجها بكلمة وعندما أوصلها طلبت منه أن تنزل بعيدًا عن باب البيت. كان معتادًا على هذه الاحتياطات. بعضها تكون حقيقيّة وبعضها شكليّة كاذبة تطلبها المرأة لتبدو في صورة الإنسانة البريئة الخائفة على سمعتها لأنّها لم تخرج مع رجلٍ من قبل. خرج كارلو مع سميحة بعد ذلك ثلاث مرّات وفي المرّة الرابعة قابلها في نادي السيّارات ولما ركبت بجواره في السيّارة قال:

– بصراحة أنا زهقت من الأماكن العامّة. سنذهب إلى البيت.

وكأنّها كانت تتوقّع، ابتسمت ولم تعلّق. اصطحبها إلى شقته، تأمّلت اللوحات الفنّية المعلّقة على الجدران ثمّ فحصت مجموعة الأسطوانات واختارت أسطوانة ألفيس بريسلي Can't help falling in love with you (لا أستطيع أن أمنع نفسي من حبّك).

أمسك بيديها وجذبها إليه ورقصا معًا ثمّ جلسا من جديد واستأنفا الحديث وشربا معًا زجاجة كاملة من نبيذ بينو نوار (Pinot Noir).

وفي لحظةٍ ما تأوّدت سميحة ووقفت ببطءٍ ثمّ راحت تتطلّع إلى البحر عبر النافذة، شيءٌ ما في وقفتها كان يدعوه، ينتظره.. احتضنها من الخلف فأصدرت آهةً خافتة وراح يقبّلها ببطءٍ على رقبتها وحول أذنها ثمّ أدارها ناحيته برفق والتقم شفتيها فاستسلمت له. وبعد قليلٍ عندما فرغا من الحبّ استلقيا متجاورين عاريين في الفراش. همست سميحة بتأثّر:

– كارلو.. ممكن أقول لك حاجة؟

ابتسم كارلو وفكّر أنّ النساء جميعًا يقلن نفس الكلام في المرّة الأولى. ردّ بصوتٍ هامس:

– قولي يا حبيبتي.

– أنا صحيح عندي مشاكل رهيبة مع زوجي لدرجة أنّي فكّرت في الانتحار أكثر من مرّة لكن عمري ما عملت علاقة مع رجل غيره. حتى الآن أنا مش مستوعبة اللي بيحصل بيننا.. مش مصدّقة أنّي نايمة معك في السرير.

«لماذا تتذكّر المرأة الفضيلة بعد رعشة اللذة لا قبلها؟»، هكذا تساءل كارلو ساخرًا.

كان يدرك بخبرته أن أفضل علاجٍ لكلمات الندم هو المزيد من الحبّ. تجاهل ما قالته وكأنّه لم يسمع ثمّ تطلع إليها بافتتانٍ وعاجلها بقبلةٍ حارّةٍ طويلة وسرعان ما جرفتهما موجة جديدة من الحبّ. بعد ذلك كانا يلتقيان كثيرًا في نادي السيّارات الذي شهد تعارفهما. وفي لحظةٍ ما أحسّ كارلو بقلقٍ لأنّ الاسكندريّة مدينةٌ صغيرة وقد يراهما أحد فيخبر زوجها. أعرب لها عن مخاوفه فضحكت باستهانةٍ وقالت:

– سيبك منه. ولا يهمّك.

لا ينكر كارلو أنّ سميحة منحته السعادة.

بالإضافة إلى جمالها وجسدها البضّ الفاتن وخبرتها في فنون الفراش، كانت أنيقةً وذكيّة ومتحدّثة لبقة وخفيفة الظلّ. كان يستمتع بصحبتها ويحبّ الحديث معها وكثيرًا ما ضحك على تعليقاتها وحكاياتها.. لم تنكّد عليه يومًا ولا تطفّلت على حياته. لم تتشاجر معه بسبب الغيرة ولا طلبت منه هدايا ثمينة. لم تزعجه ولا ضغطت عليه قطّ. لم تطلب منه شيئًا سوى الحبّ فماذا يريد الرجل أكثر من ذلك؟

كانت سميحة عشيقةً مثاليّة فلماذا تعكّر صفوهما إذن؟

الإجابة أنّ ما يجمع كارلو بعشيقاته ليس مجرّد علاقةٍ عاطفيّة ولا حتّى علاقة جنسيّة بغرض المتعة لكنّ عشق النساء عند كارلو مغامرة دراميّة سوف تأخذ منحنًى تصاعديًّا حتّى تصل إلى الذروة. مهما يكن كارلو سعيدًا مع المرأة فإنّ عشقه لها سيتحوّل في لحظةٍ ما، حتمًا، إلى تربّصٍ يدفعه إلى التفتيش في أعماقها حتّى يجد ما يبحث عنه. ثمّة لذّةٌ خبيثةٌ يحسّ بها كارلو عندما يشاهد عشيقته وهي تخدع زوجها. لذّةٌ عارمة تمامًا مثل لذّة الجنس لكنّها لا تؤدّي

إلى النشوة وإنّما تفيض بالمرارة. لذّة مريضة لاذعة كتلك التي يشعر بها الإنسان عندما يحكّ قرحةً ملتهبة حتّى يدميها، تظلّ هذه الشهوة الحارّة الموجعة تلحّ على كارلو حتّى يدفع عشيقته إلى المشهد الأخير الذي يعدّه بدقّةٍ وبراعة.

كان قد طلب من سميحة أن تأتي إلى شقّته مبكرًا يوم الاثنين حتّى يقضيا يوم الإجازة معًا. ما إن دخلت من الباب حتّى تلقّاها بقبلات حارّة ثمّ جذبها إلى حجرة النوم. وبعدما فرغا من الغرام استلقت سميحة عاريةً على السرير. بدا وجهها متورّدًا ناعمًا وقد استسلمت للخدر اللذيذ الذي يعقب النشوة. عندئذٍ نهض كارلو وهو عارٍ وصبّ كأسين من الكونياك. رشف من كأسه ووضع كأسها بجوارها على الكومودينو ثمّ جلس على حافة السرير. مدّت سميحة يدها لتغطّي جسدها بالملاءة لكنّ كارلو انحنى وطبع قبلةً على شفتيها وهمس:

– أرجوكِ ما تغطّيش نفسك. عاوز أبصّ لك وأحسّ أنّك ملكي.

ردّت سميحة بتأثّر:

– حاضر يا حبيبي.

اقترب كارلو من وجهها وقال:

– بتحبّيني؟

بدا ما يشبه الاستنكار على وجهها الحالم وقالت:

– طبعًا.

– لو طلبت منك أيّ حاجة تعمليها لي؟

هزّت رأسها برقّةٍ فأحضر التليفون ووضعه بجوارها على السرير ثمّ قبّلها وهمس بصوتٍ مضطرم:

– ممكن تكلّمي زوجك؟!

– ليه؟

– منعًا لأيّ قلق.

– أنا قلت له عندي محاضرات بعد الظهر وحاتأخر.

– أرجوكِ كلّميه. لو بتحبّيني كلّميه.

– أقول له إيه؟

– قولي له أيّ حاجة.

لو كانت سميحة في موقفٍ مختلف لربّما رفضت الفكرة لكنّها وهي منتشيةٌ ومسترخية استجابت لإلحاح كارلو فرفعت السمّاعة

وطلبت زوجها. تراجع كارلو وجلس على المقعد المقابل ورشف من الكأس وأشعل سيجارة. بذلت سميحة مجهودًا لتجعل صوتها طبيعيًا. أكّدت لزوجها مرّةً أخرى أنّ لديها محاضراتٍ مسائيّةً وأنّها أعطت الخادمة تعليمات للعناية بالولد وفي النهاية سألته بنبرةٍ عاديّة:

– عاوز حاجة يا حبيبي؟ طيّب. لا إله إلّا اللّه.

ظلّ كارلو يراقبها وهي تحدّث زوجها بحبٍّ ورقّة بينما هي عارية في فراش العشيق. عندئذٍ تملّكته مشاعر جامحةٌ متضاربة، مزيج من الكراهية لسميحة والرغبة العارمة في جسدها. تمكّنت منه الشهوة لدرجة أنّه أطفأ السيجارة واندفع نحو سميحة ومارس معها الحبّ كما لم يفعل من قبل حتّى دوّت صرخاتها من فرط اللذّة. اقتحمها كارلو بقسوة، انتهكها، وكأنّه يريد أن يؤلمها باللذّة أو كأنّه يضاجعها ليعاقبها بلا رحمة. قبل أن تنصرف سميحة احتضنها بقوّة أمام الباب وقبّل يديها برقّةٍ ثمّ تطلّع إلى وجهها كأنّما ليستبقيه في ذاكرته وهمس: «أشوفك بخير يا حبيبتي».

بعد هذا المشهد الأخير انقطع كارلو عن سميحة تمامًا. لم يتّصل بها ولم يسعَ لرؤيتها وقد حاولت هي كثيرًا الاتّصال به فكان يغلق السمّاعة بمجرّد سماع صوتها. لم يعد كارلو يرغب في سميحة، كانت سميحة مزيجًا متأجّجًا من الغواية والخيانة فانتهت الغواية وبقيت الخيانة. وضعها كارلو أمام نفسها، خلع عنها القناع وأزاح بضربةٍ واحدة كلّ الأكاذيب وشاهدها وهي تمارس الخيانة ثمّ ضاجعها مرّةً جامحة أخيرة وفقد رغبته فيها إلى الأبد. كذلك فعل كارلو مع عشيقاته المتزوّجات جميعًا. يدفعهن إلى المشهد الأخير ثمّ يهجرهنّ وكأنّه لم يعشق الواحدة منهنّ وإنّما كان يستدرجها إلى فخٍّ محكم. لقد ترك كارلو ساباتيني خلفه جيشًا من النساء المهجورات التعيسات الناقمات عليه وعلى أنفسهنّ وهو يدرك أنّه قد لمس أرواحهنّ بعمق وأنّ أيّ امرأةٍ منهنّ لن تعود أبدًا كما كانت لأنّه وضعها أمام حقيقتها فلا يمكنها بعد ذلك أن تخدع نفسها. بعد المشهد الأخير يطوي كارلو صفحة المرأة ويسقطها من ذاكرته وحياته.

عندما وجد سميحة تنتظره ذلك الصباح أمام الشقّة، فوجئ للحظة وسرعان ما تحوّل وجهه إلى الهيئة التي يلقى بها العاشقة المهجورة: تعبير ودّي لكنّه بارد ومصطنع وابتسامة رسميّة وطبقة

صوت محايدة ليست صادقة ولا حميمة. إنّه يعتذر عن هجرها لكنّه، على نحوٍ ما، يتعمّد أن يبدو اعتذاره ملفّقًا وكاذبًا حتّى يمعن في إهانتها. قال لها:

– أهلًا سميحة. بقى لك كثير؟

– منتظراك من ساعة.

– تحت أمرك.

– ممكن أتكلّم معك؟

– تفضّلي.

فتح باب الشقّة وأدخلها ودعاها للجلوس في الصالة وجلس على المقعد المقابل.

تطلّعت إليه وقالت:

– ممكن أعرف أنا عملت إيه زعّلك؟

– أنا مش زعلان.

– أنت بتتهرّب منّي.. أنت ما بقتش تحبّني. أو يمكن عمرك ما حبّتني أساسًا.

هكذا قالت بصوتٍ متهدّج ثمّ راحت تبكي.

تطلّع إليها كارلو صامتًا ولم يبدُ على وجهه أيّ تأثّرٍ ثمّ قال:

– سميحة، أيّ حاجة في الدنيا لازم تنتهي في وقت معيّن. احنا حكايتنا انتهت..

حاولت سميحة أن تطيل الحوار وسعت لمناقشة الأسباب المحتملة لانهيار العلاقة. كلّ هذه المحاولات أبطلها كارلو بلا رحمة، واحدة بعد الأخرى، بهدوء الجلّاد. وفي النهاية لم تجد سميحة مفرًّا من الانسحاب. قامت وتوجّهت نحو الباب وفتحته وخرجت. لم تنظر إليه ولم تنطق بكلمة ولم يستبقِها هو أو يودّعها. أحسّ براحةٍ لهذه النهاية. دخّن سيجارةً ثمّ أخذ حمّامًا ساخنًا كأنّما ليزيل آثار كلّ ما حدث من ذهنه، وعندما استلقى في فراشه فكّر في سميحة، لمرّةٍ أخيرة. كان يحسّ نحوها بمزيجٍ من التشفّي والشفقة. إنّها خائنةٌ تستحقّ ما فعله بها لكنّها أيضًا إنسانةٌ رقيقة أحبّته ومنحته لحظات من البهجة الخالصة. لماذا تخون المرأة؟ هل هناك ظروفٌ معيّنة تدفع أيّ امرأةٍ للخيانة أم هناك نساءٌ قابلاتٌ للخيانة أكثر من غيرهنّ؟ هل تخون المرأة من أجل إرضاء غرورها كأنثى؟ هل تخون فقط من أجل اللذّة أم أنّ الخداع طبيعةٌ في تكوينها؟ أم أنّ المرأة

تعوّدت على مدى قرونٍ طويلة أن تفرض عليها القواعد الأخلاقيّة من الخارج وبالتالي ما إن تُرفع عنها الرقابة حتّى تتورّط في الخيانة؟

كلّ هذه أسئلة طالما ألحّت على كارلو ولم يجد الإجابة عنها قطّ.

مدّ يده وأطفأ الأباجورة المجاورة للفراش فساد الظلام. أغمض عينيه وتذكّر أنّ اليوم موعد زيارته لأمّه. سوف ينهي عمله في المطعم ويذهب إليها. حاول كارلو أن يتخيّل ما ينتظره في شقّة أمّه لكنّه كان منهكًا فاستسلم للنوم.

14

وصل جليل قبل موعد المقابلة بربع ساعة وقال للسكرتيرة إنّه سينتظر لكنّها أخبرت توني كازان فأمر بإدخاله فورًا وصافحه بحرارة وقال:

– أهلًا يا أستاذ جليل.. أشكرك على أنّك فكّرت تشتغل معنا.

جلس توني إلى مكتبه ودعاه إلى الجلوس ثمّ ابتسم وبدا كأنّه يبحث عن الألفاظ المناسبة ثمّ قال:

– طبعًا انت عارف أنّ عبّاس أخوك صديق عمري.

هزّ جليل رأسه فقال توني بلهجةٍ جادّة:

– أنا وعبّاس تعلّمنا أنّنا لا نخلط العمل بالصداقة.

– طبعًا.

– يعني لو رفضنا تعيينك.. تزعل؟

– لو كان الرفض لسبب موضوعي لا يمكن أزعل.

ابتسم توني وقال:

– عال... على فكرة أنا قرأت سيرتك الذاتيّة. ممتازة.

– شكرًا.

– طبعًا أنا رأيي استشاري.. قرار تعيينك في يد رئيس الشؤون الماليّة الأستاذ بدوي خضير. عندك مانع تعمل اختبار في المحاسبة؟

ردّ جليل بثقة:

– مافيش مانع.

– تعيينك في المصنع متوقّف على نتيجة الاختبار.

– مفهوم.

سكت توني فجأةً وبانت على وجهه علامات التفكير ولاحظ جليل لأول مرّة رجلين وسيّدة جالسين حول مائدة الاجتماعات. ابتسم توني وقال:

– قبل ما تقابل بدوي، ممكن أطلب منك خدمة؟

– تحت أمرك.

– أنت بتحبّ الشوكولاته؟

– طبعًا.

– بتدخّن؟

– لا.

– عظيم. لن يكون فمك ملوّثًا بطعم الدخان. بصّ يا جليل. نحن الآن نتذوّق شوكولاته جديدة. إنتاج تجريبي. تُعتبر لحظة مهمّة في الصناعة. بناءً على هذه التجربة ممكن نغيّر المكوّنات أو نعدّل تركيزها أو حتّى نلغي المشروع من أساسه. في الإنتاج التجريبي مهم أن يكون المتذوّقون من خلفيات مختلفة لأنّ المستهلكين للشوكولاته مختلفين.. فاهمني؟!

هزّ جليل رأسه واستطرد توني بجدّية:

– ممكن تشترك معنا في التجربة من فضلك؟!

– بكلّ سرور.

– طلب منه أن يذهب إلى الحمّام ويمضمض فمه بالماء جيّدًا ثمّ أجلسه إلى المائدة مع الآخرين وبعد أن عرّفه إليهم بسرعة قال بنبرةٍ جدّية:

– يا جماعة، التجربة غرضها تحديد وقت ذوبان الشوكولاته. الموضوع محتاج تركيز. من فضلكم كلّ واحد فيكم يرفع يده أول ما يحسّ أنّ الشوكولاته ذابت تمامًا.

كان الموقف، على نحوٍ ما، طريفًا وغير متوقع، لكنّ جليل تجاوز المفاجأة وقرّر أن يتصرّف بجدّية. أخرج توني ساعة توقيف (Stop watch).

أعطى الحاضرين واحدًا بعد الآخر قطعة شوكولاته وراح يسجّل وقت الذوبان في كلّ مرّة، ثمّ أعاد التجربة من جديد وفي النهاية قرأ النتائج بعناية ثمّ قال بصوت خافت:

– وقت الذوبان أطول من اللازم. ما زال أمامنا شغل...

شكر توني جليل ثمّ استدعى السكرتيرة التي اصطحبته عبر الردهة إلى مكتب بدوي خضير مدير الشؤون الماليّة. كان بدوي شابًا ضخم الجثّة عريض المنكبين أشبه بمصارع، رأسه ضخم وصلعته فسيحة وعيناه واسعتان وملامح وجهه الغليظة تعكس ثقة بالنفس

ونوعًا من التحدّي. رحّب بدوي بجليل ثمّ تطلع إليه بنظرةٍ قويّة متفحّصة وسأله:

– مستعدّ للاختبار؟

هزّ جليل رأسه فأعطاه بدوي رزمة ورق أبيض وورقة مطبوعة فيها بضع مسائل في المحاسبة وطلب منه أن يؤدّي الاختبار في الحجرة المجاورة وقال بنبرةٍ رسميّة:

– وقت الاختبار ساعة واحدة. شدّ حيلك.

أنهى جليل الإجابة بعد أربعين دقيقة ورجع إلى بدوي الذي دعاه للجلوس وراح يقرأ ورقة الإجابة بعناية ثمّ أشعل سيجارةً وقال:

– الإجابات كلّها صحيحة. برافو يا جليل.

– شكرًا.

– بإذن اللّه تستلم الشغل من أول الأسبوع.. مبروك.

– اللّه يبارك فيك.

– عندك مانع ندردش دقيقتين؟

– تفضّل.

– قهوتك إيه؟

– سكّر زيادة.

– رفع بدوي سمّاعة التليفون وطلب قهوة سكّر زيادة وأخرى سادة ثمّ نظر إلى الملفّ المفتوح أمامه وقال:

– أنا بصراحة مستغرب أنّك محاسب. أخوك الأستاذ عبّاس القوصي من أكبر المحامين في اسكندريّة. مش كان أسهل تدرس قانون وتشتغل معه؟

– كان أسهل طبعًا لكنّي لا أحبّ المحاماة.

– ممكن أعرف السبب؟

– يمكن شخصيّتي لا تصلح للمحاماة. أنا طول عمري أحبّ الرياضيّات وحضرتك عارف أنّ المحاسبة تطبيق عملي للرياضيّات.

سكت بدوي لحظة ثمّ تطلّع إلى جليل متفحّصًا وقال:

– أنت اشتغلت في مكتب ألبير خيّاط للمحاسبة؟

– صحّ.

– كم سنة؟

– سبع سنين.

– طبعًا عارف أن ألبير خيّاط يهودي؟

– الأستاذ خيّاط مصري من مواليد الاسكندريّة ويهوديّ الديانة.

– كان إيه إحساسك وأنت بتشتغل عند واحد يهودي.

– الدين مسألة شخصيّة لا تعنيني.. المهمّ تعامل الإنسان معايا.

– ألبير خيّاط قال لك رأيه في إسرائيل؟

– عمرنا ما تكلّمنا في السياسة.

– هو هاجر فين؟

– فرنسا.

– أنت على اتّصال به؟

– طبعًا.

– ليه بتقول طبعًا؟

– يتهيّألي طبيعي أنّنا نتبادل رسائل للاطمئنان.

– إذا كنت بتحبّ ألبير خيّاط يبقى أكيد زعلت لمّا ساب مصر.

– طبعًا زعلت وهو أستاذي وصاحب فضل عليّ وخبرة لا تُعوّض في المحاسبة.

– أكيد أنت غاضب على الدولة لأنّها أجبرت خيّاط على الهجرة.

– حضرتك بتقول آراء على لساني.

– أبدًا.. أنا بأفسّر كلامك..

– الحقيقة أنا مش فاهم فائدة هذا الحوار من أساسه. مسيو توني قال لي إنّك حتعمل لي اختبار محاسبة مش تحقيق سياسي.

ضحك بدوي وقال بنبرةٍ عاطفيّة:

– طوّل بالك يا جليل. لازم تتحمّل أسئلتي. احنا بقينا زملاء ولازم نتعرّف ببعض. عاوزك تتكلّم عن نفسك وأنا أحكي لك عن نفسي. ممكن؟!

– تفضّل.

– أنا من أسرة فلّاحين فقيرة من البحيرة. أنا ابن الثورة. الثورة أعطت والدي خمسة فدادين وحوّلته من فلاح أجير لصاحب أرض. أنا بقيت محاسب بفضل الثورة ولولا مجّانيّة التعليم كان يستحيل

أدخل الجامعة . أعتقد أنّ وضع أسرتك مختلف عنّي وكنت قادر تتعلّم في الجامعة بمصروفات.

ظلّ جليل صامتًا واستطرد بدوي:

– قصدي أنّي لازم أحبّ الثورة لأنّها حرفيًا عملت منّي بني آدم بينما أنت الثورة مالهاش فضل عليك لأنّك من أسرة ميسورة.

– كون أسرتي ميسورة لا يعيبني.

– طبعًا لا يعيبك لكن قطعًا سيؤثّر على آرائك السياسيّة. يعني أنت غالبًا معارض للثورة. صح؟

– غلط... موقفنا من الثورة لا يجب أن تحدّده مصلحتنا الطبقيّة. إذا كانت هناك قضيّة عادلة لازم ندافع عنها حتى لو كانت ضدّ مصالحنا.

– يعني ممكن رجل إقطاعي يساند الثورة؟

– كثير من قادة الحركة الاشتراكيّة في مصر كانوا من أسر إقطاعيّة. تشي جيفارا كان من أسرة ثريّة في الأرجنتين وبرغم ذلك وهب حياته لتحرير الفقراء من الظلم. إذا آمنت بفكرة تقدر تتجاوز مصالحك.

– واضح أنّك إنسان مثقّف.

لم يعقّب جليل وابتسم بدوي وقال:

– عندي سؤال عاوزك تجاوبه بصراحة.. طبعًا من حقّك ترفض السؤال.

– تفضّل.

– إيه رأيك في سيادة الرئيس عبد الناصر؟

ردّ جليل بهدوء:

– رأيي في الرئيس عبد الناصر لا يمكن تلخيصه في كلمتين.

ابتسم بدوي وقال:

– عندنا وقت.. تفضّل. أنا سامعك.

15

Quelle force de beauté (يا لقوّة الجمال)، هكذا قال المغنّي الشهير جورج موستاكي عندما رأى ليدا أرتينوس لأول مرّة.

كان التعبير غريبًا لكنّه يصف ليدا بدقّة: الشعر الأسود الناعم الكثيف المتهدّل على كتفيها والبشرة البيضاء والعينان السوداوان الواسعتان والشفتان المكتنزتان الشهيّتان. كلّ ذلك مع جسدٍ متناسق ملفوف كنوزه بارزة شامخة متحدّية تحقّق نموذج الجمال الحسّي للبحر المتوسّط. من أول نظرةٍ يخطف جمال ليدا الانتباه لكنّه في النظرة الثانية، المتأنّية، سرعان ما يسفر عن طابعه الفريد. ليس جمال ليدا نمطيًا مرسومًا وليس جمالًا خاضعًا مستكينًا على النمط الشرقيّ وإنّما هو جمالٌ قويّ جريء مقتحم يحمل تعبيرًا صلبًا يعكس قدرة على الجلد والقتال إذا لزم الأمر. نشأت ليدا يتيمةً ووحيدة فقد تُوفّيت أمّها وهي صغيرة وقرّر أبوها جورج أرتينوس أن يتفرّغ لتربيتها فلم يتزوّج وعمل كلّ ما في وسعه حتّى يمنحها أفضل تعليم وفي نفس الوقت يعدّها لخلافته في إدارة المطعم. عاشت ليدا دائمًا حياةً مزدوجة. تشارك صديقاتها في حياة النخبة السكندريّة الناعمة المرفّهة وفي نفس الوقت تتلقّى دروس الإدارة من أبيها الذي كان يردّد دائمًا: «نجاحك في المطعم مثل نجاحك في المدرسة. في نفس الأهمّية».

عملت ليدا بالنصيحة وغالبًا ما كانت تستذكر دروسها في مكتب أبيها في المطعم وبين الحين والآخر تخرج لتتفقّد سير العمل. تعلّمت أن تختبر كلّ شيء بنفسها بدءًا من نظافة دورات المياه إلى درجة تمليح الطعام إلى طريقة تقديم النبيذ والويسكي. شيئًا فشيئًا منحها أبوها أسرار الصنعة كاملةً فأصبحت تعرف مثلًا أنّ البارمان يورّد لخزينة المطعم ثمن 16 كأسًا في زجاجة الويسكي من الحجم العاديّ وإن لم يخضع البارمان للرقابة فقد يستغلّ سكر الزبون ويقدّم

له كأسًا بثلج كثير وويسكي قليل حتى تتوفّر له في النهاية بضع كؤوس في الزجاجة يبيعها لحسابه.. تعلّمت ليدا من أبيها أنواع النبيذ والطريقة الصحيحة لتخزينه وكيفيّة تقديمه على المائدة وتعلّمت أيضًا أنّ مورّدي اللحوم والخضروات لا يجب أبدًا أن يتّصلوا بالطبّاخين وإلّا فإنّهم سيدفعون لهم رشوة حتى يتسلّموا بضاعة من الدرجة الثانية. أكّد لها أبوها أنّ حسن استقبال الزبائن نصف النجاح. كان ترحيبها بالزبائن وهي طفلة يشيع جوًّا من المرح والحنان (كانت تذكّرهم بشيرلي تمبل) ولمّا كبرت صار جمالها عاملًا أساسيًّا في جاذبيّة مطعم أرتينوس. حصلت ليدا على البكالوريا الفرنسيّة وبينما بحثت زميلاتها عن دراسة تفتح لهنّ أبواب العمل كان عملها هي مقرّرًا سلفًا فقرّرت أن تدرس الأدب الفرنسيّ لأنّها تحبّه. تخرّجت في جامعة الاسكندريّة وتزوّجت وبعد بضع سنوات مات أبوها فحزنت بشدّة لفقدانه لكنّ العمل في المطعم لم يتأثّر أبدًا لأنّها كانت مدرّبةً تمامًا على تولّي المسؤوليّة وقد اعتمدت في إدارتها على مساعدة كارلو سابا تيني المخلص الأمين الذي اعتبر مساعدتها ردًّا بسيطًا لجميل المرحوم جورج أرتينوس، معلّمه الأول وصاحب الفضل عليه. تقاسمت ليدا الإدارة مع كارلو وأعطته إدارة الليل بينما كانت تشرف على كلّ شيء حتّى السادسة مساءً. بفضل كفاءة ليدا وكارلو استطاع مطعم أرتينوس أن يحافظ على نجاحه بعد وفاة مؤسّسه بل إنّ الأرباح زادت في العامين الأخيرين. مشكلة ليدا الحقيقيّة لم تكن في العمل بل في البيت.. لقد تزوّجت فيليب كازان بترشيح من أبيها الراحل الذي كان – وفقًا لحساباته – واثقًا من نجاح الزواج لأنّ فيليب من أسرةٍ كبيرة ثريّة بالإضافة إلى تعليمه الرفيع ونجاحه في تجارة القطن. لم تكن ليدا تشعر بالحبّ نحو فيليب لكنّها أيضًا لم تحسّ بالنفور منه وقد جعلها حسّها العمليّ (بالإضافة إلى تأثير أبيها) تؤمن بأنّ قرار الزواج يجب أن يعتمد على حسابات العقل وليس جيشان العواطف. أقدمت ليدا على حياتها الجديدة بفرحة وتفاؤل ونيّةٍ خالصة لإسعاد زوجها لكنّها سرعان ما وجدت ما لم تتوقّعه. على عكس أخيه توني المبدع كان فيليب محدود الخيال فاترًا تقليديًّا يقدّس القواعد الرتيبة المملّة كأنّما يخفي فيها عجزه عن التألّق. هكذا فسّرت ليدا تمسّكه المستميت بعاداتٍ سخيفة: تناول الشاي في تمام الخامسة والحرص على ارتداء رباط العنق تحت

الروب الحريريّ وهو جالسٌ في البيت وإصراره العجيب على تقديم السفرجيّة لأطباق الطعام بالترتيب (كأنّه عشاءٌ رسميّ) حتى لو كان يأكل مع زوجته فقط. كان فيليب صموتًا لا يتكلّم إلّا في حالات الضرورة ويستعمل جملًا مقتضبة يلقيها بوجهٍ عابس وهو نادرًا ما يبتسم أو يضحك، وقد فشلت كلّ محاولات ليدا لبعث الحيويّة والمرح في شخصيّته، كان يرفض بعناد اقتراحات ليدا للسهر خارج البيت، سواء في السينما أو المسرح أو في بيوت الأصدقاء. يهزّ رأسه ويقول بلهجة قاطعة:

– اسهري وحدك لو تحبّي. أنا لازم أنام بدري.

كان يجلس بجوارها كلّ ليلة بعد العشاء يطالع صحيفته المفضّلة، الإجيبشيان جازيت (The Egyptian Gazette)، وقد زمّ شفتيه بدون أن ينطق بكلمة وكأنّه في عزاءٍ أو مهمّة رسميّة.

كلّ ذلك كان بوسع ليدا احتماله أو تجاهله حتّى اكتشفت ما هو أسوأ: أنّ فيليب كازان مريضٌ بداء البخل بلا أملٍ في الشفاء، إنّه يرفض إنفاق النقود من ناحية المبدأ وهو، بلا أدنى حرج، يخترع أكاذيب ويصطنع مشاهد تمثيليّة ويمارس حيلًا لا تنتهي للتهرّب من التزاماته الماليّة: يتجاهل ويستعبط ويماطل ويتذرّع بحجّةٍ وراء أخرى وأخيرًا، بعد جهدٍ جهيد، إذا تمّ التضييق عليه ومحاصرته بإحكام فإنّه لا يستسلم بل يعلن بوقاحة أنّه لن يدفع لأنّه حاليًا لا يملك سيولةً ماليّة كافية. تكرّرت هذه الألاعيب مرّةً بعد أخرى وبعد كرٍّ وفرّ ومناقشاتٍ طويلة سقيمة ووجع قلب كثير صارت ليدا تدفع كلّ النفقات في البيت لكنّ علاقتها بزوجها تسمّمت إلى الأبد.

ثمّة أعراضٌ أخرى عانت منها ليدا: ضيق الصدر والتوتّر والعصبيّة والنوم السيّئ المتقطّع المصحوب بكوابيس وذلك التعبير الحانق الكاره الذي يظهر على وجهها الجميل إذا تحدّثت مع فيليب أو حتّى تحدّثت عنه. كانت كلّها علامات على وجود مشكلة زوجيّة في الفراش لمّحت إليها ليدا عندما قالت: «لقد اكتشفت أنّ البخيل بالمال سيكون حتمًا بخيلًا بالمشاعر».

كانت علاقتها الجسديّة بزوجها تجربةً سيّئة تحاول دائمًا أن تتجنّبها. ولأنّ فيليب كان يطلبها في الفراش في أوقاتٍ محدّدة (الجمعة والسبت ليلًا)، فقد كان من السهل على ليدا أن تخترع حججًا وأعذارًا بلا نهاية لتفلت من ذلك الإحساس المهين المؤلم

الذي ينتابها عندما يجثم فيليب بأنفاسه عليها ثمّ تفور رغبته بسرعة وسرعان ما يعطيها ظهره ويستسلم للنوم.

الفائدة الوحيدة التي جنتها ليدا من هذا الزواج أنّها أنجبت ابنتها صوفيا وهي طفلةٌ رائعة عمرها الآن خمس سنوات.

تلك الليلة فعل فيليب شيئًا غير مألوف إذ إنّه دعا للعشاء أخاه توني (الذي تحبّه ليدا وتحترمه كثيرًا). في البداية تناولوا العشاء الذي طلبته ليدا من المطعم وبعد أن أوت الصغيرة صوفيا إلى الفراش بدأ فيليب الحديث فقال:

– توني. شكرًا لحضورك... لقد استدعيتك الليلة لأحدّثك في أمرٍ مهمّ في حضور ليدا.

تطلّع توني متسائلًا وقال:

– هل لديك أخبارٌ طيّبة؟!

تجاهل فيليب السؤال وقال:

– هل تذكر حكاية السمكات الثلاث التي درسناها ونحن صغار في المدرسة؟

– ذكّرني بها.

– كانت هناك ثلاث سمكات يعشن في بركةٍ صغيرة متّصلة بنهر وذات يوم انخفض مستوى الماء في البركة فحذّرت سمكة منهنّ زميلتيها من جفاف البركة وقفزت في النهر حتّى تكون في أمان. السمكة الثانية ظلّت في البركة حتى أحسّت بمستوى الماء ينخفض أكثر فقفزت في النهر وأنقذت نفسها في آخر لحظة أمّا السمكة الثالثة فلم تصدّق أنّها في خطر وظلّت في البركة حتى جفّت فماتت.

قالت ليدا بعصبيّة:

– فيليب.. من فضلك ادخل في الموضوع مباشرة.

ردّ فيليب بهدوء:

– أنا أتحدّث في الموضوع.. لقد فاتنا أن نتصرّف مثل السمكة الأولى فلنكن إذن مثل السمكة الثانية بدلًا من أن نموت مثل السمكة الثالثة.

ابتسم توني وقال:

– أنا فعلًا أحتاج إلى شرح هذه الفزّورة.

قال فيليب:

– لقد طلبت من المحامي تصفية الشركة.

– أيّ شركة؟

– شركة القطن التي أنشأها والدنا. سوف أغلقها.

– لماذا؟

– لأنّ العمل لم يعد ممكنًا. الحكومة المصريّة أصبحت تتاجر في القطن وبالطبع يستحيل أن ننافس الحكومة.

ساد الصمت لحظةً ثمّ قال توني:

– أنت تعرف كم كافح أبوك لإنشاء هذه الشركة. لا شكّ في أنّ إغلاقها قرار محزن.. أرجو أن تكون درسته جيّدًا.

– لا خيار لديّ.

– وماذا ستعمل بعد ذلك؟

– سأهاجر إلى أمريكا.

– هل أنت جادّ؟

– تمامًا.

ساد الصمت لحظة ثمّ قال فيليب وهو ينظر إلى ليدا:

– بالطبع أحبّ أن تكون أسرتي معي.

ردّت ليدا بتحفّز:

– تريدني أن أقلب حياتي بالكامل لأنّ سيادتك قرّرت الهجرة؟!

– أظنّ أنّ هذا هو المتوقّع من أيّ زوجة..

– والمتوقّع أيضًا من أيّ زوج ألّا يتّخذ قرارًا بالهجرة قبل أن يستشير زوجته.

– ليدا. افهمي. الأمر ليس بيدي.. نحن مضطرّون للهجرة.

– تحدّث عن نفسك فقط.

– ماذا تقصدين؟

– أنا لست مضطرّةً للهجرة.

– لماذا؟

– لأنّ عندي حياتي وابنتي وعندي مطعمي الذي ينفق على أسرتنا بالكامل كما تعرف.

تجاهل فيليب الجملة الأخيرة واستطرد بهدوء:

– لو بعنا المطعم ممكن يجيب مبلغ محترم نبدأ به حياة جديدة في أمريكا.

صاحت ليدا بغضب:

– يعني أبيع مطعمي وأعطيك ثمنه؟ كالعادة.. أنت شخص أناني لا تفكر إلّا في نفسك.

– ضعي نفسك مكاني.. ماذا أفعل بعد أن فقدت عملي؟

– تستطيع أن تعمل في مجالٍ آخر.

– أنا كبرت في السنّ وصعب أتعلّم مهنة جديدة، بالإضافة إلى أنّ الحكومة المصريّة تطبّق الاشتراكيّة ولن تسمح لي بعمل أيّ مشروع.

تدخّل توني قائلًا:

– فيليب، اسمح لي، أنت تبالغ.. أنا أفهم أن تمارس الحكومة تجارة القطن لأنّه المحصول الأهمّ في مصر. لكن هناك مشروعات أخرى كثيرة لن تتدخّل الحكومة فيها.

قالت ليدا:

– فيليب. تفضّل هاجر. لن أمنعك. لكن أنا وصوفيا سنظلّ في بلدنا.

ضحك فيليب باستخفافٍ وقال:

– يبدو أنّكِ تعيشين في كوكبٍ آخر. الحقيقة واضحة.. عبد الناصر يكره الأجانب.

– أنا لست أجنبيّة.

– معلوماتي أنّكِ يونانيّة.

– أنا سكندريّة من أصلٍ يونانيّ.

تنهّد فيليب وقال:

– ليدا، ليس هذا وقت الشعارات. اتركي مشاعرك جانبًا وفكّري بعقلك. مصر لم تعد تصلح لنا.

– أنت كالعادة تتصرّف بلا مشاعر. هذا البلد ليس فندقًا نتركه عندما تسوء الخدمة فيه. الاسكندريّة بلدي.. لن أتركها أبدًا.. أتمنّى أن تفهم ذلك.

قال فيليب كأنّه لم يسمع ما قالته:

– سأترك لك أسبوعًا حتّى تتّخذي قرارك.. إذا كنت تريدين الاحتفاظ بأسرتنا يجب أن تبدئي باتّخاذ الخطوات اللازمة وبالطبع سينجز لك المحامي كلّ إجراءات الهجرة.

سكت لحظةً ثمّ استطرد:

– لقد اتّفقت معه على أتعابٍ معقولة.

صاحت ليدا:

– وطبعًا تتوقّع منّي أن أدفع أتعاب المحامي..

لم يعلّق فيليب وأشعلت ليدا سيجارة وقالت:

– ما دمت تتحدّث بهذا الوضوح فالحقيقة أنّه لا شيء في ارتباطنا يستحق الاحتفاظ به.

قال توني:

– ليدا اهدئي من فضلك.

ردّت ليدا:

– لست غاضبة.. عزيزي فيليب، فلنتحدّث بصراحة.. أنت تعرف أنّ أسرتنا مفكّكة أو أنّنا لا نُعتبر أسرة أساسًا. كلّ ما في الأمر أنك تعيش معي أنا وصوفيا في نفس البيت كما أنّني أتحمّل وحدي كلّ النفقات بينما أنت لا تدفع شيئًا.. وحيث إنّك قرّرت الهجرة فأنا أيضًا أريد الانفصال.

ابتسم فيليب وقال باستخفاف:

– ما معنى ذلك؟

– أظنّ أنّ المعنى واضح.. أنا أطلب الطلاق منك.

– يبدو أنّك كنت تنتظرين الفرصة.

ردّت ليدا:

– بالضبط كما تقول.. كنت أنتظر الفرصة. يجب أن نضع نهايةً لهذا الزواج التعيس.

حاول توني تهدئة الموقف ولكن عبثًا فقد بدا الأمر وكأنّ معاناة ليدا انفجرت مرّةً واحدة. رفضت مجرّد الحديث عن الهجرة وأصرّت على الطلاق. سألها توني بودّ:

– إذا تراجع فيليب عن الهجرة فهل تنتهي المشكلة.

ردّت ليدا بحزم:

– عزيزي توني. المشكلة ليست في الهجرة. فيليب هو المشكلة.

على مدى أسابيع حاول توني التوسّط بين الزوجين لكنّ ليدا صمّمت على الطلاق ولم تعد تقبل مجرّد الحديث عن المصالحة. في النهاية تمّ كلّ شيء بهدوء: هاجر فيليب إلى نيويورك ووجد عملًا في شركةٍ كبيرة لتجارة القطن في مانهاتن. في الاسكندريّة بدأ المحامي بإجراءات الطلاق واستأنفت ليدا حياتها بطريقةٍ طبيعيّة والحقّ أنّها

لم تشعر بغياب فيليب، ببساطة لأنّها لم تكن تشعر بوجوده. بعد الطلاق خلت حياتها من المشاحنات والمضايقات اليوميّة فأحسّت براحةٍ عظيمة. صارت تسهر كثيرًا مع أعضاء الكوكاس. كانت تعرفهم من زمان وتحبّهم وتستمتع بصحبتهم.

كان الفنّان أنس يبدو لها كائنًا استثنائيًّا طريفًا، أقرب إلى الكاريكاتير، بقامته الطويلة وجسده النحيف وحماسته الدائمة وصوته الأجشّ والبابيون الضخم الملوّن الذي يربطه على ياقة القميص. ذات مرّةٍ كان أعضاء الكوكاس جالسين حول البار يتحدّثون ويشربون وفجأةً قام أنس من مقعده وهو يمسك بكأسه واقترب من ليدا ثمّ ابتسم وقال:

– ليدا، كيف حالك؟

– بخير. شكرًا لك.

– ممكن أطلب منك حاجة.

– تفضّل.

– تسمحي لي أرسم لك بورتريه.

– فين؟

– في مرسمي. قريب جدًّا من هنا.

– ممكن أعرف مناسبة البورتريه؟

– معرضي القادم سأخصّصه للبورتريه وبالتالي يجب أن أبحث عن وجوهٍ معبّرة.

– رأيك أنّ وجهي معبّر؟

– جدًّا.

– أشكرك.

ضحك أنس وقال:

– الوجه المعبّر ليس دائمًا ميزة لأنّ أيّ شخصٍ يستطيع أن يقرأ أفكارك.

– وليكن.. ليس لديّ ما أخفيه.

– ألا يهمّك رأي الناس فيكِ؟

– راحتي النفسيّة أهمّ بكثير من فكرة الآخرين عنّي.

– هذا واضح في تصرّفاتك.

ضحكت ليدا وقالت:

– هل تراقبني؟

– مهنتي تحتّم عليّ مراقبة الناس.

ساد الصمت لحظة ثمّ قالت:

– عندي سؤال.

– تفضّلي.

– أنت تعرفني من زمان لماذا لم تطلب رسمي بورتريه من قبل؟

– بصراحة وجهك تغيّر.

نظرت إليه باسترابةٍ ثمّ ضحكت وقالت:

– أؤكّد لك أنّ كلّ جزءٍ في وجهي ما زال في مكانه.

ردّ أنس بجدّية:

– أنا واثق أنّك تفهمين قصدي. البورتريه ليس تسجيلًا للملامح بل تعبير عن المشاعر التي تنقلها الملامح. البورتريه ينقل التكوين الداخلي للشخصيّة. أنا مثلًا أرسم بسهولة كاريكاتير لأناس لا أعرفهم لكن في حالة البورتريه لا بدّ أن أتكلّم مع الشخص الذي أرسمه، لا بدّ أن نعقد عدّة جلسات للتعارف حتى أتمكّن من إدراك ما يدور بداخله. عندئذٍ فقط أبدأ برسم البورتريه.

– هل سنعقد جلسات تعارف حتى ترسمني؟

– سيسعدني ذلك.

– على فكرة أنت لم تجب عن سؤالي.. ما الذي تغيّر في وجهي؟

– المشاعر التي يعبّر عنها وجهك تغيّرت. كان وجهك قبل ذلك يعكس تعبيرًا نمطيًّا تتعاملين به من فوق السطح. كأنّ إحساسك كان مقيّدًا. الآن أشعر كأنّك تحرّرت وصرت تعبّرين عن نفسك.

– غريب أن تقول ذلك وأنت لا تعرف كثيرًا عن حياتي الخاصّة.

– هذه قوّة الحدس.

– اشرح لي.

– الفنّان ينظر إلى وجه إنسانٍ فيتمثّل له مسار حياته بأكملها.

فكّرت لحظة وقالت:

– المعنى عميق.

– هذه الجملة قالها فيلسوف ألماني عظيم اسمه أوسوالد شبينجلر.

– يجب أن أبحث عن كتبه.

– له كتابٌ ضخم بعنوان «تدهور الحضارة الغربيّة». إذا قرأتِ هذا الكتاب فستتغيّر نظرتك للحياة.

– أين أجده؟

– النسخة الفرنسيّة تباع في مكتبة بلزاك. اطلبيها من شانتال. ولكنّ الكتاب صعب في القراءة ويحتاج إلى تركيز.

– سأبذل كلّ جهدي.

– يسعدني أن أساعدك إذا احتجتِ.

استمتعت ليدا بالحديث مع أنس ولمّا حان وقت انصرافها بدأت تلمّ حاجيّاتها عن البار. مدّ أنس يده وصافحها وقال بنبرةٍ بروتوكوليّة مهذّبة:

– سأكون ممتنًّا لو منحتِني الفرصة لكي أرسمك.

كادت تعتذر بلطف وينتهي الأمر لكنّ شيئًا ما في أنس كان جادًّا ومهنيًّا كما أنّها أحسّت بفضولٍ لخوض التجربة. بعد أيّام عندما زارت مرسمه للمرّة الأولى دخلت إلى المصعد وضغطت زرّ الدور الخامس وكان عليها أن تصعد على السلم دورًا آخر لتصل إلى حيث يسكن. للحظة، بينما المصعد العتيق يصدر أزيزه ويتحرّك ببطء، خطر لها أنّها ربّما تسرّعت في قبول دعوته لكنّها قالت لنفسها إنّه عضوٌ في الكوكاس وهي تعرفه من سنين كما أنّه فنّان متحضّر من المستبعد أن يرتكب حماقات والأهمّ من كلّ ذلك أنّها الآن امرأةٌ مستقلّة حرّة ومن حقّها أن تخوض أيّ تجربةٍ تريدها. كان أنس يعيش في شقّةٍ صغيرة من حجرتين وصالة متّصلة بسطح (Terrace) فسيح يطلّ على البحر وقد انتشرت فيه أصص الزهور وأعدّت عدّة أرائك من الطوب تغطّيها وسائد للجلوس. في أركان السطح كانت هناك أعمدةٌ معدنيّة تحمل تندات من قماشٍ أزرق تُبسَط لتحمي الجالسين من الشمس. أمّا داخل الشقّة فرأت ليدا لوحاتٍ عديدةً على الجدران بعضها تحمل توقيعه ورفوفًا محمّلة بالكتب تمتدّ من الأرضيّة الباركيه حتّى السقف. برغم الفوضى كان المكان ينمّ عن ذوقٍ رفيع وكانت هناك أرائك من النوع الاسطنبولي مغطّاة بوسائد ومفارش لونها نبيذيّ، ورأت ليدا حامل اللوحة وألوانًا مختلفة ملقاة هنا وهناك. كانت هناك لوحة لم يُنهِها أنس وفي الركن كان هناك بيك أب وأسطوانات كثيرة وثلاث سمّاعات في أركان الصالة. سألها فجأة:

– تحبّي تشوفي أوضة النوم؟

انزعجت للحظة من السؤال لكنّ نظرته جعلتها تطمئن. وكما توقّعت كانت حجرة النوم في غاية الأناقة. سريرٌ نحاسيّ كبير من الطراز القديم المرتفع تغطّيه ناموسيّة وتحته سلّم صغير من درجتين وعلى الجانب الآخر أريكة من طراز أرابيسك ودولاب كبير عتيق تغطّيه مرآة كبيرة. عادا إلى الصالة وتطلّعت ليدا إلى صفوف الكتب وقالت:

– هل هذا مرسم أم مكتبة عامّة؟

ابتسم أنس وقال:

– أنا أعيش بالكتب والموسيقى والبحر.

قدّم لها كوبًا من الشاي وأخبرها من جديد أنّه يحتاج إلى معرفتها أكثر قبل أن يرسمها ثمّ أضاف بلهجةٍ ودّية:

– ممكن تكلّميني عن نفسك؟

أرادت أن تعطيه ملخّصًا موجزًا عن حياتها لكنّها وجدت نفسها تحكي كلّ شيءٍ بالتفصيل واستغربت لأنّها لم تحسّ بحرج وهي تبوح بأسرارها.. أنصت أنس إليها صامتًا وقد بدا على وجهه تعبيرٌ متفهّم مهذب ثمّ علّق قائلًا:

– الثقافات الشرقيّة تربط جمال المرأة بضعفها واستكانتها وأنتِ سكندريّة قويّة وجميلة.

ضحكت وقالت:

– أخشى أن ترسمني بوجهٍ شرس.

ردّ أنس بجدّية:

– سأسعى للتعبير عن قوّة الجمال.

تركت أول زيارة لديها إحساسًا بالبهجة. بعد ذلك صارت تزور مرسمه مرّتين كلّ أسبوع. تعمل طوال النهار في المطعم ثمّ تسلّمه لكارلو وتعود إلى بيتها لتطمئنّ على صوفيا وتظلّ بجوارها حتّى تنام ثمّ تذهب للقاء أنس. كانا يتحدّثان في كلّ شيء، حكى لها عن حياته وأفكاره، وقد فوجئت به مرّةً يدخّن سيجارة حشيش. تطلعت إليه بانزعاجٍ وسألته:

– ده حشيش؟

– نعم يا مولاتي..

هكذا ردّ ساخرًا لكنّها استطردت بجدّية:

- ممكن تقول لي فائدة الحشيش؟

– فوائده كثيرة وأهمّها بالنسبة إليّ أنّه يساعدني على التفكير والتأمّل.

– الذي أعرفه أنّ الحشّاش لا يدرك ما يفعله.

ضحك وقال:

– كلّ هذه أفكارٌ شائعة وخاطئة رسّختها الأفلام والمسلسلات. الحقيقة أنّ جرعةً معتدلة من الحشيش تضاعف الإحساس والتركيز.

بدا عليها أنّها لم تقتنع لكنّها ابتسمت وقالت بلباقة:

– لا بدّ أن أقرأ أكثر عن المخدّرات.

قال أنس:

– الحشيش لا يُعتبر من المخدرات. الوصف العلميّ له أنّه مهدّئ بمواصفات خاصّة.

كان حبّه للحشيش مفاجأةً بالنسبة لليدا وسرعان ما تلقّت مفاجأةً أخرى عن عقيدته الدينيّة. قال لها مرّة:

– الناس يولدون بأديانٍ يرثونها عن آبائهم فيعتنقونها تلقائيًا ولا يفكّرون فيها أبدًا. أنا فكّرت وقرأت وكنت أتمنّى أن أصل إلى الإيمان المريح. بعد سنواتٍ توصّلت إلى قناعة بأنّ اللّه موجود وهو القوّة المنشئة لهذا الكون لكن هل أرسل اللّه مندوبين عنه ليبلغونا بطلباته؟ لا أعتقد ذلك وبالتالي أنا مؤمن باللّه ولا أصدّق الأديان. الناس اخترعوا الأديان ثمّ صدّقوها ووقعوا أسرى لها وقد تسبّبت هذه الأديان الوهميّة بمئات الحروب والمجازر التي راح ضحيّتها ملايين الأبرياء. أتمنّى أن تنتهي خدعة الأديان يومًا. سيكون ذلك أفضل بكثير للإنسانيّة.

– إذن أنت لا تعتقد بأيّ دين؟

– إطلاقًا، وأنا سعيد بذلك.

تطلّعت إليه ولم تعلّق فنظر إليها وقال بنبرةٍ معتذرة:

– هل تذهبين إلى الكنيسة؟

– بقدر إمكاني.

– هل يمكن أن تتخيّلي حياتك بدون دين؟

– لا يمكن طبعًا.

– آسف لو كنت جرحت إيمانك.

شيئًا فشيئًا أدركت ليدا أنّ أنس لا يشبه أيّ رجلٍ عرفته. إنّه أعمق بكثيرٍ ممّا يبدو وهو بالإضافة إلى ثقافته الموسوعيّة حادّ الذكاء يستطيع تحليل أيّ موقفٍ والوصول ببراعة إلى صلب الموضوع.. من ناحيةٍ أخرى فإنّ حزنًا غامضًا ما ينتابه أحيانًا بلا سببٍ واضح وهو يميل دائمًا إلى المبالغة في أحاسيسه وقد أرجعت ليدا ذلك لكونه فنّانًا أو ربّما لتأثير الحشيش الذي يدخّنه بكثافة. لاحظت أيضًا أنّه تلقائيّ تمامًا وهو يعبّر عمّا يفكّر فيه فورًا بغير احتياطٍ أو تحسّب. هذه العفويّة أحبّتها ليدا ربّما لأنّها على العكس من شخصيّة فيليب الذي كان غامضًا ولئيمًا يستحيل أن تعرف ماذا يدور بذهنه بالإضافة إلى بخله بينما أنس لا يعرف قيمة النقود ولا يهتمّ بها ولا يحبّ حتّى الحديث عنها وكأنّه يحتقرها... في لحظةٍ ما كان لا بدّ من أن تعترف لنفسها بأنّها أصبحت تنتظر لقاءه وأنّها تخرج من عنده دائمًا وهي تشعر بسعادة. استغرق رسم البورتريه مدّةً أطول بكثير ممّا قال لها في البداية وفي النهاية وقفا أمام اللوحة عندما اكتملت. استطاع أنس أن يبرز جمال وجهها لكنّه أضاف لمسةً ما. بدت في اللوحة وكأنّها تفكّر أو تتذكّر أو كأنّها مهمومةٌ بشيءٍ ما..

قال لها:

– هل يعجبكِ البورتريه؟

– جدًّا.

– هل لديكِ ملاحظات؟

– لماذا أبدو غير سعيدةٍ في اللوحة؟

– لأنّك غير سعيدةٍ في الحياة..

– هل تعتبرني إنسانة تعيسة؟

– ما زلت تبحثين عن السعادة.

ابتسمت وقالت:

– وهل سأجدها؟!

– قطعًا.

– متى؟

– قريبًا.

وكأنّما أحسّ بخجلٍ فجأةً فقال بلهجةٍ رسميّة:

– ليدا.. ممكن تبعثي أيّ حد يأخذ اللوحة. فقط أستأذنك عندما أقيم معرضي القادم سأستعيرها فترة المعرض ثمّ أعيدها

إليكِ.

بدا التردّد على ليدا ثمّ قالت:

– بالنسبة لأتعابك؟

– تسألين عن أتعابي؟

– طبعًا.

ضحك أنس فقالت ليدا:

– ما الذي يضحكك؟

– فكرة الأتعاب بيننا مضحكة.

– لقد بذلت مجهودًا كبيرًا... كلّ مجهود لا بدّ أن يقابله مال.

– أولًا أنا الذي طلبت هذا البورتريه وليس أنتِ، ثانيًا أنت دفعت لي الأتعاب بالكامل.

– ماذا تقصد؟

ابتسم أنس وقال:

– لماذا تسألين دائمًا أسئلة تعرفين إجابتها؟

الغريب أنّهما استمرّا بعد ذلك في اللقاء. بلا قراراتٍ ولا استئذان. بعد أن تنام صوفيا تخرج لتقابله في مرسمه أو في النادي اليونانيّ ثمّ ينضمّان آخر الليل إلى الكوكاس. مرّت شهور وهما يلتقيان ويستمتعان بالحديث. يتكلّمان فقط. لم يحاول أنس أن يلمسها. في ليلة رأس السنة سهرا معًا في الحفلة التي أقامها مطعم أرتينوس وقبل انتصاف الليل بنصف ساعة همس لها أنس:

– إيه رأيك نطلع على الكورنيش؟

مشى بجوارها ببطء لأنّها كانت ترتدي حذاءً بكعب عالٍ. كان شكلهما متناسقًا. ليدا بفستان السهرة وهو بالبدلة التوكسيدو التي بدا فيها أنيقًا ومهيبًا. اجتازا الكورنيش ثمّ وقفا أمام السور الحجريّ وراحا يتطلّعان إلى البحر.. كانت أنوار المراكب تلوح عن بعد وصوت الأمواج الرتيب الهادر يتردّد بلا انقطاع. سألته فجأة:

– أنس.. شفت فيلم اسمه Indescreet؟

– شفته.

– فاكر كاري جرانت وأنجريد برجمان لما خرجوا من حفلة الباليه نزلوا يمشوا بالليل في شوارع لندن، هو كان لابس توكسيدو وهي لابسة فستان سواريه؟ عندي شعور أنّنا شبههم.

ضحك ثمّ وضع يده على كتفها وأدارها ناحيته ونظر إلى عينيها ثمّ قال:

– طبعًا أنا لست وسيمًا مثل كاري جرانت لكن المؤكّد أنّك أجمل من أنجريد برجمان.

– أنجريد برجمان من أجمل ممثّلات هوليوود.

استطرد أنس بحماسة:

– أؤكّد لك أنّك أجمل منها. أنتِ لست فقط جميلة أنتِ صانعة للجمال. سواء تكلّمتِ أو سكتّ. سواء لابسة فستان سواريه أو فستان بسيط.. سواء كنتِ سعيدة أو غاضبة أو حزينة. أنت دائمًا جميلة.

تطلّعت إليه ليدا بنظرةٍ حالمة ممتنّة وقالت:

– ليس لديّ ما أعقّب به على هذا الكلام. أيّ كلمة شكر لا تكفي.

اقترب منها أكثر وقال:

– أظنّك تعرفين أنّي أحبّك.

ردّت بصوتٍ خافت:

– أنا أيضًا أحبّك.

عندما سمعا الضجّة التي تعلن بداية العام الجديد نظر أنس إليها وقال بتأثّر:

– أتمنّى أن يكون هذا العام أفضل أعوامك.

– أفضل أعوامنا. أنا وأنت.

هكذا همست وأسندت رأسها إلى كتفه.

قال أنس:

– عندي طلب.

– تفضّل.

– لو رفضتِ طلبي سأتقبّل الرفض بروح رياضيّة.

– بدون مقدّمات من فضلك. قل لي طلبك.

– تسمحي أبوسك؟

تطلّعت إليه لحظة وكأنّها لا تصدّق ثمّ ضحكت بشدّةٍ فقال بما يشبه اللوم:

– هل ما قلته مضحك لهذه الدرجة؟

تمالكت نفسها وقالت:

– ماحدش بيقدّم طلب عشان يبوس واحدة ست.

– يعني أعمل إيه؟

اقتربت بوجهها من وجهه وهمست:

– اللي عاوز يبوس واحدة يبوسها على طول.

غابا في قبلةٍ طويلة ستظلّ تتذكّرها. أحسّت به كما لم تحسّ برجلٍ من قبل. تطوّرت علاقتهما بطريقةٍ طبيعيّة. بلا مراوغات ولا تمنّع ولا مناورات. كأنّهما يستعيدان علاقةً قديمة مارساها في زمنٍ قديم ثمّ انقطعت. كانت ليدا سعيدةً وأحسّت بأنّ الربّ يعوّضها عن تجربتها التعيسة مع فيليب ثمّ تضاعفت سعادتها وهي تتابع علاقة أنس بصوفيا الصغيرة. لقد اكتشفت فيه مساحاتٍ مدهشةً من الحنان وسألته مرّة:

– هل تحبّ صوفيا فقط لأنّها بنتي؟

فكّر أنس قليلًا ثمّ قال:

– في البداية أحببتها لأنّها بنتك، لكن الآن أحبّها بشكلٍ مستقلّ. حتى لو لم تكن بنتك كنت سأحبّها.

تأثّرت ليدا من نبرة الصدق في إجابته. كان فعلًا يحبّ صوفيا ويخاف عليها وسرعان ما أحبّته صوفيا وتعلّقت به.. لن تنسى ليدا مشهد أنس وهو يحمل الهدايا التي اشتراها لصوفيا في عيد ميلادها ولن تنسى سعادة صوفيا عندما يصطحبهما أنس إلى السيرك وحديقة الحيوان. عندما يخرجون هم الثلاثة كثيرًا ما تشعر بأنّها في صحبة طفليها.

قالت له مرّة:

– حبيبي أنت عبقري..

– شكرًا.

– لكن ساعات أحسّ أنّك طفل. أحسّ أنّي أمّك مش حبيبتك.

ردّ بجدّية:

– عندك حقّ.. أنا فعلًا محتاج حبيبة ومحتاج أمّ.

عندما لمّحت ليدا مرّة إلى المستقبل التقط أنس الإشارة وقال لها:

– أنا غير مقتنع بمؤسّسة الزواج لكنّي طبعًا سأتزوّجك إذا كان ذلك يسعدك.

ضحكت ليدا وقالت:

– أشكر سيادتك لأنّك ستتنازل وتتزوّجني.

ضحك وأخذ يدها وقبّلها وقال:

– أنا الذي سأنال شرف الزواج بسموّ الأميرة ليدا.

في اليوم التالي أثناء سهرة الكوكاس اقتربت ليدا من توني وطلبت أن تحدّثه على انفراد. جلسا على مائدةٍ بعيدة في أقصى البار وقالت ليدا:

– أريد أن أخبرك أنّني في علاقة حبّ مع أنس وسنتزوّج قريبًا.

فكّر توني لحظة ثمّ ابتسم قال:

– ليدا أنت تعرفين كم أحبّك.. أنس صديق عزيز وإنسان ممتاز. أريد فقط أن أنبّهك إلى أنّه فنّان والفنّانون مشاعرهم متقلّبة.

– لقد تأكّدنا من شعورنا تمامًا.

– إذن أهنّئك ياعزيزتي... أتمنّى لكما السعادة.

سكتت ليدا لحظة وقالت:

– بصراحة أنا خائفة فيليب يعمل مشاكل عندما أتزوّج.

– ليس من حقه.

– أنت تعرف شخصيّة فيليب كما أعرفها. سيكون لديه سبب لمعاقبتي.

– لماذا يعاقبك؟

– لأنّي طلبت الطلاق منه. كلّ ما يهمّني ألّا يأخذ صوفيا منّي. مجرّد احتمال أن أفقد صوفيا يصيبني بالرعب.

فكّر توني قليلًا وقال بثقة:

– لا أعتقد أنّ فيليب سيأخذ صوفيا وإذا حاول فسأمنعه أولًا لأنّ الطفلة لا ينبغي أن تكون أداةً لتصفية الحسابات وثانيًا لأنّها يجب أن تظلّ مع أمّها حتّى تكبر وتختار لنفسها.

نهضت ليدا من خلف المائدة واحتضنت توني وقالت:

– كم أنا ممتنّةٌ لك.. هل أخبر فيليب بموضوع زواجي؟

ابتسم توني وقال:

– ليس الآن... قبل موعد الزواج بقليل سأتولّى أنا إخباره.

16

«سوف أذهب بغضّ النظر عن النتيجة». هكذا قالت شانتال لنفسها وهي تلقي نظرةً أخيرة أمام المرآة. كانت قد وضعت ماكياجًا خفيفًا وارتدت طقمًا صباحيًّا أنيقًا لونه أبيض مكوّنًا من فستان وجاكيت تريكو له أزرار من الصدف. قادت سيّارتها إلى العنوان المكتوب في الدعوة.

كان المبنى يطلّ على البحر في منطقة جليم.. فيلا من دورين ولافتة باللغة العربيّة على الباب قرأتها شانتال بصعوبة:

إدارة التوجيه المعنوي

القوات المسلحة

الجمهورية العربية المتحدة

في المدخل كانت هناك صورة كبيرة للزعيم عبد الناصر ثمّ مكتب الاستقبال حيث يجلس ضابط شابّ ما إن رآها حتّى هتف مرحّبًا بالإنجليزيّة:

– مدام شانتال.. أهلًا بك.

ابتسمت شانتال وقالت:

– هل أنا معروفة لهذه الدرجة؟

– طبعًا معروفة.

– سأعتبر ذلك أمرًا إيجابيًّا.

ابتسم الضابط ورفع سمّاعة التليفون وتكلّم قليلًا بصوت خافت ثمّ نهض وقال:

– تفضّلي معي، سيادة العقيد في انتظارك.

كان العقيد سليم رجلًا في نهاية الأربعينيّات له شاربٌ رفيع مرسوم بعناية وعينان سوداوان واسعتان. شعره أسود يتخلله الشيب مصقّف على الجانبين وفي الوسط فرق (كاريه) يمتدّ بطول الرأس. قام من مكانه وصافح شانتال التي بادرته قائلة بالإنجليزيّة:

– صباح الخير. أنا شانتال لومتر.

ابتسم العقيد وردّ بالفرنسيّة:

– يمكن أن نتحدّث بالفرنسيّة لو أحببت.

– أنت فرانكوفون؟

ضحك العقيد سليم وقال:

– أنا فرانكوفون أصلي.

– أين تعلّمت الفرنسيّة؟

– في مدرسة الليسيه.

– في الاسكندريّة؟

– في القاهرة.. لقد قضيت تعليمي الأساسي في ليسيه باب اللوق. دخلتها في الحضانة وتخرّجت منها إلى الكليّة الحربيّة.

– مدهش.

– هل يدهشكِ أن يتحدّث ضابط مصريّ اللغة الفرنسيّة؟

– أعتقد أنّه أمر غير شائع.

– لماذا تتوقعين أن يكون ضبّاط الجيش أقلّ تعليمًا؟

– أرجوك ألّا تضع الكلام على فمي.

ضحك العقيد وقال:

– يبدو أنّي بدأت المباراة مبكرًا.

طلب لها القهوة وأشعل سيجارة وقال:

– مدام شانتال. هل يمكن أن نتكلّم كأصدقاء؟

– طبعًا..

– كما ذكرت لك في الخطاب.. نحن نقدّر النشاط الثقافي الذي تقومين به به ونريد أن نساعدك.

– شكرًا.

– ماذا نستطيع أن نقدّم لك؟

قالت شانتال:

– أنت تعلم أن عدد قرّاء الفرنسيّة في الاسكندريّة قد نقص كثيرًا بسبب الظروف السياسيّة وبالتالي فإنّ مكتبة بلزاك ليست في أحسن أحوالها.

– شيء مؤسف.

– أنتم المسؤولون.

– ماذا تقصدين بأنتم؟

– الحكومة المصريّة.

– المسؤول هو الحكومة الفرنسيّة التي شاركت في العدوان الثلاثي ضدّ الشعب المصري.

– هناك فرنسيّون كثيرون أعرفهم أجبروا على مغادرة مصر مع أنّهم كانوا يعارضون العدوان الثلاثي.

– في أوقات الأزمات من الطبيعيّ أن تحدث بعض الأخطاء.

– هذه ليست أخطاءً فرديّة لكنّها سياسة دولة.

ردّ العقيد سليم بحدّة:

– وأنتم في فرنسا ماذا فعلتم بمواطنيكم الذين تعاونوا مع الألمان؟ وماذا فعلت أمريكا مع مواطنيها ذوي الأصل الياباني أثناء الحرب العالميّة الثانية؟

سكتت شانتال واستطرد العقيد سليم:

– أيّ دولة تتعرّض للعدوان من الطبيعي أن تتّخذ إجراءات قاسية..

ردّت شانتال:

– الفرنسيّون الذين طردتموهم من مصر لم يشتركوا في العدوان.

– برغم ذلك ما زلت تقيمين في مصر ولم يطردك أحد.

– كنت محظوظة لأنّ عندي أصدقاء منعوا ترحيلي.

سكت العقيد لحظة ثمّ ابتسم وقال:

– مدام شانتال.. كلّ هذا تاريخ انقضى.. هل يمكن أن نتحدّث عن المستقبل؟

– موافقة.

– لقد عادت العلاقات الدبلوماسيّة بين مصر وفرنسا وتمّ فتح القنصليّة الفرنسيّة من جديد وقريبًا سيكون هناك مركز ثقافي فرنسي في اسكندريّة ولقد قرّرنا تدعيم مكتبة بلزاك.

– هل أنت رئيس إدارة الشؤون المعنويّة؟

– نعم.

– إذن لماذا تقول قرّرنا وليس قرّرت؟

ابتسم العقيد وقال:

– أنتِ مثل كثيرين تعتقدين أنّ القرار في الجيش يتمّ اتّخاذه بطريقةٍ أحاديّة.. الحقيقة أنّ القائد يملك سلطة اتّخاذ القرار لكنّه

يقوم دائمًا باستشارة آخرين.

قالت شانتال بتهكّم:

– هل تريد أن تقنعني بأنّ الجيش مؤسّسة ديمقراطيّة؟

بدا الضيق على وجه العقيد سليم وقال:

– لا أريد أن أقنعك بشيء كما أنّه لا يوجد في العالم جيش ديمقراطي. الجيوش تقوم دائمًا على الانضباط وتنفيذ الأوامر. وفي نفس الوقت فإنّ اتّخاذ القرار في الجيش ليس أمرًا فرديًا أو خاضعًا للأهواء..

– شكرًا على المعلومات.

– مدام شانتال.. هل يمكن أن تتخلّي عن الحدّة التي تتحدّثين بها؟

– لا يمكن لأنّي شخصيّة حادّة بطبعي.

هكذا ردّت شانتال بسرعة. عندئذٍ وجّه لها العقيد سليم نظرةً طويلة متفحّصة ثمّ تجاهل ردّها وفتح قلمه وتأهّب للكتابة وقال بلهجةٍ ودّية:

– الآن أرجو أن تذكري مشكلات المكتبة وسأحاول حلّها.

فكّرت شانتال قليلًا وقالت:

– أنت تعلم أنّنا نبيع الكتب الفرنسيّة فقط. لدينا مشكلة في استيراد الكتب لأنّها تقضي في رقابة المطبوعات أسابيع طويلة.. أفهم أن يحدث هذا مع الكتب السياسيّة لكنّي لا أفهم أنّ كتبًا عن الطبخ وتنسيق الزهور تحتجزها الرقابة ونضطرّ إلى تقديم طلبات للإفراج عنها.

ضحك العقيد سليم وقال:

– ربّما يريدون التأكّد من أنّ كتب الطبخ لا تحمل شفرة سرّية.. سأتّصل بالضابط المسؤول عن الرقابة وهو صديق قديم وستجدين معاملةً أفضل بكثير.. أعدك بذلك..

– شكرًا.

– إلى ماذا تحتاجين أيضًا؟

– تعوّدت في الماضي أن أستضيف مؤلّفين من فرنسا. هذا تقليدٌ ثقافيّ معروف في العالم. كنت أدعو الكاتب وأتكفّل بإقامته وأعقد له ندوة في المكتبة يلتقي فيها بقرّائه ويتناقش معهم ثمّ يوقّع

لهم نسخًا من كتبه. بعد الثورة حاولت أن أدعو كاتبًا ففوجئت بتضييقٍ أمنيّ.

– ماذا تقصدين بالتضييق الأمنيّ؟

– قيل لي إنّ الموضوع يحتاج إلى موافقة المخابرات فذهبت إلى هناك. راحوا يسألونني عشرات الأسئلة ويحيلونني من ضابط إلى آخر حتّى انتهى بي الأمر في مكتب ضابط اسمه رفاعي..

ابتسم العقيد وقال:

– كامل رفاعي؟

– بالضبط.. استمع الضابط رفاعي إليّ ثمّ سألني «لماذا تريدين أن تحضري هذا الشخص إلى مصر؟» قلت «لأنّه كاتب كبير ومهمّ» عندئذ قال لي «قد يكون كاتبًا مهمًّا في فرنسا ولكن ماذا سيضيف إلينا نحن المصريّين؟» بالطبع لم أستمرّ في هذه المناقشة العبثيّة وقرّرت ألّا أستضيف أيّ كاتب.

سكت العقيد سليم قليلًا ثمّ أشعل سيجارة وقال:

– مدام شانتال.. أنا لا أدافع عن ضبّاط المخابرات لكنّني أتفهّم قلقهم من دعوة الكتّاب الأجانب.

– وماذا يقلقهم؟

– ببساطة لأنّ الإعلام الغربي يتربّص بالثورة المصريّة ويتعمّد الإساءة إليها وبالتالي يمكن لأيّ كاتبٍ أجنبيّ أن يشوّه صورة مصر في الخارج وللأسف سيجد من ينشر له أيّ أكاذيب يختلقها..

– ولماذا لا تردّون عليه وتصحّحون أكاذيبه؟

– الفرصة لن تكون متكافئة لأنّ الإعلام الغربيّ أكثر تأثيرًا بكثير من إعلامنا الوطني.

سكتت شانتال وبدا أنّها تفكر في ما قاله العقيد الذي استطرد:

– هل تعرفين الكاتب الفرنسي جون كوكتو؟

– طبعًا.

– جون كوكتو جاء إلى مصر عام 1949 فرحّب به المصريّون وقام بجولة في المسارح والتقى بكبار الأدباء والفنّانين المصريّين وبعد ذلك أصدر كتابًا بعنوان «معلهش» كلّه إساءات عنصريّة وتهكّم وتعالٍ على المصريّين.

– هل قرأت كتاب «معلهش»؟

– قرأت تقريرًا عنه.

– هل قرأت ما كتبه كوكتو عن بلده فرنسا؟

– لن أقرأ شيئًا لهذا الكاتب العنصريّ.

– لو قرأت مقالات جون كوكتو عن الثقافة الفرنسيّة لوجدته يوجّه نقدًا ساخرًا ولاذعًا للفرنسيّين كما فعل مع المصريّين..

– إذا كان يسخر من الشعب الذي ينتمي إليه فمن المؤكد أنّه شخص غير سويّ.

– بالعكس.. من الطبيعي أن يوجّه الكاتب نقدًا لاذعًا لما يحدث حوله لأنّ الكتابة أساسًا تعبير عن الرفض.. الموافقون والسعداء لا يكتبون شيئًا.

– دعيني أكُنْ صريحًا معك.. إنّ ما فعله جون كوكتو مع مصر أيّام الملكيّة لن نسمح بتكراره في مصر الثورة..

– أنت تتكلّم مثل الضابط رفاعي.

– غير صحيح.. أنا أوافق على دعوة المؤلفين الأجانب ولكن بضوابط معينة.

– ما هي الضوابط؟!

– أولًا تعطيننا اسم الكاتب حتى نتحرّى عنه قبل أن نوافق على دعوته، وثانيًا يجب على الكاتب المدعوّ أن يعرف أنّنا نرفض الإساءة للشعب المصريّ أو للدولة أو سيادة الرئيس.

ابتسمت شانتال بعصبيّة وقالت:

– واضح أنّنا نفهم الثقافة بطريقتين مختلفتين. لا يوجد كاتب حقيقيّ يقبل أن تمارس عليه الرقابة ولا أن تخبره بما يقوله وما لا يقوله.

– مدام شانتال، أرجو أن تتفهّمي موقفي.. سأسمح لكِ بدعوة المؤلفين بمبادرة شخصيّة منّي وإذا حدثت أيّ إساءة لمصر فسأتحمّل مسؤوليتها أمام رؤسائي.

– المشكلة أنّك تعتبر نقد الرئيس إساءةً لمصر.

– طبعًا لأنّ الرئيس رمز مصر.

– هذه عبارةٌ غامضة وفضفاضة.. أنا أعرف أنّ المصريّين يعبدون عبد الناصر وليس لديّ اعتراض على طبيعة الشعب المصري لكن أيّ كاتب فرنسي لن يفهم عبادة الزعيم لأنّنا في فرنسا نعتبر الرئيس مجرّد موظّف عامّ.

– نحن في مصر ولسنا في فرنسا كما أنّ المصريّين لا يعبدون الزعيم وسأكون ممتنًّا لو انتقيت ألفاظك وأنت تتحدّثين عن الشعب الذي يستضيفك في بلده.

– لست متأكّدة أنّ من حقّك التحدّث باسم الشعب المصري وعلى كلّ حال أنا أحبّ المصريّين وأحترمهم.

– إذن، يجب أن تفهمي أنّ المصريّين يعتبرون الزعيم عبد الناصر رمز الوطن ويرفضون الإساءة إليه.

– النقد لا يُعتبر إساءة.

– نحن في مصر نتقبّل النقد البنّاء ونشجّعه لكنّنا نرفض النقد الهدّام.

– كيف تميّز بين النقد البنّاء والهدّام؟

– النقد الهدّام غرضه هدم التجربة وليس تطويرها.

– عندما أدعو كاتبًا فرنسيًا، كيف أعرف أنّه لن يكتب ما تعتبره نقدًا هدّامًا؟ هل أطلب منه أن يوقّع على تعهّد؟

– هذه سخرية في غير محلّها.. سوف نسهّل لك الاتّصال بالكاتب الذي تريدين دعوته وما عليك إلّا أن تديري معه حوارًا ثمّ تخبرينا بآرائه عن الرئيس عبد الناصر قبل أن نسمح لك بدعوته.

– ممكن تكرّر ما قلته لأنّي لم أفهم؟!

– المطلوب أن تعرفي آراء الكاتب في الثورة المصريّة قبل أن نوجّه له الدعوة.

– تريدني أن أتجسّس لحسابك إذن؟

– ما أقصده هو أن نعمل معًا كفريق لإنجاح الندوة.

نهضت شانتال فجأةً وقالت:

– سأنصرف الآن.. شكرًا على الدعوة.

ابتسم العقيد سليم وقال:

– هل غضبت؟

– أنت تريدني أن أجد لك كاتبًا أجنبيًّا يشترك في البروباجندا للنظام الذي تمثّله. أنا لا أصلح لهذه المهمّة يا سيادة العقيد. أكرّر شكري.

17

كان القصر في الأصل مقرًا للبورصة القديمة ثمّ تمّ تأميمه وتحوّل إلى مقرّ الاتّحاد الاشتراكي العربي. القاعة فسيحة والسقف شاهق والنوافذ كلّها تطل على ميدان المنشيّة حيث الضجيج لا ينقطع ممّا يجعل التواصل مستحيلًا بين الحاضرين إذا فُتحت النوافذ. وإذا أُغلقت فسيكون الحرّ خانقًا وبالطبع لا يليق تركيب أجهزة تكييف باهظة الثمن في مقرّ الحزب الذي يقود التحوّل الاشتراكي في مصر.

كان الميكروفون، إذن، هو الحلّ الأمثل، فتمّ فتح النوافذ وتركيب ميكروفون ثابتٍ أمام رئيس اللجنة بدوي خضير والاستعانة بميكروفون آخر بسلكٍ طويل يُعطى لمن يطلب الكلمة من الأعضاء الذين اصطفّوا جالسين على المقاعد. جاء بعضهم بأوفرول العمّال وبعضهم بالجلابيب والبدل الشعبيّة وآخرون بقمصان وبنطلونات عاديّة. جلس بدوي خضير أمامهم على مكتبٍ معدنيّ صغير ثمّ تردّد صوته في أنحاء القاعة عبر الميكروفون:

– بسم الله الرحمن الرحيم. أيّها الزملاء، أرحّب بكم في الاتّحاد الاشتراكي العربي، لجنة المنشيّة. نحن في هذه القاعة نمثّل تحالف قوى الشعب العامل. نصف الأعضاء من العمّال والفلّاحين والنصف الآخر من المهنيّين والمثقفين والرأسماليّة الوطنيّة. المهامّ الوطنيّة أمامنا كثيرة وأنا أثق بإذن الله أنّنا جميعًا سنكون على مستوى المسؤوليّة.

أخذ بدوي رشفةً من كوب الشاي الموضوع أمامه ثمّ استطرد قائلًا:

– بالأصالة عن نفسي والنيابة عنكم، أرحّب بزميلٍ جديد هو الأخ جليل القوصي.

نحن هنا في لجنة المنشيّة أكثر من زملاء.. نحن إخوة وقد تعوّدت أن أصارحكم بكلّ شيء. الأخ جليل شخص فاضل ومحاسب

متمكّن في مهنته ولذلك سعدت عندما التحق بالعمل معي في مصنع كازان للشوكولاته. ولكن من ناحية أخرى، كنت أعرف أنّ الأخ جليل ينتمي إلى أسرةٍ وفديّة صميمة. والده المرحوم الأستاذ عبد الحميد القوصي كان عضو اللجنة العليا لحزب الوفد وأخوه الأستاذ عبّاس القوصي المحامي وفديّ متحمّس ومتزوّج بابنة المرحوم الدكتور إسماعيل الشواربي الذي كان وزير العدل في حكومة الوفد. لهذه الأسباب كلّها، بصراحة، عندما سألت زميلنا جليل عن رأيه في الثورة لم أكن متفائلًا بالردّ.

تعالت بعض الضحكات في القاعة واستطرد بدوي بنبرة دعابة:

– صحيح.. عندما سألت جليل عن رأيه في الثورة توقعت أحد احتمالين: إمّا أنّه سيسكت ولا يقول رأيه تجنّبًا للحرج حيث إنّني مديره في العمل وإما أنّه سينهال بالهجوم على الثورة كما يفعل الوفديّون. المفاجأة الجميلة أنّي اكتشفت أنّ جليل القوصي ثوريّ أكثر منّي..

سرت حالة من المرح في القاعة واستطرد بدوي:

– انضمام جليل القوصي للاتّحاد الاشتراكي له معنى مهمّ وكبير.. إنّ الإيمان بالثورة يتجاوز المصالح الطبقيّة.. لذلك فإنّ ثورتنا منصورة بإذن اللّه. أهلًا بك يا أخ جليل في الاتّحاد الاشتراكي العربي.

صفّق الحاضرون بحماسة ووقف جليل وتناول الميكروفون:

– شكرًا جزيلًا للأخ الأستاذ بدوي وشكرًا جزيلًا لكم يا زملاء على هذا الترحيب الكريم وأتمنّى أن أكون عند حسن ظنّكم جميعًا.

نظر بدوي إلى الأوراق أمامه وقال بلهجةٍ رسميّة:

– بعد هذه التحيّة الواجبة ننتقل إلى جدول الأعمال. قلت لكم يا زملاء إنّنا يجب أن نتعلّم العمل الميداني من الميثاق. إنّ الزعيم جمال عبد الناصر يقدّم لنا النظريّة الثوريّة ويعلّمنا العمل الثوريّ في نفس الوقت. من هنا، من لجنة المنشيّة للاتّحاد الاشتراكي العربي دعوني أوجّه باسمكم تحيّةً من القلب لزعيمنا وقائدنا وحبيبنا جمال عبد الناصر.

هتف أحد الحاضرين: «عاش جمال عبد الناصر»، فردّد الحاضرون الهتاف ثمّ صفّقوا بحرارة.

انتظر بدوي حتّى هدأت القاعة ثمّ قال:

– الأسبوع الماضي طلبت منكم قراءة الفصل الثاني من الميثاق.. هل يمكن لأحد من الزملاء أن يلخّص الأفكار الرئيسيّة في الفصل الثاني؟

استأذن جليل ثمّ قال:

– الفكرة الرئيسيّة في الفصل الثاني هي حتميّة الثورة كطريقٍ وحيدٍ للتغيير في مصر.

ابتسم بدوي وقال:

– اشرح الأسباب يا أخ جليل.

استدار جليل نحو الجالسين وقال:

– هنا يبدّد الميثاق وهم الديمقراطيّة الليبراليّة لأنّها في الواقع تُدار لحساب الأغنياء فقط. لقد رأينا كمصريّين هذه الديمقراطيّة الزائفة قبل ثورتنا المباركة.. رأينا شراء أصوات الفقراء ورأينا صاحب الأرض الإقطاعيّ الذي يرغم الفلّاحين على انتخابه في البرلمان ورأينا مجتمع النصف في المئة حيث يملك نصف في المئة من المصريّين معظم موارد البلد. الميثاق يعلمنا أنّه لا معنى للديمقراطيّة السياسيّة بدون ديمقراطيّة اجتماعيّة لأنّ الجائع، ببساطة، سيبيع صوته الانتخابي حتّى يأكل. إنّ تحالف قوى الشعب العامل هو الطريق الوحيد لإقامة مجتمع الكفاية والعدل: كفاية في الإنتاج وعدالة في التوزيع.

بانت علامات التفكير على بدوي وقال:

– شكرًا يا جليل.. ممكن حد يقول لنا شروط التحرّك الثوري؟

رفع أحد العمّال يده وقال:

– الميثاق حدّد ثلاثة شروط للتحرّك الثوري: أولًا، الوعي القائم على الاقتناع العلمي النابع من الفكر المستنير. ثانيًا، الحركة السريعة الطليقة التي تستجيب للظروف المتغيّرة التي يجابهها النضال العربي. ثالثًا، الوضوح في رؤية الأهداف ومتابعتها باستمرار.

ابتسم بدوي وقال:

– هذا كلامٌ جميل لكن علينا أن نبدأ بتحقيقه على أرض الواقع. يجب أن نشرح الميثاق للناس بكلام بسيطٍ ومفهوم. لا نريد أن يقتصر عملنا في الاتّحاد الاشتراكي على المناقشات النظريّة مثل الأحزاب السياسيّة الرجعيّة. لازم ننزل الشارع. نحن القوّة التقدّميّة الوحيدة في مصر الآن. واجبنا الأهمّ أن نلتحم بالجماهير وننشر

الوعي الثوري. أريد من كلّ واحد فيكم أن يشكّل مجموعة اشتراكيّة صغيرة لا يتجاوز أعضاؤها عشرة أشخاص. اخترهم من أقاربك أو جيرانك أو أصدقائك. هذه المجموعة ستكون نواة لتعبئة الجماهير. كوّن المجموعة ثمّ ابدأ معهم بقراءة الميثاق واشرح لهم أبعاد المعركة التي نخوضها ضدّ الاستعمار والرجعيّة.

سرت حالةٌ من الحماسة بين الحاضرين واستطرد بدوي:

– عندما تتأكّد من أنّ أعضاء مجموعتك أصبحوا يمتلكون الوعي الثوري الصحيح وجّه لهم الدعوة للانضمام إلى الاتّحاد الاشتراكي العربي. سأنتظر من كلّ واحد فيكم أن يحكي لنا عن المجموعة التي كوّنها.. أؤكّد لكم من الآن أنّ المهمّة ليست سهلة. معظم المصريّين فقدوا ثقتهم بالسياسة والسياسيّين منذ عقود. نحن نحارب السلبيّة واللامبالاة وفي نفس الوقت نحارب أعداء الثورة، أذناب العهد البائد والإخوان المسلمين والشيوعيّين، كلّ هؤلاء أشبه بالطابور الخامس. كثيرون منهم يتظاهرون بتأييد الثورة وفي نفس الوقت يعملون سرًّا على القضاء عليها. بعد أسبوعين سأنتظر من كلّ واحد فيكم أن يحكي لنا عن المجموعة الاشتراكيّة التي كوّنها.

رفع بعض الأعضاء أيديهم ليطلبوا الكلمة لكنّ بدوي قال:

– سأستمع إليكم جميعًا.. فقط قبل أن أعطيكم الكلمة أريد أن أؤكّد فكرةً مهمّة، عندما تشرحون الميثاق للناس إيّاكم أن تفعلوا ذلك باستعلاء وتكبّر. نحن لسنا أفضل من أفراد الشعب أبدًا، نحن في خدمتهم، إذا كنّا نعلّم الشعب شيئًا فنحن نتعلّم منه أشياء.. الشعب هو القائد والشعب هو المعلّم كما قال الزعيم جمال عبد الناصر.

استغرق الاجتماع ثلاث ساعات ثمّ عاد جليل إلى البيت وهو متحمّس. أخيرًا سيتمكّن من تحويل حبّه للثورة إلى نضالٍ على أرض الواقع. لقد تعامل بحدّةٍ مع بدوي خضير في البداية لأنّه يرفض أن يكون إيمانه بالثورة شرطًا لتعيينه أو سببًا لمكافأته. الثورة في عقيدته أرقى وأنبل من ذلك.. كان يستعدّ للسنة التوجيهيّة في المدرسة عندما استولى الجيش على السلطة عام 1952. يومئذٍ اشترك جليل في المظاهرات التي اجتاحت الاسكندريّة تأييدًا لحركة الجيش وعندما تمّ إنهاء الملكيّة وإعلان الجمهوريّة لم يتمالك مشاعره فانخرط في البكاء كالأطفال. عندما تعرّض عبد الناصر لمحاولة الاغتيال كان جليل (الطالب في كليّة التجارة آنذاك) يستمع

للخطاب وسط الجماهير في ميدان المنشيّة وظلّ يصرخ من الغضب والألم ولم يعد إلى بيته إلّا بعدما اطمأنّ أنّ الزعيم بخير. عندما أعلن عبد الناصر تأميم قناة السويس لتصبح «شركة مساهمة مصريّة» ظلّ جليل طوال الليل يطوف في أنحاء الاسكندريّة ويهتف مع المتظاهرين: «عاش جمال عبد الناصر»، «يسقط الاستعمار». كان جليل يعلم أنّ حبّه لعبد الناصر ليس فريدًا من نوعه. ملايين المصريّين والعرب يحبّون الزعيم مثله وربما أكثر. لقد قرأ مرّةً أنّ الشوارع في كلّ المدن العربيّة تخلو تمامًا من المارّة عندما يخطب الزعيم.. ثمّة حضورٌ طاغٍ لعبد الناصر يجعلنا نتعلّق به ونثق به ونحسّ أنّه يعبّر عنّا بقامته الفارعة ووجهه الأسمر القادم من صعيد مصر، بصوته المميّز ونبرته الصادقة المؤثّرة. بفضل الثورة رأى جليل مصر تنهض وتتخلّص من ميراث الذلّ والهزيمة. المصانع الجديدة في كلّ مكان وملايين الفقراء يتعلّمون مجّانًا ويحصلون على العلاج مجّانًا وتوفّر لهم الدولة وظائف بمرتّبات جيّدة ومساكن بإيجار رمزيّ. في نطاق أسرته كان جليل يمارس حبّه للثورة مثل عقيدةٍ سرّية، يؤمن بها ويخفيها.

كان جليل – كما قال بدوي – الاستثناء الوحيد في أسرةٍ كلّها وفديّةٌ ومعادية للثورة. نشأ جليل وحيدًا فقد مات أبوه وهو طفل وكان أخوه الوحيد يكبره بعشرة أعوام. أحبّته أمّه ورعته لكنّها لم تؤثّر قطّ في تفكيره. كان جليل دائمًا منعزلًا خجولًا قليل الكلام. هل كان أنفه الطويل ونحافته الزائدة من أسباب عزلته؟ اجتاز جليل فترة المراهقة بلا مشاكل تُذكر، ولأنّه كان مهذّبًا ومتفوّقًا في الدراسة فقد اعتبرت أمّه أنّه لا يحتاج إلى تقويم وتركته وشأنه فاستطاع أن يقرأ كثيرًا ويكوّن قناعاته بدون تأثيرٍ من أسرته. كان جليل أيضًا متديّنًا مخلصًا يراقب الله في كلّ تصرّفاته، باستثناء تلك الأحلام الجنسيّة الجامحة التي كانت تهاجمه رغمًا عنه، فإنّه لم يعرف المرأة إلّا في فراش الزوجيّة. قبيل ليلة الزفاف، قضى جليل سهرةً طويلة مع أخيه الأستاذ عبّاس الذي راح يشرب الويسكي ويشرح له العمليّة الجنسيّة خطوةً خطوة بالتفصيل، ولمّا دخل جليل بعروسه لم ينم الأخ الأكبر من القلق لكنّه في اليوم التالي، عندما ذهب لتهنئة العروسين ورأى وجه جليل متهلّلًا، أدرك أنّ تلميذه قد نجح في الاختبار. كانت العلاقة بين الأخوين، في جوهرها، علاقة أبٍ محبّ بابنٍ بارّ. كان

عبّاس بالطبع يتمنّى لو التحق جليل بكليّة الحقوق ليساعده في المكتب. لم يصرّح برغبته لكنّه فقط لمّح إليها وفي النهاية تقبّل اختيار أخيه وعندما تخرّج جليل في كليّة التجارة وأنهى الخدمة العسكريّة سعى عبّاس حتّى وجد له وظيفةً في مكتب ألبير خيّاط. عندما اكتشف الأستاذ عبّاس انتماء جليل للثورة لم يعنّفه أو يحرجه وإنّما قال له معاتبًا بودّ: «أبونا عبد الحميد القوصي رحمه الله قضى حياته مدافعًا عن الديمقراطيّة في حزب الوفد. كيف يمكن لابنه أن يدافع عن الديكتاتوريّة العسكريّة؟».

ابتسم جليل ولم يعلّق. كان يحبّ أخاه الأكبر لدرجة لا يستطيع معها أن يعارض رأيه علنًا. حتّى التصرّفات التي يرفضها جليل من الآخرين كان يتقبّلها عن طيب خاطر من الأستاذ عبّاس: فجليل لا يدخّن ولا يطيق رائحة الدخان، لكنّه عندما يجلس مع أخيه وهو يدخّن لا يحسّ بضيق بل إنّه كثيرًا ما يشتري له بنفسه سجائر «لاكي سترايك» التي يفضّلها. جليل متديّن لا يقرب الخمر لكنّه عندما يدعو أخاه الأستاذ عبّاس في بيته يجهّز له زجاجات البيرة بنفسه ويضعها في شامبانييرة ممتلئة بقطع الثلج لتحتفظ بالبرودة. عندما فقد جليل عمله كمحاسب صار الأستاذ عبّاس يمنحه مبلغًا كلّ شهرٍ يساوي مرتّبه الذي انقطع. تمنّع جليل بحرجٍ فابتسم الأستاذ عبّاس وقال: « دي مش مساعدة ده حقك.. المكتب بيكسب كثير وأنت لك نصيب فيه».

احترامًا لأخيه كان جليل يتجنّب الحديث في السياسة وعندما يسخر الأستاذ عبّاس من عبد الناصر كان جليل يسعى إلى تغيير الموضوع أو يتذرّع بأيّ حجّة ليغادر الحجرة. أمّا زوجة أخيه نهى الشواربي، فكان مديح عبد الناصر أمامها نوعًا من الوقاحة. كانت نهى بمعنى الكلمة ضحيّةً للثورة التي صادرت من أبيها خمسة آلاف فدّان وألقت به في السجن أربع سنوات خرج بعدها مريضًا ومات. الوحيدة التي كان جليل يصارحها بحبّه للزعيم كانت زوجته فيفي (اسمها الرسمي عواطف). هي وحدها تتقبّل كلّ شيءٍ منه. يقول لها بحماسة: «عبد الناصر أعظم زعيم عربي في العصر الحديث». عندئذٍ تردّ فيفي بحرارة: «ربّنا يحميه وينصره». فيفي نعمة أنعم الله عليه بها. زوجةٌ جميلة مهذّبة مطيعة لا يشغلها في هذا العالم إلّا إسعاده وتربية ابنهما رائف. رأى جليل فيفي أول مرّةٍ في فرح أحد

الأصدقاء فأعجب بها وسأل عنها ثمّ فاتح الأستاذ عبّاس برغبته في الزواج بها قائلًا: «البنت ممتازة لكنّها أقلّ منّا اجتماعيًا. أسرتها فقيرة ولكن شريفة». لم يمانع الأستاذ عبّاس بل ذهب معه وخطبها من أهلها وأتمّ الزيجة. بقدر سعادة فيفي بزوجها وبيتها فإنّها تجد نفسها دائمًا، رغمًا عنها، في مقارنةٍ مع نهى زوجة الأستاذ عبّاس بنت الباشا. لا تتفاخر نهى بأصلها أبدًا لكنّ الفارق الاجتماعيّ بينهما واضحٌ كالشمس وقد بذلت فيفي كلّ ما بوسعها لتتجاوزه: تخلّت عن نعيمة الخيّاطة التي كانت تفصّل ملابسها وأصبحت تشتري فساتين أنيقة من محلّ شيكوريل. وبرغم أعباء البيت والعيال تمكّنت من الحصول على الثانويّة العامّة «نظام منزلي»، ثمّ التحقت بكليّة التجارة انتسابًا حتّى تحصل على مؤهّل جامعيّ بدلًا من دبلوم الفنون النسويّة الذي اكتفت به قبل الزواج. ها هي أيضًا، شيئًا فشيئًا وبصعوبة، تتعلّم مبادئ اللغة الفرنسيّة وهي تذاكر مع الصغير رائف دروسه في مدرسة الليسيه. كانت فيفي تحبّ زوجها جليل على الطريقة الشعبيّة القديمة. تعدّ له الأكلات التي يحبّها وتنصت بانتباهٍ إلى ملاحظاته حتّى تحسّن من طبيخها وتحرص على أن يعود إلى البيت فيجده هادئًا ونظيفًا ومريحًا، تقتصد بقدر إمكانها في النفقات ومهما تكن مجهدة من شغل البيت ورعاية رائف فإنّها كلّ ليلة، بعد صلاة العشاء، تستحمّ وتنظّف جسدها بعنايةٍ وتتزيّن لتكون مستعدّةً إذا أرادها في الفراش. كانت تحسّ بجليل، تقرأ وجهه بغير أن يتكلّم وإذا بدا عليه ضيقٌ أو غضب تظلّ تلحّ عليه بجزعٍ وحنان حتّى يفصح عن السبب ولا يهدأ لها بالٌ حتّى يستعيد ابتسامته التي تحبّها. بعد الاجتماع الأول في الاتّحاد الاشتراكي طلب جليل فيفي في الفراش فأحسّت أثناء الحبّ أنّ زوجها يتملّكه انفعالٌ احتفاليّ زائد عن شهوته المعتادة. بعدما فرغا ذهبت فيفي إلى الحمّام وعادت منتعشة وقد ارتدت روبًا ورديًا من البشكير. كان جليل مستلقيًا على الفراش وقد استغرق في التفكير. جلست على حافة السرير وابتسمت وقالت:

– بالك مشغول في إيه؟

أجاب جليل:

– عندى خبر حلو.

– قل لي..

– أنا بقيت عضو في الاتّحاد الاشتراكي العربي.

سكتت فيفي لحظة حتّى استوعبت ثمّ صاحت بفرح:

– ألف مبروك يا حبيب قلبي. ربّنا يكرمك ويعلّي مراتبك. أنت ابن حلال وتستاهل كلّ خير.

بدا على وجه جليل بعض الاستياء وقال:

– يا فيفي عضويّة الاتّحاد الاشتراكي مش منصب تباركي لي عليه لكنّها واجب وطني.

ارتبكت فيفي ولم تعلّق لئلّا ترتكب خطأً جديدًا وراح جليل يشرح لها مهمّة الاتّحاد الاشتراكي ومعنى تحالف قوى الشعب العامل. حاول أن يبسّط لها معنى مجتمع الكفاية والعدل «كفاية في الإنتاج وعدالة في التوزيع». في النهاية قال بلهجة تعليميّة:

– لو عندك سؤال قولي.

– شكرًا يا حبيبي.

هكذا قالت فيفي بامتنان وعندئذٍ أخبرها جليل أنّه سيقوم بتكوين أسرة اشتراكيّة. عشرة أشخاص من سكّان العمارة سيجتمعون في بيته كلّ أسبوع، سألته فيفي بنبرةٍ عمليّة:

– الاجتماع الساعة كم؟

– يوم الجمعة بعد الصلاة إن شاء اللّه.

– رأيك نعمل لهم غداء ولا كفاية سندوتشات؟

– الغرض من الاجتماع دراسة الاشتراكيّة مش التغذية.

هنا اعترضت فيفي بنبرةٍ ودّية حازمة:

– يا حبيبي يدرسوا الاشتراكيّة براحتهم لكنّهم جيراننا وضيوفنا ولازم نعمل الواجب ونثبت لهم أنّنا بيت كرم.

بعد أخذ وردّ استقرّ الرأي على السندوتشات وقرّرت فيفي في سرّها أن تقدّم سندوتشات صدور دجاج مشويّة بالمايونيز وكبدة مقليّة مع سلطة طحينة ولحمة باردة روزبيف مع شرائح خيار مخلّل.

كتب جليل قائمةً بأسماء خمسة سكّان حتى يشكّلوا مع زوجاتهم مجموعةً من عشرة. اعترضت فيفي على حضور النساء في الأسرة الاشتراكيّة وأكّدت أنّهنّ سيثرثرن ويصنعن شوشرة تفسد الاجتماع (الحقيقة أنّها كانت قلقةً من اختلاط جليل ببعض الجارات اللاتي تعتبرهنّ لعوبات). لكنّ جليل أكّد بحسم أنّه لا يمكن استبعاد المرأة ونحن بصدد بناء المجتمع الاشتراكيّ.

في اليوم التالي وبعد تفكيرٍ استقرّ جليل على الصيغة التالية:

«السيد فلان وحرمه،
نظرًا للتحدّيات الهائلة التي يشهدها الوطن واستجابةً لدعوة سيادة الرئيس جمال عبد الناصر فقد تقرّر تكوين مجموعة من سكّان العمارة لدراسة الميثاق. برجاء التفضّل بقراءة الباب الأول من الميثاق ويشرّفنا حضوركم المناقشة في منزلي (شقة 3) يوم الجمعة القادم عقب الصلاة.
جليل القوصي»

طبع جليل الدعوات بأسماء الجيران وأرفق كلّ دعوةٍ بنسخةٍ من الميثاق ثمّ طلب من البوّاب توزيعها على السكّان.

جاء السكّان جميعًا في الموعد وأجلستهم فيفي في حجرة السفرة حول المائدة (وقد حمدت ربّنا أنّ مائدة السفرة بعشرة مقاعد وليس أقلّ). وضعت فيفي أمام كلّ مدعوّ كرّاسةً صغيرة وقلمًا جافًّا لتدوين الملاحظات. تبادل الحاضرون حديثًا وديًّا متنوّعًا واستغلّت فيفي الفرصة فأحضرت السندوتشات وتردّدت كلمات الشكر من الحاضرين وراحوا يأكلون بشهيّة. بعد ذلك طافت الخادمة حول المائدة تتلقى الطلبات سواء قهوة أو شاي أو مياه غازيّة. بعدما فرغ المدعوّون من الأكل وبينما هم يحتسون المشروبات بدأ جليل الاجتماع فرحّب بالحضور وتكلّم بحماسةٍ عن الصراع الذي تخوضه الثورة ضدّ الاستعمار والرجعيّة ثمّ قال:

– احنا يا جماعة أول مجموعة اشتراكيّة في العمارة وواجبنا دعم التغيير الذي يقوده سيادة الرئيس عبد الناصر. هنا لا بدّ نفهم أهمّية الميثاق كمنهاج للعمل الثوري. أنا طلبت منكم قراءة الباب الأول في الميثاق. هل قرأتم؟

ارتفعت الأصوات:

– طبعًا.

– أنا قرأت الباب الأول والثاني.

– كلّنا قرأنا يا أستاذ جليل.

بان الارتياح على وجه جليل وقال:

– عظيم.. ممكن حدّ فيكم يلخّص الأفكار الواردة في الباب الأول؟

قال ساكن من الدور الرابع:

– يا أستاذ جليل أنا لخّصت الأفكار الرئيسيّة في ثلاث صفحات لو سمحت لي أقرأها على الزملاء.

ابتسم جليل وقال:

– عظيم.. تفضّل اقرأ.

همّ الساكن بالقراءة لكنّ ساكنًا آخر قال:

– يا أستاذ جليل. أنا قرأت الميثاق كلّه لكنّي أفضّل أسمع حضرتك لأنّ طريقتك في الشرح ممتازة.

ابتسم جليل وقال:

– يا أستاذ احنا هنا في مناقشة مش محاضرة لازم كلّنا نشارك.

قال الساكن:

– طيب. ممكن قبل المناقشة أقول اقتراح؟

– تفضّل.

– باعتبارنا مجموعة اشتراكيّة كما ذكرت حضرتك لازم ندعم الدولة بكلّ وسيلة. الدولة فرضت تسعيرة إجباريّة على الموادّ الغذائيّة ولكن للأسف كثير من التجار الجشعين لا يلتزمون بالتسعيرة. أقترح أنّنا نعمل عمليّة مراقبة للتسعيرة في كلّ المحلّات حول العمارة. أول ما نلاقي تاجر مخالف التسعيرة نبلغ عنه الشرطة.

ارتفعت أصوات مؤيّدة لكنّ جليل قال بهدوء:

– يا جماعة مراقبة التسعيرة من اختصاص شرطة التموين. احنا مجموعة اشتراكيّة صحيح لكن دورنا غير تنفيذيّ. مجموعتنا تشكّلت بهدف واحد هو دراسة الميثاق..

هتف ساكن آخر:

– يا أستاذ جليل. اسمح لي أقول كلمة عن موضوع مهمّ.

قبل أن يوافق جليل انطلق الساكن قائلًا بانفعال:

– الأخ الساكن في شقة 20 قبطان بحري اسمه حسام الطحاوي. تعرفه؟

– أعرف القبطان حسام.

– الرجل ده أعزب وساكن وحده وكلّ يوم والثاني يجيب واحدة ستّ تبات معه. أستغفر الله العظيم. كلّ ليلة مسخرة وقلّة أدب وسكر ورقص وأنا عندي بنات والمناظر دي خادشة للحياء.

– اسمح لي يا أستاذ. ما علاقتنا نحن بالموضوع؟

هكذا سأل جليل، فقال الساكن بصوتٍ عالٍ:

– طبعًا لنا علاقة. احنا أسرة اشتراكيّة لمّا نكلّم بوليس الآداب لازم يهتمّوا بالشكوى. أنا عاوزهم يعملوا له كمين ويقبضوا عليه مع الستّ اللي نايمة عنده. لازم الكلّ يفهم أنّ عمارتنا محترمة وأنّنا كسكّان يستحيل نسمح بارتكاب الفحشاء في العمارة.

ردّ جليل باستياء:

– ياجماعة يظهر فيه سوء تفاهم. أسرتنا الاشتراكيّة ليس لها أيّ علاقة بتأديب الجيران. هدفنا الوحيد هو دراسة الميثاق. أيّ كلام في موضوعات أخرى يشتّتنا ويضيّع وقتنا. من فضلكم نسمع زميلنا لأنّه لخّص الباب الأول في نقط محدّدة.

– ممكن أتكلّم؟

هكذا سألت مدام صفيّة التي تسكن في الشقّة المواجهة لجليل، وقد جاءت وحدها لأنّ زوجها مهندس بترول يقضي أسبوعين كلّ شهر في البحر الأحمر. كانت صفيّة امرأة ثلاثينيّة جميلة وقد ارتدت ثوبًا ضيّقًا كشف عن صدرها وذراعيها (ممّا جعل فيفي تحدجها من حين لآخر بنظرةٍ مستريبة حانقة).

تأوّدت صفيّة وتخلّلت بأصابعها شعرها الأسود الناعم وقالت بصوت أنثويّ رقيق:

– أولًا ميرسي يا مدام فيفي على الأكل اللذيذ. تسلم يدك يا حبيبتي.

دمدمت فيفي تشكرها باقتضاب واستطردت صفيّة:

– عندي سؤال وأرجوكم ما تضحكوش عليّ يا جماعة..

سرت حالة من المرح بين الحاضرين وقال جليل:

– تفضّلي.

بدا الجزع على وجهها الجميل وقالت بتأثّر:

– أنا بأخاف على سيادة الرئيس عبد الناصر جدًّا جدًّا.. أنا بأدعي له ليل نهار أنّ ربّنا يحفظه. واللّه العظيم لمّا سيادة الرئيس يكون مسافر أنا ما بعرف أنام لغاية لما أطمئن أنّ سيادته رجع بالسلامة.

قال أحد السكّان:

– ربّنا يحفظ سيادة الرئيس..

نظرت صفيّة إلى جليل وقالت:

– احنا شفنا هنا في الاسكندريّة لمّا الإخوان المسلمين المجرمين حاولوا يغتالوه. لولا ستر ربّنا كان ممكن مخطّطهم ينجح ومصر تضيع منّا. مصر كلّها متوقفة على الزعيم. الزعيم هو الحاضر والمستقبل لهذا البلد الطيّب.

قاطعها جليل بنبرةٍ جادّة:

– كلّنا بنحب سيادة الرئيس يا مدام صفيّة. قولي سؤالك من فضلك.

قالت صفيّة بحماسة:

– سؤالي: هل هناك إجراءات تأمين كافية لسيادة الرئيس؟ وهل إجراءات التأمين يتمّ فحصها والتأكّد من سلامتها كلّ فترة؟

ردّ جليل قائلًا:

– الحرس الجمهوري سلاح مستقلّ في الجيش مهمّته حماية سيادة الرئيس.

ابتسمت صفيّة بمرارة وقالت:

– وكان فين الحرس الجمهوري لمّا الإخوان حاولوا اغتيال سيادة الرئيس؟ عمل إيه الحرس الجمهوري ساعتها؟ المفروض كان قائد الحرس الجمهوري يحاكم بعد محاولة الاغتيال.

قال ساكن:

– يا مدام بالنسبة لأيّ رئيس في العالم معروف أنّ إجراءات التأمين يستحيل تمنع محاولات الاغتيال 100 في المئة.

صاحت صفيّة:

– اسمح لي يا أخ.. أنت بتتكلّم عن عبد الناصر.. عارف من عبد الناصر؟! زعيم العالم العربي ورمز التحرّر في العالم كله.. لا تجوز أبدًا مقارنته بأيّ رئيس دولة عاديّ.

قال ساكن آخر:

– اطمئنّي يا مدام. أنا أعرف المسؤول عن تأمين سيادة الرئيس عبد الناصر وهو يستعمل أقوى نظام تأمين على وجه الأرض.

تطلّع إليه جليل وسأله:

– أنت تعرف المسؤول عن تأمين سيادة الرئيس؟

– طبعًا أعرفه. تحبّ أقول لك اسمه؟

– تفضّل..

– المسؤول عن تأمين سيادة الرئيس جمال عبد الناصر هو ربّنا سبحانه وتعالى.

ارتفعت أصوات الحاضرين:

– اللّه أكبر.

– ونعم باللّه.

– فعلًا.. ربّنا الحارس.

انتظر الساكن حتّى هدأت التعليقات على كلامه ثمّ استطرد بحماسة:

– يا أستاذ جليل. أقترح أنّنا نرسل برقيّة جماعيّة لمبايعة سيادة الرئيس.

صاحت صفيّة:

– فكرة عظيمة. أنا أوافق على إرسال برقيّة مبايعة جماعيّة بشرط كلّ واحد يكتب اسمه وبياناته.

فكّر جليل قليلًا وقال:

– يا جماعة من فضلكم. الغرض من الاجتماع اليوم دراسة الميثاق وليس إرسال البرقيّات.

قاطعه صاحب الاقتراح بحدّة:

– اسمعني يا أستاذ جليل من فضلك. لا يوجد تعارض أبدًا بين دراسة الميثاق وإرسال برقيّة المبايعة. من حقّنا نعبّر عن حبّنا لسيادة الرئيس.

بعد أسبوعين قال جليل للأستاذ بدوي:

– الليلة كان المفروض أحكي للزملاء في الاتّحاد الاشتراكي عن أسرتي الاشتراكيّة.

– بالضبط.

– بصراحة تجربتي سلبيّة ولو حكيتها يمكن تكون محبطة للزملاء.

قال بدوي:

– إيه اللي حصل؟

– أنا شكّلت أسرة اشتراكيّة في العمارة بغرض مناقشة الميثاق. لمّا اجتمعت بهم لقيت ساكن واحد أخذ الموضوع بجدّية وفوجئت أنّ بقيّة السكّان مشغولين بحاجات تانية.

– حاجات إيه؟

بدا الضيق على وجه جليل وقال:

– واحد عاوز يجيب بوليس الآداب لجاره لأنّه بيجيب ستّات عنده، وواحد عاوزنا نبلّغ البوليس ضدّ أصحاب المحلّات لو خالفوا التسعيرة وواحدة عاوزة تطمئن على إجراءات تأمين سيادة الرئيس.. بعد ذلك دخلنا في مناقشة عبثيّة لأنّهم عاوزين يبعثوا برقيّة مبايعة لسيادة الرئيس ويكتبوا بياناتهم بالكامل.

ابتسم بدوي وقال:

– وأنت عملت إيه؟

– طبعًا رفضت كلّ الاقتراحات السخيفة ما عدا برقيّة المبايعة لأنّهم أصرّوا عليها.

– عندك تفسير لسلوك السكّان دول؟

فكّر جليل قليلًا وقال:

– أظنّ أنّ عندهم حبّ للثورة لكن للأسف الحبّ لا يتطوّر إلى عمل.

– إيه السبب في رأيك؟

– مش عارف. الإجابة تحتاج تفكير.. أنا عاوز أستأذن حضرتك في حاجة.

– تفضّل.

– أستأذنك أنّي أوقف اجتماعاتي مع السكّان لأنّها بصراحة تضييع وقت. أنا محتاج ألاقي ناس جادّين عاوزين يدرسوا الميثاق فعلًا.

فكّر بدوي لحظة ثمّ قال:

– أولًا يا جليل أنا معجب بحماستك وإخلاصك.

– شكرًا يا أستاذ بدوي.

– ثانيًا أنا متّفق معك.. اصرف النظر عن مجموعتك الاشتراكيّة ومافيش داعي تحكي لزملائك عنها لأنّها ممكن تسبّب إحباط. بإذن الله قريبًا أحبّ أجتمع بك بعيدًا عن لجنة المنشيّة. عندك مانع؟

– يسعدني يا أستاذ بدوي.

– لازم نفكّر مع بعض في إجابة لسؤالك المهمّ: إذا كان الناس مؤمنين بالثورة فعلًا فلماذا لا يترجمون إيمانهم إلى أفعال؟..

18

لماذا ذهبت شانتال إلى العقيد سليم أساسًا؟

ربّما لأنّها اعتبرت تحذير عبّاس القوصي نوعًا من الوصاية الذكوريّة التي ترفضها أو ربّما لأنّها، ببساطة، تريد أن تستعيد نشاط مكتبتها الذي تعطّل لسنوات. مهما يكن السبب فإنّ لقاءها بالعقيد كان قرارًا خاطئًا ندمت على اتّخاذه. كلّما تذكّرت ما حدث تملّكها الغضب. كيف سمحت لهذا الضابط بأن يتطاول عليها؟ لقد طلب منها أن تستدرج الكاتب الذي ستدعوه لتعرف رأيه في النظام المصري. قال لها بالحرف: «افتحي مع الكاتب حوارًا لنعرف رأيه في الرئيس عبد الناصر أولًا ثمّ نقرّر إذا كنّا سندعوه».

يطلب منها أن تكون عميلة للأمن! هكذا بوضوحٍ وبلا حياء! من أين يستمدّ كلّ هذه الوقاحة؟ هل كونها أجنبيّةً يجعلها في موقفٍ أضعف؟ صحيح أن العقيد سليم يستطيع أن يأمر بترحيلها ولكن صحيح أيضًا أنّها تعرف ضبّاطًا لهم نفوذ تدرّس لأبنائهم في سان مارك. لن يكون ترحيلها بهذه السهولة. إنّها تفهم الآن لماذا عيّنوا العقيد سليم في منصبه. رجلٌ مهذّب وسيم يتحدّث الفرنسيّة والإنجليزيّة بطلاقة. واجهة برّاقة لكنّ المحتوى واحد، إنّه يريد توظيف مكتبة بلزاك في البروباجندا التي يصنعها للديكتاتور. تذكّرت ما قاله عبّاس القوصي: «الحكم العسكري يستحيل أن يهتمّ بالثقافة الحقيقيّة».

كانت شانتال جالسةً في أقصى البار وبجوارها أعضاء الكوكاس الذين اندمجوا كعادتهم في النقاش. لماذا لم تخبر أصدقاءها بما حدث مع العقيد سليم؟ إنّهم أقرب الناس إليها وهي لا تخفي عنهم شيئًا لكنّها هذه المرّة لا تريد أن تخبرهم. ربّما لأنّهم سيلومونها لأنّها تجاهلت نصيحتهم. ربّما لأنّها لا تريد أن تحكي ما حدث فيتجدّد إحساسها بالإهانة. تذكّرت كيف أنهت اللقاء مع الضابط الوقح. كم

تتمنّى لو كان ردّها أقوى. لو أنّها فعلت شيئًا يفاجئه.. يصدمه.. يهزّ ثقته الراسخة بنفسه التي تستفزّها..

انتبهت شانتال من أفكارها على صوت أنس الأجشّ وهو يقول:

– تشي جيفارا شخصيّة عظيمة وزيارته لمصر حدث مهمّ بالتأكيد.

قال توني:

– لقد منحه الرئيس عبد الناصر وسامًا من الدولة المصريّة.

ردّ أنس بحماسة:

– جيفارا قطعًا يستحقّ أرفع الأوسمة.

قالت ليدا:

– أنس، حدّثنا قليلًا عن جيفارا لأنّني للأسف لا أعرف الكثير عنه.

قال توني:

– أنا قرأت عنه الموضوع المنشور أمس في الأهرام.

– هل عرفت كم هو عظيم؟

هكذا سأله أنس.

رشف توني من كأسه وقال بهدوء:

– بصراحة أجد صعوبةً في فهم جيفارا. شخصٌ من أسرةٍ كبيرة في الأرجنتين وتعلّم حتّى أصبح طبيبًا. لماذا يترك الطبّ ويسافر من بلدٍ لبلد لينضمّ إلى الثورات. تصوّروا أنّه سيذهب إلى الكونجو ليعمل ثورة هناك.

ابتسم أنس وقال:

– جيفارا يؤمن بأنّ واجبه تصدير الثورة.

– كلّها أفكار رومانسيّة خياليّة. شخصٌ أرجنتيني يعمل ثورة في الكونجو؟ ماذا يعرف جيفارا عن الكونجو أصلًا حتى يعمل فيها ثورة؟!

– جيفارا يدافع عن المظلومين في كلّ مكان.

– إذا كان فعلًا يريد مساعدة الفقراء والمظلومين، فلماذا لا يعمل بالطبّ ويعالجهم مجّانًا؟!

ضحك أنس وقال:

– عزيزي توني، هذا تفكير تقليديّ. الثورة معنًى مختلف. لولا الثوّار مثل جيفارا لما تقدّمت الإنسانيّة. هؤلاء ضحّوا بكلّ شيء دفاعًا

عن معانٍ إنسانيّة نعتبرها الآن حقوقًا طبيعيّة لنا. الذين صنعوا الثورة الفرنسيّة علّموا الدنيا معاني الحرّية والمساواة.

ضحك توني وقال:

– عندك حق، أنا تفكيري تقليدي. في النهاية لست إلّا صانع شوكولاته..

ضحك عبّاس وقال لتوني:

– أنت خرّيج أكسفورد. كما أنّ صناعة الشوكولاته مهنة عظيمة.

قال أنس:

– ما رأيك في جيفارا يا عبّاس؟

ردّ عبّاس قائلًا:

– الثورة معنى عظيم لكنّها سرعان ما تتحوّل إلى سلطة مستبدّة. هذا ما حدث في كلّ الثورات بما فيها الثورة الفرنسيّة وهو ما يحدث الآن في كوبا فالنظام الثوري يمارس القمع ضدّ من يعتبرهم أعداء الثورة. هنا أتّفق مع توني. إنّ سفر جيفارا ليقود ثورة في الكونجو فكرة خياليّة وللأسف ستفشل حتمًا.

قال أنس:

– لا أصدّق أنّني أجلس مع أصدقاء مثقّفين وأكون مضطرًا إلى الدفاع عن ثائرٍ عظيم مثل جيفارا.

صاحت شانتال فجأة:

– أنس.. لماذا تصرّ على أن يتّفق معك جميع الناس في الرأي؟ أنت معجب بتشي جيفارا وبعض الأصدقاء لا يوافقون على رأيك. لماذا تثير كلّ هذه الضجّة؟

قال توني بمرح:

– فلنغيّر هذا الموضوع.. ما هو أحدث كتاب وصل إلى مكتبة بلزاك؟

قالت شانتال:

– وصلتني قبل أيّام الترجمة الفرنسيّة لرواية «رباعيّة الاسكندريّة» من تأليف لورنس داريل.. من قرأها فيكم؟

قال أنس:

– أنا قرأتها بالإنجليزيّة. رواية جيّدة لكنّ المؤلّف عنصريّ..

صاحت شانتال:

– يبدو أنّك تستمتع بمعارضتي.

– لا أنكر أنّ معارضتك ممتعة.

– لورنس داريل من أهمّ الأدباء في القرن العشرين.

– عزيزتي شانتال، لقد قلت إنّ لورنس داريل روائيّ كبير لكنّه متعصّب وعنصري وروايته «رباعيّة الاسكندريّة» تحمل رؤية استعماريّة استعلائيّة. بالإضافة إلى ذلك فإنّ الرواية حافلة بالأخطاء التاريخيّة عن مصر.

– غير صحيح.

ابتسم أنس وقال:

– أستطيع غدًا أن أحضر لك بيانًا بالأخطاء التاريخيّة الفادحة التي وقع فيها داريل، كما أنّ كراهيته واحتقاره للعرب والمسلمين سمة واضحة عنده سواء في سرد الرواية أو في آراء الشخصيّات، حتّى في أحاديثه الصحفيّة.. هذا الرجل برغم موهبته الكبيرة عجز عن رؤية المصريّين باعتبارهم بشرًا. نحن بالنسبة إليه مجرّد سكّان همج لمستعمرةٍ بريطانيّة.

– لقد قرأت الرواية ولم أجد فيها عنصريّة.. صحيح أنّ معظم شخصيّاته من الأوروبيّين لكنّه كتب عن الاسكندريّة التي يعرفها. كما أنّ الأحاسيس التي عبّر عنها ببراعة ورقّة لا يمكن أن يكتبها شخص عنصريّ.

– دفاعك عن الرواية افتراض نظري بينما أنا أنقد الرواية بموضوعيّة. ما معنى أن تقولي «من يكتب بهذه الرقّة لا يمكن أن يكون عنصريًّا» إذا كان نفس الكاتب يعلن آراءه العنصريّة في كلّ مكان؟

– أتحدّاك أن تحضر لي أيّ آراءٍ عنصريّة للورانس داريل.

– بسيطة.. سأحضر لك بعض الأحاديث التي أدلى بها للصحافة وهي تفيض بالعنصريّة.

– بماذا تفسّر النجاح الساحق للرواية؟

قال أنس:

– الرواية فنّيًا جيّدة لكنّها لا تستحقّ كلّ هذه الضجّة. هناك روايات أفضل منها لم تلق نفس الانتشار.

– الحقيقة أنّك تقف عاجزًا أمام رباعيّة الاسكندريّة وتنكر على درايل عبقريّته.

– لم أنكر موهبته الكبيرة لكن تذكّري أنّ أكبر نجاح للرواية حدث في بريطانيا، والسبب في رأيي أنّ داريل يخاطب حنين الإنجليز لمجد الإمبراطوريّة التي سقطت.

صاحت شانتال بغضب:

– مجد الإمبراطوريّة التي سقطت؟ تكلّم في الفنّ من فضلك..

ردّ أنس بتحدٍّ لا يخلو من ودّ:

– من حقّي أن أقول ما أريد. ليست لديك سلطة لمنعي.

– بل أنا أمتلك هذه السلطة عندما تقول كلامًا فارغًا.

– شكرًا على ذوقك.

ضحك عبّاس القوصي وقال:

– شانتال. لا بدّ أن أشكرك.

– لماذا؟

– لأنّك تضفين حيويّةً على سهرات الكوكاس. ماذا كنّا سنفعل بدون الشغب الذي تصنعينه؟

ابتسمت شانتال وقالت:

– سأعتبر ما قلته مديحًا.. أشكرك.

في الثانية صباحًا انصرفت شانتال من سهرة الكوكاس وفي اليوم التالي نزلت كالمعتاد إلى المكتبة وانهمكت في العمل، وحوالي الساعة الثالثة ظهرًا كانت تتحدّث مع زبونٍ يسألها عن كتاب يريدها أن تطلبه له عندما جاءت السكرتيرة فاطمة وابتسمت وقالت:

– مدام شانتال.. تليفون.

تطلّعت إليها شانتال فاستطردت بلهجةٍ عاديّة:

– واحد اسمه العقيد سليم.

19

أنس

فتحت عينيّ فرأيت ليدا. كانت ترتدى فستانًا بسيطًا نصف كمّ لونه أخضر وقد لمّت شعرها على هيئة «ذيل حصان» ووضعت ماكياجًا خفيفًا. برغم مظهرها البسيط الذي يلائم العمل بدت فاتنة. قلت لها:

– لماذا أنت جميلة دائمًا؟

ضحكت وقالت:

– يعني خلّتني أسيب المطعم في عزّ الشغل لأجل تقول لي أنت جميلة؟ شكرًا يا سيدي!

– آسف أنّي عطّلتك.

– ولا يهمّك..

– تشربي قهوة؟

تبعتني إلى المطبخ.. أثناء إعداد القهوة حكيت لها ما حدث مع الأخت ريتا. أنصتت بانتباهٍ ثمّ سألتني:

– ماذا ستفعل الآن؟

– سأستقيل طبعًا.

– ممكن تعطي نفسك فرصة للتفكير؟

– أنا فكّرت وقرّرت.

– هو ده عيبك.

– قصدك إيه؟

– أنت لا تفكّر أبدًا في نتيجة ما تفعله.

– غير صحيح.. أنا أدرك نتيجة أفعالي وأتقبّلها.

– لقد مزّقت صورة رئيس الجمهوريّة ولم تفكّر للحظة أنّهم لو رأوك كانوا سيقبضون عليك قطعًا.

قلت لها:

– أولًا أنا لم أمزّق الصورة. لقد انتزعتها لأنّها قد تمّ وضعها على باب شانتال بدون أن يستأذنها أحد. ثانيًا أنا كنت أعرف أنّهم ممكن يقبضوا عليّ. ثالثًا أنا انتزعت الصورة دفاعًا عن كرامتنا..

سكتت ليدا لحظة ثمّ قالت بنبرةٍ أموميّة:

– أرجوك يا أنس فكّر جيّدًا قبل أن تستقيل.

– المواقف الأخلاقيّة لا تخضع لحسابات المكسب والخسارة.

همست برقّة:

– ممكن تؤجّل الاستقالة حتى تجد عملًا آخر؟

– ولا يوم واحد.

فكّرت لحظة ثمّ قالت:

– اذا كنت مصرًّا على الاستقالة فأنا عندي اقتراح.

– اقتراحك مرفوض.

– هل ترفض الاقتراح قبل أن تسمعه؟

– أرفضه لأنّي أعرفه.

– ممكن تأخذ منّي قرضًا بسيطًا حتّى تجد عملًا آخر؟

– أشكرك على العرض الكريم لكنّي لن أقبله.

– الاقتراض ليس عيبًا.. حتّى الدول تقترض.

– أنا لست دولة.

– أنس.. المفروض أنّ الحبّ يزيل الكلفة صحّ؟

– صحّ.. إذا احتجت إلى شيء حأقول لك.

– وعد؟

– وعد.

جلسنا نشرب القهوة وأشعلت سيجارة ملفوفة. نظرت ليدا إليّ وقالت:

– ما دمت قرّرت تستقيل يبقى المفروض تهدأ.

– الموضوع ليس شخصيًّا فقط.. أكثر ما يزعجني أنّ نظرة المصريّين للفنّ تتغيّر.

– أنت تبالغ.

– لا أبالغ إطلاقًا.. سأعطيك مثلًا: في عام 1947، قبل الحكم العسكريّ، تمّ ترشيح نحّات معروف لمنصب حكوميّ وطلبوا منه شهادة حسن السير والسلوك. كان هذا إجراءً عاديًّا من مسوّغات التعيين لكنّ الفنّان اعتبر ذلك طلبًا سخيفًا ومهينًا فبعث برسالة إلى المسؤولين، نشرتها الجرائد، أكّد فيها أنّه لم يكن يومًا حسن السير والسلوك لأنّه يسكر ويدخّن الحشيش ويذهب إلى بيوت الدعارة بانتظام. تحوّل الموضوع إلى مادّةٍ للسخرية وتضامن الناس مع الفنّان الذي تمّ تعيينه في المنصب برغم ما ذكره عن سلوكه الشخصيّ. هذا الفهم المتحضّر المتسامح لطبيعة الفنّ يتغيّر الآن في مصر.

– ما السبب في رأيك؟

– لأنّ الطبقة الحاكمة هي التي تحدّد الثقافة السائدة في أيّ مجتمع. الطبقة الحاكمة في مصر تغيّرت وبدلًا من خرّيجي أكسفورد والسوربون فإنّ مصر يحكمها الآن العقيد نوفل وأمثاله.

– من يسمعك يعتقد أنّ مصر قبل الحكم العسكريّ كانت جنّة.

– لم تكن جنّة.. كان هناك الاحتلال البريطانيّ وكان هناك ملك يريد أن يستأثر بالسلطة ولكن بالمقابل كان هناك مشروع ليبراليّ حقيقيّ وحرّيات ونظام قضائيّ مستقلّ وحركة وطنيّة قويّة تقاوم الاحتلال وتفرض إرادتها على

السلطة. كلّ هذا انتهى ولم يعد لدينا إلّا زعيم ملهم. شخص واحد يتحكّم في حياتنا ومصيرنا جميعًا.

– ممكن سؤال من فضلك؟

– طبعًا.

ابتسمت ليدا وقالت:

– لماذا تحمل هموم مصر كلّها على دماغك؟

قلت:

– لست سعيدًا بذلك لكنّها طبيعتي. لن أخدع نفسي. على مدى عشر سنوات حاولت أن أعيش بمعزل عن الوضع السياسيّ لكنّي لم أستطع. أنا أكره الشعارات وتعلّمت من قراءة التاريخ أنّ الحكم العسكريّ ينتهي دائمًا إلى كوارث. المصريّون فقدوا وعيهم واستسلموا للهيستيريا. أصيبوا بالجنون الجماعيّ. الشعب يعبد الزعيم والزعيم أسكرته السلطة المطلقة وهو يقودنا إلى الكارثة. ليدا.. هل تصدّقينني لو قلت إنّني أرى الكارثة كما أراك الآن؟ بنفس الوضوح؟

سكتت ليدا.

سألتها:

– هل سمعت عن زرقاء اليمامة؟

– لا.

– زرقاء اليمامة امرأة عربيّة عاشت قديمًا. كانت معروفة بقوّة بصر خارقة وكانت قبيلتها تستعملها لاستطلاع تحرّكات الأعداء. بفضل بصرها الخارق كانت تكشف تحرّكات الأعداء مبكرًا ممّا جعل قومها ينتصرون في كلّ حروبهم. وذات يومٍ استطلعت زرقاء اليمامة الطريق وقالت لقومها: «إنّي أرى الأشجار تمشي».

فلم يصدّقها أحد. سخر الناس منها واتّهموها بأنّها كبرت وخرفت ثمّ تبيّن بعد ذلك أنّ الأعداء غطّوا أنفسهم بغصون الأشجار وهجموا على قومها وهزموهم وكانوا يستحقّون

الهزيمة لأنّهم لم يصدّقوا زرقاء اليمامة. الفنّان مثل زرقاء اليمامة، يبصر دائمًا قبل الآخرين.

ابتسمت ليدا وقالت:

– وأنت ماذا ترى الآن أيّها الفنّان؟

قلت:

– الأشجار تمشي في الاسكندريّة.

– اشرح لي.

– المعركة في الاسكندريّة كانت بين الجمال والقبح. بين الحضارة والهمجيّة. لقد قاومت الاسكندريّة طويلًا بفضل تراثها الحضاريّ لكنّها هُزمت وآن لها أن تستسلم. الاسكندريّة التي نعرفها تختفي الآن شيئًا فشيئًا لتحلّ مكانها اسكندريّة أخرى لا تعرفنا ولا تحبّنا.

كنت أتكلّم بحماسة.. تطلّعت ليدا إليّ وكأنّها تبحث عن كلماتٍ مناسبة ثمّ قالت بهدوء:

– ما زلت عند رأيي. ما حدث مع الأخت ريتا مجرّد مشكلة عابرة. لكنّ خيالك الخصب صنع منها قضيّة كبرى.

– الخيال يستشرف المستقبل.

– بقدر ما يفيدك خيالك كفنّان إلّا أنّه يسبّب لك الهمّ بلا داعٍ.

– خيالي هو أفضل ما أملكه.

نهضت ليدا فجأة وقالت:

– آسفة.. مضطرّة أسيبك. عندي شغل كثير في المطعم.

قبّلتها على خدّها وجبينها فنظرت إليّ وضحكت وقالت:

– أرجوك يا أنس.. لو احتجت حاجة قل لي.. أنت وعدتني..

سمعت صوت إغلاق باب الشقّة وخطر لي أنّني تسرّعت في استدعاء ليدا لأنّها اضطرّت إلى ترك عملها. لماذا لم أنتظر حتّى أخبرها في الليل؟ كنت أحتاج إليها.. عندما حكيت لها انزاح عنّي همٌّ ثقيل. كم أحبّ هذه المرأة! إنّها تكمّلني..

عندها دائمًا ما ينقصني.. أنا شخصٌ خياليّ وهي، على عكسي، تتمتّع بحسٍّ عمليّ صارم ورثته عن أبيها.
كانت الساعة الثالثة بعد الظهر وسيطرت عليّ رغبة غريبة. أن أبدأ جولتي في المقاهي حالًا.. كنت أعرف أنّ ساعة العصر غير مناسبة لأنّ عدد الزبائن يكون قليلًا. برغم ذلك لم أستطع أن أقاوم رغبتي. كأنّني كنت أتحدّى العقيد نوفل والأخت ريتا. أخذت حمّامًا ساخنًا وارتديت ملابسي وحملت حقيبتي وبدأت جولتي من القهوة التجاريّة ثمّ مطعم نصّار ثمّ فندق سيسل فلم أجد زبونًا واحدًا. رحت أمشي على الكورنيش. كان البحر رائعًا والهواء المنعش يداعب وجهي. وصلت إلى الطابية ثمّ مشيت عائدًا حتّى القهوة التجاريّة. اجتزت شارع الترام ورحت أتأمّل سينما ركس. كانت الأبواب مغلقةً وإعلانات الأفلام قديمةً ومهترئة. جلست على مقهًى صغيرٍ مواجهٍ للسينما. طلبت قهوة سادة وسألت الجرسون:
– هي السينما قافلة؟
– السينما خلاص يافندي.. صاحبها باعها..
شعرت بأسى.. سينما ركس جزء من طفولتي. منذ ثلاثين عامًا شهدت فيها تجربة لن أنساها..
كنت طفلًا لا أتجاوز السابعة من عمري وكانت نادية الشغّالة في بيتنا تذهب إلى سينما ركس يوم الأربعاء المخصّص للنساء. طلبت من أمّي أن أذهب مع نادية إلى سينما ركس فرفضت. كنت طفلها الوحيد وكانت تبالغ في الخوف عليّ. بعد توسّلٍ وإلحاح وبكاء، أخيرًا، وافقت أمّي وذهبت مع نادية في يوم النساء. لم تكن تجربة السينما جديدةً عليّ. كنت أذهب إلى حفلة الأطفال صباح الأحد في سينما مترو كما أنّني ذهبت أكثر من مرّةٍ إلى السينما مع أبي وأمّي. لكنّي عندما ذهبت مع نادية إلى سينما ركس خضت تجربةً جديدة ومختلفة. ما إن عبرت من باب

السينما إلى القاعة المظلمة حتّى انفتح أمامي عالمٌ جديد كنت أراه لأول مرّة. كانت القاعة مزدحمةً بالنسوة الشعبيّات وقد اصطحبن أولادهنّ ومعظمهم في سنّي أو أصغر، وقد طبخت النساء طعامًا ساخنًا وأحضرنه في حللٍ ورحن يغرفن منه في أطباق، تمامًا وكأنّهنّ يتناولن الغداء في البيت. السيّدة الجالسة بجوارنا أعطتنا طبقًا كبيرًا فيه ورق عنب وقطعتا لحم. اشتركت أنا ونادية في هذه الوجبة وكان طعمها لذيذًا. همست نادية في أذني: «أنس، إيّاك تقول لماما إنّنا أكلنا من طبيخ الناس». هززت رأسي لأؤكّد لها أنّي سأكتم السرّ. كان البرنامج من فيلمين ما زلت أذكرهما: «أولاد الذوات» بطولة يوسف وهبي و«الوردة البيضاء» بطولة محمّد عبد الوهّاب. سأظلّ دائمًا أذكر هؤلاء النسوة الشعبيّات، سيثرن خيالي وسأظلّ متعلّقًا بهنّ حتّى أكبر وأراهنّ في لوحات محمود سعيد وأتّخذ بعضهنّ موديلات للوحاتي. اندمجت تمامًا مع جمهور النساء في السينما. كانت ماكينة العرض قديمةً ومستهلكة ممّا أدّى إلى تعطّلها بين الحين والحين لمدّة دقيقةٍ أو أقلّ. لسببٍ ما كانت النسوة يعتقدن، عن يقين، أنّ هذه الأعطال ليست إلّا محاولةً من صاحب السينما لتفويت جزءٍ من الفيلم وذلك بتسريع بكرة العرض. السيّدة الجالسة بجواري (التي منحتنا المحشي) شرحت لي المشكلة بصوتٍ غاضب: «صاحب السينما «معرّص» بيسرق في البكرة... عاوز يفوت حتّة من الفيلم لأجل نمشي بسرعة ويجيب زباين جداد».

يستعمل المصريّون كلمة «معرّص» بمعنى قوّاد لكنّي لم أكن سمعت بها من قبل فاعتبرتها كلمةً سلبيّة عاديّة مثل رذيل أو بليد. طبعًا لم يسأل أحدٌ نفسه ما مصلحة صاحب السينما في صرف الجمهور مبكرًا إن كانت مواعيد الحفلات ثابتة. أعلنت النسوة الحرب على صاحب السينما

وفي كلّ مرّةٍ يتوقّف فيها الفيلم ويسود الظلام كانت النسوة يصرخن ويضربن أغطية الحلل النحاسيّة بعضها ببعض ليصنعن أكبر قدرٍ من الضجّة ثمّ يهتفن جميعًا: «شغّل الفيلم يا صاحب السينما يا معرّص».

عندما انقطع الفيلم مرّةً أخرى انضممت إلى جيش النساء فسحبت غطاءَيْ حلل من السيّدة المجاورة ورحت أخبطهما وأصرخ بصوتي الطفولي الرفيع: «يا صاحب السينما يا معرّص.. شغّل الفيلم يا معرّص».

كنت أحسّ بسعادةٍ ويبدو أنّ منظري كان مضحكًا لأنّ نادية والنسوة حولنا ضحكن بشدّةٍ وقبّلتني إحداهنّ وقالت: «رجل وانت صغير.. ربّنا يحميك».

عندما عدت إلى البيت سألتني أمّي إذا كنت استمتعت بالسينما. قلت لها ببساطة:

«الفيلمين حلوين لكن صاحب السينما المعرّص بيسرق في البكرة».

كلّما تذكرت وجه أمّي في تلك اللحظة لا أتمالك نفسي من الضحك. أمّي كان أبوها أستاذًا في كليّة الطبّ وزوجها (أبي) مستشار رئيس محكمة. وأنا ابنها الوحيد تلميذ في مدرسة سان مارك الشهيرة وها أنا أقف أمامها لأخبرها أنّ صاحب السينما معرّص! كلّ ذلك انتهى الآن. سيهدمون سينما ركس ويبنون عمارةً مكانها. قمت من القهوة ومشيت إلى محطّة الرمل. أحسست بجوعٍ فذهبت إلى مطعم كاليتيا. جلست على الرصيف وطلبت زجاجة بيرة مثلّجة جاء معها طبقٌ من الترمس. رحت أشرب وأتأمّل المارّة ثمّ طلبت زجاجةً أخرى وغداء كالاماري وأرزّ. كنت أعرف الجرسون اليوناني فيليكس. كان لطيفًا ولبقًا ويعرف دائمًا متى يتكلّم مع الزبون ومتى يتركه وشأنه. اقترب منّي فيليكس وابتسم وسألني بودّ:

– أستاذ أنس، إيه الأخبار؟ كلّه تمام؟

كان من الممكن فهم السؤال على أنّه يطمئنّ على جودة الطعام لكنّني شعرت بأنّه يسألني عن أحوالي.

ابتسمت وقلت:

– تمام يا فيليكس. أنت إيه أخبارك؟

ردّ بحماسة:

– نشكر ربّنا.. 71 سنة وواقف على رجلي.

– أنت مواليد اسكندريّة يا فيليكس؟

– طبعًا.. اسكندراني أصلي.

– عمرك ما فكّرت تسافر.

– أسافر فين؟

– تهاجر.

– لو خرجت من اسكندريّة أموت.

هكذا قال ببساطةٍ وكأنّه يذكر أمرًا بديهيًا. طرأت لي فكرةٌ فقلت له:

– طيّب يا فيليكس، تخيّل لو مطعم كاليتيا تمّ بيعه وصاحب المطعم الجديد قرّر يمنع الخمر. تعمل إيه؟

– مش فاهم.

– يعني منع البيرة والنبيذ والويسكي.

– ويمنعهم ليه؟

– افترض أنّه رجل مسلم متديّن.

– لا مؤاخذة ده يبقى رجل حمار.. الناس بتيجي اسكندريّة عشان تأكل سمك في كاليتيا وتشرب بيرة ساقعة..

– ممكن يقول لك الخمر حرام.

– يا أستاذ أنس اللي عاوز يشرب يشرب. واللي مش عاوز ما يشربش لكن ما ينفعش تمشّي الناس على مزاجك.

– عندك حق.

تطلّع فيلكس إلى البحر لحظةً ثمّ نظر إليّ وقال:

– عارف حضرتك أنا شفت أيّام حلوة وأيّام وحشة. كسبت كتير وصرفت كتير. عارف إيه الحاجة الوحيدة اللي تقرفني

من العيشة؟

– إيه؟

– الغباوة.. ممكن أستحمل أيّ حاجة إلّا الغباوة.

ضحكت وأعجبني الفكرة فقلت:

– فعلًا الغباوة أسوأ حاجة في الدنيا.

فرغت من الغداء ودفعت الحساب. تركت لفيليكس بقشيشًا جيّدًا وصافحته ومشيت بضع خطوات على الرصيف ثمّ توقّفت واستدرت نحوه وقلت مداعبًا:

– فيليكس.. إيه أسوأ حاجة في الدنيا؟

فصاح ضاحكًا:

– الغباوة يا أستاذ أنس.

حضرت حفلة الساعة السادسة في سينما مترو. كانت تعرض فيلم إيرما لادوس بطولة جاك ليمون وشيرلي ماكلين. لا أفهم حتى الآن كيف يشترك نجمان كبيران مثلهما في هذا الفيلم التافه. لولا أنّ محور الفيلم يدور عن الدعارة لكان يصلح فيلمًا للأطفال بشرط أن يكونوا أقلّ من عشر سنوات حتى يتحمّلوا سذاجة الفيلم وركاكته. خرجت من السينما وبدأت جولة الرسم المعتادة. بدأت بفندق سيسيل. كنت أتمنّى أن أرى الضابط نوفل ليعلم أنّني سأستمرّ في رسم الناس في كلّ مكانٍ رغمًا عنه. طلبت منّي سيّدة أمريكيّة أن أرسمها ومنحتني جنيهين. استأنفت جولتي حتى انتصف الليل. كنت متعبًا لكنّي ذهبت كالعادة إلى الكوكاس. صعدت من السلّم الخلفي وما إن دخلت البار حتّى جاءت ليدا مسرعةً وقالت لي وهي تبتسم بسعادة:

– أنت فين يا أستاذ؟ مبروك.. المشكلة انحلّت.

20

بعد شهرين من عمله في المصنع طلب توني كازان مقابلة جليل. حدّدت له السكرتيرة ناتالي موعدًا في اليوم التالي. استعدّ جليل جيّدًا وراجع كلّ الملفّات التي اشترك في إعدادها وكتب في ورقةٍ صغيرة الأرقام التي قد يسأله مسيو توني عنها. تلقّاه مسيو توني بحفاوةٍ ودعاه للجلوس ثمّ قال:

– من تقاليد المصنع أن أقابل أيّ موظّفٍ جديد بعد شهرين من تعيينه.

ابتسم جليل وهزّ رأسه واستطرد توني:

– هذا اللقاء يكون مفيدًا للإدارة وللموظّف أيضًا. يهمّني أن أتعرّف إلى تجربتك في العمل.

– أنا سعيد بالعمل في المصنع.

– هل لديك مشكلة تحبّ أن تحدّثني عنها؟

فكّر جليل قليلًا ثمّ قال:

– الحمد لله لا أعاني من أيّ مشكلة.

– جميل.

– لو حضرتك لديك ملاحظات على عملي يسعدني أن أستمع إليها.

فتح توني ملفًّا كان موضوعًا أمامه على المكتب وقال:

– لقد راجعت شغلك وأعتقد أنّك فعلًا محاسب كفء.

– شكرًا.

– الأستاذ بدوي خضير كتب عنك تقريرًا إيجابيًّا جدًّا. واضح أنّه يحبّك.

– الأستاذ بدوي مدير رائع ولا يبخل عليّ بالمساعدة كما أنّه مسؤولي في الاتّحاد الاشتراكي.

سكت توني لحظة ثمّ قال:

– ما دخل الاتّحاد الاشتراكي بالموضوع؟

ردّ جليل بسرعة:

– الأستاذ بدوي ليس فقط مديري في العمل ولكنّه مسؤول عن لجنة المنشيّة للاتّحاد الاشتراكي وأنا عضو فيها.

ابتسم توني وقال:

– أخوك عبّاس عارف أنّك في الاتّحاد الاشتراكي؟

– عارف.

– وموافق؟

– هو سايب لي الحرّية واحنا مختلفين سياسيًّا.

– يعني أنت مؤيّد لعبد الناصر.

ردّ جليل بحماسة:

– عبد الناصر زعيم عظيم.

ضحك توني وقال:

– تناقض عجيب! أخوك عبّاس أكثر شخص معارض لعبد الناصر شفته في حياتي وأنت تعتبر أنّه زعيم عظيم.

لم يعلّق جليل وأغلق توني الملفّ المفتوح أمامه واستطرد قائلًا بجدّية:

– عمومًا آراؤك السياسيّة موضوع يخصّك. ما يخصّ الإدارة هو عملك. لو عندك مشكلة أو أحببت تسألني على حاجة كلّم السكرتيرة ناتالي وهي تعطيك موعد فورًا.

كانت هذه الجملة إيذانًا بنهاية اللقاء فنهض جليل وشكر توني واستدار لينصرف وعندما وصل إلى الباب جاءه صوت توني:

– على فكرة أنا عرفت أنّ عندك ابن. اسمه ايه؟!

– رائف.

– كم سنة؟

– ستّ سنين.

– عظيم.. عنوانك موجود في الإدارة. يوم الجمعة بعد الصلاة أبعث لك أتوبيس المصنع يأخذ رائف للنادي. راح يلعب ويقضي يوم ظريف مع الأولاد.

– شكرًا يا مسيو توني.

– ممكن تيجي معه أنت ووالدته لو تحبّوا.. أهلًا وسهلًا.

21

ارتكب الحاج صبحي غلطتين: أولًا أنّه اعتبر عدلي خصمًا سهلًا بسبب جسده الضئيل، وثانيًا أنّه لم يقدّر الوقت الذي يستغرقه سقوط الشيشة الثقيلة الممتلئة بالماء، ولذلك تمكّن عدلي من تفاديها بسهولة فسقطت على الأرض وتناثرت إلى شظايا محدثة دويًّا هائلًا. كان الحاج صبحي يتوقّع عراكًا تقليديًّا تتبادل خلاله اللكمات والركلات لكنّ عدلي، في لمح البصر، أخرج السكّين الطويلة من الجيب السرّي ورفعها أمام وجه صبحي وصاح:

– اتشهّد على روحك يابن الزانية.

أخذ عدلي يضرب بالسكّين على وجه صبحي ودماغه بطريقةٍ احترافيّة بحيث لا يسقط النصل على الجلد فيمزّقه. لم تستغرق المعركة طويلًا لأنّ الحاج صبحي ما إن رأى السكّين الطويلة تلمع في الظلام وأحسّ بخبطاتها على دماغه حتّى ارتمى على المقعد ووضع رأسه بين ذراعيه وراح يصيح:

– خلاص يا معلّم عدلي.. خلاص!

نقل عدلي السكّين إلى يده اليسرى وقرّبها من وجه صبحي بينما انهال بيمينه على وجهه بوابل من اللكمات العنيفة ودوّى صوته كالرعد في أنحاء الشارع:

– حتسلمنا المحلّ حالًا! فاهم؟

ردّد الحاج صبحي بصوتٍ لاهث مذعور:

– ماشي يا معلم. ماشي.

أشار عدلي إلى مساعديه فدخلا بسرعةٍ المحلّ ليسيطرا على أيّ مقاومة من العمّال الذين سرعان ما تبيّن أنّهم يكرهون الحاج صبحي ويتابعون ما يحدث بصمتٍ أقرب للرضى. تمّ استدعاء أمّ أيمن بالتليفون فجاءت بسرعة وأحضرت معها المحامي والنجّار (بناءً على اتّفاق مسبق مع عدلي). قام النجار بتغيير الكوالين وأعطى

المفاتيح الجديدة لأمّ أيمن وكان المحامي قد أعدّ إقرارًا قانونيًا يتعهّد فيه الحاج صبحي بعدم التعرّض لأمّ أيمن ويقرّ بأحقيّتها في المحلّ. وقّع الحاج صبحي الإقرار وأخيرًا صفعه عدلي بقوّة وراح يهزّ السكين أمام وجهه وصاح:

– وحياة أمّك يا صبحي لو اتعرّضت لأمّ أيمن لأكون ذابحك كما العجل.

عندما انتهت الإجراءات سمح عدلي للمعلّم صبحي بالانصراف فانطلق يهرول لاهثًا في اتّجاه الشارع العموميّ حتّى اختفى عن الأنظار. كان الفجر قد طلع وبدا الامتنان على وجه أمّ أيمن وهتفت بصوتٍ متهدّج:

– واللّه يا معلّم عدلي ما أنسى جميلك طول عمري. ربّنا يخلّيك ويحميك ويبارك لك.

بعد قليل، بينما يستعدّ عدلي لركوب التاكسي مع مساعديه ضحك وصاح بمرح:

– إيّاك يا أمّ أيمن تنسي الفطيرة يوم الجمعة... وعد الحرّ دين...

كان عدلي يحبّ أداء هذه المهمّات ويسمّيها «زكاة القوّة» فهو يؤمن بأنّ ربّنا سبحانه وتعالى قد منحه القوّة ويجب أن يستعمل بعضها لاسترداد حقوق الناس، تمامًا كما يمنحنا ربّنا الثروة فنؤدّي منها الزكاة للفقراء. بالإضافة إلى زكاة القوّة وحفظ الأمن وبيع الحشيش في ملهى الأنجلو، بقيت مهمّة أخرى لعدلي مع الريّس بونانزا الذي هو متعهّد حفلات في الأساس، يتعاقد معه أصحاب الأفراح لجلب الراقصات والمغنّين، وبالطبع، كالمعتاد، قد يسكر أحد المدعوّين ويتحرّش بالراقصة أو يحاول اختطافها بعد الفرح، لذلك كان عدلي الأسود يرسل مع كلّ راقصة أحد مساعديه لحمايتها. كان المساعد فتوّة شابًّا مدرّبًا جيّدًا وغالبًا ما كان ظهوره مع الراقصة كافيًا لردع المشاغبين. حماية الراقصات بالنسبة لعدلي مهمّة بسيطة لا يتصوّر أحدٌ أن يؤدّيها بنفسه، ولذلك عندما أخبر عدلي مساعده أنّه سيصحب الراقصة سلوى سالم لتأمينها في الفرح، أخفى المساعد ابتسامةً ماكرة لأنّه أدرك أنّ المعلّم عدلي، بالتأكيد، قد أعجبته الراقصة الجديدة التي التحقت بالملهى منذ أسابيع قليلة.

خرجت سلوى من باب الملهى الخلفيّ تسبقها رائحة عطرها النفّاذة وقد ارتدت عباءةً سوداء طويلة على بدلة الرقص وحملت في يدها حقيبتها. وعندما فتحت باب التاكسي ووجدت عدلي في انتظارها شهقت وخبطت على صدرها وقالت بميوعةٍ محبّبة:

– يا ليلة بيضا يا ولاد.. المعلّم عدلي على سنّ ورمح رايح الفرح معايا؟ أنا أكيد أمّي داعية لي..

ردّ عدلي بودّ:

– ربّنا يكرمك.

كان الفرح في قاعة شهرزاد في محطة الرمل والعروسان من أبناء التجّار وبدت علامات الثراء على المدعوّين. جلس عدلي في أقصى القاعة ليتمكّن من متابعة ما يحدث وراح يشرب من زجاجة الويسكي التي جاد بها أصحاب الفرح إكرامًا لحضوره. تقدّمت سلوى وهي ترقص أمام الزفّة وبعد ذلك صعدت إلى المسرح وأدّت فقرتها وتلقّت نقوطًا كبيرًا من المدعوّين. لم يحدث ما يعكّر الصفو، وحوالي الثالثة صباحًا اصطحب عدلي سلوى في رحلة العودة وعندما ركبت بجواره في التاكسي التفت إليها وقال:

– رقصك جميل يا سلوى.

– ده من ذوقك.

– قبل ما أوصّلك البيت عاوزك في كلمتين.

ابتسمت سلوى وقالت:

– من عيني.

أمر عدلي السائق فاصطحبهما إلى بير مسعود في منطقة سيدي بشر. أثناء النهار يزور هذا المكان مئات الناس، يتمنّون أمنية ويلقون بعملةٍ معدنيّة في البئر ويدعون اللّه أن يحقّق أمانيّهم. تلك الساعة لم يكن أمام البئر سوى سلوى وعدلي ورجلٍ وحيد جالس بعيدًا على الناحية الأخرى. مدّ عدلي يده وأحكم إغلاق العباءة حول سلوى وقال:

– خلّي بالك لتأخدي برد.

– شكرًا.

هكذا همست سلوى برقّة. رشف عدلي من زجاجة الويسكي ومدّ قدميه أمامه ثمّ قال وهو يتطلّع إلى السماء:

– عارفة يا سلوى، المنطقة دي عزيزة عليّ. وأنا عيّل صغير ياما نزلت هنا في البير.

– يا لهوي! النزول هنا خطر.

هكذا هتفت سلوى بلهفةٍ لعوب. ابتسم عدلي وقال:

– العيال أصحابي علّموني أنزل وأطلع على الصخر من غير ما أتزحلق. كنّا بنغطس ونلمّ الفلوس اللي الناس بترميها.. رزق... كنت بأطلع آخر النهار بجنيه وساعات أكثر.

– ماخفتش لأحسن – بعيد الشر – تغرق؟

ابتسم عدلي وقال:

– أنا اسكندراني. البحر صاحبي. وبعدين ربّنا خلقني ما بأخافش.

– يعني عمرك ما خفت؟

– طبعًا خفت لكن تعلّمت أتغلّب على الخوف. الخوف بيكسر بني آدم وأنا لازم أبقى جامد لأجل أشتغل وأعيش. الناس فاهمة أنّ الخناقة سلاح ومطاوي. الخناقة أساسًا قلب وأنا الحمد لله قلبي ميّت.

ساد الصمت لحظات وعلا هدير الأمواج المتتابعة ثمّ هلّت نسمةٌ منعشة من البحر. رشف عدلي من الزجاجة وقال لها:

– أنا عاوز أعرفك يا سلوى.

– تحت أمرك.

– احكي لي عن نفسك.

تردّدت قليلًا ثمّ قالت بصوتٍ خافت:

– أنا اسمي أصلًا نعمت. سلوى سالم اسم الشغل اختارته لي أبلة نظلة.

– مين أبلة نظلة؟

– ستّ طيّبة كانت رقّاصة زمان ولمّا كبرت في السن بقت عالمة وعندها فرقة. لمّا هربت من أهلي رحت لها أكرمتني وعاملتني كأنّي بنتها. عمري ما أنسى جميلها. هي اللي درّبتني على الرقص وهي اللي جابتني للريّس بونانزا.

– ليه ما شغّلتك في فرقتها؟

– قالت لي مصلحتي أنّي أشتغل في الأنجلو بمرتّب لأنّ فرقتها على باب الله. يوم شغل ويومين ما فيش.

ابتسم عدلي:

– باين عليها بتحبّك فعلًا.

– وأنا بأحبّها جدًّا وماشية على نصيحتها في كلّ حاجة.

– قولي لي مثل على نصايحها.

فكّرت نعمت قليلًا وقالت:

– يعني مثلًا قالت لي الريّس بونانزا قليل الكلام وغريب لكنّه جدع وحقّاني وبيكره الكذب. قالت لي لازم تعطي بونانزا كلّ النقوط وهو يعطيك حقّك ربع المبلغ وإيّاكِ تكذبي لأنّه بيعرف.

ابتسم عدلي وقال:

– كلامها صحّ.

سكتت نعمت ونظرت إلى البحر وتفحّصها عدلي بنظرةٍ ودّيةٍ وقال:

– تحبّي أقولك نعمت ولا سلوى؟

– قل لي اسمي الحقيقي.

– كمّلي حكايتك يا نعمت.

ضحكت وقالت:

– ما بلاش!! حكايتي كلّها نكد..

– أنا متعوّد على النكد.

حكت له عن أمّها وزوج أمّها قدري والرجل الليبي الذي تزوّجها وكيف تحرّش قدري بها فقرّرت الهرب. ابتسم عدلي وقال:

– هي دي حكايتك النكد؟! طيّب.. تحبّي تسمعي النكد الأصلي؟!

ضحكت وقالت:

– أحبّ أسمع أيّ حاجة منك.

حكى لها عدلي عن الملجأ والحاج سيّد الحرامي والعمل في غرزة الحشيش وعلاقته بضبّاط المباحث. قالت نعمت بلهجة دعابة:

– الله يطمنّك.. يعني لو حصلت لي أيّ مشكلة راح توصّي عليّ أصحابك الضبّاط؟

ردّ عدلي بجدّية:

– لما أبقى معك ما تخافيش.

– أنا خايفة قدري يعرف طريقي.

– على الله يظهر وأنا أعلّمه الأدب.

كانا مستمتعين بالحديث ولم يشعرا بالوقت حتى طلع الصبح فأيقظ عدلي السائق الذي كان قد نام في التاكسي وأرسله ليشتري فولًا وفلافل. وعندما أنهيا الإفطار كان تلاميذ المدارس والموظّفون يملؤون الشوارع. توقّعت سلوى أن يدعوها عدلي إلى بيته لينام معها (وكانت ستوافق) لكنّه أوصلها إلى بيتها وعاد إلى بيته.

بعد ذلك صارت نعمت تؤدّي رقصتها وتعود إلى بيتها وبعد أن يغلق ملهى الأنجلو أبوابه يمرّ عليها عدلي بالتاكسي فتركب معه ويجلسان على بير مسعود يتحدّثان حتّى الصباح. ذات ليلة فوجئ عدلي بأنّ نعمت أحضرت معها عمودًا من الألومنيوم وما إن جلسا حتّى فتحت العمود ففاحت رائحة طعام غرفت منه نعمت في أطباقٍ أحضرتها وقالت بصوتٍ خافت:

– أنا طبخت لك لقمة. تلاقيك على لحم بطنك والخمرة بتجوّع.

أكل عدلي بشهيّة وقال:

– تسلم يدك يا نعمت.. أكلك لذيذ.

– أنا بأطبخ حلو للحبايب بس.

ابتسم عدلي وسألها:

– أنتي قلتي الحبايب؟

– آه.

– متأكّدة؟

ابتسمت وقالت:

– طبعًا حبايب.

كانت نعمت سعيدةً لأنّها لم تعد تشعر بأنّها وحيدةٌ وضعيفة ولأنّها تحبّ الحديث مع عدلي كما أنّها أحسّت بالزهو لأنّها أعجبته. أيّ راقصةٍ في الانجلو تتمنّى أن ترافق عدلي الأسود لأنّ ذلك سيرضي غرورها كأنثى ويشعرها بأنّها تفوّقت على زميلاتها والأهمّ من ذلك لأنّ علاقتها بعدلي ستوفّر لها الحماية الكاملة وتحسّن ظروف عملها في الملهى وخارجه. بعض الراقصات كنّ أجمل من نعمت لكنّ عدلي لم ينجذب إليهنّ، وقد سألته نعمت مرّة:

– ممكن تقول لي سبب أنّك اخترتني أنا؟

فكّر عدلي لحظة وقال:

– لأنّك شبهي.

سكتت وكأنّها فوجئت بالردّ فأطلق عدلي ضحكةً عالية وقال:

– مش قصدي أنّك شبهي في الشكل. لا طبعًا. أنت قمر وأنا شكل العفريت. قصدي شبهي في الطبع. عندك شهامة وصراحة. الواحد يقدر يصدّقك ويعتمد عليك.

ابتسمت نعمت بامتنان وقالت:

– ربّنا يخلّيك.

أثناء عملها في الكباريه والأفراح كانت نعمت تضع ماكياجًا ثقيلًا (كما علّمتها أبلة نظلة) لكنّها عندما تنزل للقاء عدلي كانت ترتدي ثيابًا محتشمة وتضع ماكياجًا خفيفًا فتبدو عند عودتها في الصباح كسيّدة سكندريّة عاديّة نزلت لتوصيل ابنها للمدرسة، وبعد ذلك ستشتري الخضار وتعود إلى بيتها لتطبخ. ليلةً بعد ليلة كانت نعمت تنتظر من عدلي أن يدعوها إلى بيته أو يقبّلها أو حتّى يحتضنها وكانت ستستجيب فورًا بحرارةٍ ومحبّة لكنّ عدلي ظلّ على عادته كلّ ليلة: يسكر ويتكلّم وينصت إليها وقد بدا على وجهه الإعجاب. بالطبع كان لا بدّ لعلاقتهما من أن يتسرّب خبرها إلى العاملين في ملهى الأنجلو. راحوا يتهامسون ولا يجرؤ أحدٌ على الحديث علنًا خوفًا من بطش عدلي. أضف إلى ذلك أنّ لقاءهما اليوميّ كان يتمّ بعد إغلاق الملهى ممّا يمنع أيّ سببٍ للاعتراض من الريّس بونانزا الذي تصله معلوماتٌ يوميّة عن كلّ ما يحدث. مرّةً واحدة لم تتمالك راقصة اسمها زكيّة نفسها من فرط الغيرة فاستعملت سلاح الغمز واللمز، إذ مرّت أمام حجرة نعمت والباب مفتوح وانطلقت تغنّي بلهجة ذات معنى:

أسمر يا اسمراني مين قسّاك عليه

لو ترضى بهواني برضه انت اللي ليا

بتزيد عذابي ليه ويهون شبابي ليه

ثمّ أطلقت ضحكةً رنّانة خليعة. كانت نعمت جالسةً أمام المرآة تصلح ماكياجها فالتقطت الإشارة فورًا وانتفضت من مكانها وسرعان ما لعلع صوتها في الطرقة..

– نعم يا زكيّة. لك شوق في حاجة؟! اتأدبّي يا روح أمّك يا امّا أجيب لك اللي يأدّبك!

كان التهديد صريحًا وحاسمًا فهرعت زكيّة إليها واعتذرت وأقسمت بالمرسي أبو العبّاس وبرحمة أبيها أنّها لم تقصد أيّ إساءة

ثمّ احتضنت نعمت وراحت تقبّلها على خدّيها وجبينها.

استمرّت سهرات عدلي ونعمت عند بير مسعود لمدّة أسابيع، وذات ليلةٍ، فجأةً، قال عدلي لنعمت:

– اسمعي يا نعمت.. بصراحة أنت عاجباني.

تنهّدت نعمت وقالت:

– يا سعدي يا هنايا..

انطلق عدلي يتكلم بسرعة وكأنه أعد كلامه مسبقا:

– أنا عاوزك معايا يا نعمت. حنعيش مع بعض. تحبّي تبطّلي شغل، تحبّي تكمّلي في شغلك، براحتك.. أنا ملزم بك.. حتقعدي معايا في البيت معزّزة مكرّمة. كلّ مصاريفك عليَّ.. أكل وشرب وكسوة وكلّ اللي في نفسك.. بس اللي أوّله شرط آخره نور. أنا ما ينفعش أتجوّز يا بنت الناس.. أنا عايش بالصدفة، يوم بيوم، ممكن أموت في أيّ لحظة على أهون سبب. أيّ عيّل جربان ممكن يركّب لي مطوة في صدري ويجري. يبقى حرام عليّ لمّا أجيب عيال وأسيبهم يتامى.

بدت نعمة وكأنّها تزن ما يقوله وتجرّع عدلي رشفة من الويسكي وصاح بدعابة:

– سمّعيني كلمة حاضر.

نظرت إليه وهمست:

– حاضر.

وضع يده على ظهرها فاقتربت منه وودّت في تلك اللحظة لو تحتضنه لكنّه سحب يده وقال بلهجةٍ عمليّة:

– عندك حاجات كثيرة في سكنك لأجل ننقلها في شقّتنا؟

رنّت كلمة شقّتنا بوقعٍ جميل وقالت نعمت بسرعة:

– أنا ساكنة مفروش.. ماعنديش غير هدومي.

في اليوم التالي جمعت نعمت ثيابها في حقيبتين حملهما السائق ووضعهما في مؤخّرة التاكسي. كانت تسكن في شقّةٍ مشتركة مع راقصةٍ أخرى احتضنتها مودّعة وبكت من التأثّر وتمنّت لها الخير لكنّها لم تبارك وتطلق الزغاريد كما كانت ستفعل لو كانت نعمت ستتزوّج. ما إن دخلت نعمت شقّة عدلي حتّى بدأت بمعاينتها بنظرةٍ عمليّة مدقّقة. كانت هناك صالة واسعة في المدخل وإلى اليسار

المطبخ وحمّامٌ صغير ثمّ ممرٌّ طويل يفضي إلى حجرة نومٍ كبيرة وحجرتين أصغر منها وبينهما الحمّام الكبير. قالت نعمت بمرح:

– الشقة ريحها خفيف وتقسيمتها حلوة.

لاحظت أنّ حجرة النوم الكبيرة خاليةٌ من الأثاث فنظرت إليه متسائلة. عندئذ ابتسم عدلي وقال:

– بصراحة أنا عرفت نسوان كتير. قلت لنفسي ما ينفعش تنامي على سرير نمت عليه مع واحدة تانية. اشتريت أوضة نوم جديدة عشان خاطرك. حتوصل بعد يومين.

استغرقت سلوى لحظة لتستوعب ثمّ احتضنته وهمست «ربّنا يخلّيك يا حبيبي». أمسك عدلي بوجهها بين يديه وقبّلها فأسلمت له شفتيها بكلّ مشاعرها ولأوّل مرّةٍ في حياتها مارست الحبّ برغبةٍ حقيقيّة وليس من باب أداء الواجب أو تفاديًا للمشاكل كما كانت تفعل مع زوجها الليبيّ. لقد منحته جسدها بسخاءٍ وإخلاص وكان عدلي خبيرًا في ممارسة الحبّ فحلّق بها في آفاقٍ غامضة لذيذة لم تعرفها قطّ. بعد ذلك عاشت في البيت كما تعيش الزوجات. تغسل ثيابه وتنظّف البيت وتطبخ حتّى يقترب موعد عملها في الكازينو فتستحمّ وتستعدّ ثمّ ترتدي بدلة الرقص وعليها العباء السوداء وبعد أن تنهي فقرتها تعود إلى بيتها. عندما يصل عدلي في الفجر يجدها في أبهى زينة، يتعشّيان معًا ثمّ يأخذ حمّامًا فتنتظره بالروب الكشمير وتضعه عليه وهي تهمس:

– البس بسرعة لأحسن تبرد يا حبيبي.

يحتضنها عدلي ثمّ يدفعها وهو يمطرها بالقبلات إلى حجرة النوم. عاشا أيّامًا جميلةً لن تنساها أبدًا. أحسّت لأول مرّةٍ في حياتها بالسعادة والأمان وقد اكتشفت أنّ هذا الرجل الجبّار الذي يرعب الناس يحمل قلبًا رقيقًا بالغ العذوبة وكثيرًا ما تغلبه عواطفه مع الشراب فتدمع عيناه من التأثّر بأحزان الآخرين. واكتشف عدلي أنّ رفيقته الراقصة التي عملت خدّامةً من قبل وباعت جسدها للرجل الليبيّ، هي في الحقيقة سيّدة بيتٍ ماهرةٌ تعرف كيف تؤدّي مهامّها المنزليّة وتراعي رجلها وتتبع الأصول وكأنّها ربيبة أسرةٍ كبيرة. تعوّد عدلي على الاستيقاظ ساعة العصر ليؤدّي طقوسه على مهل: الإفطار والقهوة وحلاقة اللحية والحمّام الساخن ثمّ ارتداء الملابس والكأس الأولى في دورة الويسكي.

ذات يوم صحا عدلي على صوت صراخ. فتح عينيه وألقى نظرةً على ساعة الحائط. كانت الساعة تقترب من العاشرة صباحًا. قفز من السرير بملابسه الداخليّة وهرع إلى الصالة ليجد رجلًا قد أمسك بنعمت من شعرها وراح يصفعها ويشتمها. أدرك عدلي فورًا أنّه قدري زوج أمّها فانقضّ عليه كالعاصفة، كالإعصار، أمطره بوابلٍ من اللكمات التي أصابت جميعًا أهدافها المحدّدة. بعد قليلٍ كان قدري مستلقيًا على الأرض والدم ينزف بغزارة من فمه وأنفه. راحت نعمت تصرخ وتولول:

– يا خرابي! كفاية يا عدلي! حيموت في إيدك!

لكنّ عدلي كان خبيرًا بما يفعل فأحكم السيطرة على قدري وصاح بصوتٍ تردّد في أنحاء الشقة:

– أقسم باللّه لو شفتك هنا مرّة تانية حاقتلك! فاهم؟ حاقتلك يا نجس يا بن النجسة!

هذه الجملة الطويلة ألقاها عدلي تصاحبها لكماتٌ عنيفة على رأس قدري الملقى على الأرض وفي النهاية جرجره وألقاه خارج الشقّة.

استسلمت نعمت للبكاء. كانت منهكةً تمامًا. استعاد عدلي هدوءه وقبّل نعمت على جبينها وقال:

– خلاص اهدي.. عاوزك تفهمي إنّ ماحدش يقدر يضايقك.

بعد عشرة أيّام جاءت أمّ نعمت للزيارة بعدما عرفت العنوان من قدري. احتفى بها عدلي وتودّد إليها، كان يتحدّث معها قبل أن ينزل إلى الشغل ويستمع إلى حكاياتها بشغفٍ واحترام ويناديها «يا حماتي». قضت بضعة أيّام في ضيافة نعمت وعدلي وبينما هي تستعدّ للانصراف أخذ عدلي نعمت في حجرة النوم ودسّ في يدها عشرة جنيهات وقال:

– أعطيها لأمّك.

تردّدت نعمت وقالت بصوتٍ خافت:

– كتّر خيرك لكن قدري حياخدها منها.

فكّر عدلي قليلًا...

– معلهش. أعطيها المرّة دي وأنا حاتصرّف.

شكرت أمّ نعمت عدلي بحرارة وبدا أنّها أحبّته من قلبها. وفي الزيارات التالية أهدى لها عدلي شالًا وقماشًا مجلوبًا من غزة يصلح

لجلبابٍ حريميّ ثمّ ملأ الحقيبة الخلفيّة للتاكسي بتموينٍ كثير: زيت وسكّر وسمن وجبن وبيض. أعربت نعمت عن مخاوفها من أن يبيع قدري التموين لكنّ عدلي قال بحزم:

– مهما حصل. كفاية تشوفي أمّك مبسوطة ومجبورة الخاطر.

ردّت بحنق:

– أنا مستخسرة الخير ده كلّه في قدري الوسخ.

ابتسم عدلي وقال:

– احمدي ربّنا أنّ عندك أم. أنت في نعمة. طول عمري كان نفسي ألاقي أمّي. حتى لو طلعت مجرمة وسافلة وفيها العبر كلّها. كنت حأفرح بها وأحبّها.

انتشر الخبر في الكازينو: أنّ سلوى سالم تعيش في بيت عدلي. لم يعلّق أحد باستثناء سؤالٍ عابر وجّهه الريّس بونانزا لعدلي:

– أنت مرافق سلوى سالم؟

ردّ عدلي بلهجةٍ منذرة:

– أيوه يا ريس.

سكت الريّس بونانزا ولم يعلّق. تلك الأيّام، بدا على عدلي ذلك المزاج المرح الصاخب الذي ينتاب المتزوّجين حديثًا. راح يداعب العاملين في الكازينو وتُسمع ضحكاته العالية من بعيد بل إنّه صار أكثر لطفًا مع زبائن الحشيش وبعد أن يناولهم الطلب صار يجود عليهم بقطعةٍ إضافيّة ويقول بمرح:

– خذ. دي نفحة من حبيبك عدلي.

من بين الزبائن المنتظمين الفنّان أنس. كان يظهر بعد الثانية صباحًا بقامته الطويلة والبابيون الكبير الملوّن الذي يحرص على ارتدائه ويقول بصوته الأجشّ: «مساء الخير يا معلم عدلي. عاوز قرش من النوع البريمو من فضلك».

منذ البداية أدرك عدلي أنّ أنس حشّاشٌ مخضرم لأنه كان يخضع الحشيش الذي يشتريه لاختباراتٍ دقيقة. يشمّ القطعة ويدعكها بأصابعه ويعضّها بأسنانه. كان عدلي يحبّ الفنان أنس برغم أنّه قليل الكلام وغريب الأطوار. ظلّت العلاقة بينهما ودّيةً ورسميّة حتى تلك الليلة عندما فوجئ عدلي بالفنّان أنس يبتسم ويقول بلهجته المهذّبة: «يا معلّم عدلي. أنا عاوز منك خدمة».

22

مرّةً كلّ أسبوع، بعد أن ينهي كارلو ساباتيني عمله، يذهب لزيارة أمّه مارتا في كامب شيزار. يصل إلى هناك بعد الثالثة صباحًا فيجدها في قمّة النشاط. مارتا كائنٌ ليليّ، تعوّدت على السهر سواءٌ في بار زوجها الراحل أو في جلسات البوكر التي تنظّمها في بيتها.

بقدر ما يتوق كارلو لرؤية أمّه فإنّ زيارته لها تثير داخله مشاعر متضاربة. ما إن يدخل شارع هليوبوليس حتّى تنهمر الذكريات على ذهنه، تمنحه في البداية إحساسًا جميلًا بالشجن وكأنّه يتصفّح ألبوم صورٍ قديمة لكنّه – رغمًا عنه – سرعان ما يستحضر مشاهد طالما تمنّى أن ينساها.

في هذا الشارع، وُلد كارلو ساباتيني وعاش عشرين عامًا. كان بار أبيه على الناصية في أول الشارع وتحوّل الآن إلى محلّ لبيع الأحذية. ها هو بيتهم، مبنًى قديمٌ من أربعة أدوار وشقّتهم في الدور الثالث.. في مدخل البيت كان كارلو ينتظر أتوبيس مدرسة دون بوسكو كلّ صباح وعلى الرصيف المقابل المقهى الذي كان يجلس عليه بجواره مخبز كريستال وها هو محلّ شحاته المكوجي الذي تُوفّي مؤخّرًا وخلفه ابنه أحمد وهناك في ملعب البلديّة المجاور كان كارلو يلعب الكرة مع أصدقائه وفي الناحية الأخرى من الملعب خلف المدرّجات كم تبادل القبلات مع «بانو» جارتهم اليونانيّة الجميلة.. 40 شارع هليوبوليس الدور الثالث شقة 12.. هنا عاش كارلو طفولته وصباه وهنا، أيضًا، رأى وسمع كلّ شيء.. الجراح القديمة لا تبرأ. مهما تناساها تعاوده وتؤلمه. بين جدران هذه الشقّة تكمن المشاهد القديمة السرّية الجاثمة على صدره والتي لا يحكيها لأحد. ها هو أبوه، لوكا ساباتيني، صاحب بار روما، أرملٌ خمسينيّ أنجب من زوجته الراحلة بنتين تعيشان في نابولى مع خالهما. يعيش لوكا وحيدًا ويذهب ذات يومٍ ليشتري شيئًا من محلّ هانو فيرى فتاةً

مصريّة إيطاليّة عشرينيّة فاتنة وفقيرة اسمها مارتا، يُعجب لوكا بها ثمّ يتزوّجها... الصفقة المعتادة: الجمال مقابل الثروة. سوف يؤمّن لوكا مستقبل مارتا مقابل المباهج التي ستغدقها عليه. سيكون زوجها وحاميها وستمنحه هي مكافأة نهاية العمر.. بعد عامين من الزواج أنجبت مارتا طفلًا سمّته كارلو ثمّ شيئًا شيئًا تولّت مارتا المسؤوليّة كاملة.. صارت تدير البار حتّى يغلق أبوابه في الواحدة صباحًا ثمّ تعتني بروّاد سهرة البوكر في بيتها حتّى الصباح. هذا العمل الليليّ اضطرّ مارتا إلى الاستعانة بسيّدةٍ أرمنيّة لرعاية كارلو في غيابها.. بعد سنواتٍ من التعايش مع المرض تدهورت حالة لوكا العجوز حتّى أصبح نادرًا ما يفارق الفراش وكثيرًا ما يستعين بالكرسيّ المتحرّك لأنّ المشي يؤلمه.. صار الصبيّ كارلو يشهد مشادّاتٍ عنيفةً متكرّرة تنتصر فيها أمّه الحانقة على أبيه المنهك.. ما زال كارلو يذكر عندما وقفت أمّه في الصالة وراحت تصيح في وجه أبيه:

– أنت مريض وستموت. مت وحدك. ما زلت امرأةً شابّة من حقّي أن أعيش..

لم يردّ أبوه. أطرق وعاد بالكرسيّ المتحرّك إلى حجرته.. تتوالى على ذهن كارلو صورٌ أخرى طالما حاول أن يمحوها وفشل. الرجال الذين يلعبون البوكر في بيتهم كانوا يمطرون أمّه بالمداعبات. عندما كبر أدرك أنّ ما يقولونه لأمّه لم يكن غزلًا ولا مديحًا لجمالها بل تعليقات وقحة بذيئة تنمّ عن مزيجٍ من الشهوة والاحتقار. عندما كان كارلو في الثامنة من عمره، استيقظ ذات ليلةٍ ليذهب إلى الحمّام فوجد حجرة السفرة مضاءةً وخالية. كانت أوراق الكوتشينة متناثرةً على المائدة واللاعبون انصرفوا. اجتاز كارلو الطرقة فوجد حجرة أمّه مضاءةً ولمح خيالها من خلف الزجاج وهي تحتضن شخصًا وتقبّله في فمه. ظلّ واقفًا لحظة ثمّ طرق الباب ورأى خيال العشيق يبتعد بسرعة ثمّ فتحت أمّه الباب وسألته بصوتٍ خافت عمّا أيقظه.

لم يردّ كارلو وراح يتطلّع إليها. لن ينسى أبدًا وجهها المرتبك المذنب، المربدّ لم يزل بأثر الشهوة. سيستعيده بعد ذلك ألف مرّة وسيبحث عنه في وجوه عشيقاته. اقتربت مارتا من كارلو الصغير وانحنت لتقبّله لكنّه أبعد رأسه. لم يكن يريد قبلتها. ابتسمت بعصبيّةٍ وطلبت منه أن يعود إلى فراشه (بصوتٍ حاولت أن يكون

طبيعيًا) ثمّ أغلقت الباب. تقدّم كارلو بضع خطواتٍ في اتّجاه حجرته وفجأةً، تملّكه إحساسٌ قويّ غريب جعله يذهب إلى حجرة أبيه.

لم يكن أبوه نائمًا. مدّ يده وأضاء الأباجورة وسأله بانزعاج:

– كارلو ما الذي أيقظك؟

– ذهبت إلى الحمّام.

نظر أبوه إليه لحظة ثمّ قال:

– حسنًا.. عد إلى فراشك حتّى تصحو مبكرًا.

لم ينصرف كارلو. ظلّ واقفًا ثمّ قال فجأةً بصوتٍ لا يعرف كيف اكتسب قوّته:

– ماما صاحية ومعها رجل صاحبها وقافلين الباب على نفسهم.

كاد يقول «بيبوسوا بعض»، لكنّه لم يستطع..

بعد كلّ هذه السنوات لا يفهم كيف تصرّف بهذه القسوة؟ هل كان أصغر من أن يدرك خطورة ما يقوله؟ هل أراد أن يبلغ أباه أم كان يريد أن يحتمي به؟! ماذا كان يتوقّع من أبيه؟ أن يأتي معه ليضبط العشيق ويعاقب الأمّ الخائنة؟ لم ينطق أبوه بكلمة.. تجمّدت ملامحه لحظةً ثمّ استدار في الفراش ليتفادى النظر إليه وأغلق الأباجورة فساد الظلام في الحجرة. انسحب كارلو بهدوءٍ وعاد إلى فراشه. بعد ذلك صار يطيل النظر إلى وجه أمّه وهي تبتسم لأبيه وتقبّله وتطمئنّ عليه. سوف يشغله بعد ذلك، إلى الأبد، وجه المرأة الخائنة، كيف تتعامل مع زوجها المخدوع. كيف تبتسم له بشفتين قبّلهما العشيق. كيف تقدّم الطعام لزوجها بيدين كانتا قبل قليل تتشبّثان بجسد العشيق وهو يضاجعها. كيف تردّد لزوجها كلمات الحبّ بنفس الصوت الذي يهمس باسم العشيق في الفراش. لم تكن هذه الواقعة الوحيدة في سجلّ الخيانة. ثمّة حكايات لأمّه مع عشّاقٍ آخرين يذكرهم كارلو كلهم، بالتفصيل، واحدًا واحدًا، أشهرهم كان الممثّل عزّت صادق. كان كارلو آنذاك صبيًا في الثانية عشرة من عمره. لا يعرف من الذي أبلغ زملاءه في الفصل بحكاية عزّت صادق. ألقى أكثر من تلميذ تعليقاتٍ جارحةً تجاهلها كارلو حتّى كان يومٌ حدثت فيه مشادّةٌ بين كارلو وزميله سانتو الجالس بجواره. صاح سانتو أمام التلاميذ جميعًا وهو يشير بيده في حركةٍ جنسيّة:

– كارلو.. سلّم لي على الممثّل عزّت صادق الذي يمتع أمّك في السرير.

لطمه كارلو فورًا على وجهه واشتبك الاثنان في عراكٍ عنيف، وعندما عاد كارلو إلى البيت ارتاعت أمّه لمّا رأت آثار المعركة على وجهه. خرابيش وكدمات زرقاء وخيط دمٍ متجلّط تحت أنفه. سألته أمّه بجزع عمّا حدث فنظر إليها مليًا وقال بصوتٍ حانق:

– أنتِ السبب.

لم يشرح قصده ولم يحكِ ما حدث لكنّه كان واثقًا أنّ أمّه فهمت. بعد ذلك طلب كارلو من أمّه أن يلتحق بدروس الملاكمة في جمعيّة الشبّان المسيحيّين القريبة من البيت. ارتبكت مارتا ثمّ وافقت ودمدمت بكلماتٍ لم يسمعها وكأنّها أحسّت بأنّها طرفٌ في الموضوع. بعد بضعة دروسٍ في الملاكمة انتهز كارلو فرصة تعليقٍ بذيءٍ قاله زميله أدهم وانهال عليه باللكمات حتّى سقط على الأرض وأنفه ينزف بغزارة. بعد ذلك لم يضايقه أحدٌ في المدرسة. عندما بلغ كارلو السادسة عشرة من عمره، انسحب أبوه من الحياة بهدوء. نام وفي الصباح وجدوه ميتًا في فراشه. باعت أمّه البار وأعطت أختيه في نابولي نصيبهما وخرجت من البيعة بمبلغٍ معقول كان كفيلًا بمنحها حياةً كريمة لو أنّها أنفقت باعتدال، لكنّها كعادتها أسرفت في النفقات وبدّدت نصيبها ونصيبه في الإرث. تخرّج كارلو في مدرسة دون بوسكو والتحق بالعمل في أرتينوس. اعتادت مارتا أن تقترض منه. قروض يعرف كارلو أنّها لن تسدّدها أبدًا وبرغم ذلك يدفع لها كلّ ما تطلبه في حدود إمكانيّاته. بعد كلّ هذه السنوات عندما يحتضن كارلو أمّه مارتا، يستعيد إحساسه وهو طفل عندما كان يعود من المدرسة فيجدها تنتظره خلف الباب، عندئذٍ يضع حقيبة الكتب على الأرض ويلقي بنفسه في حضنها. ما زال كارلو يحبّ أمّه مارتا كما أحبّها وهو طفل. يحبّ صوتها وحديثها ومشيتها وضحكتها. يحبّها عندما تبتسم بسعادة ويحبّها وهي غاضبة تلعن وتشتم بالإيطاليّة ويحبّها حتّى عندما ترتكب حماقة فترتبك وتتطلّع إليه بنظرة جزعٍ معتذرةً متهرّبة وكأنّها طفلٌ مذنب. هذه المرأة الجميلة الرائعة كم أحبّها وكم نقم عليها، كم أسعدته وكم تسبّبت في أحزانه. أحيانًا يتمنّى أن يحتفظ بحبّه لأمّه صافيًا نقيًّا لكنّه لا يستطيع أن يغتفر أو ينسى خياناتها لأبيه، وأحيانًا أخرى يتمنّى لو يتوقف عن

حبّها وينساها فلا يراها بعد ذلك أبدًا لكنّه، للأسف، لا يستطيع لا هذا ولا ذاك.. كثيرًا ما يعتزم تأجيل زيارته لأمّه ولكن سرعان ما يغلبه الشوق فيذهب إليها. يطمئنّ عليها ويحتضنها ويتبادل معها بضع كلمات ثمّ ينصرف.

بخلاف خيانة أمّه لأبيه كان كارلو مستعدًّا للتعايش مع حماقاتها، لولا الانحدار الشائن الذي أصابها مؤخّرًا. كيف وصلنا إلى مرحلة السكرتير جابر؟ هذا المخلوق اللزج الوقح كان يعمل صبيّ مشاوير عند البقّال أرجيرس. وظيفته أن يحضر طلبات البقالة إلى مارتا. كيف بدأت العلاقة بين أمّه وجابر؟ ربّما طلبت منه أن يأتي ليساعدها في البيت ثمّ أغوته. ربّما تعمّدت أن تفتح له الباب وقد ارتدت روبًا يكشف جسدها العاري. ربّما طلبت منه أن يدلّك عضلات رقبتها أو ركبتها. يستطيع كارلو أن يتخيّل طرقًا كثيرة للغواية. لم يكن ليغضب لو أنّ أمّه اتّخذت عشيقًا عاديًّا. رجلٌ جدير بها. لا يضايق كارلو أن تعاشر أمّه رجلًا بدون زواج، ليس مؤمنًا بالزواج أساسًا كما أنّه يتفهّم أنّ أمّه، مثل أيّ امرأة، لها احتياجات جنسيّة. مشكلته مع أمّه كانت، وما زالت، خيانتها لأبيه ثمّ صارت الآن السكرتير جابر. جيجولو من أردأ نوع. وغد حقيقيّ.

Un vrai voyou..

كم يبدو هذا الـ«جابر» راضيًا عن نفسه. ظهرت عليه آثار النعمة الحديثة. أغرق شعره بالفازلين ومشّطه على الجانبين ليظهر الفرق في منتصف الرأس. يرتدي ملابس غالية الثمن ذوقها مبتذل: قميص أصفر مشجّر وبنطلون أخضر وحذاء أسود لمّاع، وإمعانًا في الأناقة أطال جابر ظفر إصبعه الخنصر وارتدى عدّة خواتم في يديه. يحسّ كارلو بالغيظ كلّما تذكّر أنه هو الذي ينفق، بطريقةٍ غير مباشرة، على هذا الوضيع. كارلو سكندريّ وهو يفهم تمامًا كيف يفكّر جابر. طبقًا لثقافة شخصٍ مثل جابر فإنّ الجنس إخضاعٌ وإذلال للمرأة. المرأة بالنسبة إليه شتيمة. عندما يهين رجل رجلًا آخر يصفه بأنّه امرأة. جابر يعتبر نفسه سيّد أمّه مارتا. يمنحها اللذّة ويتفنّن في إذلالها وابتزازها. دوافع جابر خليط من الطمع المادّي والحقد الطبقيّ والمفهوم السوقيّ للذكورة. ما إن يرى جابر كارلو حتّى يبتسم باستخفافٍ ويعامله بندّيةٍ وقحة، وكأنّه يقول: لو أنّنا تقابلنا منذ عامٍ واحد لكنت انحنيت أمامك وناديتك كارلو بك. كنت عندئذٍ سأكون

خادمك وأحمل عنك أكياس البقالة وأفتح لك باب السيّارة لكنّ الوضع الآن مختلف . أنا أنام مع أمّك. أمنحها اللذّة في السرير فتخضع لي ولو طلبت منها أن تقبّل قدمي فستقبّلها. لا تنس ذلك يا كارلو.

كلّ هذه الأفكار خطرت لكارلو وهو يضغط على زرّ الدور الثالث في المصعد العتيق ماركة شندلر. لا يحبّ كارلو أن يستعمل مفتاحه ليدخل الشقّة. ينتابه قلقٌ غامض من أن يفتح الباب فجأةً فيرى منظرًا يصدمه. وقف أمام الباب ورنّ الجرس وبعد قليل، كما توقّع، فتح له جابر وما إن رآه حتّى صاح:

– كارلو.. يا أهلًا وسهلًا.. أنت فين يا رجل؟!

تجاهله كارلو ودخل، وفي وسط الطرقة ظهرت مارتا فاندفع كارلو نحوها. احتضنها وقبّل جبينها ويديها فهمست بالإيطاليّة:

– حبيبي كيف حالك؟

برغم سنّها المتقدّمة ما زالت مارتا متماسكة نسبيًا: تقلّل كمّيات الأكل لئلّا يزيد وزنها وتستعمل كريمات (باهظة الثمن) لمكافحة التجاعيد وتصفّف شعرها وتعتني بأظافرها في صالون أنطوان الشهير في محطّة الرمل، أمّا فساتينها فهي تخرجها من الدواليب وتعيد ترميمها فتستعيد رونقها وإن ظلّ طرازها قديمًا فتبدو مارتا فيها وكأنّها خرجت لتوّها من فيلم أبيض وأسود من الأربعينيّات. اصطحبته أمّه إلى حجرة اللعب. المائدة الكبيرة كما هي لم تتغيّر، مغطّاة بالجوخ الأخضر وعلى جوانبها الكؤوس وأطباق المزة. الجالسون جميعًا يعرفهم كارلو منذ الطفولة: جورج جوجاسيون اليونانيّ صاحب محلّ الساعات الشهير في شارع سعد زغلول وزوجته فيوليت. دكتور كيفورك طبيب الأسنان الأرمنيّ وهو أرملٌ جاوز السبعين وما زال يمارس مهنته في عيادته في المنشيّة، ثمّ علي بك بديع وزوجته نيللي وهما من أصحاب الأملاك الذين صادرت الثورة معظم أراضيهم ويعيشان بالكاد على إيجار ما بقي من الأرض بعد أن هاجر ابنهما الوحيد إلى كندا. هؤلاء الأصدقاء القدامى يأتون إلى مارتا ليلعبوا البوكر. يحيون بذلك عادةً قديمة ويستمتعون بالصحبة والشراب والطعام الساخن الشهيّ. أحوالهم الماليّة تدهورت بعد الثورة فأصبحوا يلعبون على مبالغ صغيرة. إنّهم لا

يقامرون الآن من أجل المكسب. سهرات البوكر تنقذهم من الوحدة والسأم وتعيدهم إلى زمنٍ جميل انقضى بلا رجعة..

إذا كان مزاج مارتا رائقًا فإنّها تقضي ساعات في المطبخ لتعدّ أطباقًا إيطاليّة شهيّة وإذا لم تطبخ فإنّها عادةً ما تطلب العشاء من مطعم أرتينوس (على حساب كارلو بالطبع).

احتفى الجالسون جميعًا بكارلو وقال جورج جوجاسيون:

– أصدقائي أقترح إيقاف اللعب حتى نتكلّم قليلًا مع كارلو.

ارتفعت صيحات الموافقة وقالت مارتا:

– على كلّ حال العشاء جاهز. تفضّلوا.

ما زالت مارتا تحرص على الأصول القديمة فهي ترفض تمامًا تناول العشاء أثناء اللعب.

وقد قامت بتعليم السكرتير جابر كيف يعدّ المائدة وكيف يقدّم الأطباق واحدًا بعد الآخر وكيف يصبّ النبيذ.

انتقلوا جميعًا إلى مائدة الطعام، جلست مارتا بجوار كارلو وراحت بين الحين والآخر تحتضنه وتقبّله.

«بص يا كارلو أنت بارمان كبير وشغلتك الخدمة. لو غلطت في حاجة قل لي»، هكذا قال جابر بوقاحةٍ وأطلق ضحكةً عالية لكنّ كارلو تجاهله تمامًا. تبادل الحاضرون حديثًا باهتًا عن موضوعات متفرّقة. الطقس وسباق الخيل وأسعار السيّارات. لاحظ كارلو أنّ حديثهم أصبح مكرّرًا ومملًّا ربّما بسبب تقدّمهم في السنّ أو ربّما لخوفهم من الحديث في الشؤون العامة.. لم يجد كارلو ما يقوله فاكتفى بالابتسام وردّد بضع كلمات مجاملة ثمّ أنهى الطعام بسرعة واستأذن في الانصراف. حاولت أمّه استبقاءه لكنّه تعلّل كذبًا بموعدٍ هامّ في الصباح يستلزم أن ينام بضع ساعات. ودّعه الحاضرون بحرارةٍ واصطحبته أمّه إلى الباب وتبعهما جابر. احتضن أمّه مودّعًا ولمح على وجهها نظرة صار يعرف معناها فهمس:

– محتاجة حاجة؟

وكأنّها كانت تنتظر السؤال. قالت بسرعة:

– كارلو. أنت عارف أنّي أعتمد على جابر في كلّ شيء. للأسف جابر داخل الجيش قريب. أنا حابقى وحدي ومش حاعرف أتصرّف.

قال جابر مؤكّدًا:

– أنا داخل الجيش بعد شهر.

قال كارلو:

– كنت فاكر أنّك خلصت الجيش.

ردّ جابر:

– أخي الكبير كان في الجيش ولمّا خرج بقى الدور عليّ أنا.

تطلّعت مارتا إلى كارلو وقالت:

– كارلو من فضلك ساعده. أنت تعرف ناس مهمّة في البلد.

قال كارلو:

– لا يمكن إعفاء أيّ شخص من الجيش.

قالت مارتا:

– المطلوب مش إعفاء.. المطلوب تشوف واسطة بحيث يكون جابر قريب منّي.

تطلّع كارلو إلى أمّه صامتًا لكنّ جابر اندفع يقول:

– بصّ يا كارلو. ركّز في كلامي لأجل تفهم اللّه يخليك. أنا عاوز واسطة مهمّة. ضابط رتبته كبيرة.. عميد أو لواء. والمطلوب حاجتين: أنّي أعمل التجنيد في المنطقة الشماليّة هنا في اسكندريّة وثانيًا أنهم يعفوني من البيات في المعسكر. أخلّص شغلي وأطلع على مارتا أشوف طلباتها.

يا للوقاحة.. نظر كارلو إليه باستياء وكاد يردّ عليه لكنّه لمح القلق على وجه أمّه فقال بسرعةٍ وهو يفتح باب الخروج:

– أحاول ألاقي واسطة.

ولاحقه صوت أمّه وهو يدخل المصعد: «كارلو، من فضلك ما تنساش موضوع جابر».

23

يوم الجمعة ألبست فيفي رائف الصغير طقمًا أنيقًا للخروج ووضعت له الزيّ الرياضيّ وحذاء الكرة في حقيبةٍ علّقها على كتفه. اصطحبه جليل لأداء الصلاة في جامع إبراهيم ثمّ عادا وانتظرا في القهوة التجاريّة وسرعان ما ظهر الأتوبيس الأزرق المكتوب عليه مصنع كازان للشوكولاته. صعد جليل مع رائف فوجد مجموعة من الأطفال وبعض الآباء الذين حرصوا على اصطحابهم. عندما وصل الأتوبيس إلى المصنع وجد جليل مسيو توني ينتظر في الفناء. نزل الأطفال وحيّاهم توني وسألهم عن أحوالهم واحدًا واحدًا. كان يعرفهم بالاسم وكان واضحًا أنّهم يحبّونه. صافح توني جليل ثمّ نظر إلى رائف وصافحه وقال:

– أهلًا رائف. أنت في مدرسة إيه؟

قال رائف إنّه في مدرسة الليسيه فتحدّث توني معه قليلًا بالفرنسيّة ثمّ سأله:

– بتحبّ الكورة؟

ابتسم رائف وهزّ رأسه وسأله توني:

– تحبّ تقف جون ولا تحاور؟

– أحبّ أقف جون.

طلب منه توني تغيير ثيابه ثمّ منحه مركز حارس مرمى في الفريق الأبيض (الذي يلعب ضدّ الفريق الأحمر). انهمك رائف في اللعب ولم ينته النهار حتّى كان قد تعرّف إلى الأولاد والبنات جميعًا. في طريق العودة عندما ركبا الأتوبيس سأل جليل رائف:

– انبسطت؟!

ابتسم رائف وقال:

– جدًّا.

– تحبّ تروح النادي كلّ جمعة.

– طبعًا.

أوصل جليل رائف إلى باب العمارة وتركه يصعد إلى الشقّة وحده بينما هرع هو إلى القهوة التجاريّة. كان لديه موعدٌ مع بدوي خضير وقد وصل متأخّرًا حوالي ربع ساعة. تفقّد جليل الموائد في الخارج على الرصيف فلم يجد بدوي خضير. دخل المقهى فوجده مزدحمًا عن آخره. اختلطت أصوات الزبائن وخبطات نرد الطاولة ونداءات الجرسونات بينما دخان الشيشة الكثيف يعبّئ الجوّ. أخيرًا عثر جليل على بدوي جالسًا إلى مائدة صغيرة في الممرّ الخلفيّ للمقهى. صافحه بدوي بحرارة ودعاه للجلوس ثمّ قال مداعبًا:

– عندك تأخير.

– أنا آسف.. كنت في المصنع وتأخّرت.

– كنت بتعمل إيه في المصنع يوم الجمعة؟

– خذت ابني رائف يلعب كرة في نادي المصنع.

ضحك بدوي وقال:

– صحيح.. أنا نسيت الحكاية دي.

– حضرتك ما فكرتش تجيب أولادك في نادي المصنع؟

– توني طلب منّي لكنّي قلت له أولادي في كفر الدوار وأنا هنا وحدي في اسكندريّة.

– مسيو توني إنسان راقي وطيّب جدًّا.

ابتسم بدوي وقال:

– توني كازان ذكي وشاطر. يكسب ملايين ويصرف ملاليم على تذاكر سينما وملاعب كرة لأجل يخلّي العمّال الطيّبين يحبّوه ويمدحوا فيه.

– اسمح لي أختلف مع حضرتك. مسيو توني مهتمّ فعلًا بإسعاد العمّال.

حاول بدوي أن يقاطعه لكنّ جليل استطرد بحماسة:

– مسيو توني بيعطي العمّال مرتبات أعلى من أيّ مكان وهو غير مجبر أنّه يعمل نادي للترفيه عن أبناء العاملين. حضرتك فاكر مسيو توني عمل إيه مع الأسطى كرّار لمّا زوجته مرضت؟ أعطاه إجازة مفتوحة بمرتّب كامل وتحمّل كلّ تكاليف العلاج.

ضحك بدوي وقال بتهكّم:

– برغم حبّك الشديد لتوني كازان أنت لازم تعرف الحقيقة. توني كازان مهتمّ براحة العمّال لأسباب اقتصاديّة وليست إنسانيّة. الرأسمالي الذكيّ لازم يهتمّ بإسعاد العمّال لأنّه بيسرقهم.

– مسيو توني عمره ما سرق حد.

– الرأسماليّة في الأساس اعتداء على الإنسانيّة.

– ممكن حضرتك تشرح لي قصدك.

– الصبح لمّا نتقابل في المصنع أعطيك كتيّب صغير عن فائض القيمة. بعد ما تقرأ الكتاب حتفهم أنّ أيّ رأسمالي بيشتري مجهود العمّال بسعر رخيص ويبيع المنتج بسعر السوق ويراكم الأرباح بدون تعب.

– أنا درست نظريّة فائض القيمة في الكليّة.

– عارف أنّك درستها لكن الكتاب حيفهمها لك بشكل أوضح.

– أليس من حق صاحب المصنع أن يكسب لأنّه خاطر بماله؟

– إذا كان رأس المال ضخمًا وتمّ عمل دراسات جدوى جيّدة فلن تكون هناك أيّ مخاطرة لأنّ المكسب مضمون.

– مش كلّ المشروعات بتبدأ برأسمال كبير.

– حتّى لو افترضنا أنّ هناك مخاطرة فهي تحدث مرّة واحدة وبعد ذلك تستمرّ أرباح صاحب المصنع إلى الأبد. الأرباح دي كلّها مسروقة من العمّال.

قال جليل:

– لكنّ الميثاق أكّد على دور الرأسماليّة الوطنيّة في بناء المجتمع الاشتراكي.

– اقرأ كتاب فائض القيمة أولًا ثمّ نتناقش.

لاذ جليل بالصمت وأشعل بدوي سيجارة وقال:

– أنا طلبت أشوفك الليلة لأمرٍ مهمّ.

تطلّع جليل حوله بضيق وقال:

– أستاذ بدوي، المكان هنا دوشة. ممكن ننتقل إلى مكانٍ آخر أهدأ؟

ابتسم بدوي وقال:

– الدوشة مفيدة حتى لا يتنصّت أحد علينا.

– ممكن يكون حدّ بيراقبنا؟

– في العمل التنظيمي دائمًا هناك احتمال أن تكون مراقبًا.

سكت بدوي لحظة ثمّ استطرد:

– أنت قلت لأيّ حدّ إنّك حتقابلني؟

– لا.

– تمام.

راح بدوي يتحدّث عن المؤامرات التي تتعرّض لها الثورة، كان جليل يعرف هذا الحديث عن ظهر قلب لكنّه ظلّ ينصت لبدوي حتّى قال:

– لمّا تكون الثورة بتتعرّض لكلّ هذه المؤامرات يبقى واجبنا الدفاع عنها صحّ؟

– صحّ.

– أنت مثلًا بتعتبر جيرانك مؤيّدين للثورة لكنّهم لا يحوّلون التأييد إلى أفعال.

– بالضبط.

– من أين عرفت أنّهم صادقون في تأييدهم للثورة؟

– إحساسي أنّهم صادقون.

– مع احترامي لإحساسك يا جليل. ناس كثير يتظاهرون بتأييد الثورة خوفًا من العقاب أو طلبًا للمكاسب. الاتّحاد الاشتراكي ثالث تنظيم سياسي تعمله الثورة. عملت أولًا هيئة التحرير ثمّ الاتّحاد القومي وأخيرًا الاتّحاد الاشتراكي. ممكن تقول لي لماذا لم تكتفِ الثورة بتنظيم واحد؟ لماذا ينشئ سيادة الرئيس كلّ فترة تنظيمًا جديدًا؟ الإجابة بسيطة، لأنّ هذه التنظيمات كلّها فشلت في تحقيق أهدافها. تعرف سبب الفشل يا جليل؟

– حضرتك اشرح لي.

– افتكر اقتراحات جيرانك في الأسرة الاشتراكيّة وأنت تفهم. واحد طلب يجيب بوليس الآداب لجاره وواحد طلب يراقب المحلّات وفي الآخر أرسلوا مبايعة موقّعة بأسمائهم بغرض إثبات ولائهم للنظام.. كلّهم انتهازيّون متعطّشون للسلطة وهم يعتبرون الاتّحاد الاشتراكي طريقهم المضمون للترقّي والنفوذ.

قال جليل بصوتٍ خافت:

– أول مرّة أفكر في الموضوع بالطريقة دي.

استطرد بدوي بحماسة:

– لمّا تعمل تنظيم وأنت في السلطة سينضمّ إليك الانتهازيّون فورًا لأنّهم يعرفون أنّ عضويّتهم في التنظيم سترشّحهم لمجلس الأمّة وتوصّلهم لأرفع مناصب الدولة وتمنحهم كلّ الامتيازات. هذه قاعدة ثابتة. أنا مثلًا متأكّد أنّ كثيرين من أعضاء لجنة المنشيّة لا تهمّهم الثورة إطلاقًا. هم انضمّوا للاتّحاد الاشتراكي فقط لأنّه حزب الدولة ولو تمّ إلغاء الاتّحاد الاشتراكي غدًا والرئيس عبد الناصر عمل حزب جديد حيسيبوا الاتّحاد الاشتراكي فورًا وينضمّوا للحزب الجديد.

بدت علامات التفكير على وجه جليل وسأل:

– يعني حضرتك عارف أعضاء لجنة المنشيّة الانتهازيّين؟

– طبعًا أعرفهم بالاسم وعندي بياناتهم كاملة.

– ولم تتّخذ ضدّهم أيّ إجراء؟

– الانتهازيّة سلوك غير أخلاقي لكنّه ليس جريمة. لا يمكن القبض على شخص ومحاكمته مثلًا لأنّه انتهازي. أنا كرئيس لجنة عارف الأعضاء الانتهازيّين وأتعامل معهم بحذر.

– كم نسبة الانتهازيّين في لجنة المنشيّة في رأيك؟

فكّر بدوي قليلًا وقال:

– حوالي ثلث الأعضاء.

بدت المفاجأة على وجه جليل وقال:

– بصراحة أنا مندهش أنّ الكلام ده يصدر من قيادي في الاتّحاد الاشتراكي.

– إذا كنّا ثوريّين بجدّ يبقى لازم نكون قادرين على النقد الذاتي.

– يا أستاذ بدوي الاتّحاد الاشتراكي مذكور في الميثاق باعتباره تحالف قوى الشعب العامل الذي سيقود التغيير. حضرتك بتقول إنّ لجنة المنشيّة ثلث أعضائها انتهازيّين. يعني كلّ ثلاثة أعضاء فيهم واحد انتهازي. يبقى على أيّ أساس حيقود التغيير؟!

– يستحيل أنّ الاتّحاد الاشتراكي يقود التغيير.

– مش فاهم.

– كلامي واضح.. الاتّحاد الاشتراكي مجرّد كيان هلامي فارغ يدخله كلّ من هبّ ودبّ.. أنت منزعج من كلامي؟

– أنا مستغرب.

– هذا ليس كلامي وحدي لكنّه رأي الرئيس عبد الناصر شخصيًا.

– معقول؟

– سيادة الرئيس كان في اجتماع اللجنة المركزيّة وقال بالحرف الواحد: «المشكلة اللي حصلت في هيئة التحرير تكرّرت في الاتّحاد القومي والآن تتكرّر في الاتّحاد الاشتراكي. أول ما ننشئ تنظيم سياسي واحنا في السلطة بينضم لنا كلّ من هبّ ودبّ ومنهم أعضاء كثيرون من الانتهازيّين والرجعيّين أعداء الثورة».

– إذا كان الرئيس لا يعجبه الاتّحاد الاشتراكي فلماذا لا يعلن ذلك؟

– لأنّ الرئيس زعيم مسؤول ولا يريد أن يشيع الإحباط في الشعب.

– طيّب.. لماذا لا يتمّ فصل العناصر الفاسدة من الاتّحاد الاشتراكي؟

– الاتّحاد الاشتراكي يضمّ 6 مليون عضو وتطهير تنظيم بهذا الحجم معناه فصل عشرات الألوف من الأعضاء وبالطبع ستكون فضيحة يتحدّث عنها الإعلام الغربي وستسيء إلى صورة الثورة في العالم.

– كيف يتحمّل سيادة الرئيس أن يتعامل مع الاتّحاد الاشتراكي وهو يعلم أنّه يضمّ أعداء الثورة؟

– كان اللّه في عون سيادة الرئيس لأنّ ما يتحمّله فوق طاقة البشر.

سكت جليل ورشف بدوي من فنجان القهوة وقال:

– فهمت مشكلة الاتّحاد الاشتراكي؟

– مشكلة صعبة.

قال بدوي:

– لذلك طلبت مقابلتك لأجل أعرض عليك فكرة.

– تحت أمرك.

– أشدّد مرّة أخرى على السرّية التامّة.

– مفهوم.

– لقد قرّر سيادة الرئيس عبد الناصر أن ينشئ تنظيمًا سريًّا داخل الاتّحاد الاشتراكي. هذا التنظيم سيكون بمثابة طليعة

الاشتراكيّين، سيكون التنظيم الطليعي الذي يقود الثورة ويحدث التغيير في مصر. الغرض من سرّية التنظيم بالطبع هو استبعاد العناصر الانتهازيّة والرجعيّة. لقد شرّفتني القيادة باختياري لعضويّة التنظيم الطليعي وكلّفتني بتكوين خليّة للتنظيم في الاسكندريّة. أنا رشّحتك للعضويّة يا جليل.

– أشكرك على ثقتك يا أستاذ بدوي.

ضحك بدوي وقال:

– لا يا بطل. لا تتسرّع. قبل أن تقبل عضويّة التنظيم لا بدّ تعرف أنّها مهمّة خطرة. هذا ليس كيانًا قانونيًّا علنيًّا مثل الاتّحاد الاشتراكي. ده تنظيم تحت الأرض. ستكون عضوًا في تنظيم سرّي بكلّ ما يعنيه العمل السرّي من مشكلات وأخطار محتملة.. صحيح أنّ هذا التنظيم يقوده السيّد رئيس الجمهوريّة شخصيًّا لكن هناك أيضًا جهات في الدولة معادية للتنظيم. هناك أشخاص في السلطة يتآمرون ضدّ سيادة الرئيس عبد الناصر ويريدون إفشاله بأيّ طريقة.

– من هؤلاء الخونة؟

– لا أستطيع أن أخبرك الآن. كلّ ما أطلبه منك يا جليل أن تفكّر جيّدًا إلى أيّ مدى أنت على استعداد للتضحية من أجل الثورة.

– على أتمّ استعداد.

تطلّع بدوي إلى جليل بنظرةٍ متفحّصة ثمّ سأله:

– تعرف السيّد سامي شرف؟

– طبعًا.. مدير مكتب الرئيس عبد الناصر.

– تعرف أنّ سامي شرف قام بنفسه بالإبلاغ ضدّ شقيقه لأنّه معارض للنظام، وأخوه الآن في السجن؟

ارتبك جليل قليلًا فضحك بدوي وقال:

– طبعًا لن يطلب أحد منك الإبلاغ عن أخيك لكن فقط أردت أن أعطيك مثلًا على مدى الإخلاص للثورة.

هزّ جليل رأسه واستطرد بدوي بحماسة:

– عضويّة التنظيم الطليعي معناها أن تصبح الثورة أهمّ شيء في حياتك. أهمّ من عملك وأهمّ من مالك بل وأهمّ من أسرتك وأولادك وحياتك. قدّامك أسبوع مهلة. فكّر يا جليل وقرّر. سأنتظرك يوم الجمعة القادم في نفس الموعد هنا في القهوة. إذا اعتذرت سأتفهّم موقفك تمامًا لكن سيكون عليك أن تنسى كلّ ما قلته لك. أمّا إذا

قبلت وانضممت إلينا في التنظيم الطليعي فستصبح رفيق نضالنا وسوف أصحبك إلى أول اجتماع.

24

ذلك الصباح، ما إن دخلت شانتال مكتب العقيد سليم حتّى نهض من مكانه وصافحها بحرارة ثمّ دعاها للجلوس وقال بودّ:

– شكرًا لحضورك.

قالت شانتال:

– أنا جئت لأنّك تعهّدت ألّا تتدخّل في عملي.

ابتسم العقيد وقال:

– لم أكن أريد أن أتدخّل أساسًا.

– أنت تدخّلت بالفعل.

– غير صحيح. أنتِ انصرفت فجأة.

– انصرفت لأنّي غضبت.

– لم يكن الأمر يستحق.

قالت شانتال بحدّة:

– بل يستحق تمامًا. لقد طلبت منّي أن أتجسّس على الكاتب الذي أدعوه. هذه إهانة يستحيل أن أقبلها.

أشعل العقيد سيجارة وجذب نفسًا عميقًا ثمّ قال بهدوء:

– أولًا ليست مهمّتي تجنيد الجواسيس. لقد طلبت منك مناقشة الكاتب قبل دعوته إلى مصر لا أكثر ولا أقلّ. ثانيًا لقد عرضت هذه الفكرة بحسن نيّة وإذا كنت أحسستِ بأيّ إهانة فأنا أعتذر لك. ثالثًا لقد وعدتك بعدم التدخّل في عملك، سوف تستقبلين أيّ كاتبٍ تختارين بدون مشاكل. هل تعتبرين هذه ترضيةً كافية؟

– سنرى.

– يبدو أنّك شخصيّة غير متسامحة.

– أنا أحكم بالأفعال وليس الأقوال.

– هل اخترت الكاتب؟

– نعم.

– ممكن تخبريني باسمه؟

– أمين بلعيد.

– هذا اسم عربي.

– نعم هو كاتب جزائري يقيم في باريس ويكتب بالفرنسيّة.

– جميل. هل تريدين أن أحجز لك قاعة لإقامة الندوة؟

– أفضّل أن تكون حفلة التوقيع في المكتبة.

– إذن أخبريني كيف أستطيع أن أساعدك.

– المطلوب تسهيل إجراءات دخوله إلى مصر.

– بكلّ سرور. هل حدّدت موعد الندوة؟

– بعد شهر من الآن حتّى يتّسع الوقت للدعاية.

– مدام شانتال، هل لديك نسخة من الرواية التي سوف تناقشونها؟

– طبعًا.

– ممكن أقرأها؟

– سوف أرسلها إليك ومهما يكن رأيك في الرواية فإنّ التراجع الآن مستحيل. لقد اتّصلت بالكاتب ودعوته وحجزت التذاكر.

– لقد وعدتك بعدم التدخّل. أظنّ كلمة وعد في اللغة الفرنسيّة لها معنى واحد.

ضحكت شانتال لأول مرّة وقالت وهي تنهض:

– اتّفقنا. سأخبرك بالتفاصيل النهائيّة خلال أيّام.

– كلّميني في أيّ قت.

25

أنس

أكثر ما يعجبني في الكوكاس أنّنا نقبل أصدقاءنا كما هم، بعيوبهم وأخطائهم، نستوعبهم ونحبّهم بغير تصنيفٍ ولا أحكامٍ أخلاقيّة.
أنا أعرف الكثير من أسرار أصدقائي. ربّما لأنّني أجول في الاسكندريّة كلّ يوم وأتحدّث مع الناس وأراقبهم بسبب عملي كفنّان. أنا أعرف مثلًا السبب في تلك المرارة التي يشعر بها كارلو ساباتيني نحو النساء. أمّ كارلو مارتا ساباتيني كانت من أجمل النساء في الاسكندريّة. كانت بطلة أحلامنا ونحن صِبيةٌ مراهقون. كنّا ندّخر قروشنا القليلة لنشرب زجاجة بيرة في بار روما ونتأمّل مارتا الجميلة. كنّا نعرف أنّها امرأةٌ لعوبٌ لها عشّاقٌ غير زوجها لوكا. مغامرات مارتا مع الممثّل الشهير عزّت صادق كانت حديث المدينة لفترة. هذا التاريخ أعرفه عن صديقي كارلو ولا أقترب منه أبدًا. أنا أعرف أيضًا علاقة توني كازان بالساقطات. رأيته بنفسي وهو يقود سيّارته البويك بنفسه ويلتقط الساقطات أمام كازينو الشاطبي. صديقي عبّاس القوصي ليس عنده أسرار غراميّة. زوج مخلص. عندما ذهب عبّاس لخطبة نهى من أبيها إسماعيل باشا الشواربي، كان الباشا في أسوأ أحواله بعدما قضى أربع سنوات من

السجن وصادرت السلطة أرضه وأمواله. كان يعيش في عزلة بعد أن تنكّر له معظم أصدقائه لأنّه ينتمي إلى العهد البائد. تأثّر الباشا من تقدّم عبّاس لخطبة نهى واعتبر ذلك دليل شجاعة ووفاء حيث إنّ المرحوم عبد الحميد القوصي والد عبّاس كان صديقًا للباشا. في هذا السياق فإنّ علاقة عبّاس بزوجته تتعدّى العشرة والحبّ إلى معنًى رمزيّ وعميق. هي بالنسبة إليه رفيقة الدرب وهي تشاركه في اهتماماته. عبّاس مثقّفٌ موسوعيّ ومتذوّق عظيم للموسيقى والفنّ التشكيليّ. أعتقد أنّ ثقافته الرفيعة من أسباب نجاحه الباهر في المحاماة. بقيت صديقتي شانتال لومتر..

لو أنّ شخصًا لا يعرفنا رأى مشاحناتي مع شانتال لتصوّر قطعًا أنّنا خصمان.

الحقيقة عكس ذلك، شانتال من أقرب أصدقائي وهذه المشاحنات تحمل طابعًا احتفاليًا ظريفًا نشترك فيه جميعًا، أنا وشانتال وأعضاء الكوكاس. بقدر ما تسكر شانتال وتثير الشغب إلّا أنّها، في أعماقها، إنسانة طيّبة ومخلصة لأصدقائها. ما إن حكت لها ليدا عن استقالتي من المدرسة حتى اتّصلت بالمشرف على بيت فرنسا ورشّحتني للعمل كمدرّس رسم. بيت فرنسا فيلا على الطراز الإيطاليّ تنظّم فيه القنصليّة الفرنسيّة أنشطةً ثقافيّة. المفروض أن يتحوّل بيت فرنسا إلى المركز الثقافيّ الفرنسيّ لكنّه لم يحصل بعد على الترخيص. بفضل توصية شانتال، أجريت مقابلةً مع مدير البيت مسيو شابويي (Chapuis)، رجل بدين أصلع جاوز الخمسين من عمره يتحدّث بلكنة مارسيليا، كان لطيفًا وعاملني بودٍّ واحترام وفي نهاية المقابلة أبلغني بقبولي في الوظيفة. تمّ تعييني بمرتّبٍ أقلّ قليلًا من مرتّب مدرسة المير دو ديو. تردّدت في البداية في قبول الوظيفة الجديدة. لا أحبّ أن أكون مثار عطفٍ أو محلّ شفقة لكنّي

عدت وفكّرت أنّ المرتّب الذي سأتقاضاه ستدفعه الحكومة الفرنسيّة وهي قطعًا لا تنفق أموال دافع الضرائب من أجل الصدقات كما أنّني سأتلقّى أجرًا مقابل عملٍ ربّما لن يجد الفرنسيّون أفضل منّي لأدائه. في الليل قابلت شانتال وقلت لها:

– لقد وقّعت عقد العمل في بيت فرنسا.

– أهنّئك.

– لا أعرف كيف أشكرك.

– الموضوع بسيط.

كانت شانتال لا تزال في كأسها الأولى والغريب أنّها، في غير حالة السكر، تكون حييّةً وخجولة لدرجة أنّها ترتبك من الشكر والمديح.

قلت لها مداعبًا:

– وأنت صاحية لا يوجد من هو أرقّ منك.

ردّت بصوتٍ ساخر:

– بقيّة هذه الجملة محذوفة.

– حذفتها من باب اللياقة.

– بعد بضع كؤوس سأجعلك تضيف الجملة التي حذفتها.

ضحكنا معًا.. شانتال عشقت الاسكندريّة فتغيّرت حياتها. ليس هذا نادرًا أو غريبًا. أعرف كثيرين فعلوا مثل شانتال: يأتي شخصٌ من أوروبا في رحلةٍ ويقع في غرام اسكندريّة فيبيع أملاكه ويصفّي أعماله في بلده ثمّ يستقرّ هنا حتى آخر حياته. شانتال لا تنقطع عن إثارة دهشتنا. وكأنّها طفلةٌ شقيّة نحبّها ونتناقل نوادرها. آخر مشاغباتها عندما تلقّت خطابًا من إدارة الشؤون المعنويّة. حذّرها عبّاس من التعامل مع الجيش. تظاهرت بالاقتناع وبعد أسبوعين فوجئنا بها توزّع علينا الدعوات للندوة التي ستعقدها في مكتبتها تحت رعاية الشؤون المعنويّة. ضيف الندوة كاتبٌ

جزائريّ اسمه جمال بلعيد. رحنا نتأمّل الدعوات بدهشةٍ وتطلّع عبّاس إلى شانتال وقال باستياء:

– لماذا لا تستمعين إلى النصيحة؟

– من حقّي أن أعمل بنصيحتك أو أتجاهلها..

– هل فكّرت ما الذي يجعل إدارة الشؤون المعنويّة تساعدك على استضافة كاتب؟

– لقد وجّهت هذا السؤال إلى العقيد سليم فقال لي إنّ الثورة تتعرّض لحملة تشويهٍ في الخارج ولذلك فإنّ النشاط الثقافيّ مع الكتّاب الأجانب في غاية الأهمّية.

ابتسم عبّاس وقال بلهجةٍ ساخرة:

– إذن، أنتِ تسهمين في تجميل صورة النظام؟

– صورة النظام لا تعنيني. كلّ ما يهمّني أن أستأنف نشاط المكتبة.

قال عبّاس بغضب:

– تريدين الترويج لمكتبتك بأيّ ثمن.

نظرت إليه شانتال بتحدٍّ:

– نعم.

تدخّل توني قائلًا:

– صديقي عبّاس، كن منصفًا. أنت محامٍ حرّ لا يستطيع النظام أن يمنع عنك الزبائن. إذا لم يعتقلوك فستظلّ قادرًا على العمل والكسب. نحن وضعنا مختلف. أنا وليدا وشانتال أصحاب أعمال. نحن مضطرّون لمجاراة النظام حتى يسمح لنا بالعمل.

ابتسمت شانتال وقالت:

– يا عبّاس افهم مرّة واحدة من فضلك. الشعب المصري سعيد بالديكتاتوريّة. لن أكون ملكيّةً أكثر من الملك. إذا كان المصريّون لا يهتمّون بالديمقراطيّة فلماذا أهتمّ بها أنا؟!

لم يعلّق عبّاس واستطردت شانتال بلهجةٍ عاطفيّة:

– سؤال لكم جميعًا. هل ستحضرون الندوة أم ستتخلّون عن صديقتكم؟

ارتفعت الأصوات تؤكّد أنّهم سيحضرون لكنّ عبّاس لم يتكلّم فابتسمت شانتال واقتربت منه وقالت:

– عبّاس هل ستحضر الندوة؟

ردّ عبّاس باقتضاب:

– طبعًا سأحضر.

أنا ممتنّ لصديقتي شانتال لكنّي ممتنّ أكثر لحبيبتي ليدا..

لست مولعًا بالغيبيّات لكنّي أشعر فعلًا وكأنّني عرفت ليدا في حياةٍ سابقة. كثيرًا ما أكون معها فأحسّ أنّني رأيتها على هذه الهيئة من قبل أو أنّني استمعت من قبل لصوتها وهي تقول الكلامِ ذاته. إنّ قدرتنا أنا وليدا على التفاهم قويّة لدرجة أنّه يخطر لي أحيانًا أنّنا، يومًا ما، سنستغني عن الكلام.

أنا وليدا نتّفق في كلّ الآراء ما عدا موضوعات ثلاثة:

أولًا أنّني أؤمن باللّه لكنّي لا أؤمن بالأديان وقد لاحظت أنّ سخريتي من المقدّسات تضايق ليدا فأقلعت عنها.

سألتني مرّة:

– هل يضايقك أن أكون مسيحيّةً مؤمنة؟

– لا، إطلاقًا.

– هل توافق على أن نتزوّج في الكنيسة؟

– إذا كان ذلك يسعدك فسوف أفعله.

– الكنيسة لن تسمح لك بالزواج بي إلّا إذا اعتنقت المسيحيّة.

– عندي أسباب علميّة قويّة لعدم الإيمان بالأديان كلّها فهل يرضيكِ أن أتظاهر باعتناق المسيحيّة حتّى نتزوّج؟

فكّرت قليلًا وقالت:

– سأبحث عن حلّ آخر.

الخلاف الثاني بيننا موضوعه المال لأنّ ليدا تتّهمني باحتقاره.. وربّما تكون على حقّ. أنا فعلًا أحسّ بمتعةٍ عندما أحتقر المال بينما أرى الناس يتهافتون عليه. هذه المتعة لا تفهمها ليدا وتعتبرها مؤذية.

قالت لي مرّة:

– هل تكره المال؟

– نعم.

– لماذا؟

– المال أصل الشرور في العالم.

– ستظلّ دائمًا محتاجًا إلى المال لأنّ الأفكار العظيمة لن تدفع إيجار الشقّة ولا فواتير الكهرباء والتليفون.

– أنا فنّان والمال يفسد الفنّ.

– تستطيع دائمًا أن تكسب وتحترم الفنّ في نفس الوقت.

– من البذاءة أن يكدّس الإنسان ثروةً في مجتمع يتضوّر فيه الملايين جوعًا.

– كلّ من يصنع ثروةً باجتهاده يستحقّ الاحترام.

هذه المناقشة تكرّرت مرّةً بعد أخرى حتى اعتبرتها نقطة خلاف دائمةً مع ليدا وقرّرت تجاوزها..

خلافنا الثالث حول الحشيش. ليدا تكرهه وتحتقره. هذا النفور له أصلٌ طبقيّ فقد نشأت ليدا وسط البورجوازيّة السكندريّة حيث يُعتبر الحشيش مزاج الرعاع والسوقة. «البكوات والهوانم يشربون النبيذ والويسكي بينما يختبئ الخدم السوقيّون القذرون في القبو المعتم ليدخّنوا الحشيش». هذه الصورة السلبيّة للحشيش مترسّخة في ذهن ليدا. حاولت كثيرًا أن أشركها معي في تدخين الحشيش لكنّها رفضت تمامًا. قلت لها إنّ معظم الفنّانين والأدباء في العصر الحديث كانوا يتعاطون الحشيش من أول شارل بودلير ورامبو وبول فاليري حتّى سيّد درويش ونجيب محفوظ وسلفادور دالي. حكيت لها أنّه في عام

1844 تمّ إنشاء نادٍ للحشّاشين في باريس وكان يرتاده كبار الأدباء مثل ألكسندر دوماس (الأب) وبلزاك وبودلير ودولاكروا وغيرهم. لقد وصف بودلير الحشيش بأنّه «ساحرٌ ومتفرّد». كلّ هذه الحجج لم تؤثّر فيها، وقد سألتني مرّة:

– هل تعتبر نفسك مدمن حشيش؟

قلت لها:

– الحشيش لا يسبّب أيّ إدمان. يمكنكِ أن تدخّني الحشيش كلّ يوم على مدى سنوات ثمّ تتوقّفي فجأةً ولن تشعري بأيّ أعراض انسحاب.

– ممكن تقول لي ما فائدة الحشيش؟

قلت لها:

– الحشيش يمنحني حالةً من الانسجام والسلام النفسيّ. الأهمّ من ذلك أنّ الحشيش يضيف إليّ وعيًا آخر غير الوعي الذي أعيش به حياتي اليوميّة. الحشيش يجعلني أرى بسهولةٍ مدهشة العلاقات بين الظواهر المختلفة. عندما أقابل الناس تحت تأثير الحشيش أستطيع بسهولة أن أقرأ وجوههم وقلّما أخطئ. الحشيش ينفض عن الحياة قشورها ويصل بي إلى الجوهر.

في النهاية توصّلنا إلى تعايشٍ ما. أصبحت ليدا تتجاهل الحشيش وكأنّها لا تراه.

أتحدّث معها وأنا ألفّ السيجارة فلا تنظر إلى يديّ وعندما أشعل السيجارة وتنبعث رائحة الحشيش النفّاذة تتجاهلها ليدا تمامًا وتستأنف حديثها وكأنّها لا تشمّ الرائحة. كان هذا حلًّا وسطًا مريحًا لكلينا.

أقوم بالتدريس في بيت فرنسا يومي الاثنين والجمعة من السادسة إلى الثامنة مساءً. التلاميذ عددهم عشرون، أولاد وبنات تتفاوت أعمارهم بين العاشرة والسادسة عشرة. بعد الدرس أبدأ جولتي المعتادة في المقاهي ثمّ أنهي السهرة مع أعضاء الكوكاس. بالإضافة إلى برنامجي اليوميّ كان عليّ

أن أجد أشخاصًا يصلحون للبورتريه حتّى أقيم المعرض. بالإضافة إلى البورتريه الذي رسمته لليدا عندي بضعة بورتريهات لكن يجب أن أرسم المزيد. رحت أجول في الشوارع وأتصفّح الوجوه. لا أتعامل مع الموديلات المحترفين الذين يستأجرهم طلبة الفنون. الموديل المحترف ينقصه الإحساس الطبيعيّ الذي يصنع البورتريه. رحت أثناء النهار أجول في الشوارع وأتأمّل وجوه الناس. اللغة العربيّة تفرّق بين الوجه والسحنة. الوجه مصطلحٌ تشريحيّ، تعريفه اللغوي «ما يقابلك في الرأس وفيه الجبهة والعينان والأنف والفم». أمّا السحنة فإنّ اللغة تعرّفها على أنّها «الهيئة والحال». السحنة محتوى الوجه.. بنفس المقياس فإنّ البورتريه يرسم الوجه حتّى يظهر السحنة. أحبّ أن أجلس على الرصيف في القهوة التجاريّة وأتأمّل المارّة. التأمّل أعظم تدريبٍ على البورتريه. أستطيع مثلًا أن أميّز بين المرأة المشبعة جنسيًّا الهادئة المرتاحة وبين المرأة الجائعة جنسيًّا بكلّ توتّراتها ومرارتها. أستطيع أن أميّز سحنة الشخص الكريم من الوغد. عندما أرى رجلًا وامرأةً يسيران معًا أستطيع أن أخمّن إذا كانا حبيبين أو زوجين. هذه الاكتشافات حصيلةٌ عظيمة أحتفظ بها في ذهني وأستدعيها وأنا أرسم.

بقيت مهمّة العثور على إنسانٍ يصلح كموضوعٍ للبورتريه. ليس من السهل العثور على وجهٍ يلهمني ولا من السهل إقناعه بأن أرسمه. عندما يكون موضوع البورتريه بائعًا سريحًا مثلًا أو خادمة يتحتّم عليّ أن أدفع مقابل الوقت الذي أستقطعه من أرزاقهم. إذا كان البورتريه لأحد الأثرياء فإنّ أكثر ما يقلقني أن يصيبه الملل وينقطع عن جلسات الرسم قبل أن أنهي عملي. برغم كلّ ذلك فإن الإلهام، تمامًا مثل الرزق، يأتيك فجأةً من حيث لا تحتسب.

أعرف معظم تجّار الحشيش في الاسكندريّة وأفضّل التعامل مع عدلي الأسود لأنّه مهذّب وأمين لا يغشّ في وزن الحشيش أو نوعه. تعوّدت أن أذهب إليه بعد منتصف الليل في كباريه الأنجلو. كان عدلي يحرص على إبداء احترامه لي فيقف وينحني قليلًا وهو يصافحني ثمّ نتبادل بضع كلمات مجاملة ويدعوني إلى فنجان قهوة أو كأس ويسكي وفي النهاية يمدّ يده في درج المكتب ويناولني طلبي فأدفع الثمن وأنصرف. تلك الليلة رحت أشتري من عدلي فحدث ما لم أتوقّعه. كانت الصالة مزدحمةً بالزبائن وكانت هناك موسيقى صاخبة وثمّة راقصة تؤدّي فقرتها على المسرح. صافحت عدلي وجلست أمامه.

ابتسم وقال بودّ:

– شرّفت يا أستاذ أنس. تشرب معي كأس؟

بجوار مكتبه كانت هناك منضدةٌ معدنيّة يضع عليها زجاجات الويسكي والثلج. قدّم لي عدلي كأسًا نظيفة فوضعت قطعة ثلج وصببت لنفسي بعض الويسكي. قال وهو ما زال يبتسم:

– الأسبوع اللي فات قضيته في مشاكل.

– خير يا عمّ عدلي؟

– بضاعة مغشوشة غرّقت اسكندريّة.

– حشيش؟!

– حشيش مخلوط لا يمكن أبيعه. قلت لهم أهون عليّ أقول لزبوني ما عنديش حشيش أحسن من أنّي أبيع له حشيش يعكّر مزاجه أو يجيب له مرض.

كنت أريد أن أشكر عدلي على أمانته «المهنيّة» ولكن فجأةً، سمعنا لغطًا وصياحًا فتطلّع عدلي عبر نافذة مكتبه التي تطلّ على الصالة. وقفت بجواره ورأيت ما حدث. كان هناك زبونٌ ضخم الجثّة واضحٌ أنّه سكران يطارد الراقصة على المسرح. في لمح البصر، قفز عدلي وانطلق كالفهد،

صعد على المسرح وقبض على الرجل من رقبته وانهال بالضربات على رأسه حتّى قهره ثمّ تركه للجرسونات الذين سيطروا عليه وسحبوه إلى خارج الملهى. حدث كلّ ذلك في وقتٍ قصيرٍ لا يتجاوز بضع دقائق. بعد ذلك عاد عدلي وعلى وجهه ابتسامةٌ معتذرة. عدلي الأسود ليس وسيمًا. ملامحه غليظة متنافرة ولديه بروزٌ في أسنانه. تعوّدت أن أرى على وجهه تعبيرًا مهذّبًا مع ابتسامةٍ مستأذنة. بالإضافة إلى تجارة الحشيش كنت أعلم أنّه مسؤولٌ عن الأمن في الأنجلو لكنّني، لأول مرّة، رأيته وهو يتحوّل إلى فتوّة. في لمح البصر اختفى من وجهه التعبير المهذّب وزمّ شفتيه وتقلّصت عضلات وجهه في تعبيرٍ صارم عدوانيّ لا حدود لقسوته وبعد أن تخلّص من الزبون المشاغب عاد إلى الحجرة وقد استرجع تعبيره المهذّب وقال بلهجةٍ عاديّة تمامًا:

– زبون ابن قحبة كان لازم يتربّى. لا مؤاخذة يا أستاذ أنس.

عندما ناولني عدلي الحشيش كنت قد اتّخذت القرار.

سيكون عدلي موضوعًا لبورتريه. كانت المهمّة صعبة: يجب أن أشرح له معنى البورتريه ثمّ أقنعه بالمجيء إلى مرسمي. الغريب أنّ عدلي فهم كلّ شيءٍ بسرعة. مرّةً أخرى أكتشف أنّ السكندريّ البسيط لديه من التراث الحضاريّ ما يجعله يفهم الفنّ أفضل بكثيرٍ من الضابط الجاهل صاحب السلطة.

دعوت عدلي إلى زيارتي في مرسمي يوم الأربعاء الساعة السادسة مساءً. جاء في الموعد تمامًا وكان ظهوره جليلًا ومؤثّرًا. كان يرتدي جاكيت لامعة مثل تلك التي يرتديها المغنّون في الأفراح وبنطلون «رجل الفيل» وقميصًا حريريًّا أسود، أمّا حذاؤه فكان نصف بوت بكعب عالٍ مزدانًا بقطعٍ من المعدن. تأثّرت لأنّه، وفقًا لثقافته وذوقه، ارتدى أفضل ثيابه. جهد المقلّ دائمًا يؤثّر في نفسي. ما إن جلسنا حتّى قلت له:

– نوّرت يا عم عدلي.

ابتسم وقال:

– لا يا أستاذ أنس. حضرتك تقول لي يا عدلي. أنا أخوك الصغير في المقام.

أحضرت زجاجة بلاك ليبل. عدلي يشرب الويسكي صرفًا بلا ثلج ولا صودا. أخبرته بأنّني أحتاج إلى التعرّف إليه وسوف يستغرق هذا التعارف عدّة جلسات قبل أن أبدأ الرسم.

ابتسم عدلي وقال:

– يا أستاذ أنس أنا تحت أمرك. شرف ليَّ أكون مع حضرتك. بعد إذنك عندي سؤال..

– تفضّل.

– حضرتك عاوز ترسمني ليه؟ يعني أفهم أنّك ترسم منظر طبيعي جميل أو ترسم واحدة ست حلوة. إنما ترسمني أنا؟! ده أنا شكلي يصعب على الكافر..

ضحكنا على كلامه ولاحظت أنّه يضحك بطريقة غريبة. يفتح فمه ويهتزّ جسده لكنّه لا يصدر صوتًا. شرحت له أنّ اختياري لموضوع البورتريه لا علاقة له بالجمال. بدأنا التعارف وحكى عدلي عن حياته. كان مساره صعبًا ومؤلمًا. سألته:

– بعد كلّ هذه السنين. ما أهمّ شيء تعلّمته؟

فكّر قليلًا ثمّ قال:

– لازم بني آدم يبقى قوي لأنّه لو ضعيف يندهس في لحظة.

– يعني الافتراء طبيعة في الناس.

– ما فيش حاجة تحرّك الناس إلا المصلحة وما فيش حاجة توقّفهم إلّا القوّة.

– يعني ما فيش أخلاق ولا دين؟

– ما فيش..

– يعني كلّ الناس اللي بتصلّي في الجوامع والكنايس كذّابين؟

ردّ قائلًا:

– ممكن يكونوا بيخافوا من ربّنا ساعة الصلاة لكن أول ما يبقى فيه مصلحة عمرهم ما يفكّروا في الدين. الحاج سيّد الحرامي مدير الملجأ كان يسرق مال اليتامى مع أنّه حجّ لبيت اللّه مرّتين ويصلّي الفرض بفرضه.

رحت أفكّر في الكلام فاستطرد عدلي موضّحًا:

– طبعًا مش كلّ الناس زبالة زيّ الحاج سيّد الحرامي. ممكن تلاقي ناس تتّقي ربّنا بجدّ لكن نادر..

– كلامك ده يا عدلي يخلّي الإنسان يبقى متشائم.

قال بحماسة:

– بالعكس يا أستاذ أنس. هو الإنسان نفسيّته تتعب إمتى؟ لمّا يبقى منتظر الخير من الناس ويتصدم فيهم. لكن لو هو عارف إنّ ما فيش خير فيهم عمره ما يتأثّر.

أشعلت سيجارةً ملفوفة وقلت:

– التعامل مع الناس بقى صعب.

ابتسم عدلي ساخرًا وقال:

– طول عمره صعب. عارف حضرتك مشكلة مصر كلّها في كلمة واحدة: الكذب.

– إيه سبب الكذب؟

– الكذب سببه الظلم. لو فيه عدل. لو كلّ واحد عارف أنّه حياخذ حقه، عمره ما يكذب.

– المفروض أنّ الحكومة تنفّذ القانون.

– حضرتك سيد العارفين. القانون في بلدنا يتنفّذ على ناس وناس والمثل يقول «اللي عنده ظهر ما ينضربش على بطنه».

– المفروض أنّ فيه ثورة في البلد وأنّ هدف الثورة تحقيق العدل والمساواة.

ابتسم عدلي وقال بنبرةٍ ساخرة:
– يا أستاذ أنس.. ده كلام جرائد.. يجوز الشكل تغيّر لكن كلّ شيء هو نفسه. يعني أنا اسمي عدلي وأنا لابس جاكته. لو قلعت الجاكته ولبست جلابيّة أفضل برضه عدلي. أحمد زيّ الحاج أحمد.
رحت أفكّر في كلامه بينما رشف عدلي ما بقي من الكأس وصبّ لنفسه كأسًا جديدة ثمّ استطرد قائلًا:
– عارف حضرتك أكثر حاجة بتعجبني في كباريه الأنجلو؟! ما حدّش بيقول حاجة وبيعمل حاجة ثانية. ماحدّش عامل شيخ الإسلام وفي السرّ يسرق مال اليتامى. ما فيش واحدة عاملة خضرة الشريفة وهي بتسرح مع الزبائن. الكباريه مفتوح قدّامك.. على عينك يا تاجر.. عاوز تسكر تفضّل. عاوز تصاحب الرقاصة أهلًا وسهلًا. عاوز تشتري حشيش قدّامك الحشيش. كلّ شيء واضح وصريح. ما فيش كذب.
وجدت نفسي أمام رجلٍ توفّرت له معرفةٌ عميقة بالحياة والناس. أحسست نحوه بنوعٍ من الإعجاب. هذا رجلٌ تربّى في الشارع حرفيًّا. تمّ إلقاؤه وهو رضيعٌ على باب الملجأ. تركه أبوه وأمّه ونسياه إلى الأبد. لم يقم أحد بحمايته وقد خاض الأهوال حتّى ينتزع حقّه في الحياة، كيف أقارنه بنفسي أنا المدلّل ابن البورجوازيّة السكندريّة المترفة؟! أبي وأمّي وفّرا لي الحياة المريحة والحماية الكاملة حتّى تخرّجت في كليّة الفنون. تجربة عدلي متفرّدة وثريّة.
البورتريه الذي سأرسمه له لن يكون سهلًا. كان وجهه معبّرًا وسريع التحوّل.. ينتقل بسرعةٍ من تعبيرٍ إلى آخر. قد يكون تعبير وجهه محايدًا أو مجاملًا أو قاسيًا أو مشبعًا بالمرارة عندما يسترجع ذكرياته. كان هذا تحدّيًا حقيقيًّا لقدراتي.
استمتعت بالتعرّف إلى عدلي. نشأت بيننا ألفة. إحساسٌ ودّي رجوليّ خشن مثل رفقة محاربين. في الجلسة الثالثة خطر لي أن أرى عدلي وهو يتعامل مع آخرين. قلت له:

– أنا عازمك على العشاء هنا في البيت.

– يسعدني لكن ما فيش داعي للتعب.

– ما فيش أيّ تعب وفرصة أعرّفك بخطيبتي ليدا.

– يحصل لي الشرف.

بان على وجهه التردّد لحظة ثمّ ابتسم وقال:

– عندي طلب من حضرتك.

– تفضّل.

– باختصار أنا عايش مع واحدة اسمها نعمت. رقّاصة في الأنجلو. هي طيّبة وبنت حلال وظروفها زيّ ظروفي. طبعًا شرف لنعمت أنّها تتعرّف على ناس محترمة زيّ حضرتك. ممكن أجيبها معايا؟

26

اقتربت الساعة من منتصف الليل لكنّ جليل القوصي لم يرغب في العودة إلى البيت. أراد أن يخلو إلى نفسه قليلًا ويتأمّل ما حدث. جلس في القهوة التجاريّة وطلب كوبًا من النعناع الساخن راح يحتسيه ببطء. خطر له أنّ اليوم نقطة فارقة في حياته. لم يعد عضوًا عاديًّا في الاتّحاد الاشتراكي مثل ملايين المصريّين، إنّه الآن عضوٌ في التنظيم الطليعيّ. أصبح حا رسًا للثورة. مهمّته إ قناع ا لناس بالفكر الاشتراكي وملاحقة الرجعيّين والمتآمرين في كلّ مكان. اليوم عقد بدوي خضير الاجتماع الأول للتنظيم في شقّةٍ صغيرة بجوار جامع إبراهيم وأخبرهم أنّ مكان الاجتماع سيتغيّر كلّ أسبوع ثمّ أعطاهم عنوان الاجتماع القادم. فيلّا في منطقة العجمي. لم يكن جليل يعرف أحدًا من زملائه في التنظيم. كان يراهم للمرّة الأولى ولم يكن مسموحًا له بالاتّصال بهم خارج الاجتماع. من جديد أكّد بدوي على أهمّية السرّية.

– إذا ثبت أنّ أحدكم أفشى سرّ التنظيم فلن نكتفي بفصله وإنّما سنعاقبه بشدّة.

نطق بدوي الكلمة الأخيرة بلهجة تهديدٍ أثّرت في الحاضرين ثمّ راح يشرح طريقة العمل. كلّ أسبوع سيُوزَّع الخطّ السياسيّ على الأعضاء: مذكّرة من بضع صفحات تحتوي على الموقف الصحيح من التطوّرات الجارية والقضايا المطروحة. مهمّة كلّ عضو أن يدرس الخطّ السياسيّ جيّدًا ويشرحه للجماهير ثمّ يكتب تقريرًا أسبوعيًّا عن اتّجاهات الرأي العامّ ويرصد أيّ نشاطٍ معادٍ للثورة. شرح لهم بدوي طريقة كتابة التقارير ثمّ أشعل سيجارة وتفحّص وجوه الأعضاء ببطءٍ وقال بصوتٍ مرتفع:

– يا زملاء. تذكّروا أنّكم أعضاءٌ في تنظيمٍ ثوريّ أنشأه سيادة الرئيس عبد الناصر بنفسه. كلّ تقريرٍ ستكتبونه سيصل مباشرةً إلى

السيّد وزير الداخليّة شعراوي جمعة الذي سيرفعه بدوره إلى سيادة الرئيس. نصيحتي لكلّ واحد فيكم: درّب نفسك على شرح الأفكار الثوريّة بعباراتٍ مبسّطة. اختلط بالناس في كلّ مكان. في عملك وفي بيتك. اذهب إلى الاجتماعات والندوات والمحاضرات. استمع للجماهير جيّدًا وناقشهم ثمّ اكتب تقريرك. لقد اختارك سيادة الرئيس لتكون حارسًا للثورة فكن على مستوى المسؤوليّة.

أخرج جليل الخطّ السياسيّ من حقيبته وعكف على قراءة الأوراق بتركيز. كان الموضوع هو الطابور الخامس. بعد نبذةٍ تاريخيّةٍ عن نشأة المصطلح في الحرب الأهليّة الإسبانيّة، كان هناك التعريف السياسيّ للطابور الخامس وتطبيقه في مصر. قرّر جليل أن يناقش الخطّ السياسيّ مع زوجته فيفي. نعم فيفي.. ولمَ لا؟؟ أليست مواطنةً مصريّة ومن حقّها أن تحصل على الوعي الصحيح؟ سيشرح لها كلّ أسبوع الخطّ السياسيّ وهو واثق بأنّه سيتعلّم من الحوار معها النقاط التي يجب أن يركّز عليها في مناقشاته مع الناس. عاد إلى البيت فوجد فيفي تنتظره في الصالة وقد بدا عليها القلق. ما إن رأته حتّى تهلّل وجهها وقالت بلهجة عتاب:

– تأخّرت قوي يا جليل.

ابتسم وقال:

– كان عندي شغل.

– ممكن لمّا تنوي تتأخّر تبقى تقول لي؟

– حاضر.

– تحبّ تتعشّى؟

– قبل العشاء، عاوزك في موضوع.

تطلّعت إليه فجلس على الكنبة وقال:

– هاتي قلم وكرّاسة فاضية.

تردّدت فيفي لحظة ثمّ قامت وعادت بالكرّاسة والقلم. تنحنح جليل وقال:

– بصّي يا حبيبتي. إحنا في الاتحاد الاشتراكي علّمونا دروس مفيدة عن البلد وأحبّ أنّك تشاركيني في التعليم.

أثّرت كلمة «تشاركيني» في فيفي فنظرت إليه بودّ. استطرد جليل:

– تعرفي معنى الطابور الخامس؟!

– لا.

– بصّي يا فيفي. لو أنتِ تعاركت مع صاحبة البيت وعندك جارة بتتظاهر أنّها حبيبتك وفي نفس الوقت بتنقل أخبارك لصاحبة البيت. تقولي إيه على جارتك دي؟

– تبقى ستّ منافقة وخبّاصة.

– ليه؟

– لأنّها عاملة صاحبتي وفي نفس الوقت غرضها تؤذيني.

ابتسم جليل وقال:

– اللّه يفتح عليك. هو ده بالضبط معنى الطابور الخامس.

بعد ذلك شرح جليل بطريقةٍ مبسّطةٍ مؤامرة أعداء الثورة الذين يردّدون الشائعات ويشيعون الإحباط ويشكّكون الشعب في قيادته. تلك الليلة أدّى جليل صلاة العشاء وركعتَي السنة ثمّ حمد ربّنا كثيرًا على نعمة زواجه بفيفي. أين كان سيجد زوجةً متفانية في إرضائه مثلها؟! كم زوجةً في الاسكندريّة، بل في مصر كلّها، عندها استعداد – بعد يوم طويل منهك – لأن تستمع إلى شرحٍ للخطّ السياسيّ؟!

في اليوم التالي تصفّح جليل باب أخبار الاسكندريّة في جريدة الأهرام وسجّل بعنايةٍ عناوين ومواعيد الندوات والمحاضرات التي ستقام في ذلك الأسبوع.

حضر جليل ندوة في كليّة الحقوق عنوانها: «الشرعيّة الثوريّة أم الشرعيّة الدستوريّة»، وقد أكّد الأستاذ المحاضر أنّه في أعقاب الثورات يكون من الطبيعي تعطيل الدستور لفترةٍ يتولّى فيها الثوّار إصدار القوانين لحماية الثورة وبعد ذلك عندما تستقرّ الأوضاع تعود البلاد إلى الشرعيّة الدستوريّة. عندما بدأت المناقشة طلب جليل الكلمة وقال للمحاضر:

– أنا أختلف معك تمامًا أولًا لأنّ مصر عندها دستور جديد والغريب أنّك تجاهلته في حديثك تمامًا، وثانيًا لأنّ ما يحدث في مصر الآن ليس إجراءً مؤقّتًا وإنما هو إلغاءٌ كامل ودائم للصيغة الحزبيّة العقيمة التي حكمت مصر لصالح الإقطاع والرأسماليّة. أنت أستاذ قانون ولكن للأسف يبدو أنّك لم تقرأ الميثاق. ولقد قدّم الميثاق صيغة تحالف قوى الشعب العامل كوسيلة لتحقيق مجتمع الكفاية والعدل.

فوجئ المحاضر بكلام جليل وارتبك قليلًا ثمّ قال بحماسة:

– طبعًا أنا متّفق معك تمامًا. تحالف قوى الشعب العامل هو الشكل السياسي الأمثل لتحقيق أهداف ثورتنا المباركة.

بالطبع لم يقتنع جليل بأنّ المحاضر قد غيّر رأيه بهذه السرعة وفكّر في أنّ هذا الأستاذ سينقل أفكاره المغلوطة إلى طلّابه فكتب تقريرًا بعنوان «أفكار رجعيّة في كليّة الحقوق جامعة الاسكندريّة» روى فيه كلّ ما حدث في الندوة وذكر اسم المحاضر محذّرًا من أفكاره الرجعيّة وأكّد أنّ أستاذ الجامعة يجب أن يتمتّع بوعيٍ ثوريّ لأنّه يؤثّر في آلاف الطلّاب. في الأسابيع التالية ظلّ جليل يبحث عن موضوعاتٍ لتقريره الأسبوعيّ. حضر ندوة «الفنّ في المجتمع الاشتراكي» في أتيلييه الاسكندريّة للفنّانين، وندوةً عن «الاقتصاد الاشتراكيّ» في مقرّ الجمعيّة الاقتصاديّة في الشاطبي، وندوةً ثالثة في جمعيّة الشبّان المسلمين عن الصحابي أبي ذرّ الغفاري الذي طالب بالعدل الاجتماعيّ أيّام النبيّ (قبل الاشتراكيّين بقرونٍ طويلة). استفاد جليل من هذه الندوات لكنّه لم يكتب عنها تقارير فقد كان المحاضرون والمعقّبون جميعًا ملتزمين بالخطّ الوطنيّ. خطر له بعد ذلك أن يكتب تقريرًا عن خطبة الجمعة في أحد مساجد اسكندريّة. خطبة الجمعة تشكّل الرأي العامّ.. خطيب الجمعة يتحدّث من فوق المنبر ولا يناقشه أحد بل يتلقّى المصلّون كلّ ما يقوله باعتباره حقائق. قرّر جليل أن يتجنّب الصلاة في المساجد الكبيرة مثل جامع إبراهيم والمرسي أبو العبّاس لأنّها قطعًا تحت رقابة الأمن ممّا يجبر الخطباء على الالتزام بالخطّ الوطنيّ. أدّى جليل صلاة الجمعة في جامعٍ صغيرٍ بجوار سنترال المنشيّة ووجد ما توقّعه فقد أكّد الخطيب أنّ الإسلام دين الله الحقّ وهو متبوعٌ وليس تابعًا وبالتالي لا يجوز أن نخلط الإسلام بالاشتراكيّة لأنّ الإسلام من صنع الله والاشتراكيّة من صنع كارل ماركس. كانت الخطبة معاديةً للثورة بوضوح وقد كتب جليل تقريره الأسبوعيّ محذّرًا من هذا الخطيب الرجعيّ ثمّ صلّى الجمعة التالية في نفس الجامع فوجد نفس الخطيب يلقي خطبةً أخرى سخر فيها من حقوق المرأة التي يطالب بها البعض، وقد غضب جليل بشدّةٍ من كلام الخطيب فكتب تقريرًا ثانيًا بعنوان «الخطيب الرجعيّ يسخر من حقوق المرأة». في الأسبوع الثالث عندما ذهب جليل إلى الجامع لم يجد الخطيب الرجعيّ ووجد بدلًا منه خطيبًا شابًّا ألقى خطبةً جيّدةً عن اشتراكيّة الإسلام. لم يكتفِ

جليل بمراقبة الندوات وخطب الجمعة لكنّه صار ينتبه إلى كلّ ما يقال حوله حتى لو بدا كلامًا عاديًا لأنّه قد يحمل دلالةً سياسيّةً وقد يصلح موضوعًا لتقرير. عاد من العمل مرّةً فوجد صديقةً لزوجته فيفي اسمها أنجيل، سيّدة قبطيّة لطيفة ومهذّبة وقد رحّب بها جليل وجلس معها فداعبته قائلة:

– أحذرك يا جليل لأنّني أحرّض فيفي ضدّك.

ضحك جليل وقال:

– ما سبب التحريض كفى الله الشرّ؟

– أنا أحرّضها لكي تنجب مرّةً أخرى لئلّا يظلّ رائف وحده. أنا وبطرس زوجي عندنا ثلاثة عيال وسوف ننجب طفلًا آخر.

قال جليل وقد طرأت على ذهنه فكرة:

– أنجيل. أنتِ ما سمعتيش عن تنظيم الأسرة؟ سيادة الرئيس عبد الناصر طلب من المصريّين الاكتفاء بطفلٍ واحد أو اثنين لأنّ الزيادة السكّانيّة تلتهم عائد التنمية.

ضحكت أنجيل وقالت:

– كلام الرئيس لا ينطبق على حالتي.

– ممكن أعرف السبب؟

– أنا قبطيّة والأقباط أقليّة.

– المفروض الكنيسة تدعوكم إلى تحديد النسل لأنّ دي سياسة الدولة.

أجابت أنجيل:

– الكنيسة لا تدعونا إلى تحديد النسل ولا إلى زيادة النسل. الكنيسة سابت لنا الاختيار.

في نفس الليلة كتب جليل تقريرًا بعنوان «موقف كنيسة الاسكندريّة من تحديد النسل» حكى فيه حواره مع أنجيل (بدون ذكر اسمها) وأكّد أنّ الكنيسة تتجاهل سياسة الدولة في تنظيم الأسرة.

مرّةً كان موضوع الخطّ السياسيّ «أهمّية النقد الذاتيّ» فدرسه جليل كالمعتاد وبدأ يشرحه لفيفي فقال:

– مهما أحببنا الثورة ومهما نكن وطنيّين فنحن في النهاية بشرٌ ولا بدّ من أن نخطئ. مبدأ النقد الذاتيّ يجعلنا نعترف بأخطائنا

ونتعلّم منها. سأمارس النقد الذاتي أمامك يا فيفي.

تطلّعت إليه فيفي بابتسامةٍ محرجة فاستطرد قائلًا:

– أنا مثلًا أخطأت عندما كنت أقرأ نشرات الاتّحاد الاشتراكي في مكتبي في المصنع.

– هو ده غلط؟

– طبعًا غلط.. لا يجوز أن أخلط بين واجبي في الاتّحاد الاشتراكي وعملي في المصنع. أنا أتقاضى مرتّبي من المصنع حتى أعمل عدد ساعات معيّنة وغلط أنّي أنشغل بالاتّحاد الاشتراكي أثناء ساعات العمل.

– ربّنا يبارك لك يا حبيبي.

– دلوقتي عاوزك يا فيفي تمارسي النقد الذاتي على نفسك.

بدا الارتباك على وجه فيفي فاستطرد جليل:

– افتكري أيّ تصرّف تعتبريه خطأ.

أجابت فيفي بسرعة:

– ساعات أبقى تعبانة وأنام من غير ما أصلّي العشاء.

ابتسم جليل وقال:

– الفروض الدينيّة موضوع بينك وبين ربّنا سبحانه وتعالى. أنا عاوزك تنقدي نفسك على تصرّف عملتيه مع الناس.

فكّرت فيفي قليلًا ثمّ قالت:

– بصراحة كثير أبقى مشغولة ويكون صعب أنّي أشتري حاجاتي بنفسي من الجمعيّة الاستهلاكيّة. ساعتها أضطرّ أدفع لمدير الجمعيّة إكراميّة وأكلّمه في التليفون يقوم يبعت لي كلّ طلباتي. ممكن ده يبقى غلط لكن ستّات كثيرة في العمارة بيتصرّفوا بنفس الطريقة.

فكّر جليل قليلًا ثمّ قال بلهجةٍ جادّة:

– أشكرك يا فيفي على ممارستك للنقد الذاتي. الثورة توفّر لنا كلّ موادّ التموين بأسعار مدعمة رخيصة في المجمّعات الاستهلاكيّة صحّ؟

– صحّ.

– لمّا نلاقي مدير جمعيّة مرتشي يوزّع الأغذية لمصلحته ويتجاهل مبدأ عدالة التوزيع، هل التصرّف ده صح؟

– لا.. غلط.

– توعديني أنك تبطّلي تدفعي رشوة؟!

قالت:

– أوعدك..

ذلك الأسبوع كتب جليل تقريره بعنوان: «انحرافات الجمعيّة الاستهلاكيّة في محطّة الرمل بالاسكندريّة» سجّل فيه بالتفصيل كلّ ما حكته فيفي وقد تأكّد بعد ذلك بنفسه من أنّ مدير الجمعيّة المرتشي تمّ نقله. توالت التقارير الأسبوعيّة ثمّ جاء أسبوعٌ لم يجد جليل فيه مادّةً تصلح لتقريره. جلس في المقهى ما يقرب من ساعة يراقب ما يحدث حوله ثمّ اجتاز الشارع وراح يمشي على الكورنيش. كان هناك عشرات العشّاق على البحر وكانت رؤيتهم تنقل إليه إحساسًا مبهجًا. ظلّ يمشي حتّى وصل إلى السلسلة فأحسّ بالتعب وأراد أن يجلس ليستريح ولمّا كانت المقاعد الرخاميّة كلّها مشغولة قرّر أن يجلس على مقعد في محطّة الأتوبيس. كان هناك بضعة أشخاص جالسين وما إن جاء الأتوبيس حتّى ركبوا جميعًا وظلّ جليل وحده جالسًا في المحطّة. توقّف أتوبيس آخر نزل منه شابٌّ وفتاة وبعد قليل عندما توقّف أتوبيس ثالث لاحظ جليل جملةً صغيرة مكتوبة بطلاء أبيض أسفل مؤخّرة الأوتوبيس. نهض جليل من مكانه ليقرأ الجملة لكنّ الأتوبيس انطلق فجأةً قبل أن يقرأها. ظلّ جليل واقفًا أمام المحطّة حتّى جاء الأتوبيس التالي فاقترب منه بسرعة. عندئذٍ وجد نفس الجملة مكتوبةً في نفس المكان واستطاع هذه المرّة أن يقرأها. كانت الجملة «إنّه لا يفلح الظالمون». راح جليل يفحص الأتوبيسات واحدًا وراء الآخر فوجد الجملة ذاتها مكتوبةً عليها جميعًا. انتابته الدهشة وقرّر أن يتابع هذه الظاهرة. من يكتب على الأتوبيسات ولماذا تتكرّر هذه العبارة بالذات؟ لماذا لم يكتبوا آياتٍ قرآنيّةً مختلفة؟ لا يمكن أن يكون الغرض هو التبرّك بالقرآن لأنّ هذه العبارة ليست آيةً كاملة. إنّها منتزعةٌ من سياق الآية رقم 24 من سورة يوسف. من هم الظالمون المقصودون؟ لم يعد بوسع جليل تجاهل ما يحدث فعاد إلى بيته بسرعة وأخذ بطّاريّة كشّاف كانت فيفي تستعملها عند انقطاع التيّار ثمّ نزل بسرعة وأخذ تاكسي إلى جراج هيئة النقل العامّ في الشاطبي. كانت عشرات الأتوبيسات مركونةً داخل الجراج الفسيح وفكّر جليل أنّ هذه الأتوبيسات ربّما تكون عطلانة أو ربّما تنتظر ورديّاتها. اجتاز جليل باب الجراج فلم

يجد حارسًا ولم يستوقفه أحد. أشعل الكشّاف وبدأ يفحص الأتوبيسات. من ضمن عشرة أتوبيسات كانت عبارة «إنّه لا يفلح الظالمون» مكتوبةً على سبعة. اجتاز جليل ساحة الجراج ليفحص الأتوبيسات على الصفّ المقابل. وجّه الكشّاف على أول أتوبيس ليفحصه وفجأةً استمع إلى صوتٍ أجشّ تردّد صداه في أنحاء المكان:

– اثبت عندك. أوعى تتحرّك.

27

ظهر جمال بلعيد في مكتبة بلزاك قبل بدء الندوة بقليل. رجلٌ ستّينيّ طويلٌ ونحيف شعره ناعمٌ مسترسل وأبيض تمامًا. جسده قويّ برغم نحافته، ملامحه صخريّةٌ ووجهه عابسٌ قلّما يبتسم. استقبلته شانتال بحفاوة. احتضنته وقبّلته على خدّه وسألته إن كان كلّ شيءٍ على ما يُرام في أوتيل الكونتيننتال حيث حجزت له حجرة لمدّة ثلاثة أيّام. تعامل معها بودّ وشكرها ثمّ اتّخذ مكانه على المنصّة. امتلأت مكتبة بلزاك عن آخرها بجمهور الندوة وبدت شانتال سعيدةً لأنّ هذا الازدحام لم يحدث في المكتبة من سنوات.

كان الحاضرون خليطًا من المصريّين والأجانب والجزائريّين المقيمين في مصر، بالإضافة إلى بعض الصحفيّين والمصوّرين الذين كانت فلاشات كاميراتهم تومض بين الحين الآخر. جلس أعضاء الكوكاس في الصفّ الأول. عبّاس ونهى وتوني وأنس وليدا وبجوارهم كارلو الذي عهد بعمله في المطعم لأحد الزملاء حتّى يتمكّن من الحضور. ظهر العقيد سليم ببدلةٍ زرقاء أنيقة وأصرّ على الجلوس في آخر القاعة. على المنصّة كانت هناك مائدةٌ مستديرة وثلاثة مقاعد، جلس الكاتب جمال بلعيد إلى اليمين والى اليسار جلست شانتال وبينهما جلست الآنسة فاطمة السكرتيرة التي ستتولّى الترجمة من الفرنسيّة إلى العربيّة وبالعكس.

بدأت شانتال الندوة فرحّبت بالحضور وقدّمت جمال بلعيد كواحدٍ من أهمّ الكتّاب الجزائريّين المعاصرين، ثمّ انتقلت للحديث عن روايته الأخيرة «موعد في القصبة» وقالت بحماسة:

«بالطبع كلّ من زار مدينة الجزائر يعرف حيّ القصبة العريق حيث تدور أحداث الرواية التي لن أحكيها لئلّا أفسد عليكم متعة القراءة. لا بدّ أن أشكر جمال بلعيد على هذه الرواية العظيمة التي تنقل إلينا تجربة إنسانيّة كبرى بالإضافة لكونها وثيقة تؤرّخ لحرب

الاستقلال التي خاضها الجزائريّون حتى أنهوا الاحتلال الفرنسي الذي استمرّ منذ 1830 حتى 1962».

بعد هذه المقدّمة أعطت شانتال الكلمة للكاتب الذي شكر مكتبة بلزاك وصاحبتها على دعوته وشكر الحاضرين ثمّ تحدّث عن الثورة الجزائريّة وحكى عن بطولات الثوّار الجزائريّين وحيّا الشهداء الذين قدّموا حياتهم من أجل استقلال بلادهم ثمّ قال:

«لقد اعتُقلت أثناء الثورة ولسببٍ ما اعتقد الجنود الفرنسيّون أنّني قائدٌ مهمّ في جبهة التحرير ولذلك ضاعفوا من جرعة التعذيب. مرّت بي لحظات كنت متأكّدًا أنّني سأموت من شدّة التعذيب ورحت أتخيّل النهاية. قلت لنفسي ها أنا سأموت فهل يكون الموت نهايةً أم بداية؟ لقد وُلدت مسلمًا لكنّني لا أمارس فروض الإسلام. هل سيعاقبني الله ويحرق جلدي لأنّني لا أصلّي؟ هذه الرواية بالنسبة إليّ تجسيدٌ لمعجزة، هي شهادةٌ على قدرتي على الحياة. لم أمت في سجون الاحتلال كما توقّعت. لقد عشت وكتبت وها أنا أحضر إلى مصر العظيمة لألتقي بكم».

دوّى التصفيق في القاعة ثمّ تحدّث الكاتب لمدّة ما يقرب من نصف ساعة عن نشأته في ولاية «تيزي أوزو» في منطقة القبائل والثقافة الأمازيجيّة التي ينتمي إليها ووصف المعاناة اليوميّة للمواطن الجزائريّ تحت الاحتلال الفرنسيّ. تكلّم عن الأماكن التي لم يكن مسموحًا للجزائريّين بدخولها في بلادهم بل شرح للحاضرين أنّ اسم فاطمة واسم محمّد كان يُستعملان بواسطة بعض الفرنسيّين العنصريّين كمرادفين للخادمة والسفرجي فيقول الفرنسيّ العنصريّ مثلًا: «عندي فاطمة لكن أبحث عن محمّد نشيط وأمين»، عندئذٍ يفهم الذين يستمعون إليه أنّ عنده خادمة ويبحث عن سفرجي نشيط وأمين. شرح الكاتب أنّ تسمية وظائف الخدم بأسماء عربيّة تشكّل نزعًا للطابع الإنساني عن الجزائريّين Déshumanisation، وكأنّ الشخص العنصريّ لا يرى في الجزائريّين إلّا خدمًا وهو يطلق عليهم جميعًا محمّد وفاطمة لأنّه لا يعتبرهم بشرًا في الأساس.

بعد ذلك بدأت الأسئلة فوقف شابّ وقال بالعربيّة:

– تحيّة من مصر الثورة للمناضل الأديب جمال بلعيد. أنت تصف لنا الجرائم البشعة التي ارتكبها الجيش الفرنسيّ ضدّ إخواننا

الجزائريّين وفي نفس الوقت أنت تكتب وتتكلّم بالفرنسيّة. ألا تجد في ذلك تناقضًا؟ أن تقاوم الاستعمار وتكتب وتتحدّث بلغته؟

ساد الصمت في القاعة واعتدل جمال بلعيد قليلًا في جلسته وبدا كأنّه يستجمع أفكاره ثمّ قال بهدوء:

– هذه مشكلة يجب أن ننتبه إليها لأنّها ستظلّ موجودة إلى الأبد. المشكلة أنّ الاستعمار والثقافة يأتيان من نفس المكان. أنا جزائريّ ولي الشرف أنّني اشتركت في النضال لأجل استقلال بلدي وقاتلت ضدّ الاحتلال الفرنسيّ الذي سأفضح جرائمه دائمًا.. لكنّني في نفس الوقت تلميذٌ للثقافة الفرنسيّة وتعلّمت منها الكثير ولا أرى غضاضةً في ذلك لأنّني أفرّق بوضوحٍ بين الاستعمار والثقافة. علينا أن نرفض الاستعمار ونقبل الثقافة.

– ولماذا لا تتعلّم من الثقافة العربيّة؟ أليست أفضل من الثقافة الفرنسيّة؟

هكذا قال الشابّ بحماسة، فردّ الكاتب بسرعة:

– من ناحية المبدأ، أنا لا أوافق على المفاضلة بين الثقافات. لا يمكن أن نفاضل بين الثقافة العربيّة والفرنسيّة أو الإنجليزيّة. أنا أؤمن بأنّ المثقّف الحقيقيّ يجب أن يكون منفتحًا على الثقافات جميعًا. أنا مثلًا أنتمي إلى ثقافاتٍ متعدّدة، الأمازيجيّة والعربيّة والفرنسيّة. وأعتبر هذا التعدّد ثراءً ثقافيًّا عظيمًا. بالمناسبة أنا حاليًّا أتلقّى دروسًا في اللغة العربيّة حتى أطالع الأدب العربي في لغته الأصليّة.

سادت همهماتٌ في القاعة وبدا أنّ ردّ بلعيد لقي الاستحسان من معظم الحاضرين. ثمّ قام شخصٌ بدين وقصير وأشار إلى شانتال وقال بالعربيّة:

– سؤالي موجّه إلى المدام.

هزّت شانتال رأسها وابتسمت فقال الرجل:

– ما شعورك كمواطنةٍ فرنسيّة عندما تسمعين عن الجرائم التي ارتكبها الجيش الفرنسيّ في حقّ الجزائريّين الأبرياء. هل أنتِ فخورةٌ بالجيش الفرنسيّ؟

ساد الصمت ثمّ أشعلت شانتال سيجارة وقالت:

– أشكرك على سؤالك ليس لأنّه لطيف وإنّما لأنّه ضروريّ.

ضحك بعض الحاضرين وقالت شانتال:

– لو أنّك تابعت ما يحدث في فرنسا لوجدت أنّ قطاعًا كبيرًا من المثقّفين والفنّانين الفرنسيّين كانوا يناصرون الثورة الجزائريّة ويطالبون باستقلال الجزائر ويكفي أن تعرف أنّ الكاتب الكبير جان بول سارتر تعرّض لمحاولة اغتيال بسبب مطالبته باستقلال الجزائر. هناك عنصريّون في فرنسا كما يوجد عنصريّون في أيّ بلد لكنّنا نحن المثقّفين الفرنسيّين أول من أدان الجرائم التي ارتكبها الجيش في الجزائر ولا تنس أيضًا أنّه لولا شجاعة بعض الصحفيّين الفرنسيّين الذين كتبوا عن هذه الجرائم لما كنّا سمعنا بها.

سكتت شانتال لحظةً ثمّ استطردت:

– أمّا عن فخري بالجيش الفرنسيّ فلست فخورةً بأيّ جيش احتلال. الحالة الوحيدة التي أفخر بها بالجيش الفرنسيّ عندما يدافع عن الوطن لكن عندما يحتلّ جيش بلادي بلدًا آخر فلا يمكن أن أكون فخورةً به.

دوّت عاصفةٌ من التصفيق وكان هناك شابٌّ ظلّ يرفع يده بإلحاح حتّى أعطته شانتال الكلمة:

– أستاذ جمال بلعيد. أنت مناضلٌ معروف بشجاعتك.. أرجو أن تجيب عن هذا السؤال بصراحة.

– تفضّل.

– هل اشترطوا عليك عدم توجيه النقد للدولة المصريّة حتّى يسمحوا لك بالمجيء؟

سرت همهمات استنكار لكنّ جمال ردّ بهدوء:

– لم يشترط عليّ أحدٌ أيّ شيء.

– إذن ما رأيك في الرئيس عبد الناصر؟

– عبد الناصر لا يحتاج إلى شهادتي لأنّه زعيم الأمّة العربيّة وهو من أكبر المساندين للثورة الجزائريّة. مصر كلّها وقفت إلى جوار الجزائر ضدّ الاحتلال الفرنسيّ، وكان ذلك من أسباب اشتراك فرنسا في العدوان الثلاثيّ ضدّ مصر عام 1956، وبالتالي فإنّ مصر أيضًا قدّمت شهداء من أجل استقلال الجزائر. مصر هي قلب العروبة.

دوّى التصفيق وسادت المكان حالةٌ من الحماسة، بعد ذلك أجاب الكاتب بلعيد عن بضعة أسئلةٍ أخرى عن أحداث الرواية وطريقة كتابتها ثمّ أعلنت شانتال نهاية الندوة واصطفّ عشرات الحاضرين في طابورٍ طويلٍ امتدّ إلى الشارع وكلّ واحدٍ منهم يمسك

بنسخة من الرواية ليوقّعها من الكاتب، وأحضرت شانتال كأسًا من النبيذ الأحمر وضعتها بجوار الكاتب بناءً على طلبه. بعض القرّاء طلبوا التصوير مع الكاتب فاستجاب لهم بلطف. استغرق التوقيع حوالي ساعة وبعد ذلك انطلق أعضاء الكوكاس ومعهم الكاتب ليتناولوا العشاء في مطعم أرتينوس وقد ألحّت شانتال على العقيد سليم لكي يحضر معهم العشاء لكنّه اعتذر وقال إنّ لديه ارتباطًا مسبقًا.

في اليوم التالي حوالي الساعة الواحدة بعد الظهر، كان العقيد سليم جالسًا يطالع بعض الأوراق عندما انفتح الباب وظهرت شانتال، تقدّمت نحوه وفي يدها باقةٌ كبيرة من الورد عليها بطاقةٌ كتبت عليها كلمة واحدة: Merci.

28

هل نعتبر مارتا ساباتيني مجرّد امرأةٍ ساقطة؟

يجب هنا أن نذكر عدّة حقائق.

أولًا: كانت مارتا في بداية العشرينيّات عندما رآها لوكا ساباتيني والد كارلو وكان يكبرها بثلاثين عامًا. لم تسعَ مارتا لإغواء لوكا بل هو الذي طاردها بإلحاح حتّى وافقت على الزواج به. كان الأرمل الخمسينيّ يريد أن يمنح نفسه مكافأة نهاية الحياة بزوجةٍ شابّةٍ جميلة يتباهى بها ويستعيد معها لذّات الشباب وكانت مارتا – برغم جمالها الساطع – فتاةً فقيرة، لم تكمل تعليمها، تعيش في ضنك مع أمّها الخيّاطة في الأزاريطة وتحلم بحياةٍ رغدةٍ ومستقبلٍ آمن. بعيدًا عن رومانسيّة الحبّ ومجد الشعارات فإنّ زواج لوكا ومارتا لم يكن عارًا ولا جريمة. كان ارتباطًا حدث برضى الطرفين، اتّفاق منفعة متبادلة من طرازٍ مألوفٍ يحدث حولنا كلّ يوم وكثيرًا ما نتقبّله أو على الأقلّ نتفهّم ظروفه.

ثانيًا: لوكا ساباتيني هو أول من استغلّ جمال زوجته مارتا في التسويق ولو أنّه وافق على أن تحتفظ بعملها كبائعة في محلّ هانو (كما أرادت) لظلّت بعيدةً عن الغواية، ولو أنّ لوكا طلب من مارتا أن تتفرّغ لبيتها لما مانعت أبدًا بل كانت ستسعد بوضعها كزوجة مصونة وتستغلّ وقت فراغها لتلتحق بالجامعة كما كانت تحلم. لوكا إذن، وليس أحدًا آخر، هو الذي طلب من مارتا تقديم المشروبات والمزات لزبائن بار روما الذي يملكه ولا شك في أنّه – بخبرته في الحياة – كان يدرك أنّ امرأةً بجمال مارتا عندما تقدّم الخمر بنفسها فإنّ زبائن كثيرين، قطعًا، سيسعون إلى اصطيادها. أضف إلى ذلك أنّ لوكا أيضًا وليس أحدًا آخر هو من قرّر تنظيم سهرات البوكر في البيت وقد اعتبرها فكرةً جيّدة بسبب المال الذي يدفعه المقامرون ثمنًا للأكل والشرب بالإضافة إلى «الأرضيّة» التي يدفعونها مقابل

استعمال المكان للقمار. كلّ ذلك شكّل بالفعل دخلًا جيّدًا للوكا بالإضافة إلى الإيراد الأصليّ للبار. لقد كان بإمكان لوكا بسهولةٍ أن يستعين بسفرجي لخدمة المقامرين كلّ ليلة لكنّه ألحّ على مارتا حتّى تخدمهم بنفسها وهذا الإلحاح لا يمكن تفسيره إلّا برغبته في تسويق جمالها لإنجاح مشروع القمار، تمامًا كما فعل في البار. هكذا أصبح لزامًا على مارتا أن تقدّم الخمر للزبائن في البار ثمّ تعود إلى البيت لتخدم المقامرين حتّى الساعات الأولى من الصباح وقد كان لوكا يعتبر خدمتها للسكارى والمقامرين واجبًا زوجيًّا مقدّسًا يلومها بشدّةٍ إذا أهملته أو تخلّفت عنه.

ثالثًا: يجب أن نضع في الاعتبار أنّ رجلًا مسنًّا في خريف العمر كان يسعى لإشباع جسدٍ فتيّ متأجّج لزوجةٍ في العشرينيّات. في أحوالٍ مماثلة، يقلع بعض الرجال عن الجنس تمامًا ويستعيضون عنه بالحنان الأبويّ (وقد تتقبّل الزوجة الشابّة هذا التعامل وتتعايش معه) لكنّ لوكا لم يتوقّف قطّ عن محاولاته الجنسيّة وفي كلّ مرّة كان يشهر سلاحه بصعوبةٍ بالغة ثمّ تفور لذّته مبكرًا ويترك زوجته تتعذّب بحرمانها. وقد فشلت كلّ محاولات مارتا للتهرّب من العلاقة الجسديّة لأنّ العجوز كان يلحّ عليها، يدفعه أملٌ أرعن في استعادة مجده السابق في الفراش. وكان هناك أيضًا في أعماق لوكا، على نحوٍ ما، منطق التاجر الذي دفع ثمن جسد مارتا فأصبح من حقّه أن يستعمله متى وكيف يشاء. هكذا راح لوكا، مرّةً تلو الأخرى، يجرّب منشّطاتٍ جنسيّةً متنوّعة: حبوب ودهانات ومساحيق فشلت جميعًا حتّى صارت في النهاية موضوعًا لتهكّمٍ مريرٍ قاسٍ من مارتا.

رابعًا: لم تقرّر مارتا أن تخون زوجها فهذه مسألةٌ لا تأتي بقرار بل إنّ فكرة ارتباطها برجلٍ آخر وهي متزوّجةٌ لم تخطر على بالها، على الأقلّ في البداية.. ما حدث هو أنّ صالة القمار التي افتتحها لوكا في المنزل نجحت وذاع صيتها في الاسكندريّة حتّى اجتذبت الممثّل الشهير عزّت صادق الذي كان يقسّم أيّام الأسبوع بين إقامته في الاسكندريّة وعمله الفنّي في القاهرة. كان عزّت صادق مدمنًا للقمار وكان ظهوره وهو يقامر في الأماكن العامّة يسيء إلى سمعته فكان يبحث دائمًا عن صالات خاصّة في المنازل ولا يمكن أن نصف فرحة لوكا بحضور النجم الكبير إلى منزله. وكان عزّت صادق، برغم زواجه بامرأةٍ فاتنةٍ وثريّة، معروفًا بأنّه زير نساءٍ من النوع الوغد، فهو لا يدع

امرأةً جميلة تفلت من إغوائه، حتّى لو كانت فتاةً صغيرة في عمر بناته، حتى لو كانت عشيقة رجلٍ آخر أو حتّى زوجة أقرب أصدقائه كما حدث في عدّة حكاياتٍ شائنةٍ معروفةٍ في الوسط السينمائيّ. كلّ ذلك دفع ناقدًا كبيرًا إلى وصف عزّت صادق بأنّه «موهبةٌ كبيرةٌ في صفيحة زبالة». من أجل أن يحظى بالمرأة في فراشه كان عزّت صادق يستعمل أسلحته كلّها: وسامته وجاذبيّته ورقّته الرومانسيّة (المصطنعة). ولأنّه ممثّلٌ قدير كان باستطاعته أداء مشاهد تمثيليّة مؤثّرة يغازل خلالها المرأة ويتضرّع إليها ثمّ إذا لزم الأمر قد يركع أمامها ويقبّل يديها ويبلّلهما بدموعه (إذ إنّه، كأيّ ممثّلٍ محترف، يستطيع أن يبكي متى أراد). لم يكن عزّت صادق يغوي المرأة فقط لأنّها تعجبه ولكن لأنّه أساسًا لا يطيق أن ترفضه امرأة. وكان يقابل عشيقاته في شقّةٍ اتّخذها جرسونييرة أمام سينما ريو في شارع فؤاد. علينا هنا أن نتخيّل زوجةً شابّة محبطة جنسيًّا مثل مارتا عندما يغازلها نجمٌ سينمائيّ شهير خبير بالنساء مثل عزّت صادق بينما يتغافل زوجها لأنّه يعتبر هذا النجم أفضل زبائنه ويحرص على إرضائه بأيّ طريقةٍ حتّى يستمرّ في التردّد على بيته ويحضر معه زبائن جددًا من زملائه الفنّانين. في مثل هذه الظروف هل كان بوسع مارتا ألّا تسقط؟

خامسًا: كعادته مع النساء، نال عزّت صادق غرضه من مارتا ولوّثها ثمّ هجرها وازدراها. كان يدرك بخبرته أنّ مارتا، برغم صياحها وشغبها، إنسانةٌ طيّبة وقليلة الحيلة لا قبل لها بأيّ انتقام. في لحظةٍ ما، أدركت مارتا ما فعله بها عزّت صادق، وسواءٌ لامته أو لامت نفسها فقد كان ردّ فعلها مفاجئًا وغريبًا، لقد اندفعت مارتا إلى أحضان رجالٍ عديدين واحدًا بعد الآخر. يصعب هنا الاعتقاد بأنّ مارتا أحبّت عشّاقها فعلًا والأرجح أنّ ما دفعها لهذه العلاقات السريعة المتلاحقة لم يكن احتياجها للجنس بقدر ما كان نوعًا من جلد الذات، كانت تريد أن تهوي إلى الحضيض بأقصى سرعة، تريد أن تثبت لنفسها أنّها سقطت فعلًا وصارت امرأةً رخيصةً مستباحة يستطيع أيّ رجلٍ عابرٍ أن يضاجعها وبالتالي تقضي على تردّدها المؤلم بين العهر والفضيلة وتقتل إحساسها بالذنب إلى الأبد.

سادسًا: فلنحتقر مارتا ساباتيني ونلعن خياناتها الزوجيّة كما نشاء ولكن يجب أن نتذكّر أنّ زوجها لوكا عندما أقعده المرض بعث

برسالةٍ إلى ابنتيه من زوجته الأولى المقيمتين في نابولي أخبرهما فيها أنّه يريد أن يموت وهما بجواره وعندئذٍ سرعان ما تلقّى إجابتهما القاسية: «أنت لم تخترنا في حياتك فلماذا تختارنا في موتك؟! ابقَ حيث أنت ومت في أحضان حبيبتك السكندريّة».

بالرغم من المشاجرات المعتادة لم تتنصّل مارتا قطّ من واجبها نحو زوجها وقد خدمته بإخلاص في مرضه بل إنّها غضبت منه أساسًا لأنّه طلب من ابنتيه استقباله في نابولي وعلا صوتها وهي تحرّك ذراعيها بالطريقة الإيطاليّة:

– أنت عجوز مخرّف. ماذا ينقصك هنا حتّى تتذلّل لهاتين العاهرتين لتأخذاك عندهما؟

أخيرًا: عندما مات لوكا حزنت عليه مارتا بشدّة. احتضنت جثمانه المسجّى وقبّلت جبينه ويديه وأجهشت بالبكاء. لم تنسَ، برغم كلّ شيء، أنّ هذا الرجل أحبّها وتزوّجها وانتشلها من الفقر ووفّر لها حياةً مريحة أفضل بكثيرٍ من حياتها السابقة لكنّها، ربّما، كانت تبكي أيضًا سنوات عمرها الذي انقضى وأحلامها المؤجّلة بالسعادة التي أدركت عندئذ أنها لن تتحقق أبدًا. الآن تشعر مارتا بأنّها تمضي وحدها نحو الشيخوخة. كارلو ابنها الوحيد تركها واستقلّ بشقّةٍ بالقرب من عمله في مطعم أرتينوس. صحيحٌ أنّها تحبّ كارلو لكنّها تشعر دائمًا أنّه يدينها وينظر إليها باعتبارها الأمّ الشائنة، صانعة الفضائح وجلّابة العار. استمرّت في عقد سهرات القمار لكنّ شقّتها لم تعد مفتوحةً للمقامرين كما كانت أيّام لوكا وإنّما صارت تستقبل أصدقاءها القدامى فقط. إنّها لا تحتاج إلى القمار بقدر ما تحتاج إلى السهر مع أصدقائها حتّى لا تقتلها الوحدة.

أخيرًا: فإنّ مارتا يستهويها العشق الخام (L'amour brut).

ويجب هنا، فعلًا، أن نتوقّف عن فهم الجنس بطريقةٍ ذكوريّة. إنّا نتفهّم ونتقبّل بعض الرغبات عند الرجال لكنّا نرفضها أو نتجاهلها عند النساء. نحن نعرف العشق الخام عند الرجل. نتفهّم تمامًا أن ينجذب رجلٌ أرستقراطيّ إلى الخادمات والسيّدات الشعبيّات. هذا المزاج الجنسيّ الخام حقّق نموذجًا فنّيًا عظيمًا في لوحات الفنّان محمود سعيد الذي وُلد ونشأ في قصر أبيه رئيس وزراء مصر ثمّ درس القانون في السوربون وعمل بالقضاء ولكن برغم كلّ ذلك (أو بسببه) تعلّق خياله بالمرأة السكندريّة الشعبيّة وكانت

موضوع لوحاته الشهيرة التي تعدّ من كلاسيكيّات الفنّ التشكيليّ.
إنّ الانجذاب الجنسيّ لشخصٍ خامٍ بدائيّ ظاهرةٌ منتشرة حتّى عند بعض المثليّين الذين يبحثون عن عشيقٍ بسيطٍ خشنٍ وفظّ ممّا يحيل الجنس معه إلى متعةٍ غرائبيّة قاسية ولذيذة. مارتا ساباتيني، ببساطة، تحمل هذا الحنين. إنّها تستطيع بسهولةٍ أن تتّخذ عشيقًا من طبقتها. الأماكن البورجوازيّة السكندريّة تضمّ جيجولو كثيرين لكنّ مارتا لا تعبأ بهم. إنّها تفضّل على الجيجولو المتأنّق عاملًا بسيطًا أو سائسًا في جراج. تغويه ثمّ ترعاه وتستمتع بإعادة تشكيله على هواها فتعلّمه كيف يأكل ويشرب وتعوّده على الحمّام الساخن يوميًّا وتصحبه بنفسها إلى صالون الحلاقة لتختار معه تسريحة شعره وتسلّمه إلى اختصاصيّة الباديكير لتعتني بأظافره لكنّها، في نفس الوقت، تمنحه النقود ليشتري لنفسه ملابس جديدة وفقًا لذوقه الشعبيّ الفجّ ليظلّ محتفظًا بمظهره الخام المثير الفاتن. إنّها تحسّ عندئذٍ بنوعٍ من الأمومة لهذا الرجل الجديد الذي تصنعه بيديها ولسوف تنال مكافأتها في الفراش. لن يكون عشيقًا فاترًا محدود الطاقة ولن يكون ناعمًا متأنقًا مستأذنًا بل سيكون بدائيًّا فظًّا خشنًا يخطفها ويقهرها باللذّة مرّةً تلو الأخرى حتّى تحلّق عاليًا في سماوات النشوة.

29

استدار جليل فوجد رجلًا ضخمًا يرتدي زيّ هيئة النقل يتفحّصه بنظرةٍ مستريبة. ابتسم جليل وبادره قائلًا:

– السلام عليكم، أنا كنت راكب الأتوبيس ونسيت شنطتي.

أخرج جليل بطاقته الشخصيّة وأعطاها للرجل الذي تفحّصها وبدا أنّه اطمأنّ قليلًا ثمّ سأله عن رقم الأتوبيس الذي فقد فيه الشنطة. أجاب جليل:

– أنا ركبت أتوبيس رقم 20 من المنتزه ونزلت في المنشيّة وكنت شايل حاجات كتيرة فنسيت شنطتي على الكرسي.

– الشنطة شكلها إيه؟

– شنطة جلد سوداء صغيرة بسوستة.

فكّر المفتّش قليلًا وقال:

– بص يا أستاذ، الأتوبيس اللي انت ركبته يرجع الجراج الساعة اثنين الصبح.. أنا راح أسأل الكمساري إن كان لقي شنطتك.

أعطاه جليل بطاقةً عليها اسمه ورقم تليفونه ليبدو الأمر عاديًّا وطلب إليه أن يتّصل به إذا وجد الشنطة ثمّ شكره بحرارةٍ وانصرف. كان قد حصل على معلوماتٍ كافية، وما إن وصل إلى البيت حتّى جلس إلى مكتبه وكتب تقريرًا بعنوان:

«ظاهرة كتابة عبارة «إنّه لا يفلح الظالمون» على أتوبيسات النقل العام في الاسكندريّة»

لم ينم إلّا ثلاث ساعات ثمّ أخذ حمّامًا وتوجّه إلى المصنع وسلّم التقرير إلى بدوي.

مرّت ثلاثة أسابيع على تقديم التقرير ثمّ طلب بدوي لقاء جليل في القهوة التجاريّة وما إن رآه حتّى رحّب به ودعاه للجلوس وابتسم وقال:

– أنا فضّلت نتقابل على انفراد.

– يسعدني أقابلك في أيّ وقت.

– أولًا أحيّيك على نشاطك وجدّيتك وإخلاصك للثورة.

– شهادة أعتزّ بها يا أستاذ بدوي.

– هل تعلم أنّ تقريرك عن الجملة المكتوبة على الأتوبيسات قد كشف للمخابرات عن تنظيمٍ سرّي للإخوان المسلمين في هيئة النقل العامّ؟ التحقيق مع أفراد التنظيم ما زال جاريًا.

– الحمد لله.

هكذا تمتم جليل، وقال بدوي:

– الحقيقة أنّ تقاريرك كلّها مهمّة وقد عرضها السيّد شعراوي جمعة على السيّد الرئيس الذي طلب منّا إبلاغك تحيّاته وتقديره.

– تقدير السيد الرئيس وسام على صدري وأنا مجرّد جندي في المعركة أتشرّف بأنّ قائدي الزعيم جمال عبد الناصر.

– الآن.. أمامك واجب وطني جديد.

– تحت أمرك.

– أنت تعلم أنّ قوّاتنا الباسلة تخوض معركةً عظيمة ضدّ العناصر الرجعيّة في اليمن... السعوديّة وبريطانيا تنفقان الملايين لإجهاض ثورة الشعب اليمنيّ ونحن نساند الثورة.

قال جليل بحماسة:

– أنا أؤيّد قرار السيّد الرئيس بدعم الثورة في اليمن كما أنّني فخور بأبطال الجيش المصري. خير أجناد الأرض كما وصفهم رسول الله صلّى الله عليه وسلم.

فكّر بدوي قليلًا ثمّ قال:

– للأسف يا جليل هناك قطاع من المصريّين يشكّكون في جدوى حربنا في اليمن ويطلقون الشائعات ضدّ الرئيس والجيش وهدفهم نشر الإحباط بين المصريّين.

بان الضيق على وجه جليل بينما فتح بدوي حقيبته وأخرج بعض الأوراق ناولها لجليل وقال بلهجةٍ غاضبة:

– ده تقرير قدّمته المخابرات العامّة لسيادة الرئيس وقد سمح لنا سيادته بالاطّلاع عليه. التقرير يثبت أنّ حملات التشكيك في حرب اليمن لا يقوم بها أفراد عاديّون وإنّما هم غالبًا عملاء مموّلون

يختلطون بجماهير الشعب ويطلقون الشائعات لتشكيك الشعب في قيادته وجيشه.

قرأ جليل التقرير بسرعة ثمّ قال بحنق:

– هل هؤلاء مصريّون؟

– للأسف هم مصريّون لكنّهم من ضعاف النفوس الذين يتلقّون أموالًا من أجل هدم بلادهم. هؤلاء العملاء أقرب إلينا ممّا نظنّ. العميل قد يكون فردًا في أسرتك أو جارك أو زميلك في العمل.

– شيء حقير فعلًا.

– هنا يأتي دورك كرجل وطني وعضو في التنظيم الطليعي.

قال جليل بحماسة:

– إنّني أتحدّث دائمًا عن بطولات جيشنا في اليمن.

رشف بدوي من فنجان القهوة وأشعل سيجارةً جديدة وقال:

– مديح بطولات الجيش شيء عظيم لكنّ الإعلام الوطني يقوم بهذا الدور. أنت مهمّتك مختلفة.

– حضرتك اشرح لي.

– مهمتك أن تكتشف هؤلاء الخونة. أريدك أن تذهب إلى الأماكن التي يلتقي فيها الناس. المقاهي والنوادي وحتّى وسائل المواصلات. تحدّث مع الناس. لا تدافع عن الثورة بل افعل العكس. وجّه نقدًا شديدًا للثورة. شكّك في جدوى حرب اليمن. عندئذٍ سينضمّ إليك الخائن ويهاجم الجيش.

ارتبك جليل قليلًا:

– حضرتك تطلب منّي أن أهاجم سيادة الرئيس عبد الناصر؟

ضحك بدوي وقال:

– أنا عارف مدى حبّك للزعيم لكن للضرورة أحكام يا جليل. هجومك على الثورة سيكون الطعم الذي يبتلعه أيّ خائن فيفصح عن نفسه وعندئذٍ اكتب بياناته في تقريرك واترك الباقي علينا.

– ماذا سيحدث للشخص الذي أبلغ عنه؟

– سيُقبض عليه ويُقدَّم للمحاكمة وإذا ثبت أنّه مجرّد مواطن يعبّر عن رأيه فسوف نفرج عنه طبعًا أمّا إذا ثبت تلقّيه أموالًا أو تدريبًا من الخارج فسوف يعاقب طبقًا للقانون. عندك أسئلة أخرى؟

– لا يا فندم. شكرًا.

– عظيم.. في انتظار تقريرك هذا الأسبوع.

30

اختار العقيد سليم مطعمًا أنيقًا يطلّ على شاطئ البحر مباشرة. كان صوت الأمواج الرتيب يتردّد في الخلفيّة بينما يؤدّي عازف البيانو مقطوعاتٍ هادئةً أشاعت جوًّا حالمًا. كانت شانتال ترتدي ثوبًا لونه أخضر كشف عن صدرها وذراعيها بينما ارتدى العقيد سليم سترةً أنيقة من القطيفة الزرقاء وفانلة بيضاء برقبةٍ طويلة. رفع العقيد كأسه وقال:

– في صحّة صداقتنا.

قرعت شانتال كأسها في كأسه ورشفت منه وقالت:

– هل تحبّ النبيذ؟

– أشربه فقط مع الطعام. أنا أحبّ الويسكي.

– سيّدي العقيد، يجب أن أشكرك على هذه الدعوة.

ابتسم سليم وقال:

– نحن الآن صديقان.. اسمي سليم فقط.

– عزيزي سليم، المكان رائع والخدمة ممتازة لكن كلّ ذلك لن يمنعني من طرح الأسئلة الضروريّة.

ضحك سليم وقال:

– إذا كانت ضروريّة اطرحيها.

تطلّعت إليه شانتال وابتسمت وقالت:

– هل أنت مستعدّ للإجابة؟!

– طبعًا.

– لماذا تركت سيّارتك في ساحة المنشيّة بدلًا من أن تتركها أمام مكتبتي؟ لماذا أخذتني إلى مطعم خارج الاسكندريّة؟ لماذا كان عليّ أن أقود كلّ هذه المسافة حتّى نأكل في هذا المطعم بينما هناك مطاعم كثيرة ممتازة في وسط البلد؟ لماذا جعلتني أقود في طرقٍ فرعيّة بدلًا من الطريق الرئيسيّ حتّى نصل إلى هنا؟ لماذا رحت تنظر

في المرآة لترى السيّارات خلفنا ولماذا ظللنا جالسين في السيّارة 10 دقائق قبل أن ندخل المطعم؟ أشعر كأنّني ممثّلة في فيلم بوليسي.

استمع سليم إلى أسئلة شانتال بهدوءٍ وكأنّها خبزٌ قديم ثمّ ابتسم وقال:

– كلّ هذه الأسئلة لها إجابة واحدة.

– ما هي؟

– خمّني.

– حاولت وفشلت..

– الإجابة أنّني مراقب.

– من يراقبك؟

– المخابرات الحربيّة.

– ماذا فعلت حتّى يراقبوك؟

– لم أفعل شيئًا. إنّهم يقومون بعملهم. يجب أن يراقبوا الضبّاط ليتأكّدوا من ولائهم وحسن سلوكهم.

– تبدو كأنّك مقتنع بالرقابة.

– طبعًا مقتنع.. الرقابة ضروريّة في أيّ جيش.. ماذا لو كان الضابط مدمنًا للمخدّرات أو مقامرًا أو جاسوسًا؟ مهمّة المخابرات الحربيّة استبعاد الضبّاط المنحرفين.

– لقد تصوّرت أنّ الضبّاط في مصر فوق المحاسبة.

– لا يوجد أحد فوق المحاسبة إلّا سيادة الرئيس.

– معنى ذلك أنّ الضبّاط متساوون أمام القانون.

– لا.. الضبّاط أنفسهم درجات.

– طبقًا لرتبهم العسكريّة؟

– طبقًا لأهمّيتهم عند القيادة.

– هل أنت ضابط مهمّ؟

ضحك سليم وقال:

– لا.. أنا ضابط عاديّ. ربّما أكون كفئًا أو محبوبًا لكنّني لست مهمًّا.

– من هم الضبّاط المهمّون؟

– الأكثر أهمّيةً هم الضبّاط الذين قاموا بالثورة عام 1952 وتربطهم صداقةٌ بالرئيس عبد الناصر، يليهم في الأهمّية الضبّاط الذين اشتركوا في الثورة وليسوا أصدقاء للرئيس. أمّا الضبّاط الذين

لم يشتركوا في الثورة وليسوا أصدقاء للرئيس فهم، مثلي، مجرّد ضبّاط عاديّين.

– ولذلك كان عليك أن تتخفّى عندما تخرج معي؟

– من باب الاحتياط.

– هل تعتبر المخابرات دعوتي إلى العشاء جريمة؟

– ليست جريمة لكنّها تصرّفٌ مريب يستلزم إجراء التحرّيات.

– إجراء تحرّيات لمجرّد أنّك دعوتني للعشاء؟

– طبعًا.. أنت فرنسيّة مقيمة في الاسكندريّة وقطعًا لكِ ملفّ كامل في المخابرات.

– ماذا يقلقهم من صداقتنا؟

– صداقة الضابط بامرأةٍ أجنبيّة تُعتبر موضوعًا مقلقًا من الناحية الأمنيّة. أولًا لأنّك قد تؤثّرين على ولائي للقيادة وثانيًا قد تحصلين على أسرارٍ عسكريّة وتنقلينها للمخابرات الفرنسيّة مثلًا.

شربت شانتال ما بقي من كأسها ثمّ ضحكت وصاحت:

– إذن.. سليم.. سأصارحك بالحقيقة.. أنا فعلًا عميلة للمخابرات الفرنسيّة.

تطلّع إليها سليم بغضبٍ وهمس قائلًا:

– شانتال هذه موضوعات لا تحتمل الهذار.

قالت شانتال:

– آسفة.

راحا يأكلان في صمت وظهر الجرسون فصبّ كأسًا جديدة من النبيذ لشانتال أمّا سليم فطلب كأسًا من الويسكي. بعد قليلٍ قالت بودّ:

– ممكن تكلّمني عن حياتك.

– هناك موضوعات أخرى ألطف.

– أنا مصرّة.

قال بلهجة تهكّم:

– أنا مطلّق وتعيس.

– تعيس لأنّك مطلّق؟

– عندما كنت متزوّجًا كنت أكثر تعاسة.

– التفاصيل مهمّة.

حكى لها سليم أنّه تزوّج وأنجب ابنتين عمرهما الآن 14 و12 سنة وقد طلّق زوجته قبل عامين. بدا الاهتمام على وجه شانتال وسألته:

– عندي سؤال ومن حقّك أن ترفض الإجابة.

– ليس لديّ ما أخفيه.

– ما مشكلتك مع زوجتك السابقة؟

– مشكلتي أنّها شخصيّة متسلّطة وعدوانيّة ومادّيّة. شخصيّتها قد تلائم رجلًا آخر، أمّا بالنسبة إليّ فقد كانت حياتنا جحيمًا حقيقيًّا. إنّها ببساطةٍ آخر امرأةٍ تصلح لتكون زوجتي.

– ولماذا تزوّجتها؟

– زواج صالونات. كانت بنت جميلة من أسرةٍ عريقة.

– ألم تلاحظ عيوب شخصيّتها في البداية؟

– لاحظت طبعًا لكنّي كنت أحمق فأقنعت نفسي بأنّني سأغيّر من طباعها السيّئة بعد الزواج.

رشفت شانتال من النبيذ وقالت:

– طبقًا لروايتك فإنّ زوجتك هي السبب في فشل الزواج. لا أستطيع أن أوافق على رأيك بغير أن أستمع لرواية زوجتك. لا شكّ في أنّها ستشكو منك أيضًا.

بدا الضيق على وجه سليم وقال:

– أنا لم أطلب منك حكمًا قضائيًّا حتّى تستمعي إلى الطرفين. أنتِ طلبتِ منّي أن أحكي لك عن نفسي ومن الطبيعيّ أن أحكي ما حدث من وجهة نظري.

– من فضلك لا تغضب منّي.

– لست غاضبًا.

قالت شانتال بلهجةٍ جادّة:

– بغضّ النظر عمّن هو المخطئ، كثيرًا ما يكون الطلاق هو الحلّ الوحيد.

أجاب سليم:

– مشاكلي الزوجيّة انتهت بالطلاق لكنّي الآن أعاني من مشاكل جديدة.

– ما هي المشاكل الجديدة؟

– سأحكي من وجهة نظري. موافقة؟

– موافقة.

– لقد حرّضت طليقتي البنتين ضدّي وجعلتهما تكرهانني. لا أعرف كيف نجحت في ذلك..

– قد تكون متسرّعًا في الحكم على البنتين.

– أتمنّى أن أكون مخطئًا لكنّني لا يمكن أن أخدع نفسي وأنكر حقيقةً ساطعة. إنّ البنتين تتعاملان معي باعتباري محفظة نقود. تتّصلان بي عندما تحتاجان إلى مصاريف. وهما تتصرّفان بطريقةٍ وقحة وكأنّهما تقولان: لولا احتياجنا للنقود لما اتّصلنا بك.

– هل تعتقد أنّ أمّهما تدفعهما لاستنزافك ماليًّا؟

– طبعًا.. لكنّ المال لا يهمّني.. ما يحزنني أن أحسّ أنّ البنتين تتعمّدان إيلامي نفسيًّا.

قالت شانتال بتأثّر:

– شيء مؤسف.

– تصوّري أنّ البنتين اللتين تتعاملان معي بهذا الجحود، عندما كانت تصيب إحداهما نوبة برد بسيطة وهي طفلة كنت أسهر بجوارها طوال الليل حتّى أعطيها الدواء في موعده. تصوّري أنّني بذلت أقصى ما بوسعي حتّى أمنحهما تعليمًا جيّدًا وحياةً مريحة. ثمّ يكون هذا جزائي..

ساد الصمت لحظة وطلب سليم كأس ويسكي جديدة وقالت شانتال:

– أنت تشرب بسرعة.

– أنا أشرب كثيرًا.

سكت قليلًا ثمّ استطرد بودّ:

– هذه أول مرّة نخرج معًا. كان المفروض أن أتحدّث في موضوعات مرحة بدلًا من هذه الدراما.

– بالعكس.. إذا كنت تعتبرني صديقتك يجب أن تحكي لي..

– أشكرك.

– المشكلة ليست في زوجتك السابقة ولا ابنتيك.

– كيف؟

– ما حدث لك يحدث لمعظم الناس. الأب والأم يكافحان حتّى يوفّرا أفضل حياة للأولاد ثمّ يتوقعان أن يردّ الأولاد الجميل لكنّ ذلك غالبًا لا يحدث. لو تعلّم ابنك وحصل على وظيفة واستقلّ بحياته

فسوف تتوسّل إليه حتّى يزورك أو حتّى يتّصل بك وغالبًا لن يستجيب. أمّا إذا كان ابنك مريضًا أو يعاني من مشاكل فسوف تفسد حياتك حتّى ترعاه وقد تنفق كلّ مالك لعلاجه أو حلّ مشاكله وفي النهاية لن تجد مقابل ذلك غالبًا إلّا الجحود.

– هذا رأيٌ متشائم.

– ليس رأيًا لكنّها الحقيقة.

نظر إليها سليم وبدا عليه التفكير ثمّ قال:

– لكنّني أعرف أبناءً بارّين بأهلهم..

– أنا لا أتحدّث عن أشخاص بل عن النظام. ستجد هنا وهناك بعض الاستثناءات لكن يظلّ النظام فاشلًا.

– أيّ نظام؟

قالت شانتال:

– نظام الأسرة الذي توارثناه من ثقافة القبيلة فشل تمامًا لكنّنا لا نجرؤ على إعلان فشله أو التفكير في نظام آخر. جحود الأبناء نتيجة طبيعيّة لفشل نظام الأسرة. في لحظةٍ ما سيكتشف الأهل هذا الجحود وعندئذٍ سيتصرّفون بإحدى الطريقتين: إمّا أن يعيشوا حالةً من الإنكار مثل الزوج العاشق المخدوع الذي يتجاهل أدلّة خيانة زوجته وإمّا أن يواجهوا المشكلة كما فعلت أنت بكلّ ما يعنيه ذلك من أحزانٍ وخيبة أمل.

فكّر سليم قليلًا ثمّ قال:

– لو كنتِ قلت لي ذلك منذ عشرة أعوام كنت سأرفض كلامك تمامًا.

– والآن؟

– لست متأكّدًا. رأيك عن الأسرة غريب وصادم لكنّه يستحق التفكير.. الآن فهمت لماذا لم تتزوّجي.

– لم أتزوّج ببساطةٍ لأنّني لا أريد أن أكون في موقفك.

أطرق سليم وهمست شانتال بسرعة:

– آسفة على هذه الجملة.

– لقد قلتِ الحقيقة.

– أكرّر اعتذاري.

– سأقبل اعتذارك بشرطٍ واحد.

– ما هو؟

– أن تقبلي دعوتي على العشاء يوم الخميس القادم.

قالت شانتال:

– هل سنسافر مرّةً أخرى بحثًا عن مطعمٍ آمن؟

ضحك سليم وقال:

– سأجد مطعمًا آمنًا داخل اسكندريّة.

في نهاية السهرة ركب معها. كان من المفترض أن توصله شانتال إلى حيث ترك سيّارته في المنشيّة لكنّها اتّجهت إلى بيتها في شارع فؤاد وقد لاحظ سليم ذلك ولم يعلّق. توقّفت بالسيّارة ثمّ أوقفت المحرّك وقالت:

– هل تحبّ أن نأخذ كأسًا في بيتي ونستأنف الحديث؟

ابتسم سليم وقال:

– هل عندك ويسكي؟

– طبعًا.

– يجب أن أحذّرك.. إذا شربت المزيد من الويسكي فقد أصبح خطرًا عليك.

نظرت شانتال إليه وضحكت وقالت:

– أحبّ أن أتحدّى الأخطار..

31

أنس

قلت لليدا:

«أنا دعوت صديقي وصاحبته على العشاء وأحبّ أن تكوني معنا».

سألتني عنهما فرسمت على وجهي تعبيرًا محايدًا وقلت:

– عدلي وصاحبته نعمت ناس بسيطة لكن طيّبين ومحترمين.

– كلّمني عنهم.

– الأحسن أنّك تكتشفيهم بنفسك.

كانت الفكرة غريبة لكنّها أعجبتني.. حاولت أن أخلّص ليدا من ترفّعها البورجوازي وفي نفس الوقت أردت أن أقترب أكثر من عالم عدلي وأفعل شيئًا يسعده. بصراحة أيضًا، تملّكني الفضول لأعرف كيف يتصرّف عدلي ونعمت في مناسبةٍ اجتماعيّةٍ مع أشخاصٍ لا يعرفونهما.. أحسست بشغفٍ وكأنّني طفلٌ مقدم على لعبةٍ خطرة وممتعة.. فجأةً خطر لي أنّني أتعامل مع عدلي ونعمت وكأنّهما نموذجان للدراسة فأحسست بالذنب لكنّني سرعان ما طردت هذه الفكرة من ذهني وأكّدت لنفسي أنّني أحبّ عدلي فعلًا كصديق.

جاءت ليدا يوم الأربعاء وقد ارتدت فستانًا أحمر أنيقًا وصفّفت شعرها لأعلى وتركت خصلتين تنسدلان على جانبي وجهها. انحنيت وقبّلت يدها وهمست:

– سمو الأميرة.. ما كلّ هذا الجمال؟!

ابتسمت وقالت:

– أرجو ألّا تغازلني أمام الضيوف.

صحت بحماسة:

– بل يجب أن أغازلك أمام الجميع ليعلموا كم أحبّك.

ضحكت ولم تردّ. راحت تعدّ عربة الشاي وتنسّق الزهور التي أحضرتها. في تمام الساعة السابعة رنّ جرس الشقة. فتحت الباب فوجدت عدلي واقفًا وعلى وجهه ابتسامته المستأذنة وبجواره رأيت امرأة مدهشة.. نعمت.. كانت سكندريّة الروح والتكوين وكأنّها خرجت لتوّها من لوحةٍ لمحمود سعيد.. ملامحها شعبيّةٌ خالصة. العينان الواسعتان العسليّتان والشفتان المكتنزتان والصدر العامر والجسد المكتنز بدون ترهّل. كانت ترتدي تايير رماديًّا أنيقًا وتضع ماكياجًا خفيفًا. رحّبنا بهما أنا وليدا وبدا عدلي سعيدًا للغاية. أحضر معه تورتة من حلواني التريانون وضعها على المائدة. شكرته أنا وليدا فقال بصوتٍ خافت:

– دي حاجة بسيطة.

أحضرت لعدلي زجاجة ويسكي فصبّ لنفسه الكأس الأولى بينما رحت أراقب المرأتين ليدا ونعمت. جلستا متجاورتين وبدأتا بتعارفٍ ودّيّ حذرٍ كأنّهما حيوانان جميلان يتشمّم أحدهما الآخر بغرض التعرّف والتأمين. بعد قليلٍ تسرّب الودّ بينهما فاندمجتا في حديثٍ هامس ضحكتا خلاله أكثر من مرّة ثمّ قامتا وانهمكتا في إعداد المائدة. فتحت زجاجة نبيذٍ فرنسيّ وصببت كأسًا لي وآخر لليدا وكما توقّعت فضّل عدلي أن يظلّ مع الويسكي بينما اعتذرت نعمت لأنّها لا تشرب الخمر فأحضرت لها ليدا

عصير برتقال. التزمت نعمت بالحدود الآمنة في الحديث. كانت تقول جملًا قصيرةً محسوبة تنطقها ببطءٍ وكأنّها تراجعها في ذهنها أولًا وفي نفس الوقت كانت تتصرّف بلياقةٍ كاملة لا أعرف أين تعلّمتها (عرفت بعد ذلك أنّها عملت خادمةً وأظنّها تعلّمت من مخدوميها). على المائدة كانت نعمت تستعمل الشوكة والسكّين باقتدارٍ ويسر بينما كان عدلي متعثّرًا بعض الشيء. خطر لي أن أقترح الأكل باليدين لكنّني خفت أن يسيء الاقتراح لعدلي. نظرت إلى ليدا وسألتها:

– إيه أخبار صوفيا؟

كان هذا موضوعها المفضّل فانطلقت تحكي عن مغامرات ابنتها في المدرسة ثمّ فتحت شنطتها وأخرجت صورةً لها ومرّرتها علينا. قال عدلي:

– ربّنا يخلّيها لك ويفرّحك بها.

وصاحت نعمت بتلقائيّة:

– يا حبيبتي.. زيّ القمر!

لم يتطرّق عدلي في حديثه إلى عمله إطلاقًا بل راح يحكي لنا عن نزهاته في الاسكندريّة ويسترجع ذكرياته في محطّة الرمل وبير مسعود وشاطئ العجمي. لا أعرف إن كانت هذه ذكرياتٍ حقيقيّةً أم مختلقة لكنّها في كلّ الأحوال كانت مناسبةً تمامًا فقد رحت أنا وليدا نسترجع ذكرياتنا أيضًا.

قالت ليدا:

– دائمًا أنا وأنس نختلف. هو رأيه أنّ الاسكندريّة تتغيّر للأسوأ وأنا رأيي أنّه متشائم زيادة.

قلت:

– أعترض على هذا الكلام. أنا واقعيّ وغير متشائم.

قال عدلي:

– اسكندريّة طول عمرها جميلة.

قالت نعمت:

– الأستاذ أنس عنده حقّ. فعلًا اسكندريّة كانت زمان أحسن.

– أحسن في إيه بالضبط؟!

هكذا سألها عدلي بودّ. قالت نعمت:

– الناس زمان كانت أخلاقهم أحسن.

عقّب عدلي قائلًا:

– الناس أخلاقهم عمرها ما تغيّرت. كلّ واحد بيدوّر على مصلحته.

ساد الصمت لحظةً ثمّ سألت ليدا:

– يعني ما فيش ناس عندها أخلاق؟

ردّ عدلي:

– طبعًا فيه ناس عندهم أخلاق لكن الأغلبيّة ما عندهمش.

وجدتني أقول بحماسة:

– أنتم بتتكلموا عن الناس عمومًا. أنا أتكلّم عن اسكندريّة بالذات. اسكندريّة بتتغيّر. أنا شايف التغيير بوضوح. اسكندريّة كان فيها تسامح ومحبّة وإنسانيّة. كلّ ده بيقلّ يوم بعد يوم.

فجأةً، خطر لي أنّني دفعت الحديث إلى منحنًى غير مناسب فسكتّ لحظة ثمّ نظرت إلى عدلي ونعمت وقلت:

– أهلًا وسهلًا.. نوّرتونا.

ردّ عدلي بحرارة:

– شرف لنا يا أستاذ أنس.

بينما تمتمت نعمت:

– يعزّ مقداركم.

تطلّعت ليدا إلى نعمت وقالت:

– أنا حاسّة أنّك طبّاخة ممتازة.

قال عدلي:

– فعلًا.. طبيخ نعمت لا يُعلى عليه.

ابتسمت نعمت وسألت ليدا:

– حضرتك عرفتِ منين مع أنّك ما جرّبتيش أكلي؟
ضحكت ليدا وقالت:
– أنا قلت لك إنّ والدي صاحب مطعم وهو علّمني كتير.
بقيت أعرف الطبّاخ الشاطر من طريقة استعمال يديه.
– ممكن حضرتك تشرحي لنا؟
هكذا سأل عدلي وأجابت ليدا:
– الطبّاخ الشاطر لو عمل أيّ حاجة بيده تلاقيها مضبوطة ونظيفة. حتّى لو كان يقدّم شاي أو يحضّر ترابيزة أو حتّى يطبّق مفرش.
قلت:
– فكرة جديدة.
تطلّعت ليدا إليّ وقالت:
– جرّبها حتلاقيها صحّ. أنا لمّا شفت نعمت بتحضّر الترابيزة قلت أكيد بتطبخ كويس.
ابتسمت نعمت وقالت:
– إن شاء اللّه ما خيّبش ظنّك.
تطلّعت ليدا إلى عدلي وسألت:
– قل لي أحسن صنف نعمت بتطبخه.
ردّ بدون تفكير:
– الحمام المحشي.
قلت:
– خلاص. لنا عندك أكلة حمام يا نعمت.
– من عينيّ يا أستاذ أنس.
بعد العشاء ساعدت نعمت ليدا في تنظيف المائدة وأصرّت على أن تغسل الصحون ثمّ أعدّت الشاي. خرجت نعمت وليدا إلى السطح وجلست مع عدلي. سألته:
– سنبدأ أول جلسة في الرسم الأسبوع القادم. ممكن آخذ لك بعض الصور بالكاميرا؟
– تحت أمرك.

كنت قد أعددت الكاميرا وطلبت من عدلي أن يكون طبيعيًّا وينسى وجودي تمامًا ثمّ التقطت عدّة صورٍ من زوايا مختلفة. ابتسم عدلي وقال:

– بعد إذن حضرتك عندي سؤال.

– تفضّل.

– حضرتك ناوي تطبع الصور وتعلّقهم جنب الرسم؟

شرحت له أنّ الصور الفوتوغرافيّة التي ألتقطها من زوايا متعدّدة تساعدني على معرفة تعبيرات وجهه المختلفة، الأمر الذي سيفيدني في رسم البورتريه. صاح عدلي:

– كلّ الشغل ده لأجل ترسم عدلي الأسود؟ يا نهار أبيض يا ولاد.

ضحكنا أنا بصوتٍ عالٍ وهو كعادته بدون صوت.. بعد قليلٍ استأذن عدلي في الانصراف. لم أتمسّك ببقائهما لأنّي أعرف أنّهما مرتبطان بمواعيد كباريه الأنجلو. صحبناهما أنا وليدا مودّعين حتّى الباب. كانت نعمت قد اندمجت مع ليدا لدرجة أنّهما تبادلتا الأحضان والقبلات. أغلقت الباب وعدت مع ليدا إلى الصالة. أشعلت سيجارةً ملفوفة وسألتها:

– إيه رأيك في عدلي ونعمت؟

– زيّ ما قلت لي. ناس بسيطة لكن لطاف وطيّبين.

– يعني تحبّي تشوفيهم تاني؟

– طبعًا أحبّ أشوفهم.

– ممكن أقول لك شغلتهم؟

ابتسمت ليدا وقالت:

– نعمت قالت إنّها موظّفة في مستشفى المواساة.

ضحكت وقلت:

– كلام غير صحيح. هي ماقالتش على شغلتها ولا شغلة عدلي تفاديًا للإحراج.

– هم بيشتغلوا إيه؟

– لازم تستعدّي نفسيًا الأول.

– أنت خلّيت عندي فضول.

– مستعدّة للخبر؟

– قل لي يا أنس من فضلك.

ضحكت وقلت:

– نعمت بتشتغل رقّاصة في كباريه الأنجلو وعدلي تاجر حشيش وفتوّة.

– يا نهار أسود!

هكذا صاحت ليدا وبدا الذهول على وجهها. سألتها:

– ندمت أنّك قابلتيهم؟

– كان أحسن تقولي على شغلهم من الأول.

– لو كنت قلت لك كنتِ حتوافقي تشوفيهم؟

فكّرت قليلًا وقالت:

– بصراحة مش عارفة.

– عمومًا. أنا سعيد أنّ التجربة نجحت.

– أنت بتعمل تجارب عليّ؟

– كنت عاوزك تعرفي أنّه لا يجوز أنّنا نحكم على إنسان من طبقته الاجتماعيّة.

– المسألة هنا مش طبقة. تجارة المخدّرات جريمة.

– قلت لك إنّ الحشيش لا يُعتبر مخدرات. عدلي يبيع الحشيش فقط ويرفض تمامًا أن يبيع الكوكايين والهيرويين مع العلم أنّ مكسبها أكثر بكثير من الحشيش.

– برافو عليه.. المفروض نعمل له حفل تكريم.

– من فضلك لا تسخري.

– ممكن توعدني ما تعملش تجارب عليّ تاني؟

– لا طبعًا لازم أستكمل تجاربي عليك.

بعد قليل تجاوزت ليدا الصدمة ورحنا نضحك على ما حدث ثمّ قالت:

– ما لقتش غير تاجر الحشيش والرقّاصة تعزمهم عندنا؟

– أنت اعترفت أنّك حبّيتيهم.
– حبيبي أنس، المشكلة مش في عدلي ونعمت.. المشكلة فيك أنت.
– إيه مشكلتي؟
– أنّك مجنون رسمي.
– صحيح..
– لكنّي بأحبّك.
عندما أغمض عينيّ وأقبّلها أحسّ أنّني أفارق العالم العاديّ اليوميّ إلى عالمٍ آخر سحريّ مفعم بالبهجة..
يوم الأربعاء التالي كانت الجلسة الأولى للرسم. جاء عدلي في الموعد وما إن جلس حتّى أخرج من جيبه قطعة حشيش في حجم علبة السجائر وقال:
– دي حاجة بسيطة أرجو حضرتك تقبلها من أخوك الصغير.
كان الحشيش طريًّا ومشبعًا بالزيت وكانت رائحته قويّة للغاية.
استطرد عدلي:
– الصنف ده مزاج المعلّمين ما بنبيعوش للزبائن.
شكرته فقال بتأثّر:
– دي ولا حاجة بالنسبة لكرم حضرتك. حضرتك احترمتني وكبّرتني قدّام نعمت وليدا هانم. أنا صحيح مش متعلّم لكن بافهم. اللي حضرتك عملته معي جميل عمري ما أنساه. ولو حضرتك محتاج حاجة في أيّ وقت لازم تعرف أن لك أخ اسمه عدلي الأسود.

32

أحسّ جليل بأرقٍ فاستلقى في الظلام على فراشه بجوار فيفي التي كانت تغطّ في النوم. راح يفكّر في كلام الأستاذ بدوي. حقًّا ما أحقر الخيانة! تذكّر أبياتًا قرأها للشاعر العراقيّ بدر شاكر السيّاب:

إنّي لأعجب كيف يمكن أن يخون الخائنون
أيخون إنسان بلاده؟
إن خان معنى أن يكون
فكيف يمكن أن يكون؟

فعلًا.. كيف يخون إنسانٌ الوطن الذي أنجبه؟ إنّه يفهم أن يعارض أيّ شخصٍ الحكومة أو الرئيس. أخوه الأستاذ عبّاس القوصي مثلًا لا تعجبه سياسات عبد الناصر. هو حرّ.. المعارضة أمر مفهوم وطبيعي لكن أن يقبض مصري أموالًا من الأعداء ويتلقّى تدريبًا من أجل التشكيك في الرئيس والجيش فهذه هي الخيانة العظمى. عزم جليل على أن يبذل كلّ جهده حتّى يكشف هؤلاء الخونة ويكتب عنهم تقارير حتّى ينالوا الجزاء الذي يستحقّونه.

استلقى على جنبه ثمّ وضع الوسادة على رأسه كعادته وشيئًا فشيئًا استسلم للنوم، وعندئذٍ حدث شيءٌ عجيب. لقد رأى جليل نفسه يرتدي جلبابًا أبيض ناصعًا ويجتاز ممرًّا طويلًا متّسعًا تغمره الأنوار الساطعة. كانت رائحة بخور جميلة تملأ المكان وتتسرّب إلى أنفه. مشى جليل كثيرًا لكنّه لم يشعر بأيّ تعب، بالعكس، كان يتحرّك بـ نشاطٍ جمّ ويحسّ بـ طاقةٍ مـ دهشـ ةٍ في جسد ه. في نهاية الممرّ المضيء رأى بابًا مغلقًا فلم يتردّد لحظة.. أمسك بمقبض الباب وفتحه بسهولةٍ ودخل قاعةً كبيرة وهناك.. رأى الرئيس عبد الناصر جالسًا إلى مكتبٍ كبيرٍ يطالع بعض الأوراق. لم يصدّق جليل ما يراه وظلّ يتأمّل الزعيم بحبٍّ وانبهار. كان وجه الزعيم مشرقًا وبدا

مستغرقًا في العمل ثمّ رفع رأسه وابتسم وقال: «أهلا يا جليل. أحيّيك على إخلاصك للثورة. شدّ حيلك وكمّل طريقك».

أحسّ جليل بفرحةٍ غامرة وأراد أن يشكر الزعيم ويصف له مدى حبّه له وإعجابه به، حاول أن يتكلّم لكنّه اكتشف أنّه عاجزٌ عن النطق، ثمّ صحا من النوم. استغرق لحظات حتّى يستعيد إدراكه ثمّ لمس فيفي وهي نائمة ففتحت عينيها وقال لها بصوتٍ خافت:

– آسف لأنّي صحّيتك. فيه حاجة حصلت لازم أقول لك عليها.

– خير يا جليل.

هكذا قالت فيفي بفزعٍ وعلى وجهها آثار النوم.

قال جليل:

– شفت منام جميل جدًّا.

ابتسمت فيفي وكأنّها اطمأنّت وقالت:

– اللهمّ اجعله خير..

حكى لها الحلم فقبّلته على جبينه وقالت:

– الحمد لله.. دي رؤيا خير يا جليل. إيّاك تحكيها للناس لأجل تحتفظ ببركتها.

عادت فيفي إلى النوم لكنّ جليل لم ينم. خرج إلى الصالة وراح يقرأ القرآن. كان سعيدًا ومتفائلًا وقد تحمّس للعمل الوطني أكثر من أيّ وقتٍ مضى. لقد رأى الزعيم عبد الناصر بشخصه. قال له الزعيم: «أحيّيك على إخلاصك للثورة. شدّ حيلك وكمّل طريقك». ماذا يريد أكثر من ذلك؟ سوف يبدأ جولاته فورًا. اليوم الجمعة والمقاهي مزدحمة وسيكون من السهل عليه التحاور مع الناس. بعد تفكيرٍ قرّر جليل أن يبدأ بعطا الله الحلّاق. محلّه خلف البيت على الترام وهو يقصّ شعره عنده من سنوات طويلة. عادةً ما يكون المحلّ مزدحمًا يوم الجمعة. يؤدّي الناس الصلاة ثمّ يذهبون إلى عطا الله لينتظروا دورهم في الحلاقة. ستكون هذه فرصةً جيّدةً لإجراء حوارٍ مع الزبائن عن حرب اليمن. أدّى جليل الصلاة وتوجّه إلى محلّ عطا الله فصحّت توقّعاته. كان عطا الله يحلق لزبون وهناك زبونان آخران ينتظران الدور. المحلّ صغيرٌ لكنّه نظيفٌ وأنيق. بضعة مقاعد ومائدة من طراز فورفورجيه وعلى الحائط صورٌ لنجوم هوليوود وفي الصدارة صورةٌ كبيرة للرئيس عبد الناصر. استقبل عطا الله جليل بحفاوة ودعاه للجلوس. عطا الله رجلٌ نحيف وقصير في الأربعين. في

الأحوال العاديّة عندما يجد جليل المحلّ مزدحمًا كان يتّفق مع عطا اللّه على موعدٍ يعود فيه لكنّه هذه المرّة قرّر الانتظار. تطلّع جليل إلى الزبائن بابتسامةٍ وديّةٍ وقال بصوتٍ مسموع:

– السلام عليكم يا اخوانا.

ردّ عليه الحاضرون السلام بحرارة وجاء صبيّ الحلاق يسأله إذا كان يريد أن يشرب شيئًا فطلب شايًا سكّر خفيف.

ظلّ جليل صامتًا لفترة ثمّ تنهّد وقال بصوتٍ مرتفع:

– ادعي لي يا عمّ عطا اللّه ربّنا يصبّرني.

نظر إليه عطا اللّه وهو يمسك بالمقصّ في يده وقال:

– خير يا أستاذ جليل كفى اللّه الشرّ..

تطلّع جليل إلى الزبونين الجالسين أمامه وقال بصوتٍ مرتفع:

– عندي واجب تقيل على قلبي. رايح أعزّي واحد قريبي في ابنه.

– البقاء لله.

– البقيّة في حياتك.

– اللّه يرحمه.

هكذا ردّد الحاضرون واستطرد جليل قائلًا:

– واللّه يا اخوانا. شابّ زيّ الورد متخرّج من كليّة الهندسة بتفوّق. استشهد في حرب اليمن. عليه العوض ومنه العوض. ربّنا يصبّر أبوه وأمّه..

هكذا قال جليل بتأثرٍ وانتظر ردّ فعل الحاضرين. علّق زبونٌ قائلًا:

– ده قدره يا أستاذ. سواء في اليمن أو في أيّ مكان. كان لازم يموت لأنّ عمره خلص في اللحظة دي. قال تعالى «فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعةً ولا يستقدمون»، صدق اللّه العظيم.

ردّ جليل قائلًا:

– معلوم. طبعًا قدره ونصيبه. لكن حرام اللي بيحصل في البلد. شباب زيّ الورد الرئيس عبد الناصر يبعتهم اليمن ويموتوا هناك. نفسي حدّ يشرح لى سبب اشتراكنا في حرب اليمن. احنا مالنا باليمن يا جماعة؟ دول قبائل متخانقين مع بعضهم احنا مالنا كمصريّين؟ ما دخل الجيش المصري باليمن؟ يعني عبد الناصر عاوز

يبقى زعيم العرب يقوم يبعت جنودنا وضبّاطنا يموتوا في اليمن ويصرف من مال الشعب لأجل يشتري بها أسلحة يقتل بها اليمنيّين.

ساد صمتٌ عميق فقال جليل بصوتٍ مرتفع:

– إيه رأيك يا عمّ عطا اللّه في حرب اليمن؟

ارتبك عطا اللّه وكان قد بدأ بحلاقة لحية الزبون فأبعد الموسى عن وجهه وقال:

– اعفيني يا أستاذ جليل من المناقشة دي اللّه لا يسيئك. أنا بصراحة مافهمش حاجة في السياسة.

قال جليل:

– يا عطا اللّه أنا عاوز منك كلمة واحدة. عبد الناصر بعث الجيش لليمن. التصرّف ده صح ولا غلط؟

زاد ارتباك عطا اللّه وأطلق زفيرًا قويًّا وقال:

– أنا ما أعرفش الكلام ده خالص.

نظر جليل إلى الزبونين الجالسين بجواره وقال:

– وأنتم يا حضرات.. يرضيكم أنّ شباب مصر يموتوا كلّ يوم لمجرّد أنّ عبد الناصر نفسه يعمل زعيم؟

لاذ أحدهما بالصمت بينما دمدم الزبون الآخر قائلًا:

– اسمح لي يا أستاذ.. حضرتك غرضك تحلق شعرك ولا تتكلّم في السياسة؟

– بأقول لحضرتك ابن قريبي شابّ ما كمّلش 25 سنة ومات.

ردّ الزبون بحدّة:

– يا سيدي ربّنا يرحمه ويصبّر أهله.. كلّنا مصيرنا نموت.

قال جليل بصوتٍ مرتفع:

– عبد الناصر هو المسؤول عن موت الشابّ ده وكلّ الشهداء في حرب اليمن.

نهض الزبون فجأةً وقال:

– أنا ماشي يا عمّ عطا اللّه. افتكرت مشوار ضروري. أرجع متى تكون خلصت؟

فكّر عطا اللّه لحظة وقال:

– تعال بعد ساعتين.

خرج الزبون الغاضب بدون أن ينظر نحو جليل الذي أدرك أنّ الحوار قد خرج عن المسار الذين كان يريده فمدّ يده وجذب إحدى

المجلّات الموضوعة على المائدة وراح يطالع فيها حتّى حان دوره، على غير المعتاد قام عطا اللّه بقصّ شعر جليل بدون أن يوجّه له كلمة واحدة. بعدما انتهت الحلاقة شكر جليل عطا اللّه ودفع الأجرة والبقشيش وقبل أن يخرج من باب المحلّ أمسك عطا اللّه بيده واقترب منه وهمس «تعال معي.. عاوزك في كلمة».

خرجا معًا من المحلّ وعندما صارا في الشارع التفت عطا اللّه حوله ثمّ قال بصوتٍ خافت: «بصّ يا أستاذ جليل. أنت زبوني من سنين وربّنا عالم أنّي بأحبّك. أقول لك حاجة واعتبرها نصيحة من أخوك.. ما تتكلّمش في السياسة مع ناس ما تعرفهاش. البلد فيها قلق جامد والمخبرين في كلّ مكان. أيّ حدّ بيقول كلمة على الرئيس بيروح ورا الشمس ومالوش دية. أنا وأنت عندنا عيال عاوزين نربّيهم وربّنا يستر علينا».

33

كالعادة استيقظ كارلو ساعة الظهر. أخذ حمّامًا واحتسى القهوة وفكّر في ما حدث أمس. هل تتوقّع منه أمّه مارتا حقًّا أن يساعد جابر؟! يا للمهزلة!! إنّ التحاق جابر بالجيش سيكون حلًّا مثاليًّا لأنّه سيختفي لفترةٍ طويلة. كم يتمنّى لو ظلّ جابر في الجيش إلى الأبد. خطر له أنّ أمّه برغم تجاربها في الحياة ما زالت تعاني من السذاجة. إنّها ذكيّةٌ بلا شك لكنّ ذكاءها ليس اجتماعيًّا فهي لا تفهم الناس ولا تعرف ماذا تتوقّع منهم وأكبر دليل على ذلك أنّها لا ترى مدى البذاءة والانحطاط في شخصيّة جابر. في المساء ذهب كارلو إلى العمل كعادته ولمّا انتصف الليل صعد إلى البار وسرعان ما توافد أعضاء الكوكاس. بدأت نهى الشواربي الحوار فأخذت رشفةً من كوب البيرة وقالت:

– كارلو، هل تقدّمون في المطعم Spaghetti à la Gondola؟

ابتسم كارلو وقال:

– طبعًا.

ضحكت نهى وقالت:

– يجب أن تتوقّفوا عن تقديم هذا الطبق فورًا.

– لماذا؟

– هذا الطبق يقتل من يأكله.

– ماذا تقولين؟

هكذا هتف كارلو بدهشةٍ ثمّ ضحك أنس وقال:

– يا عبّاس أنا أحذرك. زوجتك المدعوّة نهى الشواربي تروّج الشائعات ضدّ الدولة وكما تعلم هذه التهمة تستدعي المحاكمة العسكريّة.

قال عبّاس:

– نهى عندها حقّ. لا يمكن لطفل أن يصدّق هذه القصّة.

هزّ كارلو رأسه وقال:

– أنا لا أفهم عن أيّ شيءٍ تتحدّثون.

سأل عبّاس القوصي:

– ألم تقرأ الجرائد اليوم؟

قال كارلو:

– لا.

ابتسم عبّاس وقال:

– الملك السابق فاروق مات في إيطاليا وقد ذكرت الجرائد أنّه أصيب بأزمةٍ قلبيّةٍ نتيجةً للافراط في الطعام وذكروا في الخبر أنّه التهم مأكولاتٍ كثيرةً من ضمنها طبق Spaghetti à la Gondola.

قالت ليدا بتهكّم:

– نحن نقدّم هذا الطبق هنا كلّ يوم ولم يمت زبونٌ واحد.

قال عبّاس:

– الصحف نشرت أنّ الأزمة القلبيّة التي قتلت الملك حدثت بسبب الإفراط في الطعام. كلّ هذا كذب. المؤكّد أنّ المخابرات المصريّة قتلته بالسمّ.

قال توني:

– هل لديكم دليل على أنّ المخابرات قتلت الملك؟

قالت نهى:

– ليس موضوعي من قتل الملك فاروق. أنا أريد أن أستأنف مناقشةً قديمةً حدثت هنا في الكوكاس. هل أنت مستعدّ يا أنس؟

– طبعًا.

– إذن أجب عن هذا السؤال: ماذا فعل المصريّون عندما عرفوا بمقتل الملك فاروق؟

قال أنس:

– وماذا كنتِ تريدين منهم أن يفعلوا؟

اندفعت نهى تقول:

– هذا الملك البائس الذي خلعه عبد الناصر ونفاه. هذا الملك رأينا جميعًا بأعيننا كيف كان المصريّون يحبّونه. كان ظهور الملك فاروق في شوارع الاسكندريّة يجعل آلاف المصريّين يتزاحمون لتحيّته في الشوارع والشرفات والآن يُقتل فلا يثير ذلك غضب المصريّين أو تعاطفهم.

قال أنس:

– عندما خُلع الملك كان قد فقد شعبيّته تمامًا. أحبّه المصريّون في البداية لكنّهم بعد ذلك كرهوه لأنّه فاسد وظالم وضعيف.

قالت نهى:

– سأفترض أنّ كلامك صحيح. المصريّون لم يتعاطفوا مع خلع فاروق وقتله لأنّه فقد شعبيّته. دعني أسألك عن اللواء محمّد نجيب الذي كان يتمتّع بشعبيّة أسطوريّة.. لماذا لم يعترض المصريّون على اعتقاله؟

– لقد تظاهر المصريّون تأييدًا لنجيب عندما عزله عبد الناصر.

– حدث هذا في البداية وبعد ذلك لم يعترض مصريّ واحد على اعتقاله. اللواء محمّد نجيب معتقل منذ عشرة أعوام بأمر عبد الناصر والمصريّون نسوه تمامًا بل إنّهم يعبدون عبد الناصر الذي اعتقله.

سأل أنس:

– ماذا تريدين أن تثبتي بالضبط؟

– أريد أن أثبت أنّ المصريّين يعبدون من يتولّى السلطة ويتجاهلون من يفقدها.

سكتت نهى ورشفت من كوب البيرة وقالت:

– لقد رأيت ذلك بعيني. عندما كان أبي وزيرًا كان الجميع يحتفون به وعندما نكّل عبد الناصر به لم يقف أحد معنا، معظم أصدقائنا تجنّبونا تمامًا خوفًا من المشاكل أو لأنّهم اعتبرونا من العهد البائد.

– أنا مقدّر تمامًا مشاعرك بسبب ما حدث لوالدك لكن أرفض الأحكام العامّة.

– الخضوع للسلطة طبيعة في الشعب المصري. لو كان اللواء نجيب انتصر في صراعه مع عبد الناصر لكان المصريّون هتفوا بحياة نجيب ولعنوا عبد الناصر.

صاح أنس مداعبًا:

– لن أقبل أيّ إساءة للشعب المصري.

– أنا أتحدّث عن وقائع محدّدة عشناها جميعًا ولا تستطيع أن تنكرها.

– أنا منسحب من هذا النقاش.

قالت نهى:

– الانسحاب ينمّ عن ضعف الحجّة.

– لا تعليق.

هكذا قال أنس وهو يضحك.

فجأةً صفّق توني بيده وضحك وقال:

– أنتم مندمجون في مناقشتكم ولم تنتبهوا إلى أنّنا نشهد معجزة..

تطلّعوا إليه فأشار بيده إلى شانتال التي كانت تحتسي النبيذ وتبدو غارقةً في التفكير.

– أولًا انظروا إلى أناقة شانتال وجمالها هذه الليلة.

ابتسمت شانتال وقالت:

– أشكرك يا توني.

استطرد توني بمرح:

– شانتال أنت تبدين الليلة كأميرة.. بالإضافة إلى أنّك هادئة وصامتة لم تشتركي في المناقشة ولا تسبّبت بأيّ مشكلة.

ضحك الحاضرون وقال كارلو:

– أضف إلى ذلك أنّها بعد نصف ساعة ما زالت تحتسي كأسها الأولى.

تطلّعوا إليها وارتفعت ضحكات وتعليقات:

– شانتال هل أنت بخير؟

– لماذا لا تثيرين الشغب؟

– نحن قلقون عليك..

ابتسمت شانتال وقالت:

– اطمئنوا يا أصدقائي. أنا بخير. أحبّكم جميعًا. أنا فقط أفكّر في موضوع معيّن.

– ممكن تخبرينا بالموضوع الذي يشغلك؟

هكذا سألها أنس فلوّحت بيدها وقالت:

– لن أخبرك أنت بالذات.

– بصراحة لقد لاحظنا جميعًا أنّكِ تغيّرت كثيرًا بعد الندوة التي عقدتِها في المكتبة.

– لاحظوا كما تشاؤون.. أنا سعيدة بنفسي ولن أقدّم تفسيرًا لأحد.

ضحك عبّاس وقال:

– يقولون إنّ الحبّ مثل العطر لا يمكن إخفاء رائحته.

– عبّاس.. كفّ عن التلميحات السخيفة..

قالت ليدا:

– صحّ، من قواعد الكوكاس ألّا نتطفّل على حياة أحد.

ابتسمت شانتال وقالت بلهجةٍ مسرحيّة:

– عزيزتي ليدا، أشكرك على سلوكك المتحضّر الذي يفتقر إليه بعض الأصدقاء.

ضحكوا من جديد وفجأةً وقف توني وتطلّع إلى الحاضرين ثمّ خبط بيده على البار وقال بمرح:

– انتباه! Attention! عندي مناسبة سعيدة يوم السبت القادم. أدعوكم جميعًا للاحتفال معي. لقد حجزت قاعةً خاصّةً هنا في أرتينوس وسأنتظركم الساعة الحادية عشرة مساءً.

قال عبّاس القوصي:

– ما هي المناسبة السعيدة؟

ابتسم توني وقال:

– سأخبركم يوم السبت.

ارتفعت أصوات احتجاجٍ ودّي. وقال أنس:

– توني، هل تدعونا إلى حفلٍ بمناسبة لا نعرف عنها شيئًا؟

ابتسم توني وقال:

– إذا أخبرتكم الآن فسأفسد المفاجأة. يوم السبت ستعرفون كلّ شيء..

34

الجميع لاحظوا..

أعضاء الكوكاس وزبائن المكتبة والتلاميذ والمدرّسون في مدرسة سان مارك، حتّى الجيران والبوّاب وأصحاب المحالّ المجاورة في شارع فؤاد.. كلّهم ردّدوا نفس السؤال: «ماذا حدث لمدام شانتال؟».

تغيّرت تمامًا وكأنّها صارت إنسانةً أخرى غير تلك التي عرفوها على مدى سنوات. ذهبت شانتال إلى أنطوان الكوافير وطلبت تسريحةً جديدة، فكّر أنطوان قليلًا ثمّ اصطحبها إلى حجرةٍ جانبيّةٍ في الصالون حيث وجدت شانتال على الحائط صورًا عديدةً لنساءٍ بتسريحاتٍ مختلفة. قال أنطوان:

– مدام شانتال، لحسن الحظ ما زال شعرك كثيفًا وناعمًا وهو يصلح لتسريحاتٍ عديدة. عليكِ الآن أن تقرّري كيف ستكون صورتك.

طلبت شانتال فنجان قهوة وأشعلت سيجارة وراحت تتأمّل التسريحات المختلفة. بعد تفكيرٍ قرّرت أن تبتعد عن التسريحات الشبابيّة. لا تريد أن تظهر وكأنّها عجوزٌ متصابية. اختارت شانتال تسريحة جاكلين كنيدي Bouffant Bob. أخبرت أنطوان باختيارها فوافقها بحماسة وعكف على العمل حتى صار شعرها رائعًا، ثمّ أسلمت أظافر يديها وقدميها لاختصاصيّة البيديكير في الصالون واختارت لطلائها اللون الأحمر القاني لأنّه يبعث على البهجة كما أنّه يناسب بشرتها البيضاء.

لم تشتر شانتال ثيابًا جديدة لكنّها أخرجت فساتين وتاييرات من الدواليب واعتنت بتنظيفها وكيّها حتّى عادت إلى أناقتها. كلّ هذه تغيّراتٌ مهمّة طرأت على مظهر شانتال لكنّ التغيّر الأهمّ كان في داخلها.. في إحساسها بنفسها وطريقة تعاملها مع الناس. اختفى من وجهها ذلك التعبير المتحفّز الحانق وحلّ محلّه تعبيرٌ هادئ وابتسامةٌ

راضية أقرب للتسامح. خلال سهرة الكوكاس صارت تشرب أقلّ وتتناقش بهدوء ونادرًا ما تتسبّب بشغب. كان أصدقاؤها واثقين من أنّها تعيش قصّة حبّ ولكن طبقًا لتقاليد الكوكاس لا يجوز أن يسألوها حتّى تحكي بنفسها. مرّةً واحدة لمّح عبّاس القوصي إلى الحبّ فنهرته شانتال ثمّ تجرّأت ليدا ذات ليلةٍ ونهضت من مكانها بجوار أنس وسحبت شانتال بلطفٍ إلى مائدةٍ في ركن البار ولمّا جلستا ابتسمت ليدا بودّ وقالت بصوتٍ خافت:

– عندي سؤال إجباري.

– هل ستجبرينني على الإجابة؟

– نعم.

ضحكت شانتال وقالت:

– قولي سؤالك.

– من هو سعيد الحظ؟

– لا أفهم عمّن تتحدّثين؟

– بل تفهمين تمامًا.

– ماذا تريدين بالضبط؟

– أخبريني من هو حبيبك.

تردّدت شانتال بارتباكٍ لا يخلو من فرحةٍ وقالت:

– ليدا، أرجو أن تقدّري موقفي. أنا في العادة لا أخفي أسراري عنك. أنا فعلًا أعيش قصّة حبّ لكنّي لا أستطيع أن أقول اسمه لاعتباراتٍ تخصّ منصبه. لو أعلنّا حبّنا فسوف يضرّه ذلك في عمله.

هزّت ليدا رأسها وابتسمت بتفهّمٍ ثمّ مالت على شانتال وقبّلتها على خدّها وهمست:

– أهنّئك على الحبّ.

كانت شانتال تدرك أنّ ليدا وأعضاء الكوكاس سيخمّنون بالطبع أنّها تحبّ العقيد سليم عبد الجواد. كانت تريد أن تخبر الناس جميعًا لولا تحذيرات سليم. صارت شانتال تقابله في فيلّا صغيرة في منطقة أبو ثلاث يملكها أحد أصدقائه، تفاديًا للأنظار، لا يدخلان الفيلّا ولا يخرجان منها معًا. يصل سليم أولًا وبعد قليل تدخل هي وحدها. يقضيان الليل معًا. يأكلان ويشربان معًا ويمارسان الحبّ وتنام في حضنه حتّى الصباح. عندئذٍ يتوجّه هو إلى بيته بالملابس المدنيّة حيث يستبدل بها الزيّ العسكريّ ويذهب إلى عمله بينما

تأخذ شانتال حمّامًا وتشرب القهوة على مهل وتتوجّه إلى المكتبة في موعدها اليوميّ. بعد كلّ لقاءٍ تستعيد شانتال ما حدث بينهما بالتفصيل وتتساءل كيف استغرقت في العلاقة مع سليم بهذه السرعة؟ لماذا يمنحها سليم كلّ هذه البهجة؟ إنّها تودّ لو تظلّ بجواره إلى الأبد. هل كانت المشادّات التي حدثت بينهما في البداية حقيقيّةً أم مفتعلة؟ هل كان استفزازها منه الوجه الآخر لإعجابها به؟ هل كانت تحتدّ عليه حتّى تقاوم تأثيره عليها؟ يجوز فعلًا.. ثمّ لماذا تعلّقت به لهذه الدرجة؟ إنّها ليست مراهقةً ولا حتّى امرأةً شابّة. ربّما كانت تحتاج إلى الحبّ أكثر بكثيرٍ ممّا تصوّرت، لقد أنقذها سليم، انتشلها من الكآبة واللاجدوى ومنح حياتها معاني جديدةً كانت تتوق إليها. كانت تستعدّ لخريف حياتها وفجأةً أثبتت لها هذه العلاقة أنّها ما زالت امرأةً تفيض بالأنوثة تستطيع أن تعجب رجلًا وسيمًا مثل سليم. بعد الغرام تستلقي في حضنه وهما عاريان. يستمرّ سليم في شرب الويسكي ويتكلّم:

– شانتال، تعرفي أنّك ظهرتِ في الوقت المناسب؟

– وأنت أيضًا.

– الغريب أنّني لم أكن أريد أن أعمل في الاسكندريّة لكنّي غيّرت رأيي في آخر لحظة.

– لحسن حظّي.

– أشكر الله على أنّه جعلنا نلتقي.

– كنت أتمنّى أن أشكره معك لكنّني ملحدة كما تعلم.

– حسنًا سأشكر الله بالنيابة عنك.

عندما يضحك وهي في حضنه تشعر بجسده يرتجّ تحت رأسها وتستمع إلى دقّات قلبه فتودّ لو تحتويه أكثر. تتمنّى لو تغوص في جسده وتمتزج به ويصيران جسمًا واحدًا. يتردّد صوته الرخيم في أنحاء الحجرة:

– هل تعرفين الفرق بين الغربة والوحشة؟

– قل لي.

– الغربة عندما تعيشين بعيدًا عن وطنك والوحشة عندما تعيشين وسط الناس لكن لا أحد يفهمك.

– لم أفكّر في ذلك من قبل.

– لقد عانيت كثيرًا من الوحشة.

– لماذا؟

– معظم زملائي في الجيش يعتبرونني مختلفًا عنهم لأنّي ابنٌ لأسرةٍ أرستقراطيّة. أسرتي تضمّ إقطاعيّين ووزراء أيّام الملكيّة وكلّهم ينتمون إلى حزب الأحرار الدستوريّين.

– أوّل مرّة أسمع عن هذا الحزب.

– إنّه حزبٌ صغير من النخبة المقرّبة من الملك وكان يعارض حزب الوفد ويعتبره حزب الغوغاء. في الجيش، معظم زملائي يعتبرونني غريبًا عنهم لأنّ الثورة قامت ضدّ الطبقة التي أنتمي إليها. وبالمقابل فإنّ أقاربي وأصدقاء الطفولة يعاملونني بتحفّظ باعتباري عضوًا في المؤسّسة العسكريّة الحاكمة التي صادرت أراضيهم ونكّلت بهم. كلّ ذلك طبعًا بالإضافة إلى معاناتي في حياتي الزوجيّة.

تشبّثت شانتال به وهمست بتأثّر:

– شيءٌ محزن..

احتضنها وهمس:

– لقد تخلّصت من الوحشة بفضلك.

طبعت قبلةً خاطفة على عنقه فاستطرد قائلًا:

– عارفة أنّك جعلتِني أغيّر طريقة تعاملي مع البنتين؟!

– أرجو ألّا أكون تسبّبت في مشاكل.

– بالعكس.. ما زلت أحبّ البنتين لكنّي أصبحت أحبّ نفسي أيضًا.

– ألم تكن تحبّ نفسك؟

– كنت أحبّ نفسي بواسطة حبّي لهما. كان الفرح والحزن يتحقّق بواسطتهما فقط. وقد استغلّتا تعلّقي بهما لتعاقباني.

ساد الصمت لحظة ثمّ قال سليم:

– برغم مشاغلي كنت أخصّص يوم الجمعة لهما. كنت أتّفق معهما وأعدّ كلّ شيء لكي تقضيا اليوم معي في نزهة. نذهب إلى السينما والنادي وأشتري لهما كلّ ما تريدانه. تصوّري أنهما كثيرًا ما كانتا تتّصلان بي يوم الجمعة صباحًا لكي تخبراني أنّهما لن تأتيا؟ تكرّر هذا الاعتذار كثيرًا. كانتا تأتيان لرؤيتي يوم جمعة واحدًا وتعتذران مرّتين أو ثلاثًا. كنت أحسّ أنّ اعتذار اللحظة الأخيرة يتمّ بإيعاز من الأمّ إمعانًا في إذلالي. لكنّني تحرّرت من هذا الإذلال.

– ماذا فعلت؟

– أخبرتهما أنّني لن ألحّ عليهما حتّى نلتقي يوم الجمعة وإذا أرادتا رؤيتي فما عليهما إلّا أن تطلبا ذلك. تصوّري أنّهما صارتا تطلبان الخروج معي كلّ يوم جمعة ولم تعتذرا مرّة واحدة؟

– كيف تفسّر ذلك؟

– أظنّ أنّ أمّهما أدركت أنّني أعيش قصّة حبّ.

– كيف عرفت بعلاقتنا برغم كلّ هذه الاحتياطات؟

– إنّها قطعًا لا تعرف أنّي أحبّك أنت لكنّها شعرت بغريزتها بأنّني لا يمكن أن أتّخذ هذا الموقف الصلب من البنتين إلّا بمساندة امرأةٍ أحبّها.

ابتسمت شانتال وقالت:

– انتهت معاناتك إذن.

– مستحيل أن يسيطر الإنسان تمامًا على حبّه لأولاده لكنّي اقتنعت بأنّ الحبّ يجب أن يكون متبادلًا ومتكافئًا. لا بدّ من أن تحبّاني وتحرصا على لقائي بنفس القدر الذي أشعر به.

ومدّ يده وضمّها أكثر إليه وقال:

– لن تستطيعا ابتزازي مرّةً أخرى لأنّني لم أعد وحدي.. أنتِ معي.. شكرًا لك.

فتشبّثت به وهمست:

– أنا الذي أشكرك على السعادة التي تمنحها لي.

لم تكمل الجملة لأنّه التقم شفتيها في قبلةٍ طويلة وغابا في نوبة حبٍّ جديدة.

35

فشلت التجربة في صالون عطا الله لكنّ جليل القوصي لم ييأس. كان يعلم أنّه ما زال في البداية وأنّ مهمّته ليست سهلة. لم يتوقّع أن ينجح من أول مرّة. إنّه لا يكتب تقريرًا عن محاضرةٍ أو ندوةٍ أو حتّى ظاهرة لفتت نظره. إنّه يشتبك في مناقشةٍ مع أشخاصٍ لا يعرفهم حتّى يكتشف أعداء الثورة. يجب أن يمارس النقد الذاتيّ حتّى يتلافى الأخطاء التي ارتكبها في صالون الحلاقة. لماذا لاذ الزبائن بالصمت عندما تحدّث عن حرب اليمن؟ هل كان في مظهره أو طريقته ما جعلهم يشكّون فيه؟ لو كان قدّم لهم نفسه أولًا وأخبرهم بمهنته هل كانوا سيطمئنّون ويتكلّمون؟! هل ألحّ عليهم بطريقةٍ مريبة؟ هل كان من الأفضل أن يندمج معهم في أحاديث عامّةٍ قبل أن يتطرّق إلى حرب اليمن؟ سوف يتلافى كلّ هذه الأخطاء ويحاول من جديد. عاد إلى البيت وتناول الغداء ونام ساعة ثمّ أخذ حمّامًا ونزل إلى القهوة التجاريّة. كان الجرسونات جميعًا يعرفونه. جال جليل بنظره في أنحاء القهوة ووجد مجموعةً من الرجال جالسين معًا. كان اثنان منهم يلعبان الطاولة بينما الباقون يدخّنون الشيشة وهما يراقبون اللعب باستمتاع. جلس جليل على مائدةٍ بجوارهم وقال بصوت مرتفع:

– السلام عليكم.

ردّوا السلام بحرارة. ابتسم وقال بودّ:

– أخوكم جليل القوصي. محاسب في مصنع كازان للشوكولاته وساكن فوق القهوة في الدور الأول.

ردّ أحدهم قائلًا:

– يا أهلًا وسهلًا. أنا سعد هجرس، قبطان على المعاش.

تطلّع إليه جليل. كان رجلًا جاوز السبعين، نحيفًا، أشيب تمامًا. وجهه ما زال يحمل بعض الوسامة برغم التجاعيد الكثيفة. قدّم

الباقون أنفسهم. كانوا موظّفين في جهاتٍ حكوميّة مختلفة. طلب جليل فنجانًا من القهوة.

اندمج الحاضرون في مناقشةٍ عن كرة القدم. كان القبطان سعد يشجّع نادي الزمالك وكان اثنان من الجالسين يشجّعان النادي الأهلي وبدأت مشاحناتٌ وديّةٌ ضاحكة عن مباريات الفريقين في الدوري وخطر لجليل أنّ الحديث عن كرة القدم سيكون مفيدًا لأنّه سيجعل الجالسين على طبيعتهم قبل أن يبدأ الحوار الذي جاء من أجله. هتف جليل بمرح:

– بصراحة يا عمّ سعد ما تزعلش منّي. واضح أنّك زملكاوي لكن الحقّ أحقّ أن يُتّبع.. النادي الأهلي فيه أعظم لعّيبة في مصر. عندكم في الزمالك لعّيبة زيّ صالح سليم أو رفعت الفناجيلي أو طه إسماعيل؟!

ضحك أحد الجالسين وصفّق وصاح:

– اهو كده الكلام يا أستاذ، ينصر دينك!

صاح القبطان سعد مداعبًا جليل:

– بلاش كلام الأهلويّة ده يا أستاذ جليل ما تزعلنيش منّك. يعني حمادة إمام وعبده نصحي ويكن وعصام بهيج ما ينفعوش؟ دول أحسن من لعّيبة الأهلي بكثير. ما تنفعش المقارنة أساسًا!

استمرّ الحديث الضاحك فترة ثمّ قال جليل بتأثّر:

– الواحد نفسيّته تعبانة. قلت أنزل القهوة أتكلّم مع الناس.

قال عمّ سعد:

– خلّيها على الله يا أستاذ جليل. ما حدّش خالي من الهمّ.

بدأ جليل بشكوى عاديّة من كثرة العمل في مصنع كازان واستجاب له الجالسون بشكاوى مشابهة من ضغط العمل وضحك القبطان سعد وقال:

– الحمد لله أنا على المعاش. ربّنا تاب عليّ من وجع القلب.

بعد ذلك راح جليل يراقب اللعب. كانت لديه فكرةٌ بسيطة عن الطاولة جعلته يقترح بعض التحرّكات على اللاعبين. ثمّ انتهى الدور فابتسم جليل وقال للجالسين:

– على فكرة يا جماعة. لو حدّ فيكم عنده مناسبة خطوبة ولا فرح ومحتاج شوكولاته يبقى يقول لي وأنا أعمل له خصم محترم.

دمدم الحاضرون ممتنّين وقال أحد الجالسين:

– ابني ناوي يخطب قريب. نبقى نشتري الشوكولاته من عندكم.

أخرج جليل بطاقته وأعطاها للرجل وقال:

– حضرتك اتّصل بي في أيّ وقت وأنا تحت أمرك.

بعد كلّ هذا الإعداد، حانت اللحظة المناسبة فقال جليل بأسى:

– عندى مهمّة صعبة ادعولي ربّنا يعينّي عليها.

– خير إن شاء اللّه؟

سكت جليل لحظة وقد بدا عليه الهمّ ثمّ حكى عن قريبه الذي فقد ابنه المهندس الشابّ في اليمن ثمّ قال:

– نفسي حدّ يفهمني. مال مصر ومال اليمن؟ حدّ يفهّمني الغرض من أنّنا نبعث الجيش المصري إلى اليمن؟

ظلّ جليل يحدّق فيهم وينتظر الإجابة. ساد الصمت بين الجالسين ولم يعلّق أحد. فجأةً قال القبطان سعد وهو يحرّك بيده مبسم الشيشة:

– الحقيقة ببساطة أنّ عبد الناصر ديكتاتور. عاوز يثبت أنّه زعيم الأمّة العربيّة حتّى لو مات ألوف الشباب.

أحسّ جليل بالراحة. أخيرًا وجد من يبحث عنه. قال للقبطان سعد:

– يعني حضرتك رأيك أنّ عبد الناصر ورّطنا في حرب اليمن؟

ردّ سعد بحماسة:

– معلوم.. كلّ ما يهمّ عبد الناصر أنّه يستمرّ في السلطة ويحقّق مجده الشخصيّ بأيّ ثمن.

رسم جليل تعبير استياءٍ على وجهه وسأل باستنكار:

– للدرجة دي عبد الناصر مجرم ما عندوش ضمير؟! يبعت آلاف الضبّاط والعساكر لأجل يموتوا لمجرّد إثبات زعامته؟

ساد صمتٌ متوتّر وقال أحد الجالسين:

– يا عمّ سعد احنا جينا نقعد في القهوة ساعة لأجل نتسلّى ونرفّه عن نفسنا وأنت حتكلّمنا في السياسة والحرب؟

وقال الرجل الجالس بجواره:

– غيّر الموضوع يا عمّ سعد من فضلك.

ضحك سعد وقال:

– انتم خايفين تتكلّموا؟

ردّ الرجل:

– معلوم أنا خائف. الحرص واجب. ما ينفعش نتكلّم في السياسة واحنا قاعدين في الشارع.

قال رجلٌ بدين وأصلع من الجالسين:

– أنت يا عمّ سعد تعتبر أيّ حدّ مختلف معك خايف يتكلّم؟! أنا مش خايف وفعلًا مقتنع بأنّ عبد الناصر زعيم عظيم.

– يعني حضرتك مؤيّد لأنّنا ندخل حرب اليمن.

هكذا سأله جليل فأجاب:

– أنا أثق بأيّ قرار يتّخذه الرئيس عبد الناصر.

صاح عمّ سعد معترضًا:

– بالذمة ده كلام ناس عاقلين؟ عبد الناصر لا هو إله ولا هو نبي. يعني إيه توافق على أيّ قرار يتّخذه؟! ربّنا أعطاك عقل تفكّر به يا وفيق.

تطلّع وفيق إلى سعد بلومٍ لا يخلو من ودّ وقال:

– أنا حرّ يا عمّ سعد. أنا وكلّ المصريّين والعرب نحبّ الزعيم عبد الناصر ونثق به.

ضحك سعد وقال:

– يا أستاذ جليل لازم تعرف أيضًا أنّ الأخ وفيق ناوي يرشّح نفسه في مجلس الأمّة. يعني هو صاحب مصلحة في تأييد النظام.

قال جليل ليحافظ على اتّجاه الحوار:

– بغضّ النظر عن التوجّهات السياسيّة.. احنا بنناقش حرب اليمن.

قال عمّ سعد بمرارة:

– حرب اليمن دي فخّ دخله عبد الناصر نتيجة غروره وعناده.

قال وفيق:

– عندما يخوض الرئيس عبد الناصر معركة وطنيّة فإنّ واجبنا جميعًا أن ندعمه مهما كنّا مختلفين على سياساته.

جذب عمّ سعد نفسًا عميقًا من الشيشة ثمّ أطلقه في سحابةٍ من الدخان وقال بهدوء:

– يعني يا سي وفيق أنت عاوز المصريّين كلّهم يساندوا الرئيس في معاركه الوطنيّة؟! طيّب افترض أنّي ضحيّة للنظام، وما أكثرهم..

إذا كان الرئيس عبد الناصر ظلمني وشرّدني أسانده على أيّ أساس؟

أدرك جليل أنّه مقبلٌ على مناقشةٍ ساخنة فتقدّم بمقعده قليلًا حتّى يسمع الحوار بوضوحٍ وسط ضجّة المقهى. قال وفيق:

– سيادة الرئيس عبد الناصر لا ظلم حد ولا شرّد حد.

اندفع القبطان سعد بحماسة:

– عبد الناصر لا ظلم حد ولا شرّد حد؟ يا رجل حرام عليك.. عشرات الألوف في المعتقلات وعائلاتهم تتسوّل. مجرّد أنّك تجمع تبرّعات لأسر المعتقلين يقبضوا عليك ويرموك في السجن الحربي. عبد الناصر عمل إيه في الإخوان المسلمين؟ استعملهم ضدّ الوفد ولمّا استقرّ في الحكم قلب عليهم ورماهم في السجون. عبد الناصر عمل إيه في الشيوعيّين؟ رماهم في المعتقلات لمجرّد أنّ أفكارهم مختلفة عنه. بعد التعذيب والحبس سنين كانوا بيطلبوا من المعتقل الشيوعي أنّه يمضي استنكار لأفكاره لأجل يطلع مذلول طول عمره، واللي يرفض يفضل مرمي في السجن.

– من فضلك، اسمعني.

هكذا قال وفيق لكنّ القبطان سعد استطرد:

– أنت بتطلب من ناس عبد الناصر دمّر حياتهم أنّهم يساندوه ضدّ الاستعمار. عبد الناصر أسوأ من الاستعمار بكثير. الاحتلال الإنجليزي عمره ما عمل في المعتقلين زيّ عبد الناصر.

قال وفيق:

– الثورة بطبيعتها مرحلة غير مستقرّة ودائمًا تشهد تجاوزات.

صاح القبطان سعد:

– يا وفيق دي مش تجاوزات دي جرائم. لازم نسمّي الأشياء بأسمائها الحقيقيّة. الاعتقالات والتعذيب جرائم ضدّ الإنسانيّة. يا أخي تصوّر أنّ عندك شركة أو ورثت أرض عن أسرتك وتصحى الصبح تلاقي عبد الناصر استولى عليها. تصوّر أنّ ابنك أو أخوك معتقل وبيتعذّب ويتهان بقى له سنين بدون ذنب. يبقى تساند عبد الناصر على أيّ أساس؟

– المفروض أن تساند وطنك.

صاح القبطان سعد:

– عبد الناصر ليس الوطن. هو رئيس يُفترض أنّ الشعب يحاسبه ثمّ ما معنى الوطن أساسًا؟ البلد اللي تذلّني وتنتهك إنسانيتي

لا يمكن تبقى وطني.

قال وفيق:

– يا عمّ سعد.. هل تنكر الإنجازات العظيمة للرئيس عبد الناصر؟

سكت عمّ سعد لحظة ثمّ قال بهدوء:

– هناك فعلًا إنجازات كبيرة لكنّها لا تساوي شيئًا أمام اعتقال إنسان أو تعذيبه أو إهانة كرامته. الفرد يصنع الدولة وليس العكس. وظيفة الدولة الأساسيّة والأهمّ هي رعاية الفرد والمحافظة على كرامته.

كان هذا أكثر ممّا يحتاج إليه جليل فنهض واستأذن وصافح الحاضرين بحرارة وقال:

– أشكركم على هذه المناقشة الممتعة والمفيدة. أنا طبعًا أؤيّد عمّ سعد في كلّ ما قاله لكنّي أيضًا استفدت من رأيك يا أستاذ وفيق. فرصة سعيدة يا جماعة.

قال عمّ سعد بودّ:

– شرّفتنا يا أستاذ جليل. نحبّ نشوفك. احنا بنقعد هنا كلّ يوم بعد المغرب.

عاد جليل إلى البيت ولم ينم قبل أن يكتب تقريرًا مفصّلًا عمّا حدث في القهوة التجاريّة. في الصباح قدّم التقرير إلى الأستاذ بدوي الذي بدا مشغولًا وهو يطالع أوراقًا وملفّاتٍ كثيرةً أمامه. تناول منه التقرير ودعاه للجلوس وقال:

– إيه الأخبار؟

ردّ جليل:

– بناءً على تكليف حضرتك، نزلت القهوة التجاريّة وعملت رصد لآراء بعض المواطنين عن حرب اليمن ولقيت شخص رجعي عدوّ للثورة وكتبت كلامه بالتفصيل.

– سجّلت بياناته في التقرير؟

– طبعًا.

– أشكرك يا جليل. سأقرأ التقرير وأرفعه للسيّد الوزير.

سكت بدوي لحظة ثمّ استطرد:

– الآن لدينا مهمّة نزلت علينا فجأة.

– خير يا أستاذ بدوي.

– مسيو توني طلب من الإدارة الماليّة بيان بأرباح المصنع آخر سنتين.

فكّر جليل قليلًا ثمّ سأل:

– لماذا لا ينتظر الميزانيّة السنويّة؟

– من خبرتي تعلّمت أنّ صاحب العمل لمّا يطلب بيان الأرباح قبل حساب الميزانيّة يكون ذلك لأمر من اثنين: إمّا ناوي يستغني عن عدد من العاملين للحفاظ على أرباحه وإمّا أنّه مقدم على قرض لأجل يشتري ماكينات جديدة.

– بيان الأرباح مطلوب إمتى؟

ابتسم بدوي وقال:

– بعد أسبوع.

– ربّنا يسهل.

– شدّ حيلك.

لمدّة أسبوع انهمك جليل تمامًا في العمل. صار يعود كلّ يوم إلى بيته بعد العشاء. وفي صباح الخميس سلّم بيان الأرباح ثمّ استاذن في العودة إلى البيت فأذن له الأستاذ بدوي. عاد إلى البيت في تاكسي وأعدّت له فيفي وجبةً ساخنة سريعة ثمّ خلع ثيابه وارتدى البيجاما وقبّل فيفي على وجنتيها وقال لها:

– أنا تعبان جدًّا. سبيني أنام براحتي.

ما إن وضع رأسه على الوسادة حتّى استغرق في نومٍ عميق لكنّه بعد قليلٍ استيقظ على يدٍ تهزّه برفق. فتح عينيه بصعوبةٍ فرأى فيفي التي همست:

– آسفة يا حبيبي. فيه واحدة ستّ كبيرة بتقول عاوزاك ضروري.

– من دي؟

– رافضة تقول اسمها لكنّها مصرّة تشوفك وبتقول إنّ الموضوع مهمّ ومستعجل.

نهض وارتدى الروب على البيجاما ثمّ خرج إلى الصالة وهو يقاوم آثار النوم. كانت السيّدة جاوزت الستين ترتدي فستانًا وطرحة لونهما أسود. حيّاها جليل فقالت بصوت مرتفع:

– أنا زوجة القبطان سعد هجرس.. فاكره؟

قال جليل بتردّد:

– طبعًا فاكره. أهلًا وسهلًا.

تطلّعت السيّدة إلى جليل بنظرةٍ متفحّصة وقالت:

– القبطان سعد قبضوا عليه. أخذوه من البيت الساعة 4 الصبح.

36

تلك الليلة بدا توني كازان متألّقًا، كان يرتدي بدلةً سوداء أنيقة وقميصًا أصفر بدون رباط عنق. راح يطلق التعليقات المرحة ويضحك مع أعضاء الكوكاس الذين اتّخذوا مقاعدهم حول المائدة وبدأوا بتناول العشاء وكرّروا السؤال عن مناسبة الاحتفال لكنّ توني كان يبتسم بغموضٍ ويقول:

– سأخبركم بعد العشاء.

كان كارلو يخدمهم بنفسه ومعه سفرجي مساعد. أثناء الطعام تبادل الحاضرون تخميناتهم عن مناسبة الدعوة. معظمهم كانوا يعتقدون أنّ توني سيعلن عليهم نبأ خطوبته لامرأةٍ ما. بعضهم راحوا يفكّرون في شخصيّة العروس. هل تكون من بين معارفهم أم أنّ توني اختار وجهًا جديدًا؟!

بعد أن تناولوا الحلوى رفع كارلو الأطباق وأخذ الحاضرون يلحّون على توني:

– توني، هل تظنّ نفسك الرجل الغامض؟

– لقد جعلتنا نحتفل معك بمناسبةٍ لا نعرفها.

هزّ توني رأسه وقال:

– سأخبركم الآن.

مال على حقيبةٍ جلديّةٍ بجواره وفتحها ثمّ أخرج علبةً فضّيةً كبيرة حملها ووضعها على المائدة. رشف بقيّة كأس الويسكي وقال:

– أصدقائي أعضاء الكوكاس. أنا اعتبركم أسرتي ولذلك أحببت أن أشاركم فرحتي. اليوم أنتجنا أول شوكولاته بيضاء في مصر والدول العربيّة. هذه ليست مجرّد شوكولاته جديدة. خلف هذه القطعة الصغيرة من الشوكولاته سنوات من التعب وأموال كثيرة أنفقناها في التطوير والأبحاث وتحديث الماكينات. هذه لحظة استثنائيّة. إنّنا ندخل بصناعة الحلويات في مصر مجالًا جديدًا. لا أستطيع أن أصف

سعادتي. أيّها السيّدات والسادة. أدعوكم إلى تذوّق أول شوكولاته بيضاء في بلدنا.

صفّق الحاضرون بحماسةٍ وارتفعت صيحات التهنئة ثمّ انتقل الجالسون واحدًا بعد الآخر إلى توني ليصافحوه ويعانقوه. وعندما احتضنته شانتال أسرّت له ببعض الكلمات فانفجرا ضاحكين. فتح كارلو الصندوق وأعطى كلّ شخص من الحاضرين قطعةً من الشوكولاته ملفوفةً في غلافٍ بنفسجيّ أنيق يحمل رسم الغزالة واسم مصنع كازان بالعربيّة والفرنسيّة.

قال توني:

– أتمنّى أن تعجبكم.

بدأ الحاضرون بأكل الشوكولاته وتوالت التعليقات:

– لذيذة جدًّا.

– طعمها رائع.

– لولا أنّي أعرف أنّها مصنوعة في الاسكندريّة لاعتقدت أنّها من سويسرا.

– فعلًا كأنّها شوكولاته سويسريّة.

قال كارلو:

– توني. تكلّم. نريد أن نسمعك.

بدا على توني التأثّر وقال:

– في لحظات النجاح أتذكّر دائمًا بداية الرحلة. كيف تعلّمت صناعة الشوكولاته في لندن وكيف تشاجر أبي معي وقاطعني واعتبرني فاشلًا عندما قرّرت أن أفتح المصنع. أتذكّر المال الذي اقترضته من أمّي وأتذكر الجهد الرهيب الذي بذلناه أنا وزملائي العمّال من أجل هذا النجاح. أصدقائي، أنا شخصٌ محظوظ وسعيد.

صفّق الحاضرون بحرارة وقالت ليدا:

– هناك كلمة لن يقولها توني ولذلك سأقولها أنا. لقد عرفت توني عن قرب لأنّنا كما تعلمون كنّا يومًا ما أسرة واحدة.

صاح توني:

– ليدا، ما زلنا أسرة واحدة.

ابتسمت ليدا واستطردت وقد بدا عليها الانفعال:

– إنّ توني يتواضع كثيرًا عندما يقول إنّه محظوظ. الحظّ لا علاقة له بهذا النجاح. لم أرَ في حياتي إنسانًا يبذل مجهودًا في عمله

مثل توني كازان. عزيزي توني هذا النجاح أنت تستحقّه لأنّك دفعت ثمنه بالكامل.

صفّق الحاضرون وتوجّه توني إلى ليدا فاحتضنها وقبّلها على وجنتها ثمّ قال عبّاس:

– كلام ليدا صحيح. أنا كنت زميل توني في فيكتوريا كولدج وكان تفوّقه كاسحًا لدرجة أنّ الطلبة كانوا يتنافسون على المركز الثاني لأنّ المركز الأول كان دائمًا محجوزًا لتوني. صديقي توني أهنئك على النجاح الجديد وأثق بأنّك ستستمرّ من نجاح إلى نجاح.

تقدّمت شانتال إلى وسط القاعة وصاحت:

– هل سنقضي الليلة في إلقاء الخطب والتصفيق؟ نريد أن نغنّي ونرقص. كارلو، أين الموسيقى؟

وارتفعت الأصوات تؤيّد الاقتراح.

كان هناك جهاز بيك آب ومجموعة أسطوانات في ركن القاعة بجوار التليفزيون.

قال كارلو:

– ماذا تريدون أن تسمعوا؟

ردّت شانتال:

– سنترك لك الاختيار.

توجّه كارلو إلى البيك آب ووضع في البيك آب أسطوانة «يا مصطفى يا مصطفى» من غناء شابّ سكندريّ اسمه بوب عزّام. كانت الأغنية ملائمةً تمامًا للاحتفال، الكلمات فرانكو آراب بالعربيّة والفرنسيّة واللحن راقص يبدأ بعزف الفلوت على إيقاع الطبلة الشرقيّة الذي يستمرّ طوال الأغنية.

Chéri je t'aime

Chéri je t'adore

Como la salsa de pomodoro

يا مصطفى

يا مصطفى

أنا بحبّك يا مصطفى

سبع سنين في العطّارين

دلوقتي جينا

Chez Maxim

تعالا يا مصطفى

يا ابن السرحان

جيب تعميرة عجمي

ولفّ ع الجيران

واما ييجي جدّو جدّو

يشرب على كيفه كيفه

Quand je t'ai vu sur le balcon

Tu m'as dit monte et ne fais pas d' façon

Chéri je t'aime

Chéri je t'adore

Tu m'as allumé avec une allumette

Et tu m'as fait perdre la tête

برغم بساطة الكلمات أشاعت الأغنية البهجة في أنحاء القاعة فراح كارلو ومساعده يتمايلان وأخذ أنس يرقص أمام ليدا بينما عبّاس ونهى يرقصان في أقصى القاعة واحتضنت شانتال توني وراحا يرقصان معًا. استعاد أعضاء الكوكاس الأغنية مرّةً أخرى واستأنفوا الرقص. كانوا سعداء جميعًا بنجاح صديقهم توني وكانت الأغنية تذكّرهم بالاسكندريّة التي وُلدوا وعاشوا حياتهم فيها وأحبّوها. في وسط المرح والرقص لم ينتبه أحدٌ إلى رجلٍ في الثلاثينيّات دخل فجأةً يتبعه اثنان بدوَا وكأنّهما مساعداه. مرّت لحظات حتّى لمح كارلو الرجال الثلاثة فأوقف الموسيقى. تقدّم الرجل خطواتٍ حتّى صار في وسط القاعة ثمّ قال بصوتٍ مرتفع:

– مساء الخير يا حضرات. أنا الرائد علي محسن من مباحث قسم الرمل. آسف للإزعاج.

اقترب منه عبّاس القوصي وقال:

– خير يا حضرة الضابط. أنا عبّاس القوصي المحامي.

تطلّع إليه الضابط بنظرةٍ صارمة وقال:

– مواعيد العمل القانونيّة في المطعم حتّى الساعة 12 والساعة الآن واحدة ونصف الصبح.

– المطعم مغلق فعلًا يا حضرة الضابط.

ابتسم الضابط وقال:

– لما المطعم مغلق أنتم بتعملوا إيه هنا؟

– مع احترامي يا حضرة الضابط. القانون حدّد وضع المحلّ المفتوح بشرطين أولًا أن تكون أبواب المحلّ مفتوحة وثانيًا أن يستقبل المحلّ الزبائن بدون تمييز. هذان الشرطان لا ينطبقان على الوضع الذي نحن فيه. أولًا أبواب المحلّ مغلقة ثانيًا نحن لسنا زبائن نحن أصدقاء صاحبة المحلّ ونحن نحتفل بمناسبة خاصّة وبالتالي فنحن لم نخالف القانون في شيء.

بدا الضيق على وجه الضابط وقال باستخفاف:

– شغل المحامين بدأ.

– شغل المحامين هو القانون اللي يُفترض أنّ واجبك تنفيذه.

– أنت كمحامي أكيد عارف أنّنا خاضعين لقانون الطوارئ وبالتالي من حقّ جهة الإدارة أن تتّخذ أيّ إجراءات لحفظ الأمن.

ساد الصمت ثمّ سأل الضابط بلهجةٍ رسميّة:

– من المدير المسؤول للمطعم؟

قال كارلو بدون تفكير:

– أنا المدير المسؤول.

– اسمك إيه؟

– كارلو ساباتيني.

صاحت ليدا:

– وأنا صاحبة المطعم.

نظر إليها الضابط وفكّر لحظة ثمّ قال:

– شكرًا يا مدام، احنا حنتعامل مع كارلو.

أعطى أحد المخبرين الضابط ورقةً مطبوعة فكتب عليها بعض البيانات ثمّ ناولها لكارلو وطلب منه التوقيع لكنّ عبّاس اعترض وصاح:

– إيه الورقة دي؟

– طلب استدعاء لمقابلة السيّد مأمور قسم الرمل.

هكذا أجاب الضابط بدون أن ينظر إلى عبّاس الذي علا صوته قائلًا:

– يا حضرة الضابط حتّى مع تطبيق قانون الطوارئ فإنّ ما تفعله غير قانونيّ. لو افترضنا أنّ المطعم مفتوح بعد المواعيد المقرّرة يبقى المفروض أنّك تحرّر محضر بالمخالفة وتتحوّل إلى النيابة. مأمور القسم لا علاقة له بالموضوع.

مشى الضابط بضع خطوات حتّى أصبح في مواجهة عبّاس وقال:

– أنا أنفّذ تعليمات السيّد المأمور.

– ده إجراء غير قانوني.

صاح الضابط بغضب:

– أنت لن تعلّمني القانون. اسمع يا أستاذ، أنا تعاملت معك بطريقة مهذّبة حتّى الآن. أتمنّى ألّا أندم على ذلك.

– تعاملك المهذّب ليس تفضّلًا منك وإنّما واجب عليك بحكم وظيفتك وإذا كنت تهدّدنا فأنا أرفض هذا التهديد.

هنا اندفعت شانتال واقتربت من الضابط وصاحت في وجهه بالفرنسيّة:

– ماذا يقول هذا المغفّل؟ (Mais qu'est ce qu'il raconte ce connard?).

نظر إليها الضابط بغيظ وقد أحسّ أنّها تشتمه لكنّ عبّاس جذبها بعيدًا وهمس ببضع كلمات ليهدّئها. وقّع كارلو على الورقة وناولها للضابط الذي قال:

– سيادة المأمور في انتظارك غدًا الساعة 10 مساءً. تصبحوا على خير.

انصرف الضابط يتبعه المخبران وساد صمتٌ ثقيل في المكان. جلس أعضاء الكوكاس إلى المائدة وقال أنس بصوتٍ مرتفع:

– مسألة مزعجة.

قال توني:

– أعتذر عن المشكلة التي تسبّبت بها.

ابتسم كارلو وقال:

– لا يوجد ما تعتذر عنه.

قالت ليدا:

– طول عمرنا بنسهر وعمر ما البوليس اعترض.

صاحت شانتال:

– مثل هذه الأشياء لا تحدث إلّا في مصر. تطبيق انتقائي للقانون. كلّ ليلة نسهر حتّى الثالثة صباحًا ولا يعترض أحد وفجأةً الليلة يكتشف الضابط أنّنا خالفنا المواعيد.

أشعل عبّاس سيجارةً وقال:

– لا أعتقد أنّ المشكلة مواعيد المطعم. هناك شيء غامض.

37

في اليوم التالي أراد أعضاء الكوكاس أن يذهبوا مع كارلو إلى قسم الشرطة لكنّ عبّاس أقنعهم بالانتظار في البار على أن يحضر هو التحقيق بصفته محاميًا. وصل عبّاس وكارلو إلى القسم قبل الموعد بدقائق. كان هناك ضابط شابّ برتبة ملازم جالسًا خلف مكتب في البهو. قام عبّاس بتقديم كارلو ساباتيني إلى الضابط فابتسم ونهض وقال:

– أهلًا وسهلًا. سيادة المأمور منتظرك يا كارلو.

أراد عبّاس الدخول مع كارلو لكنّ الضابط منعه بأدبٍ وحزم ثمّ قاد كارلو إلى مكتب المأمور الذي كان جالسًا إلى مكتبه وأمامه شخصٌ آخر في زيٍّ مدنيّ. رحّب المأمور بكارلو ودعاه للجلوس وطلب له قهوة ثمّ ابتسم وأشار إلى الرجل الآخر وقال:

– أقدم لك المقدّم معتزّ من المخابرات العامّة. سيادته طلب يقابلك.

استأذن المأمور وخرج من باب جانبيّ بينما جلس المقدّم معتزّ إلى المكتب. كان شابًّا وسيمًا في نهاية الثلاثينيّات، ثيابه أنيقة، مهذّب يتحدّث بصوتٍ هادئ وبرغم ذلك فإنّ تعبيرًا قاسيًا يعبر وجهه أحيانًا فيزمّ شفتيه ويحدّق بقوّةٍ في عينَي من يكلمه. ابتسم المقدّم معتزّ وقال:

– أهلًا يا كارلو، شرّفتنا.

– شكرًا يا فندم.

– أنا طلبت أشوفك عن طريق القسم منعًا للشوشرة.

– هي المشكلة أنّي فتحت البار بعد المواعيد المسموحة؟

ضحك المقدّم معتزّ وقال:

– لا طبعًا. المواعيد مجرّد حجّة. أنا عاوزك في موضوع ثاني.

تنحنح كارلو وقال:

– اسمح لي سيادتك. الأستاذ عبّاس القوصي المحامي موجود معي. أستأذنك يحضر التحقيق؟

– أنا وأنت في لقاءٍ ودّي وليس تحقيقًا رسميًا وبالتالي لا نحتاج إلى محامٍ.

– أنا أعرف أنّ حضور المحامي يُعتبر حقّي القانونيّ.

بدا الضيق على وجه معتزّ وقال:

– يعني أنا أحترمك وأعاملك بودّ وأنت تقول لي حقّي القانوني؟! طيّب يا سي كارلو. أنا الوحيد اللي يحدّد حقّك القانوني. إيه رأيك؟

سكت كارلو واستطرد معتزّ بلهجة تهديد.

– أحسن لك نتعامل كأصدقاء. لو غضبت منك حتكون العواقب سيّئة.

جاءت القهوة وكانت فرصةً لالتقاط الأنفاس. انتزع المقدم معتزّ بطاقةً من محفظته وناولها لكارلو وقال:

– ده رقم تليفوني وعنوان مكتبي. لو احتجتني اطلبني في أيّ وقت.

– شكرًا.

دسّ كارلو البطاقة في جيبه بينما رشف معتزّ من فنجان القهوة وقال:

– في البداية، خلّينا نتّفق أنّ مصر في حالة حرب مع أعداء في الداخل والخارج.. موافق يا كارلو؟

– موافق.

– وفي حالة الحرب كلّ شيء مباح، صحّ؟

– صحّ.

– يعني القتل في الظروف العاديّة يُعتبر جريمة لكن القتل في الحرب يُعتبر بطولة.

ارتبك كارلو وقال:

– بصراحة سيادتك أنا لا أفهم في السياسة.

قال المقدّم معتزّ باستياء:

– اسمع كلامي للآخر.

قال كارلو:

– آسف يا فندم لكن أنا فعلًا حياتي كلّها في شغلي.

تفحّصه المقدّم معتزّ بنظرةٍ قويّة وقال:

– بصّ يا كارلو. أنا أعرف عنك كلّ حاجة. أدقّ أسرارك موجودة عندي. تحبّ أعطيك أمثلة؟ آخر ستّ رافقتها اسمها سميحة متزوّجة ومعيدة في كليّة الآداب.

أطرق كارلو صامتًا واستطرد المقدّم معتز:

– أقول لك مثل ثاني؟ أمّك مارتا ساكنة في كامب شيزار وبتعمل سهرات بوكر وسكرتير أمّك الخصوصي اسمه جابر.

نطق الجملة الأخيرة بتهكّمٍ وأحسّ كارلو بغضب فقال:

– ممكن سيادتك تقول لي المطلوب منّي؟

ضحك معتزّ وقال:

– حيلك حيلك.. لازم في الأول أقول لك على مصائبك كلّها. أنت يا كارلو بتنظّم قعدة خاصّة كلّ ليلة بعد ما تقفل المطعم. المجموعة اللي بتقعد عندك اسمهم أعضاء الكوكاس. طبعًا أنت عارف أنّ الكوكاس تعبير أمريكي معناه اجتماع دوري لناس لهم أفكار سياسيّة. يعني حتّى اسم المجموعة دليل ضدّكم. كلّ ليلة بتحرّضوا ضدّ الدولة وبتهاجموا سيادة الرئيس عبد الناصر.

– ما حصلش يا فندم.

تنهّد المقدّم معتزّ وكأنّ صبره نفد ثمّ قال:

– الإنكار مش حيفيدك. كلّ الكلام اللي قالوه أعضاء الكوكاس ضدّ مصر سجّلناه وهو موجود تحبّ أسمّعه لك؟

لم يردّ كارلو واستطرد معتزّ:

– بموجب التسجيلات اللي عندي المفروض أقبض عليك وأحيلك للمحاكمة بتهم كثيرة: تنظيم اجتماعات غير قانونيّة والإساءة لرئيس الجمهوريّة والحضّ على كراهية الدولة وإثارة البلبلة وتهديد السلم الاجتماعي. التهم دي ترميك في السجن عشر سنين على الأقلّ.

قال كارلو:

– يا فندم اللي طلّع علينا اسم أعضاء الكوكاس ده القنصل الأمريكي السابق وكان معتبر الموضوع نكتة.

– القنصل الأمريكي مش شغلته يقول نكت يا كارلو وهو كان قطعًا بيسجّل كلامكم ضدّ سيادة الرئيس ويبعث به تقارير لواشنطن.

ابتسم كارلو بعصبيّة وقال:

– يا فندم واللّه الموضوع بسيط. مجموعة أصدقاء بيقعدوا بالليل يشربوا ويتكلّموا في أيّ موضوع وكلّهم ناس محترمين.

قاطعه معتزّ بحدّة:

– أعداء الثورة هم أعداء مصر. لا يمكن يبقوا محترمين.

ساد صمتٌ ثقيل ثمّ قال المقدّم معتزّ:

– عمومًا أنا أوقفت أمر القبض عليك. لازم تعرف أنّي منعت عنك مصيبة. لكن للأسف اكتشفت مصيبة ثانية.

هكذا قال معتزّ وفتح ملفًّا أمامه وأخرج منه صورةً فوتوغرافيّة ناولها لكارلو وقال:

– تعرف الرجل اللي في الصورة؟

نظر كارلو إلى الصورة وفكّر لحظة ثمّ قال:

– أيوه ده رجل ألماني بيشتغل مربّي خيول.

– اسمه إيه؟

– مش فاكر اسمه لكن هو تعشّى عندنا في المطعم مع زوجته.

– كم مرّة؟

– مرّتين أو ثلاثة.

– تصوّرت معه؟

– مش فاكر.

مدّ المقدّم معتزّ يده وأعطى كارلو صورة تجمعه بالألماني وزوجته وقال بصوتٍ مرتفع:

– الصورة دي يمكن تفكّرك.

تناول كارلو الصورة ولاذ بالصمت واستطرد المقدّم معتزّ:

– الرجل الألماني ده اسمه فولفجانج لوتز مقيم في مصر من أربع سنين وقدّم نفسه على أنّه مربّي خيول واشترى فعلًا مزرعة خيول في منطقة الهرم خصّصها لتربية الخيول والتجارة فيها. لكنّنا اكتشفنا أنّ حكاية الخيول مجرّد غطاء وأنّ لوتز جاسوس بيجمع معلومات لصالح إسرائيل فقبضنا عليه وهو قدّم اعتراف كامل سجّلنا ه صو ت وصورة . لوتـ ز وزوجتـ ه حاليًّ ا محبوسيـ ن فـ ي انتظار المحاكمة. طبعًا واجبنا أنّنا نتابع كلّ الاتّصالات اللي قام بها في مصر وأنت من ضمن الناس اللي تعامل معهم الجاسوس.

بدا التوتّر على كارلو وقال:

– أنا قلت لسيادتك إنّه مجرّد زبون عادي في المطعم.

– ولمّا هو زبون عادي تصوّرت معه ليه؟

– يا فندم أنا تصوّرت مع زبائن كتير.

– يعني لوتز ما كانش صديقك.

– لا.

– ولا كنت بتقابله على انفراد بعيد عن المطعم؟

– ما حصلش.

– ولا أعطيته معلومات مقابل أجر.

– ما حصلش.

ابتسم المقدّم معتز وقال بهدوء:

– وأنا أصدّقك ليه؟ ما يمكن أنت كذّاب.

بدا الخوف على وجه كارلو وقال:

– يا فندم.. واللّه أنا بأقول الحقيقة.

– مهما حلفت لي كلامك لا يُعتدّ به. الإجراء الصحيح أنّي أقبض عليك وتتحوّل للمحاكمة بتهمة التجسّس والإضرار بالأمن القومي والقضاء يحدّد براءتك أو إدانتك.

أطرق كارلو صامتًا فضحك المقدّم معتزّ وقال:

– شفت؟ أنت المفروض تتحاكم مرّتين. مرّة لأجل اجتماعات الكوكاس ومرّة لأجل الجاسوس الألماني. أنا أنقذتك من السجن مرّتين.

– شكرًا يا فندم.

هكذا تمتم كارلو بصوتٍ خافت، أشعل المقدّم معتزّ سيجارةً أخرى وقال بهدوء:

– قل لي يا كارلو.. هل تعتبر نفسك مصري؟

– طبعًا..

– لكن أنت إيطالي.

– أنا أروح ايطاليا زيارة لكن مصر بلدي. أنا مولود في اسكندريّة وأهلي كلّهم مواليد اسكندريّة.

قال المقدّم معتزّ:

– كونك مولود في مصر مش معناه أنّك مصري. لازم تثبت لنا أنّك بتحبّ مصر.

– أنا بأحبّ مصر يا فندم.

– يعني لو كلّفتك بمهمّة لمصلحة مصر تعملها؟

– طبعًا.

نحّى معتزّ الملفّ الذي يحتوي على صور الجاسوس وفتح ملفًّا آخر ثمّ ضحك وقال:

– الملفّ ده فيه كلّ حاجة عن غرامياتك. بصراحة لازم أسجّل إعجابي. أنت غلبت دون جوان يا جدع. إيه كلّ النسوان دي يا كارلو؟! يظهر ما فيش واحدة ستّ تقدر تقاومك. لو كنت مكانك كنت أكتب مذكّراتي. حيبقى كتاب Best Seller وحيعمل لك ثروة كبيرة.

اصطنع كارلو ابتسامة وقال معتز:

– أنت عندك موهبة كبيرة مع الستّات واحنا عاوزينك تستعمل موهبتك لخدمة مصر. موافق؟

– موافق.

جذب معتز نفسًا عميقًا من السيجارة ثمّ قال:

– الظروف تفرض علينا أحيانًا اللجوء إلى أساليب ممكن نعتبرها غير أخلاقيّة لكنّها ضروريّة لأنّها تحقّق مصلحة الوطن. استعمال النساء في المخابرات موجود في دول العالم كلّها واحنا في مصر لا يمكن نتخلّف عن هذه المنظومة. احنا حنكلّفك بإقامة علاقات جنسيّة مع بعض النساء بغرض تجنيدهم للمخابرات.

قال كارلو:

– ممكن سيادتك تشرح لي المطلوب منّي؟

– كلامي واضح. واحدة ست عاوزين نجنّدها للمخابرات. أنت حتقابلها وتعمل معها علاقة واحنا نصوّرها بالفيديو ونضبطها معك ونسيطر عليها ونجنّدها. أنت كلّ شغلتك أنّك تنام معها وسيب الباقي علينا. طبعًا دي مهمّة وطنيّة وفي نفس الوقت شغلة لذيذة ومجزية. بعد كلّ عمليّة حتقبض مكافأة كبيرة.

ظلّ كارلو صامتًا واستطرد المقدّم معتزّ قائلًا:

– أوّل مهمّة حنكلّفك بها في غاية الأهمّية. اسمعني بتركيز.

– تفضّل يا فندم.

– فيه وزير خارجيّة من بلد عربي محكوم بنظام رجعي. الرجل ده من أكبر أعداء الثورة المصريّة وسبّب لنا أضرارًا كثيرة. هو قادم إلى مصر لأجل يحضر مؤتمر دولي في القاهرة وحيجيب معه زوجته. زوجته اسمها أريج وهي ليست فوق مستوى الشبهات. يعني

بصراحة ستّ منحلّة. هو حيقعد معها في هيلتون القاهرة مدّة المؤتمر ويرجع بلده وأريج حتقضي كم يوم في اسكندريّة لأجل تشوف مزاجها. هي عمرها ما تصاحب عرب منعًا للقيل والقال. بتصاحب أجانب فقط. أظنّ دي لعبتك يا بطل. أنت تقدّم نفسك باعتبارك إيطالي وتعمل علاقة مع أريج واحنا نصوّرها ونسيطر عليها. لو عرفنا نجنّد أريج حتكون مصدر معلومات في غاية الأهمّية. عاوزك تستعدّ لأنّ أريج حجزت في أوتيل البوريفاج بعد أسبوعين بالضبط. احنا حنحجز لك جناح في البوريفاج ونجهّز لك كلّ حاجة.

– أنا آسف يا فندم..

– آسف؟

هكذا سأل العقيد باستنكار وردّ كارلو بصوتٍ خافت:

– أنا بأعتذر لسيادتك. صعب عليّ أعمل الموضوع ده.

علا صوت العقيد في غضب:

– يعني أنت عمّال تصطاد نسوان ليل نهار ولمّا تبقى العمليّة لخدمة مصر ترفضها؟

اربدّ وجه كارلو وقال:

– صحيح عندي علاقات نسائيّة كثيرة لكنّها من غير خداع.

– من غير خداع؟! بالذمّة؟! أنت مرافق نسوان متزوّجة.

– أنا عمري ما صوّرت واحدة وهدّدتها.

– إيه الفرق؟

– بالنسبة لي فيه فرق كبير. يستحيل أعمل علاقة مع واحدة وأنا عارف أنّ فيه حدّ بيصوّرها عشان يهدّدها.

– قلت لك دي مهمّة وطنيّة.

– كلّفني سيادتك بأيّ مهمّة تانية وأنا تحت أمرك.

– أنت مكلّف بالمهمّة دي بالذات.

– متأسّف. مش حاقدر أعملها.

– ده رأيك النهائي؟

– أيوه.

– طيّب.. براحتك.. تفضّل مع السلامة.

38

صاحت السيّدة بغضب:

– نفسي أعرف القبطان سعد عمل إيه؟ إيه الجريمة اللي ارتكبها.. احنا ناس محترمين اشتغلنا بشرف وربّينا ابننا أحسن تربية لغاية لما بقى دكتور في أمريكا. اسألوا علينا في اسكندريّة كلّها..

ظلّ جليل صامتًا وبدا التأثّر على وجه فيفي فنظرت إليها السيّدة وقالت:

– تصوّري يا مدام واحد ضابط قدّ ابننا يشتم القبطان سعد ويضربه بالقلم قدّامي.. يا أستاذ جليل، هو غرضكم أنّكم تهينونا وتذلّونا؟ دي تعليمات عبد الناصر؟

ربّتت فيفي على ظهر السيدة وهمست بكلماتٍ لتهدّئها لكنّها لم تتمالك نفسها وبدأت تبكي. تطلّع جليل إليها في صمت ثمّ قال بصوتٍ خافت:

– يا مدام.. اعتقال القبطان سعد والاعتداء عليه شيء مؤسف فعلًا لكن أنا ماليش علاقة بالموضوع.

وسط دموعها تطلّعت إليه السيّدة بنظرةٍ صارمة. بدا واضحًا أنّها لم تأتِ لترجو أو تتوسّل وإنّما لتواجهه بقرار اتّهامه. قالت:

– أصحاب سعد في القهوة قالولي كلّ حاجة.

– قالوا إيه؟

– أنت قعدت معهم وبدأت مناقشة سياسيّة والقبطان سعد قال رأيه وهاجم عبد الناصر. وده السبب أنّكم قبضتوا عليه.

انزعج جليل من كلمة «قبضتوا» عليه وقال:

– أنا محاسب في مصنع شوكولاته كازان. لا أنا ضابط ولا وكيل نيابة.

– إيه تفسيرك أنّه اتقبض عليه بعد كلامه معك أنت بالذات؟

– القبطان سعد قال رأيه في مكان عام قدّام الناس كلّها.. ممكن يكون أيّ حد بلّغ عنه.

– وانت ما بلغتش عنه؟!

– أنا أرفض الكلام بالطريقة دي.

– ارفض على كيفك لكن أنت استدرجت القبطان لغاية لمّا هاجم عبد الناصر وبلّغت عنه.. هي دي الحقيقة.

قرّر جليل أن ينهي اللقاء فنهض واقفًا وقال:

– حضرتك فاهمة غلط وأنا مقدّر ظروفك.. على كلّ حال، سيبي رقم تليفونك وربّنا يقدّم ما فيه الخير.

أخرجت السيدة ورقة وقلمًا من حقيبتها وكتبت رقم التليفون وناولته لفيفي ثمّ نهضت لتنصرف وعندما وصلت إلى الباب استدارت وقالت بصوتٍ عال:

– القبطان سعد عنده اثنين وسبعين سنة. لو مات في السجن أنت المسؤول.. أنا سايباك لضميرك.

لم تنتظر الردّ لكنّها خرجت وأغلقت الباب خلفها بعنف. ظلّ جليل صامتًا ودمدمت فيفي قائلةً بتأثّر:

– واللّه حرام.. رجل كبير ومحترم يهينوه قدّام مراته ويسجنوه.

كانت في لهجة فيفي رسالةٌ ما تجاهلها جليل ودخل حجرته. أغلق الباب واستلقى على الفراش وحاول أن ينام ولكن عبثًا. أخذ يفكّر في ماذا سيحدث للقبطان سعد؟ يجب على الدولة أن تقدّم دليلًا قاطعًا على تمويل القبطان سعد وخيانته. لقد أكّد له بدوي خضير أنّ العناصر الرجعيّة مثل القبطان سعد سيخضعون للتحقيق وإذا تبيّن أنّهم يعبّرون عن آرائهم وليسوا عملاء مموّلين فسيتمّ الإفراج عنهم فورًا.. ثمّ.. إن كان القبض على القبطان سعد ضروريًا فهل كان من الضروريّ أن يصفعه الضابط أمام زوجته؟ من سيحاسب هذا الضابط؟!.. ثمّ ماذا يحدث لو أنّ القبطان سعد لم يتحمّل إهدار كرامته ومات فعلًا في المعتقل.

«أنا سايباك لضميرك..».

ظلّت جملة زوجة القبطان سعد تتردّد في ذهنه. بعد قليل غلبه النوم ولمّا استيقظ بعد المغرب أخذ حمّامًا وارتدى ملابسه ونزل إلى القهوة التجاريّة فوجد مفاجأةً أخرى.

استقبله الجرسونات بحفاوةٍ غير عاديّة وجاء الحاج حسين صاحب القهوة بنفسه ليرحّب به ويسأله إن كان يحتاج إلى أيّ شيء. أصدقاء القبطان سعد وقفوا احترامًا له وصافحوه وهم يتفادون النظر إلى وجهه (وكأنّهم يؤدّون واجبًا ثقيلًا مفروضًا عليهم). كلّ هذه الحفاوة ضاعفت من ضيقه لأنّها تؤكّد، بطريقةٍ ضمنيّة، مسؤوليّته عمّا حدث للقبطان سعد. أنهى جليل شرب القهوة وقرّر أن ينصرف فطلب الحساب لكنّ الجرسون ابتسم بتزلّفٍ وقال:

– سيادتك الحساب خالص.

استغرب جليل وتطلّع إلى الجرسون الذي انحنى قليلًا وقال:

– من فضل سيادتك اسمح لنا نعمل واجب بسيط. وحياة النبي ما تكسفني.

تردّد جليل لحظة ثمّ شكر الجرسون ونهض لينصرف لكنّ الجرسون أخرج ورقةً من جيب سترته البيضاء ثمّ اقترب وهمس:

– أنا طالب خدمة من سيادتك.

شرح له الجرسون أنّ ابنه الكبير قد تمّ تجنيده وأنّ أمّه لا تنام الليل خوفًا من إرساله إلى الجبهة في اليمن ثمّ قال بلهجةٍ متوسّلة:

– طبعًا يا جليل بك سيادتك عندك اتّصالاتك. اعتبره أخوك الصغير.. لو تقدر تخلّيه يعمل تجنيده هنا في اسكندريّة يبقى جميل عمرنا ما ننساه أبدًا.

قرّر جليل أن يتخلّص من الموقف فأخذ الورقة من الجرسون ووعده خيرًا ثمّ انصرف من المقهى وقد قرّر ألّا يعود إليه مرّةً أخرى. في الصباح ما إن وصل إلى المصنع حتّى ذهب إلى الأستاذ بدوي في مكتبه، حيّاه بسرعة وحكى له ما حدث ثمّ قال بانفعال:

– أنا محتاج نصيحتك.

ابتسم بدوي وقال:

– اعتبر ما حدث درسًا لك. عندما تختلط بالناس وتستطلع آراءهم ابعد عن بيتك. لو كنت قابلت القبطان سعد في مقهى بعيد عن بيتك لما عرفت زوجته عنوانك.

ساد الصمت لحظة ثمّ سأله بدوي:

– صعبان عليك القبطان سعد؟

هزّ جليل رأسه فابتسم بدوي وقال:

– هل قال القبطان فعلًا ما كتبته في التقرير أم أنت اختلقت أقواله؟

– طبعًا قال كلّ ما كتبته.

– عندما يشكّك مواطن مصري في الرئيس والجيش ويحرّض ضدّ الدولة.. أليس من العدل أن يتحمّل مسؤوليّة أفعاله؟

ردّ جليل بسرعة:

– لكن الضابط ضربه أمام زوجته.

– أنت سمعت الرواية من طرف واحد. لا بدّ أن تسمع رواية الضابط أيضًا لتحكم بالعدل.

ظلّ جليل صامتًا واستطرد بدوي:

– اسمع يا جليل لو أخذتك الآن إلى سجن الحضرة، ستجد مسجونين بتهم قتل وسرقة واغتصاب. لو أنّك قابلت أولادهم وبكوا أمامك هل ستشفق على المجرمين وتطالب بإطلاق سراحهم؟

– لا.

– هل سمعت عن الجاسوس الألماني لوتز اللي قبضوا عليه من كم يوم؟

– قرأت عنه.

– الجاسوس الألماني لوتز كان ينقل معلومات لإسرائيل عن الجيش المصري يعني كان سيتسبّب بموت آلاف من جنودنا. لو حدث وقابلت زوجته وبكت أمامك فهل ستشفق على الجاسوس وتطلب الإفراج عنه؟

– يستحيل.

– يبقى الدرس النضالي واضح. اعمل واجبك الوطني ولا تشفق على كلّ من يبكي أمامك. فهمت؟

– فهمت.

– لازم تكون متأكّد أنّ ضبّاط الأمن في مصر لا هم هواة ولا هم مجرمون يتلذّذون باعتقال الناس. ضبّاط الأمن في بلدنا على مستوى رفيع من الوعي والمسؤوليّة.. قرار الاعتقال لا يصدر إلّا بعد تحرّيات مفصّلة ودقيقة وتتمّ مراجعته من أكثر من ضابط. والضابط اللي يوقّع الاعتقال يكون مسؤولًا عنه. يعني لازم يكون ضميرك مستريح. أكرّر ما قلته لك.. أيّ شخص تكتب عنه تقريرك سيلقى محاكمة عادلة وسيُفرج عنه إذا ثبتت براءته.

أطرق جليل صامتًا وابتسم بدوي وقال بودّ:

– على فكرة، هناك قرار سنتّخذه قريبًا بتصعيدك في التنظيم الطليعي.

تطلّع إليه جليل بامتنان وقال:

– شكرًا يا فندم.

– أنت تستحقّ التصعيد يا جليل. كلّ ما أطلبه منك أن تقاوم الضعف العاطفيّ الذي ينتابك أحيانًا. احنا في حرب وفي الحرب لا مجال للعواطف.

عندما عاد جليل إلى البيت لاحظ تغيّرًا على وجه فيفي. بدت مشغولة البال ومتردّدة كأنّها تريد أن تقول شيئًا. تصرّف جليل معها بطريقةٍ عاديّة فقبّلها على خدّها وأخبرها بأنّه جائع. في العادة كانت هذه الجملة تدفعها لتحضير الطعام بسرعة لكنّها هذه المرّة توجّهت إلى المطبخ ببطءٍ وحضّرت المائدة على مهل. أثناء الأكل تطرّق جليل إلى موضوعاتٍ متنوّعة لكنّ فيفي ردّت باقتضاب. قام جليل إلى الحمّام ليغسل فمه ويديه ثمّ عاد فوجد فيفي قد أعدّت الشاي. ظلّت صامتة وهي تتفادى النظر إليه ثمّ قالت فجأة:

– أنا كلّمت مدام القبطان سعد أطمئن عليها لقيتها أعصابها منهارة.

– ربّنا يصبّرها.

– لمّا نكبر في السنّ ونبقى عواجيز زيّ القبطان سعد ربّنا ما يحكم علينا نتهان ونتبهدل.

هكذا قالت فيفي بنبرةٍ حادّة. سكت جليل وفكّر كيف يواجه هذا الموقف الذي لم يتوقّعه. هل ينهر فيفي أم يتجاهل كلامها؟ تردّدت فيفي قليلًا ثمّ قالت بتأثّر:

– وحياتي عندك يا جليل حاول تساعد القبطان سعد لأجل يطلع من السجن.

ردّ جليل باستياء:

– أنا لا ضابط ولا قاضي ولا حتّى محامي.

– حاول على قد ما تقدر.

– إن شاء اللّه.

– عندي حاجة لازم أقولها لك لكن من فضلك ما تزعلش منّي.

– خير؟

اقتربت فيفي منه ثمّ انحنت وقبّلت جبينه وقالت بحنان:

– أنت إنسان عظيم وعمرك ما قصّرت معنا أنا ورائف.

– تكلّمي من غير مقدّمات.

تردّدت فيفي لحظة ثمّ قالت:

– أنت محاسب شاطر ومجتهد يا جليل. خلّيك في شغلك وبإذن الله ممكن تفتح مكتب محاسبة باسمك وربّنا يكرمك.

– أنت بتنصحيني في المحاسبة؟

– أنا آسفة يا جليل. أنا عمري ما تدخّلت في شغلك ولا في أيّ حاجة تعملها. لكن أنا خايفة عليك..

انزعج جليل وقال:

– خايفة من إيه؟

– العينة بينة والموضوع واضح. إذا كان القبطان سعد قال كلمتين في القهوة انقبض عليه وتبهدل وانحبس يبقى أنت في الاتّحاد الاشتراكي لو عملت أيّ تصرّف مش على هواهم ممكن تتأذى..

– ربّنا ما يجيب أذى.

هكذا ردّ جليل محاولًا إنهاء الحوار لكنّ فيفي استطردت بحنان:

– يا جليل كفاية وجع قلب. أنت شايل همّ البلد بحالها..

– عضويّة الاتّحاد الاشتراكي واجب وطني.

– وشغلك وبيتك مش واجب وطني؟

– أنا عمري ما قصّرت في حقّ بيتي وأسرتي لكن واجبي أن أدافع عن الثورة ضدّ أعدائها.

– هو القبطان سعد من الأعداء؟!

– القبطان سعد جاري التحقيق معه ولو كان مموَّل من جهة أجنبيّة ستتمّ محاكمته.

– وأنت مالك بكلّ المشاكل دي؟! أنت محاسب. خلّيك في المحاسبة. السياسة لها ناس يعرفوا يستفيدوا منها. احنا السياسة تجيب لنا مصائب..

– أنا مستغرب من رأيك.. أنتِ كنت متحمّسة لدوري في الاتّحاد الاشتراكي..

صاحت فيفي بمرارة:

– يا جليل اسمعني. الستّ زوجة القبطان مقتنعة أنّك بلّغت عنه. حتّى لو كنت ما بلّغتش عنه. بسبب السياسة أصبح فيه ناس بتكرهك وتدعي عليك. احنا ما نقدرش على دعوة المظلوم يا جليل. رسول الله صلّى الله عليه وسلم قال في الحديث الشريف: «اتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ، فإنَّهَا ليسَ بيْنَهَا وبيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ».

نهض جليل وصاح بغضب:

– حتى أنتِ يا فيفي بتقولي «حتّى لو ما كنتش بلّغت عنه؟» يعني عندك شكّ؟ كثّر خيرك يا فيفي..

كادت تقول شيئًا لكنّه قاطعها:

– كفاية يا فيفي من فضلك. أنا أعصابي تعبانة ومحتاج أنام.

لم ينتظر إجابتها بل توجّه إلى حجرة النوم وأغلق الباب خلفه بعنف. بعد حوالي ساعتين عندما استيقظ من القيلولة قرّر أن يتعامل مع فيفي وكأنّها لم تقل شيئًا. أخذ حمّامًا وارتدى ملابسه وشرب فنجان القهوة على مهل ثمّ نزل إلى الشارع. تجنّب المرور أمام القهوة التجاريّة واجتاز الشارع إلى الكورنيش ومشى قليلًا ثمّ جلس على السور الحجريّ أمام البحر. كان يحتاج إلى مواجهة نفسه. بلا مواربة ولا تزييف ولا تجميل. استرجع كلّ ما حدث وكأنّه شريطٌ لفيلمٍ تتابعت مشاهده. تذكّر القبطان سعد وهو يتكلّم أمامه في القهوة ثمّ زوجة القبطان وهي تنذره: «لو مات سعد في السجن تبقى أنت المسؤول.. أنا سايباك لضميرك».

ثمّ ابتسامة فيفي المحرجة المرتبكة وهي تحذّره من دعوة المظلوم. وأخيرًا استعاد كلمات الأستاذ بدوي خضير: «مشكلتك في الضعف العاطفيّ يا جليل..».

قال جليل لنفسه: العمل الثوري مثل الجراحة والقضاء لا علاقة لها بالعواطف. هل يلغي القاضي العقوبة لأنّ المتّهم يبكي؟! هل يقرّر الجرّاح إلغاء العمليّة لأنّ زوجة المريض تبكي؟ القرارات الحاسمة الضروريّة في الحياة يجب ألّا تتأثّر بالدموع. ثمّ هل تعيش مصر في ظروفٍ عاديّة أم هي مستهدفة من الأعداء؟ لو نجح العملاء في تشكيك الشعب وتحريضه وسقطت مصر في الفوضى فكم بريئًا سيموت وكم جنديًا سيُستشهد؟ ثمّ في النهاية، ألا يُفترض أن يتحمّل كلّ إنسان مسؤوليّة ما يقوله؟! لقد أبدى القبطان سعد رأيه على الملأ وأكد أنّه لا يخاف من تبعات هذا الرأي فلا يجوز له الآن أن يبكي

ويتظلّم. لقد اتّخذ موقفًا بكامل إرادته وعليه أن يتحمّل النتيجة. على أيّ حال إذا ثبتت براءته فسيطلق سراحه. الموضوع منتهٍ. اطمأنّ جليل وأحسّ بالراحة وعزم على أن يكمل مهمّته في حماية الثورة. على أنّه قد تعلّم الدرس.. لن يذهب بعد ذلك إلى أيّ مكان يكون معروفًا فيه. استقلّ تاكسي إلى الطابية. كانت هناك قهوة على البحر تمتدّ على ناصيتين. رحّب به الجرسون وجال جليل بنظره فوجد رجلين جالسين في أقصى القهوة فتقدّم نحوهما وحيّاهما ثمّ جلس في المائدة المجاورة. هذه المرّة، بفضل الخبرة، كان يعلم جيّدًا ماذا سيفعل. قدّم نفسه باسمٍ وهميّ، محمود العطّار، محاسب (ولم يذكر مكان عمله). اشترك مع الجالسين في حديثٍ عاديّ ثمّ انتهز لحظة صمت فتنهّد وألقى بعبارته المعتادة:

– يا جماعة كثّر خيركم واللّه فرّجتوا عنّي الهمّ.. أنا جئت من عزاء لابن واحد قريبي.. شابّ مهندس زيّ الورد استشهد في حرب اليمن... منه لله عبد الناصر.

39

أنس

ما إن عاد كارلو وعبّاس إلى البار حتّى اندفعنا جميعًا نسألهما عمّا جرى في قسم الشرطة. قال عبّاس:

– لم يسمحوا لي بالدخول. كارلو قابل المأمور وحده.

تطلّعنا إلى كارلو الذي بدا مرتبكًا وقال:

– كان لقاءً عاديًّا. المأمور أراد التعرّف إليّ.

سألته:

– يعني المفروض ننصرف من هنا الساعة كم؟

أجاب بدون أن ينظر إليّ:

– اقعدوا براحتكم.

قالت شانتال:

– إذا كانت المواعيد ليست مشكلة، فلماذا استدعاك المأمور إذن؟

ردّ كارلو باقتضاب:

– قلت لك كان لقاء تعارف.

بدا واضحًا أنّ كارلو لا يريد أن يحكي ما حدث. صرف الجرسون الذي كان يعمل مكانه وأعدّ لنا كؤوسًا جديدة ثمّ التقط ورقةً بيضاء وكتب عليها بالفرنسيّة بحروف كبيرة: «من فضلكم لا تتحدّثوا في السياسة لأنّهم يتنصّتون علينا».

مرّ بالورقة على الجالسين ولمّا تأكّد أنّهم قرأوها جميعًا. شطب الحروف تمامًا ثمّ مزّق الورقة إلى قطعٍ صغيرة جدًّا وألقى بها في سلّة المهملات. لاذ الحاضرون بالصمت ما عدا شانتال التي صاحت:

– ماذا فعلنا لكي يتنصّتوا علينا؟ إلى أين سينتهي كلّ ذلك؟ لقد أصبحنا نعيش في سجنٍ كبير.

نظر إليها كارلو بغضبٍ وقال:

– شانتال.. من فضلك!

أحسست بتوتّرٍ واستياء. ليس لنا أيّ نشاطٍ سياسيّ وربّما نقضي أيّامًا بدون الحديث في السياسة. ما الخطورة إذا تكلّمنا قليلًا، مجرّد كلام، هل يستدعي ذلك أن يتنصّتوا علينا؟ في الأيّام التالية تغيّر كلّ شيء، لم يعد شيءٌ في مجتمع الكوكاس كما كان. فقدنا جميعًا تلك الحماسة التي كنّا نسهر بها معًا كلّ ليلة. صار معظم أعضاء الكوكاس ينصرفون مبكرًا ويتكلّمون بتحفظ. تحوّلت أحاديثنا إلى ما يشبه الثرثرة المملّة التي تتردّد في الحفلات الدبلوماسيّة. كلامٌ معقّم مكرّر عن الطقس والطعام. أحيانًا كنّا نتحاور بالكتابة كما فعل كارلو. إذا أراد أحدنا أن يعبّر عن رأيٍ سياسيّ يكتبه على ورقة ويريه للجالسين فيردّون عليه بالكتابة. كانت هذه طريقةً مأمونة لأنّ كارلو كان يشطب الكتابة ويمزّق الورقة إلى قطعٍ صغيرة ويلقي بها في سلّة المهملات. كلّ ذلك كان يشعرني بالمهانة. بالنسبة إليّ فقدت سهرات الكوكاس متعتها. لم أخرج من بيتي لمدّة يومين. اتّصلت بي ليدا فقلت لها إنّني عاكف على العمل حتّى أجهّز معرض البورتريه. وفي اليوم الثالث زارتني. بدت مرتبكةً وحزينة. جلست بجواري فأمسكت بيدها وقبّلتها ثمّ احتضنتها فالتصقت بي وشممت رائحة شعرها الجميلة. قالت:

– لماذا انقطعت عن الكوكاس؟

– لم أعد أرغب في الذهاب.
– لماذا؟
– لا أتحمّل فكرة أن يتنصّت عليّ أحد.
– التنصّت ليس فقط في البار ولكنّه في البلد كلّها. من قال لك إنّهم لا يتنصّتون علينا الآن؟
– ماذا تريدينني أن أفعل؟
– انسَ التنصّت يا أنس.. تجاهله.. نحن لا نرتكب جرائم ولا نقول شيئًا خطيرًا. دعهم يتنصّتوا.
– لن أستطيع أبدًا أن أتعايش مع التنصّت.
– كالعادة أنت تبالغ.
– أنا لا أبالغ.. أيّ نوع من المراقبة يشعرني بالإهانة والعجز ويشتّت تفكيري.
– إذن سيكون عليك أن تغادر مصر كلّها.
هكذا قالت ليدا بغضبٍ ثمّ قامت وصبّت لنفسها كأسًا من النبيذ. كانت الساعة السابعة مساءً ولم تكن عادتها أن تشرب مبكرًا. أمسكت بالكأس وجلست بجواري وقالت:
– آسفة لأنّي تكلّمت بغضب.
– ولا يهمّك.
– أنا متوتّرة للغاية.
– واضح.
سكتت قليلًا ثمّ تطلّعت إليّ وقالت:
– هل تابعت موضوع الجاسوس الألماني لوتز؟
– الإعلام المصري يتحدّث عنه ليل نهار.
– هل تعرف أنّ لوتز وزوجته تناولا العشاء عندنا في أرتينوس عدّة مرّات؟
– وماذا في ذلك؟! مطعمك يتردّد عليه مئات الزبائن.
– ألا يمكن أن يحقّقوا معي؟
قلت ساخرًا:
– يحاكمونك بتهمة إطعام الجاسوس؟

- بل سيحققون معي للحصول على معلومات عن الجاسوس.
- وهل لديك معلومات عنه؟
- طبعًا لا لكنّهم لن يصدّقوني.
- حتّى لو حقّقوا معك. أنتِ لم ترتكبي أيّ خطأ.
ردّت ليدا بحدّة:
- أنس.. أنا مختلفة عنك.. أنت تجد متعةً ما في تحدّي السلطة. أنا إنسانة بسيطة. كلّ ما أطمح إليه أن أعمل وأكسب وأربّي صوفيا وأعيش معك.
تأثّرت من جملتها الأخيرة فقلت:
- لا أريدك أن تتحدّي السلطة لكنّي ببساطة لا أجد سببًا لقلقك. افترضي أنّ شخصًا تناول العشاء في مطعم أرتينوس ودفع الحساب ثمّ انصرف وارتكب جريمة قتل. هل تكونين مسؤولة عن الجريمة؟
- كلامك منطقيّ لكن السلطة في مصر ليس لديها منطق.
أشعلت سيجارةً ملفوفة وقلت:
- غير صحيح.. الديكتاتور يتصرّف وفقًا لمنطقه الخاصّ. عبد الناصر تلقّى عدّة هزائم موجعة. أولًا حدث انقلاب في سوريا فانهارت الوحدة بينها وبين مصر، ثانيًا حاول عبد الناصر التخلّص من المشير عامر لكنّ الجيش كاد يتمرّد فتراجع عبد الناصر عن عزل المشير. بعد ذلك أرسل عبد الناصر قوّات إلى اليمن لتدعيم الجمهوريّين ضدّ الملكيّين وكان يظنّ العمليّة سهلة لكنّه تورّط في معركة طويلة ومكلفة لن يستطيع أن يحسمها أبدًا. لذلك كان اكتشاف الجاسوس لوتز فرصةً لكي يحسّن النظام من صورته. كيف نجح لوتز في التجسّس لمدّة أعوام بدون أن يكتشفه أحد؟ وكيف نجح هذا الرجل في عقد صداقات مع أكبر قيادات في مصر؟ في أيّ دولة ديمقراطيّة هذه الأسئلة لا بدّ من

الإجابة عنها، لكنّنا في مصر. النظام العسكري فوق المحاسبة وهو يعتمد على القمع والبروباجندا.

صبّت ليدا لنفسها كأسًا جديدة وقالت بصوتٍ خافتٍ كأنّها تكلّم نفسها:

– لو سألوني عن لوتز سأقول لهم كلامك. إذا تناول شخص الغداء عندي ثمّ ارتكب جريمة.. فهل أكون مسؤولة عن جريمته؟

لم أعلّق. رشفت ليدا من الكأس وقالت:

– أنا حزينة من أجل كارلو.

قلت:

– فعلًا. كارلو يبدو كأنّه يعاني من أزمة. هل تحدّثت معه؟

– نعم.

– ما مشكلته؟

– يقول إنّه مجرّد إرهاق العمل. لا أصدّق ذلك. أنا أعرفه جيّدًا. هناك شيءٌ ما حدث في لقائه مع المأمور وهو يخفيه. أعتقد أنّ عبّاس يعرف.

– طبعًا عبّاس يعرف لكنّه لن يبوح بأسرار موكّليه. ماذا نستطيع أن نفعل من أجل كارلو؟

– مجرّد أن نقابله كلّ ليلة ونتكلّم معه. أعتقد أنّ وجودنا معه سيخفّف عنه.

– عندك حق.

– ستعود للسهر في البار؟

– نعم.

– ما رأيك لو دعونا أعضاء الكوكاس إلى اللقاء في مكان آخر؟

– أعتقد أنّ اختفاءنا المفاجئ من البار سيزيد من شكوك أجهزة الأمن.

فكّرت قليلًا ثمّ قالت:

– فعلًا.. يجب أن نستمرّ في حياتنا كالمعتاد.

كانت هناك غيمةٌ من الكآبة تظلّلنا. حاولت أن أتجاوزها فدعوت ليدا والصغيرة صوفيا إلى حديقة الحيوان يوم الأحد. قضينا يومًا جميلًا واستمتعنا بمشاهدة الحيوانات الجديدة التي تعرضها الحديقة. في المساء دعوتهما إلى العشاء في نادي السيّارات لكنّ ليدا فضّلت أن نذهب إلى بيتها حيث طلبت لنا العشاء من أرتينوس. استمتعت بصحبة صوفيا حتّى حان موعد نومها فجلست مع ليدا وحدنا. قبيل منتصف الليل سألتها إن كانت ستأتي معي إلى البار. قالت إنّها تريد أن تنام. قبّلتها وذهبت إلى البار. لم أجد مع كارلو إلّا عبّاس القوصي. كانا يتحدّثان بصوتٍ خافت وقطعا الحديث فور وصولي. قلت:

– إذا كنتما تتحدّثان في سرٍّ ما يمكنني أن أجلس بعيدًا.

ضحك عبّاس وقال:

– ما هذه الفكرة الحمقاء؟ اقعد يا أنس.

أعدّ كارلو لي كأسًا. حاولت أن أشيع حالةً من المرح فقلت بصوتٍ عالٍ:

– أين الموسيقى؟

ظهرت ابتسامةٌ باهتة على وجه كارلو وقال:

– ماذا تريد أن تسمع؟

– إديت بياف.

سرعان ما صدح صوت بياف المؤثّر في المكان.

Non, rien de rien

Non, je ne regrette rien

Ni le bien qu'on m'a fait, ni le mal

Tout ça m'est bien égal

لا أندمُ على شيءٍ

لا.. لا أندم على شيء

لا ما أحسنوه إليّ ولا ما أساؤوا

كلّ هذا عندي سيّان

انتهت الأغنية فطلبت كأسًا جديدة وقلت:

– تصوّروا أنّ فنّانةً عظيمة مثل بياف قادرة على إسعاد ملايين البشر تموت في سنّ السابعة والأربعين بينما هناك بشر يعيشون إلى سنّ التسعين ولا يفيدون الإنسانيّة في أيّ شيء بل ربّما يكونون مؤذين لمن حولهم.

– هذا صحيح.

هكذا قال عبّاس. تطلّعت إلى كارلو وقلت:

– ما رأيك؟

فكّر قليلا ثمّ قال:

– أظنّ أنّ هناك نوعًا من الناس يكونون ضيوفًا على الحياة. يأتون ويمنحوننا السعادة ويمضون.

طلبت من كارلو ورقة وقلمًا وكتبت لعبّاس:

– هل تابعت قضيّة الجاسوس الألماني؟

تناول عبّاس القلم وكتب: «طبعًا».

كتبت: «يسعدني بالطبع القبض على أيّ جاسوس ولكن هل لاحظت أنّ الخطاب الإعلاميّ الآن ينشر حالةً من الشكّ في الأجانب؟ النظام يريدنا أن نعتبر كلّ الأجانب جواسيس محتملين.

كان كارلو يقرأ ما نكتبه فتناول القلم وكتب بحماسة:

– لا يوجد أجانب في اسكندريّة. نحن مصريّون من أصلٍ أوروبي. لا يمكن أن أكون أنا وأبي وأمّي من مواليد الاسكندريّة وعشنا فيها كلّ حياتنا ثمّ يأتي من يقول لي إنّك لست مصريًّا بما يكفي.

كتب عبّاس:

– الديكتاتور لا بدّ أن يستعمل نظريّة المؤامرة حتّى يقنع الشعب بأنّه وحده القادر على حمايته من الأعداء المتآمرين.

ناول عبّاس الورقة لكارلو ليمزّقها وقال:
– أنس، كلّمني عن معرضك للبورتريه.
أدركت أنّه يغيّر الموضوع. حكيت له عن خطّتي للمعرض وقاعات العرض المتاحة. عبّاس متذوّقٌ عظيم للفنّ التشكيليّ. رحنا نتناقش في أعمال التشكيليّين السكندريّين. كانت الساعة الثانية صباحًا عندما رنّ جرس التليفون في البار. كان ذلك أمرًا غير مألوف. تناول كارلو السمّاعة ثمّ بدا الانزعاج على وجهه وقال بضع كلماتٍ لم نسمعها. وضع السمّاعة وقال بانفعال:
– البوليس قبض على أمّي.
استغرقنا لحظات حتّى نستوعب وسأله عبّاس:
– لماذا قبضوا عليها؟
قال كارلو:
– قبضوا عليها وثلاثة من أصدقائها بتهمة لعب القمار. وهم الآن في قسم باب شرقي.
قال عبّاس:
– احنا حنروح معك.
غيّر كارلو ثيابه بسرعة وأصرّ على أن يأخذ سيّارته. قال عبّاس للحارس عربي إنّنا ذاهبون إلى قسم باب شرقي لأنّ والدة كارلو لديها مشكلة هناك. سألته لماذا قلت لعربي فردّ بسرعة: «إجراء احتياطي».
ركبت سيّارة عبّاس. في الطريق ظللنا صامتين. كنّا مصدومين من المفاجأة. وصلنا إلى القسم ودخلنا معًا. أنا وعبّاس وكارلو. وجدنا الضابط المناوب ورأينا والدة كارلو ومعها امرأةٌ ورجلان. كلّهم متقدّمون في السنّ. كان الرجلان في حالة ذهول وراحت المرأة تبكي في صمتٍ بينما صاحت أمّ كارلو بالفرنسيّة عندما رأتنا:
– كارلو، هذه مهزلة. لا بدّ من محاسبتهم. لقد عاملونا بسفالة. لا بدّ أن تشكوهم لوزير الداخليّة.

اندفع كارلو واحتضن أمّه فصاح الضابط بغضب:

– اقعدي على الدكّة يا مارتا. مش عاوز أسمع ولا كلمة. فاهمة؟!

بان الخوف على وجه أمّ كارلو وعادت لتجلس على الدكّة بجوار بقيّة المتّهمين.

تقدّم عبّاس نحو الضابط وقال بصوتٍ مرتفع:

– مساء الخير يا حضرة الضابط. أنا عبّاس القوصي المحامي.

صاح الضابط:

– المحامي فقط ينتظر هنا والباقيين يخرجوا.

خرجت مع كارلو ووقفنا في الصالة بجوار الباب الذي ظلّ مفتوحًا فتابعنا ما يحدث. بدا الضابط متكبّرًا وعدوانيًّا وقال لعبّاس:

– أنت محامي؟

– أيوه.

– من قال لي إنّك محامي فعلًا؟

ناوله عبّاس بطاقة المحاماة وتعمّد الضابط أن يفحصها طويلًا ثمّ أعادها لعبّاس وقال:

– طلباتك؟

– أنا عاوز أعرف سبب القبض على مدام مارتا.

ردّ الضابط بغطرسة:

– تعرف في النيابة إن شاء اللّه.

– من حقّنا نعرف تهمتها عند القبض عليها.

– إدارة مسكن للقمار.

– طيّب ممكن سيادتك تفرج عنهم ويكتبوا تعهّد بالمثول أمام النيابة الصباحيّة؟

– لا.

– ممكن حضرتك تقول لي سبب الرفض.

– أنت طلبت إخلاء سبيلهم بتعهّد وأنا قلت لا. انتهى الكلام.

شعرنا بالاستياء من وقاحة الضابط وفجأةً قال لي كارلو بصوتٍ خافت:

– لازم أروح مشوار.

لم أستوعب الأمر فسألته:

– مشوار؟

قال وهو يهرع نحو باب القسم:

– أنا راجع بسرعة.

استغربت من تصرّف كارلو ثمّ عدت لمتابعة ما يحدث في المكتب. انفعل عبّاس وصاح في وجه الضابط:

– حضرتك معاملتك متعسّفة بطريقة غير مفهومة. عندما يكون المتّهم غير معتاد الإجرام وله محلّ إقامة معروف جرى العرف أنّه يتمّ الإفراج عنه على أن يتعهّد بالحضور أمام النيابة. مدام مارتا وأصدقاؤها كلّهم شخصيّات محترمة ومعروفة في اسكندريّة.

لم يردّ الضابط وراح يطالع أوراقًا أمامه واستطرد عبّاس بغضب:

– ردّ عليّ من فضلك.

قال الضابط:

– ماعنديش كلام أقوله.

قال عبّاس:

– أنت واجبك أنّك تشرح لي الوضع لأنّي محامي عن المتّهمين. بالمناسبة، التهمة الموجّهة للسيّدة مارتا لا أساس لها في القانون.

ردّ الضابط ساخرًا:

– لا وحياتك. ما عنديش صبر أسمع مرافعات. ابقى ترافع في المحكمة..

ردّ عبّاس:

– أولًا أنا أرفض كلامك لأنّه يحمل استخفافًا غير مقبول.
ثانيًا أدعوك فعلًا إلى اكتساب معلومات قانونيّة ستفيدك:
جريمة إدارة مكان للمقامرة الركن الرئيسي فيها أن يكون المكان مفتوحًا للزبائن بدون تمييز. إنّما عندما يكون لعب الورق على رهان مالي بين أصدقاء صاحب المكان عندئذٍ لا تكون هناك جريمة أساسًا وهناك عدّة أحكام من محكمة النقض بهذا المعنى.

استمرّ الضابط في قراءة الأوراق وكأنّه لا يسمع ما يقوله عبّاس ثمّ قال بلهجةٍ مستفزّة:

– تفضّل مع السلامة وتعال الصبح في النيابة.

– ممكن أعرف اسمك.

– اسأل العسكري وهو يقول لك.

هكذا قال الضابط باستخفاف ثمّ صاح: «عسكري!».

ظهر العسكريّ وأدّى التحيّة فقال الضابط:

– نزلهم الحجز.

تمّ تقييد المرأتين معًا والرجلين معًا. كان الموكب حزينًا. مارتا والدة كارلو وأصدقاؤها بالقيود الحديديّة في أيديهم والعسكري يسحبهم إلى الدور الأسفل حيث حجز القسم.. انهارت مارتا وأجهشت بالبكاء بينما راحت المرأة الأخرى تولول قائلة:

– حرام عليكم.. احنا عملنا إيه لأجل تحبسونا؟!

خرج عبّاس وجلس بجواري وأشعل سيجارة وقال:

– المعاملة سيّئة بطريقة غريبة. بعد ما نخلص الموضوع لازم أقدّم شكوى في الضابط.

قلت لعبّاس:

– تفتكر الرذالة دي طبيعة في الضابط ولا هو متوصّي؟

– أكيد متوصّي.

– طيب إيه العمل؟

قال عبّاس بصوتٍ خافت:

– للأسف ما نقدرش نعمل حاجة.. لا بدّ ننتظر النيابة..
أخرج عبّاس محفظته وأخذ منها بعض الأوراق الماليّة.
وضع النقود في جيب سترته ونزل إلى الحجز ثمّ عاد بعد قليل:

– بعثت المخبرين يجيبولهم سندوتشات.

أحسست بالغضب. ما هذا الذي يحدث ولماذا؟ بعد قليل جاءت ليدا. كان شعرها مشعّثًا وعلى وجهها آثار النوم.
أدركت أنّ عربي حارس المطعم اتّصل بها وأخبرها. لم تكن لديّ طاقة لكي أحكي ما حدث. جلست بجوارنا على الدكّة ولخص لها عبّاس الموقف. ظللنا صامتين فترة ثمّ قال عبّاس:

– أنس وليدا. روحوا البيت استريحوا لغاية الصبح.

قالت ليدا:

– وأنت؟

ردّ قائلًا:

– لازم أنتظر العرض على النيابة. لا يمكن أسيبهم. الضابط متربّص ورذيل والوضع غير مطمئن.

رفضنا الانصراف ورحنا نراقب ما يحدث في حجرة الضابط الذي كان يتعمّد توبيخ العساكر والمخبرين بشتائم مقذعة أحسست أنّه يريدنا أن نسمعها.

وسألني عبّاس:

– هو كارلو راح فين؟

– قال لي إنّه رايح مشوار. بصراحة تصرّفه غريب. لا أفهم كيف يترك أمّه في هذا الموقف.

لم يبدُ على عبّاس أنّه فوجئ. مرّةً أخرى ألحّ عبّاس علينا أنا وليدا حتّى ننصرف لنرتاح قليلًا لكنّنا رفضنا.

بعد حوالي ساعة رنّ جرس التليفون في حجرة الضابط الذي تكلّم بصوتٍ خافت فلم نسمع ما قاله لكنّه سرعان ما وضع السماعة وبدا عليه التفكير لحظة ثمّ أشعل سيجارةً ورنّ

الجرس ليستدعي العسكريّ الذي لم يلبث أن خرج إلينا وقال:

– حضرة الضابط عاوزكم.

هرعنا نحن الثلاثة إلى الداخل. تطلّع إلينا الضابط وبدا أنّ جمال ليدا لفت نظره فسألها:

– أنت قريبة المتّهمين؟

عاجله عبّاس قائلًا:

– لا. صديقة لهم.

ابتسم الضابط فجأةً وقال بودّ:

– تفضّلوا استريحوا يا حضرات.

بدا تغيّر نبرته مريبًا. جلسنا أمامه فقال:

– عندي خبر حلو. كان فيه سوء تفاهم واكتشفنا أنّ التحرّيات غير دقيقة وبالتالي سيتمّ الإفراج عن المتّهمين فورًا. مبروك.

هتفت ليدا:

– الحمد لله.

ظللت صامتًا وقال عبّاس:

– يعني حضرتك اكتشفت فجأةً أنّه لا وجه لإقامة القضيّة؟ أنا قلت لك الكلام ده من الأول.

ضحك الضابط وقال:

– يا أستاذ عبّاس جلّ من لا يسهو. أخذنا إجراء طلع غلط فتراجعنا عنه فورًا. أكرّر اعتذاري عن الإزعاج يا حضرات.

40

بعدما فرغا من الحبّ نام سليم وهو يحتضن شانتال التي ظلّت مستيقظة. بعد قليل سحبت ذراعها برفق لئلّا توقظه ونزلت من السرير. كانت عارية فارتدت روبها وخرجت من الحجرة إلى الصالة وجلست على الأريكة. أشعلت سيجارةً واستغرقت في التفكير. ماذا يحدث لأصدقائها. يبدو الأمر كأنّه سلسلةٌ من أحداثٍ مرتّبة بدأت بظهور الضابط ليستدعي كارلو الذي عاد ليخبرهم بوجود أجهزة تنصّت في البار وبعد ذلك القبض على مارتا ثمّ الإفراج عنها فجأةً كما حكوا لها. هناك جهةٌ ما تتعقّب أعضاء الكوكاس. تتنصّت عليهم وتتحيّن أيّ فرصةٍ للإيقاع بهم. كانت شانتال تشعر بقلقٍ على أصحابها وعلى نفسها بل وعلى سليم. هل ستتعقّبها الجهة الأمنيّة لتصنع فضيحةً لسليم؟ هل تكون هي سببًا في أن يفقد سليم منصبه؟ لن تتحمّل ذلك أبدًا. هل تخبر سليم بما حدث؟ كانت تريد أن تخبره حتّى يشاركها في هذا الهمّ. إذا أخبرته فسيكون قادرًا على معرفة الجهة التي تتعقّب أصدقاءها وربّما استطاع حمايتهم بعلاقاته. كادت تخبره الليلة لكنّها عادت وفكّرت أنّ سليم قد رسم حدود علاقته بها من البداية. لقد وضع لها إطارًا صارم السرّية الكاملة. حتّى عندما يلتقيان أو عندما يدعوها للعشاء فإنّ ذلك يتمّ باحتياطات مشدّدة. من المستحيل إذن أن يعرف أحدٌ بعلاقتهما كما أنّها إذا أخبرت سليم بما يحدث لأصدقائها فربّما يدفعه ذلك إلى الابتعاد عنها حرصًا على منصبه. عندئذٍ قرّرت ألّا تخبره. إنّها تحبّ سليم ولا تتخيّل حياتها بدونه. لن تتحمّل أن تعود إلى حياتها السابقة. لن تعود كما كانت امرأةً سكّيرة وحيدة تشرب حتّى تمحو كلّ شيء من ذهنها وتنتظر الشيخوخة. انتبهت شانتال على وقع خطوات في الممرّ وظهر سليم وقد ارتدى روبًا على جسده العاري. بدا أنّه استيقظ لتوّه. ابتسم وقال:

– لماذا صحوت؟

– صحوت من السعادة.

ضحك عاليًا فنهضت وطبعت قبلةً على فمه ثمّ جلست بجواره على الأريكة فمدّ يده واحتضنها وقال:

– ما الذي يشغلك؟

– لا شيء.

– بل هناك ما يشغلك. قولي لي.

– لديّ عمل كثير في المكتبة.

قال سليم ساخرًا:

– حبيبتي.. أنتِ كذّابة مبتدئة.

ضحكت ولم تعلّق فاستطرد بودّ:

– لن أضغط عليكِ. إذا أردتِ أن تخفي عنّي ما يشغلك فسوف أقول أنا ما يشغلني.

– ما الذي يشغلك؟

– أنا فعلًا لا أكاد أصدّق ما يحدث لي. تصوّري أنّ البنتين تتّصلان بي للاطمئنان على صحّتي ومزاجي.

– هذا تطوّرٌ جميل.

– جميلٌ ومؤسف.

– لماذا مؤسف؟

– أنا طبعًا سعيد باهتمامهما بي لكن يؤسفني أن تسيطر أمّهما عليهما إلى هذه الدرجة. أن يكون بمقدورها أن تدفعهما إلى فعل أيّ شيءٍ ونقيضه، كما تشاء وفي أيّ وقت.

فكّرت شانتال قليلًا ثمّ قالت:

– عندما تكبر البنتان ستتحرّران حتمًا من سطوة الأم وعندئذٍ سيكون بمقدورك أن تخبرهما بالحقيقة.

– المدهش أنّك أصغر منّي سنًّا ولم تتزوّجي وبرغم ذلك تشرحين لي أشياء كثيرة.

– إذا واصلت مديحي بهذه الطريقة فسيصيبني الغرور.

قبّلها ثمّ همس:

– أريد أن أظلّ معك دائمًا.

– وأنا أيضًا.. لكنّ ذلك مستحيل.

– سوف يحدث يومًا ما.

– سليم.. أنت تحلم.. إذا كنّا نتخفّى حتّى نتقابل.. فكيف سنعيش معًا؟

– لديّ شعورٌ قويّ بأنّ ذلك سيحدث.

– أنت مؤمن والمؤمن ينتظر المعجزات.

– لا تسخري من فضلك.. أنا أحيانًا أشعر بالأشياء قبل أن تحدث.

ابتسمت شانتال ولم تعلّق واستطرد سليم بحماسة:

– هل تعرفين؟ عندما جئتِ إلى مكتبي لأول مرّة وتشاجرتِ معي..

– أنا لم أتشاجر.. أنا غضبت وانسحبت.

– هل تصدّقينني إذا قلت لك إنّني كنت واثقًا أنّني سأراكِ مرّةً أخرى؟

– طبعًا لأنّك كنت حريصًا على إقامة الندوة.

– هذا أمرٌ لا علاقة له بالندوة. منذ اللحظة الأولى أحسست أنّ وجودك في حياتي لن يكون عابرًا..

– تصوّر أنّ هذا الكلام الرومانسيّ يؤثّر فيّ برغم أنّه خارج العقل.

– أجمل الأشياء في الحياة خارج العقل.

– أيّها المصريّ الرائع لماذا لم ألتقِ بك مبكرًا في حياتي..

– هذه إرادة اللّه الذي لا تؤمنين به..

ابتسمت شانتال وبدا عليها تعبيرٌ حالم وهمست:

– عدني أنّك لن تتركني أبدًا.

– هذا أمر لا يحتاج إلى وعد.

– أنا أصرّ على أن تعدني.

– هذا الإصرار يقلقني.

– لا تقلق لكن تذكّر أنّك وعدتني ألّا تهجرني مهما حدث.. وعد؟!

– وعد..

41

وصل كارلو إلى فندق البوريفاج الساعة التاسعة مساءً. حيّاه موظّف الاستقبال وقام بإجراءات التسجيل ثمّ أمر بحمل حقيبته إلى الجناح الشرقيّ المحجوز باسمه. شكره كارلو بالفرنسيّة.

وفقًا للتعليمات، قدّم كارلو نفسه باعتباره مهندسًا إيطاليًا وبالتالي لا يجب أن يتحدّث بالعربيّة. بجوار الجناح الشرقيّ كانت هناك حجرةٌ خاليةٌ من الأثاث تحتوي على الكاميرات وأجهزة الكونترول.. أمس قال له المقدّم معتزّ:

– هناك ثلاث كاميرات حول السرير وكاميرتان في الصالون. يجب أن تخبرنا قبل صعود أريج بساعة حتى نتمكّن من ضبط الكاميرات. متى تعتقد أنّها ستصعد معك؟

– لا أعرف.

ضحك معتزّ وقال:

– كيف لا تعرف؟ أنت أستاذ في النسوان.

ردّ كارلو بجدّية:

– من خبرتي تعلّمت أن النساء مختلفات.. ممكن واحدة تصعد معي في الليلة الأولى أو في اليوم التالي أو حتّى بعد بضعة أيّام.

قال العقيد:

– خذ وقتك.. المهمّ أن تخبرنا قبل صعودها إليك بساعة.

كان الجناح الشرقي فخمًا ومريحًا. ثلاثة كراسي فوتيل وأريكة ستيل في الصالون وشرفة كبيرة تطلّ على البحر. حجرة النوم الفسيحة أعلى من أرضيّة الصالون بدرجتين. قطعتا كومودينو تحيطان بسريرٍ عريضٍ ظهره من الخشب المكسوّ بالحرير المبطّن. أخذ كارلو حمّامًا وحلق لحيته بعنايةٍ وارتدى ملابسه. اتّصل بالبار وطلب زجاجة ويسكي شيفاز وثلجًا ثمّ صبّ لنفسه كأسًا. خرج إلى

الشرفة وتمدّد على الشيزلونج وراح يتأمّل البحر. هذه لحظة فارقة في حياته. موقفٌ غريب لم يتوقّعه قطّ. عندما كان يقيم علاقةً مع امرأةٍ متزوّجة كان يحتقرها لأنّها خائنة. هذه المرّة سيكون هو الخائن. سيخون المرأة التي منحته ثقتها. سوف يستدرجها ليتمّ تصويرها وابتزازها. سيقتحم الضبّاط الحجرة ويقبضون عليها أثناء ممارستها الجنس ثمّ يقتادونها إلى مقرّ المخابرات وهي عارية وملفوفة في ملاءة مثل الداعرات وهناك سوف يبتزّونها ويجنّدونها لتتجسّس على زوجها وبلدها. ما أبشع كلّ ذلك..

رشف كارلو من الكأس وأشعل سيجارة. لقد أعطاه المقدّم معتزّ ملفًّا كاملًا عن أريج وقد قرأه بعناية. كان أبوها رجل أعمال ثريًّا ومستنيرًا، أرسلها إلى جامعة السوربون حيث حصلت على شهادة في القانون العامّ. تزوّجت بدبلوماسيّ شابّ صار الآن وزيرًا للخارجيّة ومن المقرّبين للملك في بلدها. بالإضافة إلى المعلومات كان الملفّ يحتوي على صورٍ عديدةٍ لأريج. ظهرت في بعض الصور بالعباءة العربيّة التقليديّة وفي صورٍ أخرى كانت ترتدي فساتين سهرة ومايوهات. أكّد التقرير أنّ أريج تخون زوجها من سنوات وكانت لها علاقات جنسيّة برجالٍ عديدين لكنّها تحرص دائمًا على أن يكون عشيقها أجنبيًّا وأن تكون العلاقة عابرةً وسريعة. عندما تقضي أريج إجازتها في الاسكندريّة تبحث عن مغامرة من هذا النوع. لا تصاحب أبدًا رجالًا مصريّين أو عربًا. تتعرّف إلى الأجانب وتنغمس معهم في علاقاتٍ تستغرق أيّامًا قليلة وتنتهي تمامًا بمجرّد عودة أريج إلى بلدها.

صبّ كارلو كأسًا جديدة وأحسّ شيئًا فشيئًا بتأثير الويسكي فاسترخى على المقعد وخطرت له فكرة: من هي أريج؟ وماذا تعني بالنسبة إليه؟ ليست أريج امرأةً عفيفة وليست حتّى امرأة خائنة سقطت في لحظة ضعف. إنّها امرأةٌ شهوانيّة متهتّكة منحرفة ولولا ذلك لما استطاعت المخابرات الإيقاع بها. هي التي مشت في هذا الطريق وهي المسؤولة الأولى عمّا سوف يحدث لها. كلّ هذا صحيح ولكن هل يقلّل انحرافها من بشاعة ما سوف يفعله معها؟ لن يكذب على نفسه. فليعترف بأنّ مهمّته في غاية الدناءة. سيظلّ بقيّة حياته يحتقر نفسه لأنّه تسبّب بتدمير إنسانةٍ وثقت به. لكن ماذا يستطيع أن يفعل؟ هل يملك الاختيار؟ لقد رفض القيام بهذه المهمّة فماذا

حدث؟ قبضوا على أمّه ولفّقوا لها قضيّةً كانت ستلقي بها في السجن سنوات.

«لم يعد هناك قانون في مصر.. إرادة السلطة هي القانون».

هكذا قال له عبّاس القوصي. عندما رأى كارلو أمّه ويداها في القيود الحديديّة بينما المخبرون يجرجرونها لتبيت في الحجز مع المجرمين، عندئذٍ انتابه شعورٌ ثقيلٌ بالذنب لأنّه وضعها في هذا الموقف. كان يريد أن ينقذها بأيّ طريقةٍ فأسرع إلى الصيدليّة المجاورة للقسم واتّصل بالمقدّم معتز أكثر من مرّة فلم يردّ. عندئذٍ هرع إلى سيّارته وأسرع إلى العنوان الموجود في البطاقة فوجد عمارةً سكنيّة على الترام في حيّ سبورتنج. دخل من باب العمارة فوجد مكتب استقبال وشابًّا يرتدي الملابس المدنيّة. بادره كارلو قائلًا:

– أنا عاوز أقابل المقدّم معتزّ.

تطلّع إليه الشابّ بنظرةٍ متفحّصة وقال بهدوء:

– مين المقدّم معتزّ؟

لم يتمالك كارلو نفسه فصاح بصوتٍ عالٍ تردّد في بهو العمارة:

– المقدّم معتزّ ضابط في المخابرات وهنا مكتبه. أنا متأكّد. هو أعطاني البطاقة دي وفيها العنوان.

لم يتأثّر الشابّ من صياح كارلو. أخذ منه بطاقة المقدّم معتزّ ونظر فيها ثمّ قال بلهجةٍ ودّية:

– ممكن حضرتك تحضر الصبح؟

صاح كارلو:

– ضروري أقابله حالًا.

طلب الشابّ من كارلو بطاقته الشخصيّة وسجّل بياناتها ثمّ أعادها له وطلب رقمًا في التليفون وقال بضع كلماتٍ بصوتٍ خافت غير مسموع وأخيرًا ناوله السمّاعة فسمع صوت المقدّم معتزّ:

– أهلًا يا كارلو.

– أنا آسف للإزعاج يا فندم.

– خير؟

حكى له كارلو ما حدث مع أمّه. أطلق معتزّ ضحكةً خافتة وقال:

– ولا يهمّك.. الموضوع في إيدينا.. المهم أنت تكون عقلت.

ردّ كارلو بسرعة:

– عقلت يا فندم.

– متأكّد أنّك عقلت؟

– متأكّد يا فندم.

– خلاص.. أنا أتّصل بهم في القسم حالًا وأسوّي الموضوع.

– شكرًا يا فندم.

– الصبح تبقى هنا في مكتبي الساعة 11.

– تحت أمرك.

ليس من العدل أن يلوم نفسه إذن. لم يكن لديه اختيارٌ آخر. حتّى لو قرر الهرب مع أمّه فإنّ الخروج من مصر مستحيل بدون موافقة المخابرات. أضف إلى ذلك أنّه لا يستطيع أن يهاجر بين يومٍ وليلة. لم يفكّر في الهجرة من قبل. يحتاج إلى وقتٍ للتصرّف في عمله وشقّته وسيّارته وتحويل أمواله إلى الخارج. ثمّ إلى أين يذهب مع أمّه المسنّة؟ يجب أن يبحثا عن أقاربهما في نابولي. أختاه غير الشقيقتين لن تساعداه بالطبع. إن كانتا رفضتا استقبال أبيه وهو يُحتضر فلن تستقبلاه مع أمّه أبدًا. فكرة الخروج من مصر إذن ليست سهلةً وتحتاج إلى شهورٍ من الإعداد وبالتالي فإنّ رفض التعاون مع المخابرات حماقةٌ كبرى ستدفع أمّه المسكينة فيها ثمنًا باهظًا. إنّه ببساطةٍ مجبرٌ على ما يفعله بغضّ النظر عن أيّ اعتبارٍ آخر.

أحسّ كارلو بارتياحٍ عندما وصل إلى هذه النتيجة. صبّ كأسًا أخرى وفتح الملفّ من جديد وراح يتأمّل صور أريج. يا للمفارقة.. هذا النمط من النساء يؤثّر فيه ويثيره. إنّه يعشق المرأة الناضجة التي تتمسّك ببقايا الشباب. لم تكن أريج باهرة الجمال لكنّها جذّابة ومثيرة. العينان الواسعتان الجميلتان والشعر الأسود الناعم والشفتان المكتنزتان الشهوانيّتان وتلك التجاعيد البسيطة التي لا تكاد تُلحظ حول العينين والفم وأسفل الرقبة. شيء ما في وجهها ليس مصريًّا خالصًا. ثمّة طابعٌ بدويّ صحراويّ يضيف إلى جمالها مذاقًا غامضًا وجذّابًا. لو أنّه قابل أريج في ظروفٍ مختلفة لخاض معها مغامرةً ممتعة لكنّه الآن في مهمّةٍ رسميّة. مهمّة رسميّة حقيرة. انتبه على جرس التليفون فرفع السمّاعة. قال له موظّف الاستقبال بالفرنسيّة:

– Mr. Carlo, vous êtes attendu au Jardin (مسيو كارلو، هناك من ينتظرك في الحديقة).

كانت هذه الإشارة. ألقى كارلو نظرةً أخيرة على نفسه في المرآة ثمّ استقلّ المصعد العتيق إلى البهو وعندما وصل إلى الحديقة استقبله المتر دوتيل واصطحبه عبر ممرّ تحيط به الأزهار. اجتاز كارلو بوّابةً من طراز «فورفورجيه» وتطلّع حوله فرآها. كانت أريج جالسةً ومعها صديقتها (التي يقول التقرير إنّها بمثابة وصيفة ستختفي في اللحظة المناسبة). كان أمامها كأسٌ خمّن كارلو أنّها كوكتيل لـ Screwdriver (فودكا بالبرتقال). قاده المتر إلى المائدة الملاصقة لمائدتها وقبل أن يجلس تطلّع إليها وابتسم. اندهشت لحظةً ثمّ راحت تتفحّصه بفضول. طلب كأسًا من الويسكي ثمّ قال:

– مساء الخير (Bonsoir).

هزّت رأسها بتحيّةٍ خافتة وبادرها قائلًا:

– عفوًا... هل تتحدّثين الفرنسيّة؟

– نعم.

– آسف لإزعاجك.

– لا يوجد إزعاج.

– ممكن أطلب منك خدمة؟

– تفضّل.

– أنا اسمي كارلو، مهندس إيطالي من نابولي. عملي يقتضي أن أتردّد على الاسكندريّة مرّة وأحيانًا مرّتين في الشهر. دائمًا أحجز جناحًا هنا. أنا أحبّ فندق بوريفاج لكنّي أريد بعض الخصوصيّة. أفكّر في استئجار شقّة على البحر. هل تنصحين بحيٍّ معيّن؟

ضحكت أريج وقالت:

– لماذا افترضت أنّني أعرف الأحياء في الاسكندريّة؟

– لأنّك مصريّة.

– أنا لست مصريّة.

– غريبة. شكلك مصري تمامًا.

– سأعتبر هذا مديحًا.

– طبعًا.. أنت جميلة.

– أشكرك.

– من أيّ بلد أنت؟

– أنا من بلد عربي.

– أيّ بلد؟

– لا أحبّ أن أقول.

صمت كارلو وضحكت أريج وقالت بودّ:

– على أيّ حال أنا أعرف الاسكندريّة جيّدًا. أنصحك بأن تبحث عن شقّةٍ على البحر في المنطقة بين المنشيّة والشاطبي. قبل المنشيّة سيكون الحيّ شعبيًّا وستزعجك الضوضاء وبعد الشاطبي سيكون السكن مزعجًا في الصيف بسبب المصطافين.

أخرج كارلو نوتة وقلمًا وكتب المعلومات ثمّ رشف من الكأس وقال:

– شكرًا على النصيحة.. هل تحبّين السفر؟

– طبعًا.

– هل تسافرين مع أسرتك؟

ابتسمت أريج ورشفت من كأسها وقالت:

– أنت إذن تريد أن أحكي لك عن حياتي..

– نعم.

– لماذا؟

– أحبّ أن نتعارف.. إذا سمحت لي.

– موافقة بشرط..

– ما هو؟

– هناك معلومات لا أحبّ أن أقولها عن نفسي فلا تلحّ عليّ.

– اتّفقنا.. ما اسمك؟!

– أريج.

– أنا لا أعرف معنى الاسم لكنّ وقعه جميل.

– في اللغة العربيّة أريج معناه الرائحة الجميلة.

– اسم يناسبك تمامًا.

– أشكرك.

– كم يومًا ستقضين في الاسكندريّة؟

– أربعة أيّام. وأنت يا كارلو؟

– أسبوع.. كنت أتمنّى أن أمكث أكثر لكنّني مضطرّ للعودة إلى عملي في نابولي.

– أنا لا أملّ من الاسكندريّة أبدًا.. مهما مكثت فيها أحسّ بحزنٍ وأنا أفارقها.

– لماذا لا تستأجرين شقّة وتقضين فيها فترات أطول؟

– لا أستطيع.

– لماذا؟

– يبدو أنّك ولد متعب.. قلت لك لا تلحّ عليّ في السؤال.

– آسف.

ضحكت وقالت بمرح:

– هذا آخر إنذار وإلّا فسأضطرّ إلى عقابك.

– وكيف يكون عقابي؟

أطلقت ضحكة عالية وقالت:

– عندي أنواع مختلفة من العقاب.

قال بصوتٍ خافت:

– أريد أن أجرّب أشدّ عقاب عندك.

ردّت بنبرةٍ لعوب:

– لا بدّ أن تكون قويًا حتّى تتحمّل ما سوف أفعله بك.

قامت وصيفتها وتركتهما وحيدين. لم يندهش كارلو من سرعة استجابة أريج لأنّه تذكّر ما قرأه في التقرير. إنّها تأتي إلى البوريفاج بحثًا عن مغامرةٍ جنسيّة. من الطبيعي ألّا تضيّع الوقت لأنّ أمامها أيّامًا قليلة ثمّ تعود إلى بلدها. استمرّ حديثهما حتّى منتصف الليل ثمّ صعدت أريج إلى جناحها. ودّعها كارلو وتوجّه إلى مكتب الاستقبال وقال للموظف:

– أريد أن أرسل برقيّةً من فضلك.

كانت هذه وسيلة الاتصال المتّفق عليها. أعطاه الموظّف ورقة تلغراف فسجّل عليها عليها البيانات التي حدّدها له المقدّم معتزّ ثمّ كتب بالفرنسيّة: «المفاوضات على ما يرام. سأقابل الشريك غدًا على الشاطئ الساعة الواحدة بعد الظهر».

42

ذلك الصباح، ما إن دخل جليل من باب الإدارة حتّى توجّه إلى مكتب بدوي وبعد أن حيّاه قال بحماسة:

– عندي تقرير جديد مهمّ.

– خير؟

– قعدت في قهوة قدّام الطابية وتكلّمت مع الناس فوجدت شخصًا يهاجم الزعيم عبد الناصر ويحرّض ضدّ الجيش ومؤسّسات الدولة ثمّ اكتشفت أنّه مدرّس في كليّة الهندسة. يعني يقدر يسمّم أفكار مئات الطلّاب.

– كتبت اسمه وبياناته؟

– طبعًا.

ناوله جليل الظرف الذي يحتوي على التقرير فأخذه بدوي ووضعه في درج مكتبه ثمّ نهض فجأةً وقال:

– تعال معي يا جليل.

لاحظ جليل أنّ بدوي يرتدي بدلةً جديدة أنيقة ورباط عنقٍ حريريًّا ويحمل معه حقيبة أوراق جلديّة فخمة لم يرها معه من قبل. اصطحبه بدوي إلى حجرة الاجتماعات وترك الباب مفتوحًا ثمّ جلس أمامه إلى المائدة وطلب لهما فنجانين من القهوة وقال:

– عاوز أتكلّم معك.

راح بدوي يناقشه في بيان الأرباح الذي قدّمه ثمّ انتقل إلى بنود الميزانيّة. لم يكن هناك جديد في كلام بدوي وخطر لجليل للحظة أنّه يفتعل الحوار حتّى يستبقيه معه لسببٍ ما. رشف بدوي من فنجان القهوة وأشعل سيجارةً وأخذ ينظر في ساعته ويتطلّع إلى مدخل المبنى من خلال الباب المفتوح. بعد قليل ظهر فجأةً ضابط برتبة مقدّم ومعه بضعة جنود. كانوا جميعًا يضعون غطاء الرأس الأحمر الخاصّ بالشرطة العسكريّة. انتفض بدوي وهرع إلى الضابط

وأسرّ إليه ببضع كلمات ثمّ أشار إلى جليل حتّى يتبعه. توجّه الجميع إلى مكتب مسيو توني وطلب الضابط مقابلته فورًا. سألته السكرتيرة ناتالي عن اسمه فقال:

– المقدّم فتحي الوكيل.

بعد لحظات دخلوا جميعًا إلى مكتب توني الذي تلقّاهم واقفًا وقد بدا مندهشًا ومرتبكًا بعض الشيء. أعاد الضابط تقديم نفسه ثمّ تناول ملفًّا أخضر من العسكري وأخرج منه بعض الأوراق وقال بلهجةٍ رسميّة:

– حضرتك السيّد توني ديمتري كازان؟

– أيوه..

– اعذرني يا سيّد توني لأنّي مكلّف بمهمّة غير لطيفة.

– خير يا حضرة الضابط.

راح الضابط يقرأ من الأوراق:

– أنا مكلّف بتنفيذ قرار السيّد رئيس الجمهوريّة رقم 4876 لعام 1965. القرار يقضي بتأميم مصنع كازان للشوكولاته وضمّه لملكيّة الشعب. القرار ينصّ أيضًا على تعيينك مستشارًا للمصنع.

ساد الصمت ثمّ استطرد الضابط:

– يا سيّد توني أرجو أن تساعدني على تنفيذ القرار الجمهوري.

ظلّ توني يحدّق في الضابط وكأنّه لم يفهم ثمّ قال:

– يا حضرة الضابط أكيد فيه خطأ. المصنع ملكي وحدي وعندي كلّ المستندات التي تثبت ذلك.

ابتسم الضابط وقال:

– يا سيّد توني يبدو أنّك ما فهمتش كلامي. أنا عارف أنّ المصنع ملكك لكن سيادة رئيس الجمهوريّة أصدر قرارًا بنزع ملكيّة المصنع منك وضمّه إلى ممتلكات الدولة.

بدأ توني يستوعب الموقف فصاح بصوتٍ غاضب:

– يعني إيه تنزعوا ملكيّة المصنع منّي؟! أيّ قانون يعطيكم الحق؟

ردّ الضابط بهدوء:

– قرار السيّد رئيس الجمهوريّة له قوّة القانون.

– المصنع مصنعي ومستحيل أسمح لأحد يأخذه منّي!

هكذا قال توني متحدّيًا ثمّ استدار ورفع سمّاعة التليفون وصاح بالفرنسيّة:

– ناتالي.. اطلبي عبّاس القوصي فورًا.

تقدّم جليل واقترب من الضابط وقال:

– حضرتك متأكّد أنّ القرار صادر بتأميم مصنع كازان للشوكولاته؟

نظر إليه الضابط باستنكار وقال:

– تفتكر الموضوع هذار؟

– اسمح لي سيادتك أطّلع على قرار التأميم.

سأله الضابط:

– أنت مين؟

– أنا جليل القوصي. محاسب في المصنع.

– أنا مهمّتي تنفيذ القرار وليس إطلاعك عليه.

– باعتباري موظّفًا في المصنع من حقّي الاطلاع على القرار.

– تقدر تقرأ القرار في الجريدة الرسميّة.

هكذا قال الضابط والتفت نحو توني وقال:

– ممكن توقّع لي باستلام القرار يا سيّد توني؟

صاح توني:

– يستحيل أوقّع على ورقة واحدة. أنا طلبت المحامي وهو يشوف شغله معك.

– يا سيّد توني. أرجوك تقدّر موقفي. أنا أؤدّي عملي. من فضلك وقّع على القرار بدل ما تحصل مشكلة.

– أنت بتهدّدني؟

– أنا أحذّرك.

– أنا أرفض التوقيع ولا أعترف بقرار رئيس الجمهوريّة.

– رفض تنفيذ قرار السيّد رئيس الجمهوريّة جريمة بموجب القانون.

خبط توني بقوّةٍ على المكتب وصاح:

– تفضّل احبسني لكن المصنع ملكي وليس من حقّ أيّ مخلوق ينزع ملكيّته منّي!

ابتسم الضابط وقال:

– حتّى لو رفضت التوقيع يظلّ القرار الجمهوري واجب التنفيذ.

– أنا أحذّرك من المساس بأيّ شيء في المصنع.

لم يردّ الضابط على توني وكأنّه قرّر أن يتجاهله. استدار وخرج من الحجرة يتبعه الجنود وبدوي وجليل ووقفوا في مكتب السكرتيرة.

قال بدوي خضير للضابط:

– أرجو من سيادتك أن تعذر مسيو توني لأنّه منفعل زيادة.

ابتسم الضابط:

– طبعًا لازم أعذره! أنا نفّذت قرارات تأميم كثيرة. ربّنا معه. الناس في البداية تحتاج إلى وقت لاستيعاب الصدمة.

عاد الضابط يقرأ من الأوراق وقال:

– من بدوي عبد الحميد خضير؟

– أنا يا فندم.

– وفقًا لنفس القرار الصادر من السيّد رئيس الجمهوريّة تمّ تعيينك مدير عام المصنع. من فضلك وقّع على القرار.

وقّع بدوي على القرار فابتسم الضابط وقال:

– مبروك يا بدوي.

– اللّه يبارك فيك يا فندم.

– الآن مطلوب منك مهمّتين. أولًا ميزانيّة المصنع وأسماء العمّال وبيان بمعاملات المصنع. الأوراق سيتمّ إرسالها إلى مكتب السيّد وزير الصناعة.

مدّ بدوي يده بالحقيبة التي يحملها نحو الضابط وقال:

– يا فندم أنا جهّزت الأوراق المطلوبة. كلّها في الشنطة. ولو سيادة الوزير محتاج أيّ بيانات إضافيّة أنا تحت أمره.

بدا الارتياح على وجه الضابط وناول الحقيبة إلى الجنديّ الواقف بجواره ثمّ قال:

– المهمّة الثانية. أنا محتاج أشوف المصنع وأتعرّف على العمال.

قال بدوي:

– تحت أمرك يا فندم.

خرج الضابط ومن خلفه الجنود وبجواره بدوي وجليل الذي كان يتابع ما يحدث في صمت. جالوا في أنحاء المصنع وكان العمّال

يرمقونهم بفضول ثمّ تحدث بدوي في الإذاعة الداخليّة وطلب من العمّال التجمّع في فناء المصنع لأمرٍ عاجل. بعد قليل وقف الضابط أمام العمّال وتناول الميكروفون وأعلن قرار التأميم ثمّ قال للعمّال:

– طبعًا تأميم المصنع لن يؤثّر على أوضاعكم. ستقبضون مرتّباتكم وحوافزكم في مواعيدها كالمعتاد.

ساد الصمت لحظات ثمّ تعالت أصوات العمّال:

– ده ظلم وافتراء!

– المصنع ملك مسيو توني!

– هو مسيو توني عمل لكم إيه لأجل تخربوا بيته؟

مع تزايد الاحتجاج استأذن بدوي من الضابط وأخذ الميكروفون وقال بلهجةٍ حازمة:

– يا جماعة أنا مقدّر مشاعركم. كلّنا بنحبّ مسيو توني لكن دي سياسة الدولة وده قرار من السيّد رئيس الجمهوريّة. المصنع تمّ تأميمه وانتهى الأمر. لا أنا ولا أنتم نقدر نغيّر أيّ حاجة. أؤكّد لكم أنّ الدولة لم تظلم مسيو توني وتعاملت معه بالعدل. هو حيشتغل مستشار للإدارة الجديدة بمرتّب محترم.

صاح أحد العمّال:

– يبقى المصنع مصنعه ويشغّلوه موظّف عندهم؟! ده افتراء!

قال بدوي:

– ده موضوع بين مسيو توني والحكومة. إحنا لنا شغلنا ومرتباتنا.

صاح العامل بحنق:

– أنت بتدافع عن الظلم يا بدوي لأنّهم عملوك مدير عام.

صاح عامل آخر:

– أنت خدّام مصلحتك يا بدوي.

ارتفعت أصوات العمّال الغاضبة وتداخلت ثمّ صاح عامل مسنّ:

– يا حضرة الضابط. احنا رافضين قرار التاميم.

تجاوب معه بقيّة العمّال قائلين بحماسة:

– إحنا شغّالين عند مسيو توني ولا يمكن نشتغل عند حد تاني.

– طالما الحكومة أخذت المصنع بالعافية ابقوا شغّلوا أنتم المصنع.

– صح.. إحنا مش شغّالين.

– إحنا مضربين.

سرعان ما انتظم الهتاف وتردّد عاليًا: «مضربين.. مضربين».

ظلّ بدوي صامتًا بينما همس الضابط لأحد الجنود فانطلق نحو العربة الكبيرة الواقفة على مقربةٍ من الفناء ثمّ عاد ومعه عشرة جنود إضافيّين أحاطوا بالعمّال الذين استمروا في الهتاف. تناول الضابط الميكروفون وقال بلهجةٍ حازمة:

– أنا طبعًا مقدّر مشاعركم. من فضلكم كفاية هتاف وتفضّلوا على شغلكم.

ارتفع الهتاف أكثر: «مضربين.. مضربين».

قال العقيد بحدّة:

– أنا أحذّركم أنّ الدعوة للإضراب جريمة بموجب القانون.

استمرّ الهتاف بنفس القوّة: «مضربين.. مضربين..».

فجأةً انتزع الضابط بندقيّةً من أقرب جنديّ ثمّ تقدّم بعض الخطوات وحفر بطرف ماسورة البندقيّة خطًّا في أرض الفناء ثمّ أشار للجنود فتراجعوا بضع خطوات وتطلّع إلى العمّال وصاح: «كفاية هتاف من بعيد. حيث انكم مضربين عن العمل.. أنا عاوز العامل المضرب يعدّي الخطّ ده. إذا كنتم رجال بصحيح. خلّي أيّ واحد فيكم يعدّي الخطّ ويورّيني نفسه».

تحمّس عامل شابّ اسمه حسن واندفع نحو الضابط وما إن عبر الخطّ حتّى انقضّ عليه الجنود وأوسعوه ضربًا حتّى سقط على الأرض واستمرّوا يركلونه ويضربونه حتّى غطّت الدماء وجهه ثمّ قيّدوا يديه بالكلبشات وألقوا به على الأرض وهو يتأوّه بصوتٍ محشرج.

دوّى صوت الضابط في الميكروفون:

– الولد ده انتهى أمره.. حيترمي عشر سنين في السجن الحربي.. من فيكم عاوز ينحبس معه؟

43

قبل الموعد بدقائق جلس كارلو تحت الشمسيّة في الصفّ الأول على البحر. لم يتوقّع أن تأتي أريج في موعدها. التأخّر قليلًا على مواعيد الغرام عادة متأصّلة في المرأة الشرقيّة. ربّما لكي تثبت أنّها مرغوبة أو تتفادى الانتظار وحدها أو تطمئنّ على أنّ المكان آمن. على عكس التوقّع جاءت أريج في موعدها فرحّب بها كارلو قائلًا:

– الساعة واحدة بالضبط.. برافو!

ضحكت وقالت:

– احترام المواعيد عادة سيّئة لم أستطع التخلص منها.

كانت ترتدي طقم كاش مايوه لونه مزيج من الأحمر والأبيض وتحته مايوه من نفس اللون وقد ارتدت في قدميها صندلًا أبيض برزت من مقدّمته أصابع قدميها الجميلة بأظافرها المطليّة بلونٍ شفّاف. كانت تضع على رأسها قبّعةً من الخوص حوافها عريضة ونظّارة شمس كبيرة تخفي جزءًا كبيرًا من وجهها.

استلقت على الشازلونج بجواره وجاء السفرجي فطلب كارلو زجاجة بيرة وطلبت أريج كأسًا من كوكتيل Screwdriver.

قال كارلو:

– من لم يشرب بيرة مثلّجة على البلاج في الاسكندريّة فاته الكثير.

قالت أريج:

– Screwdriver مشروبي المفضّل. لا أشرب سواه في أيّ وقت.

– هل تعلمين حكاية هذا الكوكتيل؟

– قل لي.

– كان بعض مهندسي البترول يخلطون عصير البرتقال بالفودكا حتّى يشربوا داخل موقع العمل بغير أن يلاحظهم المشرفون وحتّى تختلط الفودكا بالعصير جيّدًا كان لا بدّ من تقليبها. لم يكن عندهم

ملاعق في الموقع فكانوا يقلّبونها بالمفك، فسُمّيَ الكوكتيل Screwdriver.

ابتسمت أريج وقالت:

– حكاية جميلة.

تطلّع إليها وقال:

– بالمناسبة، أنتِ خدعتِني.

شهقت وكأنّها فزعت وقالت:

– أنا خدعتك؟

– وعدتِني أن تحكي لي عن حياتك ثمّ تكلّمت في موضوعات أخرى.

ضحكت وقالت:

– هناك أشياء لا أستطيع أن أقولها.

– قولي لي المعلومات المسموح بها.

– اسأل وأنا أجيبك.

– كيف تتحدّثين الفرنسيّة بهذه الطلاقة؟

– لأنّني تعلّمت في السوربون وحصلت على شهادة في القانون.

– هل أنتِ شخصيّة معروفة في بلدك؟

– نعم.. للأسف!

– لماذا للأسف؟

– الشهرة كثيرًا ما تمنعك من أن تعيش بطريقةٍ طبيعيّة.

– هل يقلقك أن يتعرّف إليك أحد من بلدك؟!

أشعلت سيجارة وجذبت نفسًا عميقًا ثمّ قالت:

– طبعًا يقلقني أن يتعرّف إليّ أحد لأنّ المجتمع في بلدي محافظ ومتشدّد. الناس عندنا يرسمون لك صورة معيّنة في أذهانهم ويريدونك أن تحقّقها ولو تصرّفت بطريقة مختلفة فإنّهم لن يتسامحوا معك أبدًا.

– وكيف تتصرّفين؟

– أتحرّك بحذر وأتّخذ احتياطات بقدر إمكاني. أختار فندقًا منعزلًا وأصطحب صديقتي معي كما أنّني – كما ترى – أرتدي أكبر نظّارة شمس في التاريخ.

ضحكًا معًا ثمّ قال لها:

– عندما تريدين أن تسبحي قولي لي.

– لن أقول لك أبدًا.

– ما السبب؟

– أنا لا أعرف السباحة وأخاف أن أغرق.

– أنا مستعدّ لإنقاذك.

– سأرفض.

– ترفضين أن أنقذك؟!

– يجب أن تشدّني بقوّة نحوك حتّى تستطيع إنقاذي.

كان وقع الجملة موحيًا وساد الصمت لحظة ثمّ سألها:

– هل عملت بالمحاماة؟

– لم أعمل قطّ في حياتي.

– لماذا لا تعملين؟

– لأنّي من أسرةٍ ثريّة.

لم يعلّق كارلو واستطردت أريج:

– طبعًا ممكن تقول لي إنّ الشغل ليس فقط وسيلة لكسب المال وإنما من أجل إثبات الذات..

– نعم.

– هذا الكلام صحيح من الناحية النظريّة لكن عمليًا نحن نكتشف مع الوقت أنّ اختياراتنا في الحياة قليلة أو أنّنا غالبًا لا نختار شيئًا. ليس من العدل إذن أن نلوم أنفسنا على اختياراتٍ فُرضت علينا.

– أتمنّى أن أفكّر مثلك. أنا أعاني من قلقٍ دائم كثيرًا ما يمنعني من الاستمتاع بحياتي.

– ألا يمكن أن تتخلّص من القلق لمدّة يومين فقط؟

أمسك بيدها وقال برقّة:

– ممكن تساعديني؟

ابتسمت كطفلٍ ماكر وقالت:

– أساعدك بأيّ صفة؟

– بصفتنا صديقين.

– أنت تعرفني من يوم واحد فقط.

– أنا لا أقيس الصداقة بالزمن ولكن بالإحساس.

– اشرح لي.

– حدث كثيرًا أنّني عملت في نفس المكان مع شخص لسنوات لكنّنا لم نصبح صديقين أبدًا. وبالمقابل قد أقابل شخصًا للمرّة الأولى فأشعر كأنّني أعرفه من زمان.

تطلّعت إليه بنظرة حالمة وقالت:

– هل تحسّ أنّك تعرفني من زمان؟

– نعم.

– وأنا أيضًا لديّ نفس الشعور.

اقترب من وجهها لكنّها دفعته برفقٍ وهمست:

– كارلو.. لا ترتكب حماقات.

أحضر السفرجي الطلبات ورشف كارلو من كوب البيرة بينما أخذت أريج رشفة كبيرة من كأس الفودكا ثمّ قالت:

– بقدر ما أحبّ اسكندريّة أنا خائفة عليها.

– خائفة من ماذا؟

– أخاف عليها من القبح والتشوّه.

– من سيشوّه اسكندريّة؟

– الحكومة المصريّة.

– عذرًا.. أنا لا أفهم في السياسة.

– أنا لا أتحدّث في السياسة. أنا أقرّ حقيقة. مصر يحكمها الآن مجموعة من الضبّاط الشبّان ليس لديهم الثقافة ولا الخبرة لكي يحافظوا على الاسكندريّة التي هي واحدة من أجمل مدن الدنيا. الاسكندريّة تحتاج إلى ذوق لا يمتلكه من يحكم مصر الآن.

ظلّ كارلو صامتًا وخطر له أنّ هذا الحوار لو حدث قبل شهرٍ واحد لكان اندفع ينافسها في مديح الاسكندريّة لكنّه الآن يريد أن يغيّر الموضوع. ما جدوى أن يمتدح مدينته إذا كان سيُضطرّ إلى مغادرتها قريبًا.

اقترح أن ينزلا إلى البحر. وقفت وخلعت الكاش مايوه والصندل وهمست في أذنه:

– خلّيك جنبي. أنا بأخاف.

كانت نبرتها خافتةً مستكينة ومشبعة بالغواية. قضيا في البحر نحو ساعة ودفعها الموج عدّة مرّات فتعلّقت به واحتضنها فأحسّ بليونة جسدها المثيرة. خطر له أنّ هذه المرأة مفعمةٌ بأنوثةٍ عتيقة. أنوثة حريم السلطان. خرجا من البحر وأخذا دشًّا في الهواء الطلق

ليزيلا المياه المالحة ثمّ استلقيا مرّة أخرى تحت الشمسيّة وطلبا دورةً أخرى من المشروبات وتحدّثا في موضوعاتٍ متنوّعة. انتابتها حالةٌ من المرح جعلتها تطلق ضحكاتٍ عالية ثمّ رشفت من الفودكا وقالت:

– عندما أعيش لحظات سعيدة ألوم نفسي.

– لماذا؟

– لأنّي عندما كنت شابّة كنت جادّة أكثر من اللازم.

– أريج، لقد ارتكبتِ خطأً في اللغة الفرنسيّة. هل تسمحين لي بالتصحيح؟

سألته بانزعاج:

– ما هو الخطأ؟

– أنت قلت: عندما كنت شابّة Quand j'étais jeune. الجملة الصحيحة: عندما كنت أكثر شبابًا Quand j'étais plus jeune.

أضاء وجه أريج بابتسامة امتنانٍ وقالت:

– لا يمكن أن تدرك تأثير هذا الكلام عليّ..

– هل تعرفين ماذا أريد أن أفعل الآن؟

– أستطيع أن أخمّن.

اقترب منها وهمس:

– أريد أن أقبّلك.

ضحكت وقالت:

– هل من الضروري أن نصنع فضيحة؟

– الحلّ أن نذهب إلى مكانٍ لا يرانا فيه أحد.

ابتسمت بغموض ولم تعلق فقال لها بنبرة واثقة:

– أنا عازمك على العشاء الليلة في جناحي. الجناح الشرقي.

بدت كأنّها كانت تتوقع الدعوة وقالت بنبرةٍ عمليّة:

– لا يمكن أطلع لك وأنا متبهدلة. شعري منكوش وجسمي عليه رمل. أعطِني فرصة حتّى أستعدّ كما أنّني أريد أن أنام قليلًا حتّى أستعيد نشاطي.

– سأنتظرك الساعة 8.

44

ساد صمتٌ عميق وراح العامل حسن يئنّ وهو مقيّد بالكلبشات وقد غطّى الدم وجهه. دوّى صوت العقيد في الميكروفون:

– أيّ واحد فيكم مضرب عن العمل يقرّب قدامي هنا.

راح بعض العمّال ينظرون إلى العقيد بغضب بينما أطرق آخرون صامتين ولكنّ أحدًا لم يتحرّك.

صاح العقيد من جديد:

– الرجل فيكم يورّيني نفسه.

مرّت لحظات ولم يستجب أحد لتحدّي العقيد الذي اطمأنّ لسيطرته فصاح:

«كل واحد يرجع على شغله.. بسرعة».

بدأ العمّال ينسحبون واحدًا بعد الآخر. تجاهلهم العقيد وكأنّه لا يراهم وراح يتكلّم بصوتٍ خافت مع بدوي خضير. فجأةً ابتعد جليل. مشى بخطًى مسرعةٍ بدون أن ينظر خلفه حتّى خرج من بوّابة المصنع ثمّ استقلّ الأتوبيس إلى ميدان المنشيّة. لم تكن الساعة قد جاوزت الحادية عشرة. راح يمشي على الكورنيش ويسترجع ما حدث. توني كازان، مصري من أصل يوناني، اجتهد وكافح وعمل مشروعًا ناجحًا في بلده وذات صباح يفاجئه مقدّم في الشرطة العسكريّة بأنّ الحكومة صادرت مصنعه. هكذا في يومٍ وليلة يخسر مصنعه وأمواله وتعب عشرين عامًا. خطر لجليل أنّ بدوي خضير كان يعلم بقرار التأميم قبل حدوثه. المؤكّد أنّ بدوي خان مسيو توني. بدوي الخائن طلب من جليل بيانًا بأرباح المصنع ثمّ ضمّ البيان إلى المستندات التي أعدّها بعنايةٍ ووضعها في حقيبةٍ أعطاها للضابط. الآن يتّضح كلّ شيء. لقد كان بدوي خضير ينتظر الضابط منذ الصباح وقد ارتدى بدلةً جديدة أنيقة لأنّه كان يعلم سلفًا أنّه سيكون المدير العامّ. تذكّر جليل مشهد الاعتداء على العامل الشابّ. كيف

ولماذا يتمّ قمع العمّال بهذه الوحشيّة؟ هل هذا جيشٌ وطني أم جيش احتلال؟ كيف يضرب الجنود عاملًا مصريًا بالأحذية وكعوب البنادق لأنّه تجرّأ وتضامن مع صاحب المصنع؟ الغريب أنّ التأميم يتمّ أساسًا لصالح هؤلاء العمّال، هكذا يؤكّد الزعيم وهكذا يؤكّد الميثاق. هكذا يقولون في الاتّحاد الاشتراكي وهكذا يكتبون في الخطّ السياسي الذي يوزّعونه في التنظيم الطليعي. كيف يتمّ التأميم لصالح العمال إذا كان يُفرض عليهم بالقمع والإذلال؟ هل تمّ تأميم كلّ المصانع والشركات بنفس هذه الطريقة؟ لقد استمع في إذاعة لندن إلى محلّلٍ سياسي يؤكّد أنّ انقلاب السوريّين ضدّ عبد الناصر قد حدث لسببين: أولًا القمع الذي مارسه الجيش المصري ضدّ المواطنين السوريّين وثانيًا بسبب سياسة التأميمات التي فرضتها الحكومة المصريّة على أصحاب الأعمال السوريّين. حينئذٍ اعتبر جليل هذا الكلام مجرّد دعايةٍ استعماريّة كاذبة لكنّه اليوم رأى بعينيه كيف يتمّ التأميم. سيكون عليه في المستقبل أن يتريّث قبل أن يكذّب الإعلام الغربي. تزاحمت الأسئلة في ذهن جليل وأحسّ فجأةً بأنّه منهك وحزين. استوقف سيّارة تاكسي ليعود إلى البيت. صعد إلى الشقّة في الدور الأول وفوجئت به فيفي فخرجت من المطبخ وسألته بقلق:

– خير يا جليل. أنت تعبان؟

حتّى تلك اللحظة لم يكن قد قرّر إخبار فيفي بما حدث لكنّه أمام تلك اللهفة المحبّة لم يتمالك نفسه فقال وهو يجلس على الأريكة:

– المصنع تأمّم.

لم تفهم فيفي لأول وهلة لكنّ جليل شرح لها كلّ شيء بالتفصيل. ظلّت تستمع بانتباهٍ ثمّ قالت بتأثّر:

– يا عيني على توني صاحب المصنع. يعني يتعب ويشقى سنين طويلة وفي لحظة يخسر كلّ حاجة؟! ده ظلم ما يرضيش ربّنا.

قال جليل:

– تصوّري أنّي مش قادر أشوف مسيو توني. ما عنديش كلام أقوله.

– لازم تقف جنبه يا جليل. ممكن الأستاذ عبّاس يرفع قضيّة ويرجّع المصنع؟

– قرارات رئيس الجمهوريّة لها قوّة القانون لا يمكن الطعن بها.

– من قال لك؟

– ضابط الشرطة العسكريّة.

بدا الغضب على وجه فيفي وصاحت:

– يعني الرئيس يخرب بيت الناس وممنوع يعترضوا؟ ده إيه الجبروت ده!

في تلك اللحظة خطر لجليل أنّ فيفي ليست مثقّفة ولم تحصل حتّى الآن على شهادةٍ جامعيّة لكنّها برغم ذلك تتمتّع بذكاء القلب الذي يمنحها القدرة على فهم أكثر الموضوعات تعقيدًا. ربّتت على كتفه وقالت:

– خش يا جليل استريح ولما يرجع رائف من المدرسة أصحّيك نأكل مع بعض.

سكتت لحظة ثمّ استطردت بحماسة:

– إيه رأيك بعد ما رائف يعمل واجب المدرسة نروح كلّنا الملاهي؟!

استسلم جليل لاقتراح فيفي ودخل حجرته ثمّ تمدّد على السرير لكنّه لم يستطع النوم. عاد رائف من المدرسة وتناولوا الغداء جميعًا وبعد أن كتب رائف واجب المدرسة ذهبوا إلى ملاهي كوته في الأزاريطة. كان رائف سعيدًا للغاية. ركب المراجيح ودخل بيت الأشباح وبيت المرايا وأصرّت فيفي على أن يركبوا جميعًا مرجيحة الساقية العملاقة.. فعلت فيفي كلّ ما بوسعها للتسرية عن جليل الذي كان مشتّت الذهن تعاوده المشاهد التي رآها في الصباح وتؤلمه. عندما عاد إلى البيت وبعد أن نام رائف قبّل جليل رأس فيفي ويديها وهمس:

– ربّنا يخليكِ. أنتِ نعمة..

تأثّرت فيفي واحتضنته بقوّة وقالت:

– ربّنا يخليك يا حبيبي..

ذهب إلى المصنع في الصباح فوجد لافتتين كبيرتين على المدخل. اللافتة الأولى مكتوب عليها نصّ القرار الجمهوري بتأميم المصنع، واللافتة الثانية مكتوب عليها:

«السيد الأستاذ بدوي خضير مدير عام مصنع كازان يدعو جميع العاملين في المصنع إلى لقاء مفتوح في المدرّج في تمام

الساعة العاشرة صباح اليوم. يجب الحضور للأهمّية».

دخل جليل من باب المصنع وما إن وصل إلى مكتبه حتى جاءه الساعى ليقول:

– سيادة المدير العام طالب حضرتك.

نهض جليل واجتاز الردهة إلى مكتب بدوي خضير الذي ما إن رآه حتّى صاح بمرح:

– أنت اختفيت فين يا أستاذ جليل؟ سألت عليك قالولي مشي من المصنع.

قال جليل بصوتٍ خافت:

– كان عندي ظرف طارئ.

– غلط يا جليل. لا يجوز أنّك تمشي من الشغل من غير ما تستأذن.

– أنا آسف.

سكت بدوي قليلًا ثمّ تطلّع إلى جليل وابتسم وقال:

– مبروك.. أنت بقيت مدير الإدارة الماليّة. أنا وقّعت القرار الصبح.

– شكرًا يا فندم.

– باعتبار منصبك الجديد لازم تحضر لقائي بالعمّال الساعة عشرة. أنا ناوي أعلن قرارات مهمّة.

45

أنس

عرفت الخبر من عبّاس القوصي.

اتّصل بي وقال إنّ مصنع كازان تمّ تأميمه ثمّ سألني إن كنت أحبّ أن أزور توني مع الأصدقاء. لم أردّ فاستطرد عبّاس:

– أعتقد أنّ توني يحتاج إلى مساندتنا.

وافقت على الزيارة واتّصلت بليدا فعرفت أنّ عبّاس أخبرها. مررت عليها في المطعم واصطحبتها إلى بيت توني. في الطريق تبادلت مع ليدا عبارات الأسف لما حدث. رحت أفكّر في صديقي توني. تذكّرت اجتهاده وإخلاصه في العمل وفرحته بإنجازات المصنع. كلّ ذلك ضاع الآن.. الى الأبد.. كيف سيقابلنا توني؟ هل سأجده منهارًا؟ ماذا نستطيع أن نفعل لمساعدته؟ وصلنا إلى فيلّا كازان وفتح لنا السفرجي وقادنا إلى الصالون حيث وجدنا شانتال ونهى زوجة عبّاس. ما إن رأتنا شانتال حتّى صاحت:

– ماذا يحدث في مصر؟ هل يمكن الاستيلاء على أموال الناس بهذه البساطة؟! ماذا فعل توني المسكين حتّى يصادروا مصنعه؟ لو كان توني في أيّ دولة محترمة لكان تمّ تكريمه على دوره في تشجيع الصناعة الوطنيّة. لكنّهم في مصر يصادرون مصنعه.

كانت تتحدّث بحماسةٍ ومرارةٍ وتلوّح بيديها وهي تنظر إلينا كأنّنا نحن من اتّخذ قرار التأميم. ظللنا صامتين أنا وليدا ونهى. بعد قليل دخل عبّاس وتوني. لم يكن توني منهارًا. كان تعبير وجهه مأخوذًا. أقرب للذهول. خطر لي أنّه لم يستوعب ما حدث بعد. في حالات الصدمة الشديدة قد يتأخّر ردّ الفعل وقد يتصرّف الضحيّة بطريقةٍ عاديّة أو ربّما يعيش حالةً من الانكار لأنّه لا يريد أن يواجه المصيبة. كلّ هذه الحيل النفسيّة قد يستعملها الإنسان مؤقتًا حتّى تحين لحظة مواجهة الحقيقة. وضع عبّاس يده على كتف توني وقال بلهجةٍ جادّة بدا وقعها غريبًا:

– أصدقاؤنا أصرّوا على المجيء لرؤيتك.

أجال توني نظره في الحاضرين وابتسم بعصبيّةٍ وقال:

– أنا ممتنّ لكم جميعًا. أرجوكم تصرّفوا وكأنّكم في بيتكم. أمامكم الكؤوس والزجاجات. صديقنا كارلو غائب في إجازة. إذن سنصنع كؤوسنا بأنفسنا ومن يرِدْ قهوة أو شايًا يطلب من السفرجي.

حمل توني جردل الثلج ووضعه على المائدة لمن يريد. بدا لي غريبًا أن يهتمّ توني بما نشربه في هذه الظروف. سادت حالةٌ من الكآبة ولذنا جميعًا بالصمت. لم يشرب أحدٌ منّا وأشعلت أنا سيجارةً ملفوفة. لم يعلّق أحدٌ على رائحة الحشيش. حكى توني ما حدث بالتفصيل. كيف فوجئ بالشرطة العسكريّة وماذا قال له الضابط وكيف ردّ عليه ثمّ كيف اعترض العمّال وكيف قمعهم الضابط وقبض على العامل الذي أصرّ على الإضراب. في النهاية قال توني:

– لست غاضبًا من العمّال. لقد اتّخذوا موقفًا شجاعًا لكنّهم في النهاية أصحاب عيال ولا يمكن أن يتحدّوا السلطة.

تطلّعت شانتال إلى عبّاس وقالت:

– ما هو الإجراء القانوني الذي يمكن اتّخاذه؟

قال عبّاس:

– كلّ ما يمكن فعله أن نكتب تظلّمًا.

– تظلّم؟! طلب رحمة من عبد الناصر؟

هكذا سألت شانتال باستنكار فابتسم عبّاس بحزن وقال:

– هذا هو الإجراء الوحيد المتاح. ومع ذلك فلست متفائلًا بالنتيجة. كلّ التظلّمات التي قدّمها ضحايا التأميم تمّ رفضها.

فكّرت شانتال وقالت:

– لماذا قرّروا تعيين توني مستشارًا للمصنع؟

رشف عبّاس من كأسه وقال:

– السلطة تفعل ذلك لأنّهم عندما يؤمّمون مصنعًا لا يعرفون كيف يديرونه وبالتالي يعيّنون صاحب المصنع مستشارًا بشكلٍ مؤقّت حتّى يشرح لهم طريقة إدارة المصنع وبعد ذلك يستغنون عن خدماته. على أيّ حال فقد رفض توني منصب المستشار وقد أبلغتهم بالرفض في إنذارٍ قانوني سيصلهم غدًا.

فكّرت أنّ الموقف يزداد غرابة. ليس من حقّ توني الاعتراض وإنّما يستطيع فقط أن يتظلّم. كلمة الاعتراض تخدش هيبة الديكتاتور. التظلّم جدير بالعبيد أمّا الاعتراض فهو كلمةٌ تفترض الندّيّة. انتابني حزنٌ مفاجئ. ليس فقط بسبب مأساة صديقي توني بل لأنّني أحسست بمهانة. من نحن وماذا نساوي في هذا البلد؟! خطر لي فجأةً أنّنا جميعًا بلا قيمة.. أنت في حكم الديكتاتور بلا قيمة. أنت لا شيء. مهما حاولت أن تتجاهل هذه الحقيقة أو تصنع حولك عالمًا خاصًّا ليعزلك عن الأحداث. مهما هربت إلى الفنّ والخمر والحشيش والسهر مع الأصدقاء. كلّ هذه وسائل دفاعيّة قد تؤجّل مواجهتك للحقيقة إلى حين ولكن في لحظةٍ ما، مثل الآن، ستجد نفسك وجهًا لوجه مع انسحاقك وهزيمتك الشائنة. أنت بلا حقوقٍ ولا كرامة ويستطيع الديكتاتور أن يفعل بك ما يشاء متى يشاء وأنت لا

تملك الاعتراض.. تستطيع فقط أن تتظلّم ولسوف يرفض تظلّمك. ماذا نستطيع أن نفعل لتوني كازان؟ لا شيء. نحن مجموعة من العجزة. بلا حولٍ ولا قوّة. جئنا في واجب عزاء لكنّ الميّت مات وقُضي الأمر. سوف نصرخ ونولول ونذرف الدموع ثمّ نعود لبيوتنا. أحسست فجأةً بأنّ زيارتي لتوني بلا معنى. بعد قليلٍ همست لليدا ثمّ وقفنا واستأذنّا في الانصراف. لم أكن قد قرّرت بعد كيف أودّع توني. هل أشدّ على يده وأقول كلمتين لمؤازرته مثل: «شدّ حيلك يا توني» أو «شدّة وتزول».. بدا لي كلّ ذلك فجأةً سخيفًا ومبتذلًا. لن أقول شيئًا لأنّ أيّ كلامٍ سيكون مستهلكًا وبلا جدوى وسأشعر بأنّني أمثّل دورًا في مسرحيّةٍ سخيفة. صافحت توني بدون أن أنظر إلى وجهه ثمّ انصرفت بسرعة. فعلت ليدا مثلي ولحقت بي. ما إن خرجنا في الطريق حتّى استوقفت تاكسي. رأيت السائق في المرآة. رجل في أواخر الثلاثينيّات أصلع وعنده شارب رفيع. لا أعتقد أنّني سأنسى شكله أبدًا. جلست ليدا بجواري، بدت حزينةً ومشتّتة. تطلّعت إليّ وقالت بالفرنسيّة:

– ماذا يحدث لنا يا أنس؟ متى ينتهي كلّ ذلك؟

– لا أعرف.

كان وقع صوتي غريبًا وكأنّ شخصًا آخر يتكلّم. قالت ليدا:

– هل تذكر عندما قلت «الأشجار تمشي في الاسكندريّة»؟ مَن العرّافة التي رأت الأشجار تمشي؟

– زرقاء اليمامة.

– لقد قلتَ لي إنّ اسكندريّة التي عرفناها ستختفي شيئًا فشيئًا وستأتي اسكندريّة أخرى لا تعرفنا ولا تحبّنا. لقد اتّهمتك عندئذٍ بالمبالغة لكنّك كنتَ على حقّ.

ظللت صامتًا فقالت بمرارة:

– هناك جهةٌ ما تراقبنا وتعاقبنا. في البداية كارلو ثمّ مارتا ثمّ توني. على من يحين الدور القادم؟!

تهدّج صوتها من الانفعال. أشفقت عليها فجذبتها نحوي وقبّلت يدها. اندسّت في حضني فمددت يدي وطوّقت خصرها وقبّلتها على شعرها وجبينها. فجأةً سمعت صوتًا أجشّ. لم أنتبه تمامًا حتّى تكرّر الصوت وأدركت أنّه سائق التاكسي:

– الكلام ده ما ينفعش.

– كلام إيه؟

– البوس والأحضان والحركات دي.

– وأنت مالك؟

– الوساخة دي اعملوها في بيتكم لكن هنا في التاكسي تحترموا نفسكم.

وجدتني أصيح:

– أنت وقح وقليل أدب.

ردّ بصوتٍ عالٍ:

– روح لمّ الستّ الهايجة اللي جنبك.

لم أشعر إلّا وأنا أشدّه من ياقة القميص فاختلّت عجلة القيادة وصرخت ليدا وصحت بأعلى صوتي:

– نزّلني حالًا يا حقير.

لا أعرف لماذا استعملت هذه الشتيمة. «حقير». فتحت الباب وجذبت ليدا من يدها ثمّ ألقيت له بخمسين قرشًا وتعمّدت أن أمشي بسرعة في عكس اتّجاه السيّارات لئلّا يلاحقني. وصلنا إلى بيتي وما إن دخلنا من باب الشقّة حتّى تعانقنا. كانت ليدا تنتفض. أحسست بدموعها تبلّل وجهي وهمست:

– أنا خائفة يا أنس..

46

في الساعة السابعة والنصف رنّ جرس الباب ولمّا فتح كارلو حيّاه السفرجي وقال:

– تلغراف.

تناول كارلو الظرف وفتحه فوجد التلغراف جملةً واحدة مكتوبة بالفرنسيّة:

– جاهزين لاستقبال شريكك.

التلغرافات كانت الطريقة التي اختارها المقدّم معتزّ للتواصل. لم يشرح السبب. هل يتجنّبون الأحاديث التليفونيّة لئلّا يتنصّت عليهم أحدٌ من مخابراتٍ أجنبيّة؟ ألا يمكن أن تكون أريج نفسها مراقبةً من مخابرات بلدها؟ احتمالٌ وارد. ثمّ هل هذه تلغرافات حقيقيّة يتمّ إرسالها بالطريقة المعتادة؟ أم هي رسائل تُكتب على أوراق التلغراف؟ عندما يكتب كارلو تلغرافًا للعقيد معتزّ ويتركه في مكتب الاستقبال هل يتمّ إرساله كتلغراف أم يُسلّم باليد للعقيد معتزّ؟

كلّ هذه أسئلة لم يعثر كارلو لها على إجابة. ها نحن الآن في المشهد الرئيس (The Master Scene).

اقتربت ساعة الصفر والكاميرات تعمل وتسجّل كلّ شيء..

كان كارلو مستعدًّا. أخذ حمّامًا ساخنًا وحلق لحيته وصفّف شعره أمام المرآة وضمّخ جسده بالعطر وارتدى روبًا حريريًّا فوق ملابسه الداخليّة وأحضر زجاجة فودكا وعصير برتقال (ليقدّم لأريج مشروبها المفضّل) بينما وضع أمامه زجاجة الويسكي شيفاز وإناء الثلج. كان قد رسم السيناريو في ذهنه بدقّة. عندما تأتي أريج سيجلس بجوارها على الأريكة، سيشربان ويتحدّثان. في لحظةٍ ما سيبدأ بتقبيلها ثمّ يسحبها إلى السرير. سيسعى لإظهار وجهها أمام

الكاميرات ويجب أن يخلع عنها ملابسها حتّى تكون عاريةً تمامًا لحظة القبض عليها.

هناك كاميرتان مثبّتتان خلف مصباحَي الحائط في الصالون وعند السرير ثلاث كاميرات. واحدة في النجفة الكبيرة وكاميرتان خلف الصورتين المعلّقتين على الجدار. كلّ الكاميرات تمّ تثبيتها ببراعةٍ ولا يمكن لأحدٍ أن يلاحظها.

رأى كارلو بخياله ما سوف يحدث لحظةً بلحظة وعلى الناحية الأخرى من السرير كان قد وضع ملابسه على المقعد. عندما يقتحم رجال الأمن الجناح للقبض على أريج سيقفز بسرعة ويرتدي ثيابه ويهرع خارجًا من الفندق. سوف يقود سيّارته إلى البيت ولن ينظر خلفه. لن يفكّر في ما فعله مع أريج أبدًا بعد ذلك. وكأنّه كان كابوسًا مزعجًا يجب أن ينساه تمامًا بمجرّد أن يستيقظ.

فتح زجاجة ويسكي وصبّ كأسًا وأشعل سيجارة، وفي الساعة الثامنة تمامًا دقّ جرس الباب وذهب كارلو ليفتح. ظهرت أريج وقد ارتدت فستانًا لونه بنفسجي كشف عن ذراعيها وصدرها. أدرك فورًا أنّها سكرانة. صافحها بحرارةٍ وجذبها من يدها وأجلسها بجواره على الأريكة ثمّ صبّ لها كأسًا فتناولتها وقالت:

– أنا شاربة كأسين لكن أحبّ أشرب تاني.. لو سكرت احملني إلى حجرتي.

– بكلّ سرور.

– هناك فكرة مزعجة تلحّ عليّ منذ الصباح ولا أستطيع أن أتخلّص منها.

– لا تفكّري في ما يضايقك.

– حاولت وفشلت.

– ما هي الفكرة التي تضايقك؟

– أنّك لا تعرفني بالقدر الكافي وأخاف أن تحكم عليّ بطريقةٍ سيّئة.

– لن أحكم عليكِ أبدًا.

– عندي سؤال وأرجوك أجب بصراحة.

– اسألي.

– هل تحترمني؟

– طبعًا.

– هل ستظلّ دائمًا تحترمني؟

– لا يجب أن تشكّي في احترامي لك أبدًا.

– أريد أن أتكلّم قليلًا وأخشى أن أصيبك بالملل.

– بالعكس.. أحبّ أن أسمعك.

– هل تعرف من أنا؟

– أنت أريج الجميلة.

تنهّدت أريج ثمّ اندفعت تتكلم بسرعة:

– أنا إنسانة أعطيت كلّ شيء ولم آخذ أيّ شيء في المقابل. لقد وقفت بجوار زوجي ثلاثين عامًا حتّى صار وزيرًا. كافحت معه يومًا بيوم. برغم أنّنا أثرياء، لم تكن حياتنا سهلة. السياسة في بلدنا مختلفة عن السياسة في أوروبا. السياسة في بلدنا تدور حول شخصٍ واحدٍ هو الملك. كلمة وشاية واحدة تبلغ الملك قد تقضي على مستقبلك وقد تلقي بك في السجن أو حتّى تؤدّي إلى قتلك. في هذا الجوّ المسموم الهستيري ظلّ زوجي يكافح عامًا بعد عام حتّى صار أهمّ وزراء الملك وأقربهم إليه. لقد شاركت زوجي في هذا النضال لكنّه حصل على النجاح وحده وتنكّر لي.. زوجي تزوّج بامرأةٍ أخرى. أنا أعرف زوجته الجديدة، اسمها لولوة وتصغره بخمسة وعشرين عامًا.

– كيف تستمرّين معه بعد أن تزوّج امرأةً أخرى؟

– تعدّد الزوجات مقبول عندنا.

– بصراحة أنا لا أفهم كيف تتزوّج امرأة برجل متزوج.

– هكذا الناس في بلدي. النفط جعلنا أغنياء جدًّا. نحن نعيش في مبانٍ شاهقة ونرتدي أفخم الأزياء ونركب أحدث السيّارات لكنّ كلّ هذه قشرة برّاقة ما إن ترفعها حتّى تكتشف أنّنا في الحقيقة ما زلنا قبيلة من البدو. نحمل عقليّة أجدادنا الذين عاشوا من ألف سنة. لم نتقدّم في التفكير خطوة واحدة. الرجل في ثقافتنا هو السيّد ومن حقّه أن يجمع بين زوجتين وأكثر. زوجي لا يخفي عنّي زياراته لزوجته الأخرى وعندما أخبره بأنّني سأقضي مع صديقتي أسبوعًا في الاسكندريّة ألمح على وجهه السعادة لأنّ غيابي سيمكّنه من الاستمتاع بوقته كلّه مع زوجته الشابّة.

لم يعلّق كارلو ورشفت أريج من كأسها ثمّ قالت:

– هو فقط ينصحني بأن أقضي إجازتي في مدينة كان أو كابري لا في الاسكندريّة.

– لماذا؟

– منعًا للمشاكل.

– أيّ مشاكل؟

– زوجي له موقف معارض لسياسات عبد الناصر وهو يحذّرني دائمًا من أنّني قد أتعرّض لمشاكل لأنّ السلطات المصريّة ستنتقم منه في زوجته.

– برغم ذلك أنت تأتين إلى الاسكندريّة ولا تخافين.

تنهّدت وقالت:

– المصريّون متحضّرون ولا يمكن أن يؤذوا امرأة انتقامًا من زوجها.

– عندك حقّ.

اقتربت منه وهمست:

– أنا آسفة على هذه الدراما. لكنّني أبوح لك بكلّ ما يضايقني.

– قولي لي كلّ ما تريدين.

قالت فجأةً بصوت مرتفع:

– لقد تعبت في حياتي. أريد أن أستريح. لم أعد صغيرة. كثيرًا ما أسأل نفسي: كم يبقى من عمري؟ عشر أو عشرون سنة؟ من حقّي أن أستمتع بحياتي. أحسّ بحسرة. عندي ولدان تعبت سنوات في تربيتهما حتّى أكملا التعليم وحصلا على وظائف مرموقة وتزوّجا وكوّنا أسرتين سعيدتين. تخيّل أنّني أحتاج إلى التواصل معهما ولا أستطيع.

– لماذا؟

– إنّهما يقيمان في لندن. أكاد أتوسّل إليهما حتّى يسألا عنّي. لا أريد منهما شيئًا. أريدهما فقط أن يتّصلا بي. مجرّد مكالمة سريعة ستجعلني سعيدة. لا أطلب أكثر من ذلك. لكنّهما مشغولان دائمًا.

شرب كارلو من كأسه وراح يتطلّع إليها فقالت فجأة:

– أنا وحيدة تمامًا.. هذه هي الحقيقة.

سألها كارلو:

– هل فكّرت في الانتقال للمعيشة في لندن لتكوني قريبةً من الولدين؟

– إن كانا لا يهتمّان بمجرّد الاتّصال بي فما الذي سيدفعهما إلى زيارتي في لندن. أنا لا أقبل أن أستجدي الاهتمام من أيّ شخص حتّى لو كان ابني.

– ليس هذا استجداءً لكن واجب الابن أن يهتمّ بأمّه.

– ما قيمة عطف الابن إذا لم يحسّ به وحده؟ ما قيمة الحبّ إذا كنت أذكّرك به وأطلبه منك؟

ساد الصمت لحظة ثمّ قالت أريج بصوتٍ خافت:

– لقد أحببت أسرتي وبذلت كلّ ما أستطيع لرعايتهم وبعد كلّ هذه السنين اكتشفت أنّ حبّي كان من طرف واحد.

قال كارلو:

– إنّهم قطعًا يحبّونك.

ابتسمت بحزن وقالت:

– إنّهم يحبّونني وفقًا لجدولهم. يحبّونني بما لا يتعارض مع مشاغلهم. عندما أموت سيبكونني بشدّة ويأخذون العزاء فيّ ويتحدّثون عنّي للمعزّين. إنّهم جاهزون تمامًا لأداء مراسم موتي أمّا الآن فهم مشغولون عنّي.

ساد الصمت فجأةً وشربت أريج ما بقي في الكأس وقالت:

– صديقي كارلو.. لقد خاب أملي وتخلّى الجميع عنّي.. هل تؤمن باللّه؟

– نعم.

– إن كان اللّه موجودًا فلن يسمح باستمرار هذا الجحيم. أنا تعذّبت بما فيه الكفاية.

فجأةً أجهشت بالبكاء..

ربّت كارلو على كتفها مواسيًا فقالت:

– آسفة يا كارلو لأنّي أبكي لكنّني أثق بك. أنا مؤمنة بما قلته لي أمس. الصداقة لا تُحسب بالوقت وإنّما بالإحساس. أنا أشعر أنّني أعرفك من زمان..

كانت الكأس قد فرغت فناولتها لكارلو الذي أعدّ لها كأسًا جديدة أخذت منها رشفةً كبيرة وقالت:

– تعرف؟! كنت أتمنّى أن أقابلك من زمان. كانت أشياء عديدة في حياتي ستتغيّر. أنت طبعًا وسيم وجذاب. أظنّك تعرف ذلك. لكنّ أكثر ما يجذبني إليك أنّك تفهمني وتهتمّ بي. لقد حسبت الوقت

الذي قضيناه معًا. تصوّر أنّنا تكلّمنا معًا حوالي 15 ساعة على مدى يومين. هذه حالة فريدة.

– حالة رائعة!

– كارلو.. أرجوك لا تتخلَّ عنّي كما تخلّى عنّي الآخرون.

– طبعًا.

– هل تعدني بأنّك لن تتخلّى عنّي؟

– أعدك.

اقتربت منه وهمست:

– سأمنحك نفسي فلا تخيّب أملي. لقد خذلني الجميع فلا تخذلني أنت.. أرجوك. لن أتحمّل صدمةً جديدة..

– عن إذنك سأدخل الحمّام بسرعة.

هكذا قال كارلو وهو ينهض من مكانه ثمّ عاد بعد بضع دقائق وعلى وجهه ابتسامةٌ عريضة سألها:

– أتريدين أن تستعملي الحمّام؟

بدا عليها التردّد. لكنّه جذبها من يدها وقال مداعبًا:

– سأسحبك إلى الحمّام كالأطفال.

ضحكت وقامت من مكانها بينما جلس كارلو ثمّ أشعل سيجارة وجذب نفسًا عميقًا وأطرق مفكّرًا. مرّت بضع دقائق ثمّ انفتح باب الحمّام وارتطم بالجدار محدثًا صوتًا عاليًا وظهرت أريج فاختطفت حقيبة يدها من فوق الأريكة. لم تنطق بكلمةٍ ولم تنظر إلى كارلو الذي راح يتابعها بنظره وهي تخرج بسرعةٍ من باب الجناح ثمّ تغلقه خلفها بعنف. ظلّ كارلو وحده يدخّن ويشرب الويسكي وفجأةً انفتح الباب وظهر المقدّم معتزّ ومعه رجل آخر. اقتربا من كارلو وقال المقدّم معتزّ:

– أريج راحت فين؟

– مشيت.

– ليه؟

– ما أعرفش.

وجّه المقدّم معتزّ صفعةً هائلة على وجه كارلو وتردّد صوته عاليًا في أنحاء الجناح الشرقي:

– هرّبتها يا كارلو؟ احنا ركّبنا كاميرا في الحمّام وشفناك وأنت بتكتب لها ورقة على الحوض. صفعه مرّة أخرى وشدّه من شعره ثمّ

وجّه له لكمة وصاح: «وحياة أمّك لأندّمك على اليوم اللي تولدت فيه»!

47

أنشأ توني كازان هذا المدرّج عندما أسّس المصنع. كان يجتمع فيه بالعمّال الجدد ليشرح لهم طريقة العمل بالإضافة إلى الخبراء الأجانب الذين كانوا يحضرون مع الماكينات الجديدة ليعلّموا العمّال كيفيّة استخد امها. كان ا لمدرّج صغيرًا لا يسع أ كثر من أر بعين شخصًا ولذلك عندما دعا بدوي خضير العاملين جميعًا إليه حدثت مشكلة بسبب ضيق المكان ولكن تمّ التغلّب عليها بإحضار كراسي إضافيّة ووضعها في الممرّات. في الساعة العاشرة دخل بدوي خضير المدرّج المزدحم بالعمّال، كان يمشي بتؤدةٍ وبدا مشغول البال وكأنّ مهامّه كمديرٍ عامّ تستغرقه تمامًا. صعد إلى المنصّة حيث جلس خلف مائدةٍ صغيرة وجلس بجواره جليل القوصي. أمسك بدوي بالميكروفون وقال:

– صباح الخير.

ردّ بعض العمّال التحيّة بينما ظلّ الآخرون صامتين.

تفحّص بدوي وجوه العاملين لحظات ثمّ استطرد بصوتٍ قويّ:

– سأكرّر ما قلته أمس. تأميم المصنع حدث لمصلحتكم. لأجل ترجع لكم حقوقكم المنهوبة. لو حد فيكم معترض على التأميم يرفع يده حالًا وأنا أتناقش معه.

لم يرفع أحدٌ يده. عندئذٍ ابتسم بدوي وقال:

– مرتّباتكم وحوافزكم سيتمّ صرفها في مواعيدها. بالإضافة لذلك عندي خبر مهمّ. بصفتي مدير عام المصنع فقد تم إبلاغي أمس أنّه بناءً على توجيهات سيادة الرئيس جمال عبد الناصر فقد قرّر السيّد وزير الصناعة صرف مرتّب عام كامل لكلّ العاملين في المصنع. بدءًا من الأسبوع القادم سيتمّ صرف مرتّب عام كامل دفعة واحدة لكلّ واحد فيكم.

مرّت لحظات حتّى استوعب العمّال الخبر ثمّ انطلقوا في عاصفةٍ من التصفيق الحماسي وردّد بعضهم:

– الله أكبر..

– ربّنا يخلّيك يا أستاذ بدوي..

ثمّ وقف عاملٌ في آخر القاعة وبدأ يهتف:

– عاش الرئيس جمال عبد الناصر..

وردّد خلفه الحاضرون جميعًا.

انتظر بدوي حتّى انتهى الهتاف ثمّ قال:

– بعد إذنكم سأرسل اليوم برقيّة باسمكم نشكر فيها سيادة الرئيس جمال عبد الناصر ونجدّد له البيعة.

صفّق العمّال بحماسةٍ واستطرد بدوي قائلًا:

– المكافأة المصروفة لكم ليست هبةً ولا منّة. المكافأة حقّكم. الثورة علّمتنا أنّ الفلّاح هو صاحب الأرض والعامل هو صاحب المصنع. نحن هنا لا نتكلّم عن أشخاص بل عن مبدأ. مسيو توني رجل طيّب وخد وم لكنّ الحقيقة أنّ نظام العمل في أيّ مصنع هو سرقة علنيّة للعامل.

نهض بدوي ووقف أمام السبّورة وأمسك الميكروفون بيدٍ وباليد الأخرى إصبع طباشير كتب به بعض الأرقام ثمّ قال:

«أنا سأعطيكم مثلًا مبسّطًا. نفترض أنّ باكو الشوكولاته يباع في السوق بعشرة قروش. لو حسبنا كلّ التكلفة على صاحب المصنع نلاقيها 4 قروش. أنت كعامل ستجد أنّك وزملاءك العمّال بكلّ مرتّباتكم وحوافزكم لا يزيد ما تحصلون عليه عن قرش واحد في باكو الشوكولاته. يعني أنت كعامل عملت باكو الشوكولاته بتعبك وكفاءتك وخبرتك وأخذت أنت وكلّ زملائك قرش واحد. بينما التكلفة كلّها تقف على صاحب المصنع 4 قروش وفي نفس الوقت يتم بيع الباكو بعشرة قروش. يعني أنتم كلّكم تكسبوا قرش وصاحب المصنع يكسب لوحده ستة قروش في الباكو ربح صافي. هو ده استغلال رأس المال. الاشتراكيّة ترفض هذا الظلم. الاشتراكيّة تقول إنّك شريك صاحب المال لما باكو الشوكولاته يحقّق 6 قروش ربح صافي يبقى أنت كعامل تشترك مع صاحب المصنع في الأرباح هو يأخذ 3 قروش وأنت تأخذ 3 قروش. من هنا جاء مصطلح الاشتراكيّة. الاشتراك بين العامل وصاحب المصنع في الملكيّة والأرباح».

بعد ذلك تطرّق بدوي إلى تاريخ الرأسماليّة والإقطاع في مصر ثمّ تكلّم عن أهداف الثورة التي حدّدها الميثاق: إذابة الفوارق بين الطبقات وتحقيق مجتمع الكفاية والعدل. كفاية في الإنتاج وعدالة في التوزيع. لم يكن جليل ينصت إلى ما يقوله بدوي. كان يعرف كلّ هذا الكلام عن ظهر قلب وقد سمعه بل وقاله كثيرًا من قبل كما أنّه كان يحسّ بإحباط. ليس فقط من أجل الظلم الذي وقع على مسيو توني ولكن بسبب التحوّل العجيب في موقف العمّال. هؤلاء العمّال الذين يهتفون الآن للإدارة الجديدة كانوا منذ أيّامٍ قليلة يحبّون مسيو توني ويتنافسون في مديحه. كيف انقلبوا بهذه السرعة؟ هل كانوا كاذبين في حبّهم لمسيو توني أم هم يكذبون الآن في هتافهم للإدارة الجديدة؟ هل مكافأة مرتّب عام تجعلهم ينسون أعوامًا من العمل مع مسيو توني؟ هل قمع الشرطة العسكريّة للعمّال جعلهم يستسلمون للأمر الواقع؟

راح جليل يتأمّل العمّال وهم يستمعون إلى بدوي وقد بدت عليهم الفرحة. هل يُعقل أن يكونوا جميعًا منافقين؟ هل هذه طبيعة في العمّال؟ أن يهلّلوا لأيّ مدير ما دام سيجزل لهم العطاء؟ أليس عند هؤلاء العمّال أيّ مبدأ؟ ألا يعرفون الوفاء أو الولاء أو ردّ الجميل؟ هل العمّال بهذا السوء فعلًا أم هناك أمرٌ ما لا يفهمه؟ قال بدوي خضير لينهي المحاضرة:

– عندكم أسئلة؟

صاح بعضهم:

– لا، شكرًا يا أستاذ بدوي.

– الله ينوّر عليك يا أستاذ بدوي.

قال بدوي:

– أشكركم على حضوركم. تفضّلوا انصرفوا إلى العمل. لا بدّ أن أذكّركم بالتحدّيات الكثيرة التي تواجهنا. نريد أن نثبت لسيادة الرئيس أنّنا على قدر المسؤوليّة.

شقّ بدوي طريقه إلى باب المدرّج بصعوبةٍ لأنّ العمّال ازدحموا حوله لتحيّته واستوقفه بعضهم ليتبادلوا معه الحديث ويقترحوا عليه أفكارًا، كان يردّ عليهم بابتسامةٍ ووعدٍ بدراسة المقترحات. خرج بدوي من باب المدرّج وتوجّه إلى مبنى الإدارة. أحسّ جليل برغبةٍ قويّةٍ في الحديث مع العمّال.. كان يريد أن يعرف لماذا تصرّفوا بهذه

الطريقة؟ ما هي مشاعرهم الحقيقيّة؟ انطلق إلى الفناء خلفهم وانتابه إحساسٌ غريب بأنّهم يتجنّبونه. مشى خلف مجموعة منهم كان بينهم الأسطى كرّار الذي يعرفه جليل جيّدًا فناداه بصوتٍ عالٍ. توقّف الأسطى كرّار واستدار نحو جليل وتوقّف معه بضعة عمّال. ابتسم جليل وقال:

– ممكن أتكلّم معكم؟

– تفضّل يا أستاذ جليل.

حاول جليل أن ينتقي الألفاظ المناسبة فقال:

– أولًا أهنّئكم على المكافأة الجديدة. مبروك.

ردّ العمّال باقتضاب:

– اللّه يبارك فيك.

– شكرًا يا أستاذ.

ثمّ قال الأسطى كرّار:

– مبروك لك أنت يا أستاذ جليل. أنت ترقّيت وبقيت مدير الإدارة الماليّة ولك مكافأة سنة على مرتّبك الجديد.

أحسّ جليل بضيقٍ من تعليق كرّار لكنّه كان قد قرّر المواجهة فقال بصوتٍ مرتفع:

– بصراحة أنا لي عتاب عليكم.

قال كرّار:

– خير إن شاء اللّه. قل لنا سبب العتاب.

– أنا حاسس أنّكم من فرحتكم بالمكافأة نسيتم مسيو توني.

ساد الصمت واستطرد جليل بما يشبه الغضب:

– مسيو توني إنسان طيّب وكريم وياما ساعدكم. أنت يا أسطى كرّار أكيد فاكر موقف مسيو توني معك لمّا زوجتك تعبت.

قال كرّار:

– طبعًا فاكر ومسيو توني جمايله علينا كلنا.

– لكن أنا شايفكم بتصفّقوا وتهتفوا لبدوي خضير وكأنّ المصنع ما كانش له صاحب.

لم يردّ أحد من العمّال فاستطرد جليل:

– يعني مسيو توني يخسر مصنعه وشقا عمره وبعد يوم واحد العمّال يهتفوا للإدارة الجديدة؟ هو ده طبعكم ولا في حاجة أنا ما أعرفهاش؟

وجّه إليه كرّار نظرةً غاضبة وقال:

– ما تظلمش العمّال يا أستاذ جليل. العمّال عندهم أصل وأخلاق.

سرت الحماسة إلى العمّال وتوالت تعليقاتهم:

– من قال لك إنّنا مش زعلانين لأجل مسيو توني؟

– مسيو توني حبيبنا وصاحب فضل علينا لكن ما باليد حيلة.

اقترب ثلاثة عمّالٍ آخرين وانضمّوا للواقفين وقال جليل:

– تخيّلوا لو أيّ واحد فيكم في مكان مسيو توني. المصنع اللي تعبت طول عمرك فيه يصادروه منك قدّام عينيك والعمّال اللي طول عمرك بتعاملهم كأنّهم إخوتك وأولادك بعد يوم واحد يصفّقوا ويفرحوا أنّك خسرت مصنعك.

سكت كرّار لحظة وبدا كأنّه يختار كلماته:

– أنت يا أستاذ جليل مصرّ أنّك تتّهم العمّال ظلم. العمّال يستحيل يفرحوا لأنّ مسيو توني خسر المصنع. هم فرحوا لما قالولهم حنصرف لكم مكافأة مرتّب سنة. طبيعي لازم يفرحوا بالمكافأة لأنّ كلّ واحد من العمّال مسؤول عن أسرة وعيال بيصرف عليهم.

قال عامل:

– إحنا رفضنا التأميم لكنّ الشرطة العسكريّة نفّذت القرار غصبًا عنّا.

اقترب عامل آخر من جليل وصاح بغضب:

– هو كان إيه المطلوب منّا يا أستاذ جليل؟ نهجم على الشرطة العسكريّة ونضربهم؟! أنت شفت بنفسك زميلنا حسن لمّا رفض يشتغل. انضرب وانحبس وتحوّل لمحاكمة عسكريّة. بصراحة إحنا بنحبّ مسيو توني لكنّنا عندنا عيال ولو انحبسنا عيالنا حيتشرّدوا في الشوارع ولا حد حينفعنا.

– باقولك إيه يا أستاذ جليل. اسمعني.

هكذا هتف عامل شاب.

تطلّع جليل إليه فقال العامل:

– صلّ على النبي.

ردّ جليل:

– عليه الصلاة والسلام.

– مسيو توني عنده مشكلة مع الحكومة، يروح يحلّها بينه وبين الحكومة. إحنا على قدّ حالنا. أيّ واحد فينا حيتكلّم حيندهس حالًا وما لوش ثمن.

تمتم العمّال بكلمات تأييد فاستطرد العامل بصوتٍ مرتفع:

– يا أستاذ جليل. موضوع التأميم سياسة عليا إحنا لا نفهم فيها ولا نقدر نغيّرها.

تطلّع الأسطى كرّار إلى العمّال حوله ثمّ قال لجليل بلهجةٍ حازمة:

– بصّ يا أستاذ جليل. أقول لك المختصر المفيد؟ إحنا بنحبّ مسيو توني ومعترفين بفضله لكن رزقنا هو الأهمّ. أيّ واحد فينا خدّام أكل عيشه.

تعالت أصوات التأييد من العمّال لكلام الأسطى كرّار وأحسّ جليل فجأةً بأنّ المناقشة معهم لن تجدي فحيّاهم باقتضاب وانصرف. عندما عاد إلى بيته آخر النهار، راح يسترجع ما قاله كرّار «أيّ واحد فينا خدّام أكل عيشه». كانت هذه الجملة تلخّص كلّ شيء.

دخل مكتبه و أغلق ا لباب ووضع رأسه بين يديه. كان يشعر بصداعٍ مؤلم. لم ينم الليلة الماضية سوى ساعتين. أحسّ برغبة في النوم لكنّه قاومها ثمّ أخرج الآلة الكاتبة التي يحتفظ بها في البيت، وضع الورقة في مكانها على بكرة الآلة وضبط المسافات ثمّ دقّ بأصابعه على الحروف وكتب على رأس الصفحة:

«رسالة إلى الرئيس جمال عبد الناصر».

48

كلّ يوم تستيقظ ليدا في السادسة صباحًا ثمّ توقظ الصغيرة صوفيا وتساعدها على الاغتسال وارتداء ثيابها وتعدّ لها الإفطار والسندوتشات ثمّ تتابعها من النافذة حتّى تركب أتوبيس المدرسة. بعد ذلك تعود ليدا إلى فراشها وتنام ساعتين ثمّ تصحو فتأخذ حمّامًا وترتدي ملابسها وتنتظر حضور الشغّالة إحسان التي تعتني بصوفيا حتّى عودة ليدا في الساعة السادسة مساءً. ما إن تصل ليدا إلى المطعم حتّى تشرف على تنظيف المكان من آثار اليوم السابق ثمّ تستعدّ لتقديم الغداء الذي يحين في الواحدة ظهرًا. ليدا لا تملك سيّارة لأنّها لا تحتاج إليها، تمشي من بيتها إلى المطعم في عشر دقائق، في طريقها اليومي تلقي بالتحيّة على أصحاب المحالّ وكثيرًا ما تتبادل معهم أحاديث ودّية قصيرة. كلّهم يعرفونها ويحبّونها.

ذلك الصباح كانت ليدا مهمومة. لم تنم جيّدًا. القلق لا يفارقها. إنّها خائفة..

تخاف على صوفيا وعلى أنس وعلى نفسها. هناك جهةٌ ما تتربّص بهم. لا شك في ذلك. منذ اللحظة التي ظهر فيها ضابط المباحث في البار بحجّة مخالفتهم للمواعيد، لم تعد حياتها كما كانت. لا يمكن أن تصدّق الأسباب المعلنة لما يحدث. فجأةً اكتشفوا أنّ البار مفتوح بعد المواعيد الرسميّة ثمّ عاد كارلو ليحذّرهم من الحديث في السياسة لأنّهم يتنصّتون عليهم. وفجأةً اكتشفوا أنّ مارتا تنظّم سهرات البوكر فقبضوا عليها وفجأةً أيضًا اكتشفوا أنّها بريئةٌ وأطلقوا سراحها وفجأةً يتمّ تأميم مصنع توني كازان. كلّ هذه الأحداث تقع فجأةً وبلا تفسيرٍ أو تمهيد ثمّ يطلب كارلو منها إجازة أسبوع ويختفي تمامًا. ها هو اليوم الخامس بعد انتهاء الإجازة وكارلو لم يظهر بعد. أرسلت عمّ عربي السايس ليسأل عنه في البيت فقال له البوّابون إنّه مسافر. خطر لها أن تسأل مارتا أمّ

كارلو لكنّها أشفقت عليها. إذا عرفت أنّ كارلو أصابه مكروه فقد لا تتحمّل الصدمة. أين ذهب كارلو؟ مستحيل أن يتخلّف عن الحضور بدون أن يعتذر. إنّها تعرف مدى التزامه في العمل. راحت ليدا تفكّر وهي تمشي في طريقها للمطعم. كان الجوّ مشمسًا والهواء يداعب شعرها وانهالت على ذهنها صورٌ عديدة لكارلو ساباتيني الذي ارتبطت به منذ أن جاء ليعمل في المطعم. كان عندئذٍ في الثامنة عشرة وكانت تصغره بخمس سنوات وقد جعله هذا الفرق بمثابة أخيها الأكبر المسؤول عنها. كان أبوها جورج أرتينوس يكلّفه بالذهاب معها إلى كلّ مكان. أحبّت ليدا كارلو وأصبح صديقها المقرّب. كان يحكي لها عن مغامراته مع النساء كما حكت له عن مشاكلها مع فيليب ثمّ حبّها لأنس. بالإضافة إلى المحبّة الأخويّة كان كارلو شريك عملٍ لا غنى عنه. كانت تنهي عملها في الساعة السادسة وتترك المطعم لكارلو وهي مطمئنّة لأنّه سيعتني بكلّ شيء على أفضل وجه. أين ذهب كارلو؟! عزمت ليدا على أن ترسل عمّ عربي مرّةً أخرى إلى بيته لعلّه يكون رجع. إذا لم يظهر كارلو حتّى المساء فستطلب من عبّاس القوصي أن يتقدّم ببلاغٍ عن غيابه. عندما وصلت ليدا إلى المطعم كانت الساعة تقترب من العاشرة صباحًا. عبرت موقف السيّارات ثمّ تقدّمت ناحية البحر حتّى تدخل من الباب الرئيسي. كان عربي السايس واقفًا على الباب، في العادة ما إن يراها عربي حتّى يهرع إليها ليحيّيها ويسألها إن كانت تحتاج إلى شيء. لكنّه هذه المرّة ظلّ واقفًا وراح ينظر إليها بارتباكٍ وكأنّه يريد أن يخبرها بشيءٍ ما. لمحت سيّارة نصر 2300 بجوار عربي. ما إن اقتربت ليدا من السيّارة حتّى نزل ثلاثة رجال يرتدون ملابس مدنيّة. أحاط بها رجلان واقترب الرجل الثالث منها وقال بصوتٍ خافت:

– مدام ليدا، احنا من المخابرات العامّة. اركبي معنا من غير شوشرة لو سمحت.

49

ذلك اليوم وصلت شانتال إلى الفيلّا فوجدت سليم جالسًا في الصالة مرتديًا ملابسه. لم يهبّ لاستقبالها. لم يأخذها في حضنه ويقبّلها كما يفعل كلّ مرّة. ظلّ جالسًا وتطلّع إليها بوجهٍ عابس وقال:

– اجلسي من فضلك. أريد أن أتحدّث معك.

– ماذا حدث؟

هكذا سألت شانتال بقلقٍ وردّ سليم بغير أن ينظر إليها:

– اجلسي.

جلست شانتال ببطءٍ على المقعد المواجه له. بادرها سليم قائلًا:

– شانتال، لماذا لم تخبريني أنّ اثنين من أصدقائك مقبوض عليهما في قضيّة تجسّس؟

– تجسّس؟!

هكذا ردّدت شانتال باستنكار.

أخرج سليم ورقةً من جيب البدلة وقرأ:

– كارلو ساباتيني وليدا أرتينوس. ألست صديقةً لهما؟ لقد رأيتهما معك ليلة الندوة.

– أنا لم أنكر أنهما من أصدقائي.

هكذا قالت شانتال بصوت محشرج وقد بدأت تستوعب ما يحدث.

صاح سليم بصوتٍ غاضب:

– كارلو وليدا مقبوض عليهما بواسطة المخابرات العامّة ويتمّ التحقيق معهما بتهمة التجسّس.

– وماذا كنت تريدني أن أفعل؟

– كنت أتوقّع منك أن تخبريني.

قالت شانتال:

– أنت تفترض أنّني عرفت ولم أبلّغك؟ غير صحيح. كارلو تغيّب عن البار وقالوا إنّه في إجازة، وليدا لم أعرف بالقبض عليها إلّا هذا الصباح.

علّق سليم بتهكّم:

– سأجتهد لأصدّق كلامك.

قالت شانتال بحدّة:

– اسمع. أنا لست كاذبة.

– هناك حقيقة. أنت أخفيت عنّي أنّ صديقيك مقبوض عليهما.

صاحت شانتال بغضب:

– من أعطاك الحقّ لكي تحاسبني؟

قال سليم:

– من حقّي أن أحاسبك. إذا كنت تحبّينني حقًّا يُفترض ألّا تسمحي بإيذائي.

أطرقت شانتال لحظات وبدت كأنّها تسيطر على مشاعرها ثمّ تطلّعت إلى سليم وقالت بهدوء:

– يستحيل أن أسمح بإيذائك. من فضلك احكي لي ما حدث.

سكت سليم لحظة ثمّ نظر إلى شانتال واستطرد:

– ضابط صديقي ودفعتي في الكليّة الحربيّة اسمه وديع يعمل في المخابرات العامّة اتّصل بي أمس وأصرّ على مقابلتي فورًا وحذّرني.

– حذّرك من ماذا؟

– وديع قال لي إنّ أصدقاء صاحبتك شانتال متورّطون في قضيّة جاسوسيّة وبالتالي فإنّ استمرارك في مقابلتها يشكّل خطرًا كبيرًا عليك وعليها.

– هل يعرف هذا الضابط بعلاقتنا؟

– نعم.

– معنى ذلك أنّ كلّ الاحتياطات التي اتّخذناها بلا جدوى.

أشعل سليم سيجارة وجذب نفسًا عميقًا ثمّ قال:

– للأسف تبيّن أنّ المخابرات قد رصدت علاقتنا من البداية.

– هل سيعاقبونك لأنّك أحببتني؟

– لم تعد المشكلة في الحبّ. الموضوع تطوّر للأخطر. قال لي وديع: «علاقتك بامرأةٍ أجنبيّة لن تكون أفضل شيء في ملفّ خدمتك. قد تضعك تحت مراقبة مكثفة وقد تؤخّر ترقيتك بعض الوقت لكن الآن، بعد القبض على أصدقاء شانتال بتهمة الجاسوسيّة أصبحت أنت نفسك محلّ شكّ السلطات».

نظرت شانتال إليه وقالت بحدّة:

– ماذا تريدني أن أفعل؟

– سنتوقّف عن اللقاء.

– طبعًا. مستقبلك المهني أهمّ من أيّ شيء.

– لو كنت مكاني لتصرّفتِ مثلي.

– إذن سننهى علاقتنا؟

– لن ننهيها لكنّنا سنبتعد عن بعض مؤقتًا حتّى تهدأ الأمور.

– هكذا بهذه البساطة؟

مدّ سليم وأمسك بيدها لكنّها جذبتها بعيدًا. نظر إليها بتأثرٍ وقال:

– شانتال. أنا أعتمد على تقديرك للموقف. إذا لم نوقف علاقتنا مؤقّتًا فستكون العواقب خطيرة.

– ماذا سيحدث؟

– أنا وأنت موقفنا أضعف بكثير ممّا تتصوّرين. أنتِ سيتمّ طردك من مصر فورًا ولن يفيدك معارفك أصحاب النفوذ لأنّ قضايا الأمن القومى لا يجوز التوسّط فيها. أمّا أنا فسيتمّ تدميري تمامًا. تقرير واحد من ضابط مخابرات سوف يقضي عليّ. سأُطرد من الخدمة وسيتمّ التحقيق معي لمعرفة مدى علاقتي بشبكة الجاسوسيّة وربما أُحال إلى محكمة عسكريّة تلقي بي في السجن الحربي.

ابتسمت شانتال بمرارةٍ وقالت:

– سأفعل ما تريده لأنّي لا أحبّ أن أراك مذعورًا بهذا الشكل.

– لست مذعورًا ولكنّني حريص عليك وعلى نفسي.

– أشكرك على كلّ شيء.

هكذا قالت شانتال ووضعت علبة السجائر والولاعة في حقيبة يدها ثمّ وقفت وتوجّهت نحو الباب. اقترب منها سليم بسرعة وحاول

أن يحتضنها لكنّها مدّت يدها وأبعدته بحزم بدون أن تنظر إليه ثمّ خرجت من الباب وأغلقته خلفها بعنف.

50

أنس

استيقظت على مكالمة من عربي السايس.

أخبرني أنّ ضبّاط المخابرات قبضوا على ليدا. كان منهارًا وراح يولول فأنهيت المكالمة.

يا له من صباح! تذكّرت ليدا عندما احتضنتني وهمست: «أنا خائفة يا أنس».. كأنّها كانت تشعر بما سيحدث..

صنعت لنفسي فنجانًا من القهوة وأشعلت سيجارة ملفوفة.

أحتاج الآن إلى السيطرة على أعصابي. يجب أن أفكّر بهدوء وأحدّد ما سوف أفعله.

اتّصلت بعبّاس فبادرني قائلًا:

– عربي كلّمني. للأسف كنت أتوقّع ما حدث. لقد لفّقوا قضيّة جاسوسيّة لكارلو ويحتاجون إلى شهود.

أخبرت عبّاس بأنّ معي نسخة من مفتاح شقّة ليدا كما أنّ الشغّالة إحسان معها مفتاح أيضًا. سكت قليلًا ثمّ قال:

– اذهب إلى الشقّة الآن وجهّز شنطة غيارات وملابس لليدا وأنا سأمرّ عليك الساعة الواحدة وآخذ الشنطة.

– هل تتوقّع أن تظلّ ليدا محبوسة؟

– أربعة أيّام على الأقلّ.

– ألا يمكن أن أزورها؟

– لن يسمحوا بدخولك. أهمّ شيء أن تجهّز الشنطة وتنتظر صوفيا لمّا ترجع من المدرسة.

أنهيت المكالمة مع عبّاس. أخذت حمّامًا وارتديت ملابسي بسرعة ثمّ ذهبت إلى شقّة ليدا. ضغطت على جرس الباب وانتظرت. يُفترض أن تكون الشغّالة إحسان في الداخل. بعد بضع دقائق استعملت مفتاحي ودخلت فلم أجد أحدًا في الشقّة. أين ذهبت الشغّالة؟ تذكّرت ليدا وانتابني شعورٌ بالحزن قاومته. كان عليّ أن أتصرّف بسرعة. جلست في الصالة وفكّرت في ما يجب أن أفعله. اتّصلت بعدلي الأسود. شعرت بأنّني أحتاج إليه. ردّت عليّ نعمت وأخبرتني أنّ عدلي نائم. طلبت منها إيقاظه وقلت:

– نعمت. أنا في مشكلة كبيرة. تعالي أنت وعدلي.

قالت:

– تحت أمرك يا أستاذ أنس.

أعطيتها العنوان. بعد أقلّ من ساعة وجدت عدلي ونعمت على الباب. بدا عدلي مرهقًا. كنت أعرف أنّه لا يصحو قبل العصر . رحّبت بهما وأخبرتهما بما حدث.

قال عدلي:

– عجايب.. واحد زبون أكل في المطعم وطلع جاسوس، مالها مدام ليدا يقبضوا عليها؟

ظللت صامتًا. وقالت نعمت:

– إن شاء الله تطلع بالسلامة.

شرحت لنعمت المطلوب فدخلت حجرة نوم ليدا وبعد قليل خرجت بشنطة صغيرة وضعت فيها كلّ ما يلزم.

قميص نوم وشبشب وغيارات وقطع صابون ومعجون وفرشاة أسنان. بعد قليل جاء عبّاس فعرّفته إلى عدلي ونعمت. حيّاهما بسرعة وحمل الحقيبة وانصرف. ظللنا نحن الثلاثة جالسين في الصالة. اتّفقت معهما على ما

سنقوله لصوفيا. كنت قلقًا من ردّ فعلها على غياب أمّها. إذا انهارت وفقدنا السيطرة عليها فسيصبح الموقف أصعب.
قال عدلي فجأة:
– لا مؤاخذة يا أستاذ أنس. ممكن أفرش وأنام في أيّ مكان؟ محتاج أنام ساعة واحدة.
رفضت أن ينام عدلي على الأرض. اصطحبته إلى حجرة صغيرة في وسط الممرّ كنت أعرف أنّ فيها سريرًا. خلع عدلي حذاءه ثمّ استلقى على السرير وما إن وضع رأسه على الوسادة حتّى استغرق في النوم. دخلت نعمت إلى المطبخ لتعدّ الغداء وفي الساعة الثالثة وصلت صوفيا. كان ظهورها مؤثّرًا بمريلة المدرسة وضفيرتها الطويلة تتدلّى على ظهرها وحقيبة الكتب في يدها. احتضنتها وقبّلتها وأخبرتها أنّ ليدا سافرت بورسعيد على عجل حتّى تتسلّم بعض الأجهزة التي استوردتها للمطعم وعندما سألتني متى ستعود أمّها قلت وأنا أتفادى النظر إليها:
– بعد أربعة أيّام.
لم تبكِ صوفيا لكنّها لاذت بالصمت. أحسست أنّها لم تصدّق ما قلته لكنّها قرّرت ألّا تعترض – مؤقّتًا – حتّى يتّضح الموقف تمامًا. ربّما كانت مأخوذةً من المفاجأة وتحتاج إلى وقتٍ لتستوعب ما يحدث. ربّما ساعد على تماسكها أنّها تعرفني جيّدًا وتحبّني وتثق بي. قدّمت نعمت الغداء لصوفيا وساعدتها على تغيير ملابسها. الغريب أنّ العلاقة بينهما توطّدت بسرعة. بعد قليل كانت صوفيا تطلب من «طنط» نعمت ما تريد بينما تحنو عليها نعمت وكأنّ كلًّا منهما تعرف الأخرى من زمان. ستظلّ العلاقات الإنسانيّة لغزًا لا يمكن فهمه بوضوحٍ كامل. ماذا حدث بين صوفيا ونعمت؟ أعتقد أنّ طاقة مشاعر صادقة انتقلت من نعمت لصوفيا، حدث ذلك بطريقةٍ بسيطة وطبيعيّة تمامًا. اتّفقت مع عدلي ونعمت على تقسيم العمل.

قلت لهما:

– الشغّالة إحسان اختفت ولازم نعمل كلّ حاجة بنفسنا.

كلّ واحد فينا صارت له مهمّة محدّدة. أنا أبيت وحدي مع صوفيا وفي الصباح أعدّ لها الإفطار والسندوتشات وأتابعها من النافذة وهي تصعد إلى أتوبيس المدرسة. بعد ذلك أذهب إلى بيتي فآخذ حمّامًا وأغيّر ملابسي وأعود إلى شقّة ليدا. عند الظهر تأتي نعمت لتطهو الطعام ثمّ تنتظر صوفيا معي وتقدّم لها الغداء وترعاها حتّى تكتب الواجب وتستحمّ وتستغرق في النوم. بعد ذلك تعود نعمت إلى بيتها لتغيّر ملابسها وتذهب لتقديم فقرتها في الأنجلو التي تحين في منتصف الليل. أمّا عدلي فكان يمرّ علينا في المساء ليتأكّد من أنّ كلّ شيءٍ على ما يُرام. أعتقد أنّنا تصرّفنا بأفضل ما نستطيع. المشكلة التي لم أتوقّعها حدثت في صباح اليوم التالي. نشرت الصحف الثلاث صورة ليدا وصورة كارلو مع خبرٍ كبير بعنوان «القبض على إيطاليّ ويونانيّة بتهمة مساعدة الجاسوس لوتز». هذا الخبر أملته المخابرات العامّة قطعًا لأنّه مكتوب بنفس الصيغة في الجرائد الثلاث وفيه إدانة لليدا وكارلو قبل أيّ تحقيقٍ أو محاكمة.

الإعلام الموجّه من المخابرات يشكّل الرأي العامّ في مصر وفقًا لأهدافه. لن يفكّر أحد أنّ كارلو وليدا وُلدا وعاشا في الاسكندريّة وبالتالي فهما مصريّان من أصلٍ أوروبي وليسا مجرّد «إيطاليّ» و«يونانيّة» كما يقدّمهما الخبر. لن يسأل أحد نفسه: هل يُعتبر البارمان جاسوسًا إذا قدّم مشروبًا للجاسوس لوتز؟ وهل تُعتبر صاحبة المطعم جاسوسة لأنّ الجاسوس لوتز أكل في مطعمها؟ لن يسأل أحد كيف تمكّن الجاسوس لوتز من عقد الصداقة مع حسين الشافعي نائب عبد الناصر وكيف ارتبط بصداقةٍ وطيدة مع قيادات الجيش؟ كلّ هذه أسئلة لن يطرحها أحد وسط البروباجندا

العاتية؟ الغرض طبعًا إقناع المصريّين بأنّ هناك مؤامراتٍ كونيّةً كبرى تحاك في الظلام ضدّ مصر وأنّ الزعيم العظيم هو من يحمينا جميعًا من شرّ المتآمرين كما أنّ أجهزة الأمن في منتهى اليقظة والكفاءة. بين الحين والحين كانت صوفيا تعاود السؤال عن أمّها. كنت أرى على وجهها تعبيرًا خائفًا مرتبكًا وكأنّها تدرك أنّ شيئًا كبيرًا حدث وأنّني أكذب عليها. كانت تتجاهل إجاباتي وتكرّر أسئلتها عن ليدا: متى تعود؟ ولماذا لا تتّصل في التليفون؟ وهل يمكن الاتّصال بها؟ لم تكن صوفيا تبكي أو تصرخ أو حتّى تشكو. كانت فقط تلحّ في السؤال بهدوءٍ وتصميم. تألّمت كثيرًا من هدوء صوفيا. لو أنّها بكت وصرخت لكانت معاناتي أقلّ. كانت طفلةً رائعة تتمتّع بصلابة لا شكّ في أنّها ورثتها عن أمّها. في نهاية اليوم الثالث اتّصل بي عبّاس وقال:

– ليدا ستُعرض غدًا على النيابة. تقدر تشوفها. تعال المحكمة الساعة 12.

لماذا خضع كارلو وليدا للتحقيق في النيابة العامّة؟ عندما تقبض المخابرات على شخص فإنّه يختفي تمامًا. تتعطّل كلّ الإجراءات القانونيّة المعتادة وقد يظلّ معتقلًا سنوات بلا تحقيق ولا قضيّة. لماذا حرصت السلطة على أن يبدو الشكل قانونيًّا مع كارلو وليدا؟ تفسير ذلك – كما قال عبّاس – أنّ قضيّة الجاسوسيّة تضمّ أطرافًا أجانب. الجاسوس لوتز وزوجته يحملان الجنسيّة الألمانيّة وبالتالي لا بدّ من شكلٍ قانوني ما حتّى تستطيع الحكومة المصريّة أن تردّ على استفسارات الحكومة الألمانيّة. لن يغيّر الشكل القانوني شيئًا لأنّ النيابة العامّة تحت السيطرة الكاملة لأجهزة الأمن. لقد رفض وكيل النيابة طلب عبّاس إثبات آثار التعذيب الذي تعرّض له كارلو. لا أستطيع أن أتخيّل أنّ ليدا تعرّضت لتعذيب. يصيبني الرعب من مجرّد الفكرة فأحاول أن أطردها عن ذهني. التاكسي يتّجه بي إلى

المحكمة. اليوم ستنظر النيابة في تجديد حبس ليدا. أكثر ما يقلقني هو صوفيا. ماذا أقول لها لو أمرت النيابة بتجديد حبس ليدا؟! وهو غالبًا ما سوف يحدث.

انتظرت في حجرة المحامين كما طلب منّي عبّاس. كانت الحجرة مزدحمة بالمحامين بعضهم يراجع أوراق القضايا بينما يتحدّث بعضهم مع زملائه. جاء عامل البوفيه وما إن ذكرت اسم عبّاس القوصي حتّى رحّب بي بحرارة:

– أنا تحت أمر عبّاس بك.

طلبت فنجانًا من القهوة وأشعلت سيجارة ورحت أراقب الباب. لا أؤمن بالأديان لكنّني أؤمن بوجود اللّه القويّ العادل. دعوت اللّه أن يخرجنا من هذه المحنة. بعد قليل دخل عبّاس إلى الحجرة مسرعًا. صافحني وقال:

– عندي خبر سيّئ وخبر حلو.

لم أعلّق فاستطرد قائلًا:

– الخبر السيّئ أنّ النيابة جدّدت الحبس أسبوعين لكارلو. والخبر الحلو أنّ ليدا أخذت إخلاء سبيل بكفالة 50 جنيهًا.

– مبلغ كبير بالنسبة لكفالة.

لم يكن معي إلّا جنيهاتٌ معدودة في جيبي. ابتسم عبّاس وقال:

– ولا يهمّك.. أنا عملت حسابي.

شكرت عبّاس بحرارة. بعد ذلك غلبني الانفعال ولم أجد الكلمات المناسبة فسكتّ واستطرد عبّاس بلهجةٍ عمليّة:

– انتظر هنا لغاية ما أخلص الإجراءات وأجيب لك ليدا.

أشعلت سيجارة أخرى. كنت أعاني من صداع مؤلم من قلّة النوم والضغط العصبي. رحت أتساءل: كيف ستبدو ليدا؟! وطّدت نفسي على أن أراها في أسوأ حالٍ حتّى لا تفاجئني هيئتها. بعد قليل دخلت ليدا من الباب ومعها عبّاس.

– ليدا.. حمد لله على السلامة.

أحسست بيدها باردة وأنا أصافحها. قال عبّاس محاولًا اصطناع البهجة:

– أنا سلّمتك الأمانة يا أنس. ليدا سليمة قدّامك. مضطرّ أستأذن لأنّ عندي قضيّة.

انصرف وأصبحت وحدي مع ليدا في حجرة المحامين. بدت مرهقة وثمّة هالات سوداء تحت عينيها شعرها مشعّث ولونها شاحب. حملت عنها حقيبتها وسألت:

– تحبّي تشربي حاجة؟

بدا السؤال سخيفًا وخارجًا عن السياق..

همست:

– وصّلني البيت يا أنس.

بدت نظرتها غريبةً وذاهلة وكأنّها فوجئت بشيءٍ ما أفزعها مرّةً واحدة إلى الأبد. أحسست أنّ ذهنها غائب لدرجة أنّني أحيانًا كنت أشكّ في أنّها تفهم ما أقول. ظلّت ليدا صامتة ونحن في التاكسي بينما حكيت لها ما حدث في غيابها وأنا أتفادى النظر إليها. استقبلتنا نعمت بفرحة جميلة.

احتضنت ليدا وقبّلتها وقالت:

– ألف حمد لله على السلامة، نوّرت بيتك..

تأثّرت من جملة «نوّرت بيتك». التعبيرات الشعبيّة البسيطة بليغة ومبهجة. بعد قليل رأيت المشهد الكبير. جاءت صوفيا فوجدت أمّها في انتظارها. احتضنتها وتعلّقت بها وراحت تبكي وتردّد:

– ما تسيبينيش تاني.

أعدّت لنا نعمت الغداء ورفضت أن تأكل معنا. استأذنت وانصرفت لتتركنا وحدنا. ستظلّ نعمت تدهشني دائمًا بحسن ذوقها. أين تعلّمت هذه الرقّة؟ بعد قليل قمت لأنصرف. قبّلت صوفيا وتبعتني ليدا حتّى الباب.

احتضنتها وقبّلت يديها وقلت:

– أنت محتاجة أسبوع راحة.

قالت بصوتٍ خافت:

– لازم أفتح المطعم.

حاولت أن أعترض لكنّها استطردت بلهجةٍ قاطعة:

– أنا موجودة بكره في المطعم من الظهر لغاية بالليل. تعال أيّ وقت..

51

«سيادة الرئيس جمال عبد الناصر

تحيّة طيبة وبعد

في البداية أعرّفكم أنّني لست من أعداء الثورة. لست من الإخوان المسلمين ولا الشيوعيّين ولا أنتمي إلى الأحزاب الرجعيّة.

أنا يا سيادة الرئيس أؤمن بالثورة والوحدة العربيّة والتحوّل الاشتراكي. أؤمن بمجتمع الكفاية والعدل. كفاية في الإنتاج وعدالة في التوزيع. شعاري – كما علّمتني – الحرّية والاشتراكيّة والوحدة».

توقّف جليل وفكّر قليلًا ثمّ استأنف النقر على مفاتيح الآلة الكاتبة.

«سيادة الرئيس

أنا كمواطن مصري أحبّك وأؤمن بأنّك زعيم الأمّة العربيّة. سأخفي شخصيّتي لأسبابٍ تخصّني وأنا واثق أنّ ذلك لن يؤثّر على اهتمام سيادتك بهذه الشكوى. واجبي كثوري يجبرني على أن أحكي لك واقعة تعرّض فيها مواطنون مصريّون لظلمٍ بيّن. والأسوأ أنّ هذا الظلم قد مورس عليهم باسم الثورة بل وباسم الزعيم عبد الناصر».

بعد هذه المقدّمة حكى جليل ما حدث في المصنع بالتفصيل. كتب الحقيقة كاملةً ليعرفها الزعيم ثمّ عقّب قائلًا:

«هل هذا العدل الذي تنادون به يا سيادة الرئيس؟ هل هذا ما تفعله الثورة بالرأسماليّة الوطنيّة التي أشدت بها في الميثاق؟ ثمّ على أيّ أساس يتمّ تأميم أيّ مصنع؟ لماذا لا تتمّ تحرّيات كافية قبل أن تتّخذ الحكومة قرارًا بخراب بيوت الناس؟».

استبدّت الحماسة بجليل فأخذ رشفة من القهوة ثمّ كتب كيف قمع ضابط الشرطة العسكريّة عمّال المصنع وهدّدهم بل وكيف اعتقل العامل حسن بعد أن أوسعه الجنود ضربًا وركلًا بالأحذية. حكى جليل أيضًا كيف اشترى بدوي خضير رضى العمال بأن صرف لهم مكافأة مرتّب عام كامل.

ثمّ تساءل:

«وهل هكذا يُعامل العمّال في عهد عبد الناصر؟ ألم تقل لنا: ارفع رأسك يا أخي فقد مضى عهد الاستعباد؟
ها هو الاستعباد في أبشع صوره..
بدلًا من أن تحموا حقوق العمّال وتصونوا كرامتهم، تقمعونهم وتهينونهم وتمارسون إذلالهم وفي النهاية تشترون سكوتهم على الظلم بالمال؟!
هكذا تعلّمونهم النفاق والخنوع والتأقلم مع الإهانة. هكذا تحوّلون العامل من مواطن محترم إلى «خدّام أكل عيشه».
سيادة الرئيس
إنّ ما حدث في مصنع كازان للشوكولاته على النقيض من كلّ المبادئ التي تنادي بها والتي أؤمن بها بفضلك.
كلمة أخيرة يا سيادة الرئيس،
إذا كنت ترفض الظلم فارفعه وحقّق العدل فورًا. هذا ما أتوقّعه منك، أمّا إذا كنت راضيًا عمّا حدث فهذا فراق بيننا ومن الآن فصاعدًا لن أصدّق ما تقوله أبدًا».

راجع جليل مسوّدة الخطاب ثمّ أعاد كتابته على الآلة بشكله النهائي ووقّعه باسم «ثوري مخلص». تردّد قليلًا وهو يقرأ نهاية الخطاب التي يهدّد فيها الزعيم بأنّه لن يصدّق ما يقوله إذا لم يرفع الظلم. قال جليل لنفسه: هل يجوز لي أن أخاطب الزعيم بهذه الطريقة؟ لكنّه عاد وقال لنفسه: هكذا يجب أن يتحدّث الثوري عن الظلم.. بهذه القوّة. بهذا التحدّي..

وضع جليل الخطاب في مظروفٍ كبير مغلق وكتب عنوان رئاسة الجمهوريّة في القاهرة. قرّر ألّا ينتظر للصبح فأخذ الظرف وتوجّه أولًا إلى حجرة النوم وفتح الباب برفق فوجد فيفي نائمة. عندئذٍ نزل إلى الشارع وتعمّد ألّا يلقي بالخطاب في صندوق بريد قريب من البيت. مشى حتّى وصل إلى محطّة الرمل وتوجّه إلى صناديق البريد المواجهة للسنترال. ألقى بالخطاب في الصندوق بغير أن يلتفت حوله. كان يريد أن يبدو ما يفعله عاديًّا حتّى لا يثير الانتباه. أحسّ براحةٍ وكأنّه تخلّص من همٍّ ثقيل. لقد قام بواجبه كاملًا نحو الوطن ونحو الثورة التي يؤمن بها. عاد جليل إلى بيته وخلع ثيابه وارتدى البيجاما ودخل الفراش بجوار فيفي وسرعان ما استغرق في النوم.

52

أنس

عدت إلى البيت وظللت أرسم حتّى الفجر ثمّ استغرقت في نومٍ عميق. كنت متعبًا للغاية فاستيقظت الساعة الرابعة بعد الظهر. أخذت حمّامًا وارتديت ثيابي ومارست طقوسي المعتادة: القهوة والحشيش. كم أحتاج إلى تهدئة أعصابي بعد كلّ ما حدث. قرّرت أن أمرّ على ليدا في المطعم كما اتّفقنا. اتّصلت بعدلي ونعمت لأشكرهما. أصرّ عدلي على الذهاب معي لرؤية ليدا. قال إنّ هذا أول يوم عمل في المطعم وقد تحتاج ليدا إليه هو ونعمت. لم أتوقّع أن تحتاج ليدا إلى مساعدة لكنّي لم أكن أستطيع أن أرفض هذه المشاعر الطيّبة من عدلي ونعمت. كنت أعرف أنّ ليدا لن يتّسع وقتها للجلوس معنا. ستكون منهمكة في العمل مع الطبّاخين والجرسونات وسوف تستمرّ في العمل حتى إغلاق المطعم في منتصف الليل لأنّ كارلو غائب. اتّفقت مع عدلي على أن نلتقي أمام باب المطعم الساعة السادسة بعد الظهر. وصل عدلي ونعمت في الموعد. صافحتهما بحرارة وما إن دفعنا الباب ودخلنا حتّى كانت المفاجأة. كان المطعم خاليًا تمامًا، لم يكن هناك زبائن ولا جرسونات وظهرت الموائد بلا أغطية. كانت ليدا جالسةً وحدها على مائدةٍ في منتصف المطعم وعلى المائدة

المجاورة جلست صوفيا وأمامها كرّاسات المدرسة مفتوحة وهي تكتب الواجب. بدا المكان موحشًا وكئيبًا وكأنّه قاعة مسرح بعد انتهاء العرض وانصراف الجمهور. تملّكني إحساس بالكآبة حاولت أن أتغلّب عليه فقلت لليدا:

– عدلي ونعمت صمّموا يسلّموا عليكِ.

نهضت ليدا وصافحت عدلي بحرارة ثمّ احتضنت نعمت وقبّلتها. توجّهت نعمت إلى صوفيا التي تعلّقت بها وهتفت:

– طنط نعمت.

ابتسمت ليدا وقالت لصوفيا:

– روحي اكتبي الواجب في المكتب.

لملمت صوفيا الكرّاسات بهدوء وانسحبت.

قلت لليدا:

– أين الصنايعيّة؟ الجرسونات والطبّاخين. ألم تتّصلي بهم؟!

– اتّصل بهم عم عربي وأخبرهم أنّنا سنستأنف العمل اليوم لكنّهم لم يحضروا.

– ولا واحد؟!

– ولا واحد.

– غريبة.

هكذا قلت وأنا أفكّر في مغزى ما يحدث.

قال عدلي:

– هم بيقبضوا باليوميّة ولا مرتّب شهري؟

قالت ليدا:

– مرتّب شهري غير البقشيش.

قال عدلي:

– يعني قعدتهم في البيت تقف عليهم بخسارة؟

– طبعًا.

قلت:

– غريبة أنّهم كلّهم لم يحضروا.
ابتسمت ليدا بحزنٍ وقالت:
– ولا غريبة ولا حاجة. ما تنسوش أنّ صورتي طلعت في الجرائد وكتبوا أنّي ساعدت الجاسوس الألماني.
صاح عدلي بغضب:
– كلام فارغ. واحد أكل عندك في المطعم وطلع عمل مصيبة. حضرتك مالك بالموضوع؟
قالت نعمت:
– لو الحكومة لقت ضدّ حضرتك حاجة ما كانوش طلعوكِ.
قالت ليدا:
– أنا فاهمة تفكير الصنايعيّة.
سكتنا جميعًا فاستطردت ليدا:
– كلّهم صنايعيّة شاطرين وعندهم خبرة وسهل عليهم يلاقوا شغل في أيّ مطعم تاني. كلّ واحد فيهم عنده أسرة ومسؤوليات. لمّا يلاقي في الموضوع قضيّة جاسوسيّة لازم يقطع علاقته بالمطعم. نفس السبب اللي خلّى الشغّالة إحسان تروح ولا ترجعش. ما حدش ناقص مشاكل مع الحكومة.
قلت بغضب:
– الحقيقة أنّ تصرّفهم خسيس لسببٍ بسيط أنّهم اشتغلوا معك سنين طويلة ويعرفوك أكثر من أيّ حد.
ابتسمت ليدا وقالت:
– خلّينا عمليّين.. حتى لو هم مقتنعين أنّي بريئة الأحسن لهم يبعدوا عن المشاكل.
– هم قالوا إيه لعم عربي؟
– معظمهم قالوا إحنا اشتغلنا في مطعم تاني وسلّم لنا على مدام ليدا. قليلين قالوا الحقيقة. ركابي الطبّاخ مثلًا، فاكره؟
– فاكره.
ركابي قال لعربي بصراحة:

- أنا لو رجعت الشغل ممكن يقبضوا على مدام ليدا ويقبضوا عليّ معها.

قال عدلي بحدّة:

- رجل جبان.

ابتسمت ليدا بامتنان وقالت:

- دي طريقة تفكيره.

قلت:

- ولا يهمّك.. بكره تلاقي صنايعيّة أحسن منهم.

نظرت إليّ ليدا وهزّت رأسها وكأنّها تريد أن تصدّق ثمّ قالت فجأةً بالفرنسيّة:

- الموقف صعب فعلًا.

قلت بالفرنسيّة:

- الموقف صعب لكنّك قادرة على مواجهته.

ما إن تحدّثنا بالفرنسيّة حتّى أشار عدلي لنعمت فنهضت ثمّ جلسا في مائدةٍ بعيدة.

صرت وحدي مع ليدا فقلت:

- ولا يهمّك، سيعود المطعم أفضل من الأول.

ردّت بتأثّر:

- المشكلة ليست فقط مع الصنايعيّة.

- مع من أيضًا؟

- قابلت بعض جيراني في البيت هذا الصباح. قمت بتحيّتهم فلم يردّوا ونظروا إليّ بعدوانيّة.

- يا للغباء!

- حتّى أصحاب المحالّ المجاورة. راحوا ينظرون إليّ باحتقار ولم يهنّئني واحد منهم بالإفراج.

سكتت قليلًا ثمّ قالت:

- سيكون عليّ أن أقنع كثيرين بأنّني لست جاسوسة.

وضعت يديها على وجهها وبكت. اقتربت منها ووضعت ذراعي عليها وهمست:

– أنا واثق أنّ كلّ ذلك سينتهي.

أطرقت وقالت بصوتٍ خافت:

– أكثر ما يحزنني أن تحسّ صوفيا بأنّها منبوذة في بلدها.

– ماذا حدث لصوفيا؟

– أستطيع أن أتخيّل بسهولة أنّ زميلاتها في المدرسة رحن يعايرنها بأمّها الجاسوسة.

– هل قالت لك؟

– لن تقول أبدًا لأنّها لا تريد أن تضايقني.

– كيف عرفت إذن؟

– رجعت اليوم وهي تبكي وأخبرتني أنّها تشاجرت مع بعض البنات في الفصل ورفضت أن تذكر السبب.

فجأةً سمعنا صياحًا في الخارج. لم أستطع تمييز الكلام لكنّ الضجّة أخذت تقترب ثمّ سمعنا خبطًا عنيفًا على أبواب المطعم. صرخت نعمت وانطلق عدلي يعدو إلى الخارج وركضت خلفه. ما إن خرجنا من الباب حتّى وجدنا تجمّعًا لا يقلّ عن ثلاثين شخصًا. ناس عاديّون من المارّة لكنّهم كانوا في حالة هياج وارتفعت أصواتهم وتداخلت:

– المطعم ده لازم يقفل.

– صاحبة المطعم جاسوسة.

– عايشين في خير مصر وتتجسّسوا عليها يا أولاد الكلب.

هكذا صرخ شابّ نحيف وردّد الواقفون كلمات غاضبة.

نظرت إلى عدلي فوجدته يراقب الموقف وهو متحفّز.

رفعت ذراعيّ عاليًا وصحت بأعلى صوتي:

– ممكن نتكلم من فضلكم؟

استجاب لي الواقفون في المقدّمة واستمرّ الباقون في الصياح. قلت بصوتٍ مرتفع:

– لازم تسكتوا لأجل نسمع بعض.

هدأت الأصوات قليلًا فقلت:

– اسمي أنس الصيرفي وأنا أعرف أصحاب المطعم من سنين وهم وطنيّين وبيحبّوا مصر.

صاح الشابّ النحيف متهكّمًا:

– كلام فارغ. صاحبة المطعم اللي بتحبّ مصر مقبوض عليها في قضيّة جاسوسيّة.

ارتفعت الصيحات من جديد فقلت:

– هي انقبض عليها وأفرجوا عنها لأنّهم تأكّدوا أنّها بريئة.

اقترب منّي الشابّ النحيف الذي أصبح واضحًا أنّه مثير الشغب الأساسي.

صاح بأعلى صوته:

– بأقول لك يا أخ. احنا اسكندرانيّة جدعان ولا يمكن نسمح للجواسيس يعيشوا بيننا. يا تقفلوا المطعم يا إما نولّع فيه حالًا.

اشتعلت حماسة الواقفين وراحوا يهلّلون ويصرخون واختلطت أصواتهم لدرجة أصبح معها من الصعب فهم ما يقولون. فجأةً تقدّم نحونا صبيّ لا يتجاوز الخامسة عشرة وفي يده طوبة قذفها بكلّ قوّته على الواجهة الزجاجيّة فتهشّمت وأحدثت صوتًا عاليًا. عندئذٍ أصبح من الواضح أنّ المتجمهرين لا يمكن التفاهم معهم. في لمح البصر أخرج عدلي من بنطلونه سكّينًا طويلةً لها شفرتان ثمّ اندفع إلى المتجمهرين وهو يضرب بالسكّين في الهواء بعشوائيّة. ارتفعت صرخاتهم (من الفزع هذه المرّة) وركضوا وعدلي يطاردهم ثمّ وقف ورفع السكين وصاح بأعلى صوته:

– على الله حد فيكم يقرّب من المطعم لأجل أجيب رقبته بالسكّينة.

أدخل السكّين في جيب البنطلون وعاد وربّت على كتفي كأنّما يطمئنني. رجعنا إلى المطعم وكان عمّ عربي يكنس بقايا الزجاج الذي انكسر وفي الداخل كانت نعمت واقفة

بجوار ليدا وصوفيا التي بدا على وجهها الرعب. ما إن رأتني ليدا حتّى ركضت نحوي وقالت وهي تبكي:

– لا يمكن أن أتحمّل كلّ ذلك. إذا كانوا يريدونني أن أترك الاسكندريّة فسأتركها.

53

هل يعتقد جليل أنّ الرئيس عبد الناصر سيقرأ رسالته؟

لفظ «يعتقد» أضعف بكثير من المعنى. كان جليل «يؤمن» بذلك. سوف يقرأ عبد الناصر رسالته قطعًا. هذه الثقة ليست رومانسيّة ولا ساذجة ولا متوهّمة. لقد قرأ جليل عدّة موضوعات صحفيّة عرف منها أنّ عبد الناصر قد أنشأ في رئاسة الجمهوريّة إدارةً خاصّة لتلقّي رسائل المواطنين التي تصل إليه يوميًا من داخل مصر وخارجها. يتمّ فرز هذه الرسائل وتبويبها ثمّ تُعرض على الرئيس الذي يقرأها أولًا بعناية ثمّ يحيلها إلى جهات الاختصاص مع تعليمات واضحة يكتبها على كلّ رسالة بل إنّه أحيانًا – كما ذكر التقرير – قد يطلب عبد الناصر مقابلة صاحب الرسالة عن طريق إعلانات تنشرها الرئاسة في جريدة الأهرام. يكون الإعلان بالصيغة التالية: إلى ابننا «فلان».. لقد أرسلت خطابًا إلى والدك بتوقيع «كذا» وهو يريد أن يتكلم معك. اتّصل برقم تليفون «كذا».

كلّ ذلك مؤكّد ومنشور بل إنّ الصحف قد نشرت أنّ أحد الوزراء (لم يذكروا اسمه) قد تمّ تعيينه بهذه الطريقة. فقد كتب رسالةً ينتقد فيها سياسة الحكومة في مجال تخصّصه وقد استدعاه عبد الناصر (بواسطة إعلان في الأهرام) واستمع إليه وناقشه على مدى ساعتين ثمّ اتّخذ قرارًا بتعيينه وزيرًا.

الأمر إذن جدّ لا هزل فيه. الرئيس عبد الناصر سيقرأ رسالة جليل وقطعًا سيعطي تعليماته بإجراء التحرّيات اللازمة وعندما يتأكّد سيادته من حقيقة الوضع سوف يتّخذ قراره برفع الظلم عن مسيو توني وهو قطعًا سيوقع العقاب اللازم على ضابط الشرطة العسكريّة الذي اعتدى على العمّال وأهانهم.

بعد أن أرسل الشكوى بدأ جليل يتوقّع ردّ الفعل وقد فكّر أنّ الرئيس ربّما يسعى لمقابلته ليستزيد من المعلومات وفي هذه الحالة

سينشر إعلانًا في جريدة الأهرام كعادته.

لمدّة شهرٍ كامل، حرص جليل على قراءة إعلانات الأهرام كلّ صباح لكنّه لم يجد أيّ رسالةٍ من الرئيس. عندئذٍ قال لنفسه: سأستمرّ في متابعة إعلانات الأهرام، ولكن ربّما لا يحتاج الرئيس إلى المزيد من المعلومات وبالتالي سوف يتّخذ القرار مباشرة. سوف يذهب جليل إلى المصنع ذات صباح فيجد الرئيس قد ألغى قرار التأميم وأعاد المصنع لصاحبه مسيو توني كازان. كان جليل واثقًا من ذلك. الزعيم عبد الناصر العظيم يستحيل أن يقبل بظلم مسيو توني ولا بإذلال الشرطة العسكريّة للعمّال. هنا خطر لجليل سؤالٌ مهمّ: عندما يتمّ إلغاء التأميم ورفع الظلم، هل يخبر جليل مسيو توني أنّه كتب رسالةً إلى الرئيس عبد الناصر وأنّ رسالته هي السبب في عودة المصنع إليه؟! بعد تفكيرٍ قرّر جليل ألّا يخبر توني بأيّ شيء. سيكون إخبار توني بموضوع الرسالة نوعًا مبتذلًا من التباهي والمنّ. لقد قام جليل بواجبه كحارسٍ للثورة وقبل ذلك كإنسان. لا أكثر ولا أقلّ. مرّ الأسبوع الخامس على إرسال الشكوى ولم يحدث شيء، ثمّ الأسبوع السادس والسابع.. بعد شهرين بالتمام ذهب جليل إلى المصنع ودخل مكتبه كالمعتاد وسرعان ما جاءه الساعي ليخبره أنّ السيّد المدير العامّ يريد رؤيته. ذهب جليل إلى بدوي خضير فرحّب به باقتضاب ودعاه للجلوس ثمّ أخرج من الدرج ورقة أمسكها بإصبعين وقرّبها من جليل وقال بصوتٍ غاضب:

– تعرف من كتب هذه الرسالة لسيادة الرئيس؟

سكت جليل قليلًا حتّى استوعب المفاجأة ثمّ قال بصوتٍ خافت:

– أنا كتبتها.

بدا بدوي للحظة وكأنّه فقد السيطرة تمامًا على نفسه. خبط بيده على المكتب فاهتزّ فنجان القهوة وكوب الماء وصاح:

– أنت مجنون؟

– أنا عاقل يا أستاذ بدوي. حدث ظلم وانتهاك لحقوق الناس ووجدت من واجبي كثوري أن أشكو للسيّد الرئيس.

هكذا قال جليل وقد استعاد ثباته لكنّ بدوي استطرد صائحًا:

– تفتكر سيادة الرئيس عنده وقت يضيّعه مع الشكاوى؟

– قراءة شكاوى المصريّين ليست إضاعة وقت بل إنّها واجب يجب أن يؤدّيه القائد. وقد قرأت في الصحف، أكثر من مرة، أنّ الرئيس حريص على متابعة الرسائل كلّها.

– هل تعلم أنّ هذه الرسالة تُعتبر شكوى مقدّمة ضدّي شخصيًّا؟

– لم أقصد أن أشكوك يا أستاذ بدوي.

– عندما تؤكّد أنّ تأميم مصنع كازان إجراء ظالم. معنى ذلك أنّ كلّ من شارك في هذا الإجراء شخص ظالم.

– يا أستاذ بدوي أنا أحبّك لكنّني لا أبني رأيي على مشاعر شخصيّة وما زلت عند رأيي أنّ تأميم مصنع كازان إجراء خاطئ وظالم.

– الأسوأ من كلّ ذلك أنّك تتجرّأ وتهدّد سيادة الرئيس..

– غير صحيح.

– أنت كتبت للرئيس «إذا لم ترفع الظلم عن توني كازان فلن أصدّقك بعد ذلك». أنت فعلًا شخص مختلّ! بتقول لعبد الناصر إنّه كذّاب؟!

قال بدوي الجملة الأخيرة بصوتٍ مرتفع حانق ثمّ أشعل سيجارة وبدا أنّه يحاول السيطرة على غضبه ثمّ نظر إلى جليل وقال:

– أنا سبق وقلت لك يا جليل إنّ ضعفك العاطفي سيؤدّي بك إلى مصيبة وها أنت ترى بنفسك. اقرأ الختم على طرف الرسالة.

تناول جليل الرسالة وقرأ أعلى الصفحة عبارة مختومة بالأزرق «بريد أسود».

قال بدوي:

– عارف معنى بريد أسود؟

تطلّع إليه جليل ولم يردّ فاستطرد:

– الرسائل التي كُتبت بأسلوب غير لائق أو التي تحمل إساءة للثورة أو لسيادة الرئيس يتمّ تصنيفها على أنّها بريد أسود وطبعًا تتوصّل أجهزة الأمن إلى من أرسل البريد الأسود ويتمّ اعتقاله فورًا. تحبّ تروح المعتقل يا جليل؟

سكت جليل فكرّر بدوي بصوتٍ عالٍ:

– ردّ عليّ يا جليل. تحبّ تروح المعتقل؟

أحسّ جليل بالخوف فجأةً وفكّر في زوجته فيفي وابنه رائف لكنّه قرّر أن يسيطر على خوفه ويدافع عن موقفه. قال بحماسة:

– يا أستاذ بدوي. أظنّ من حقّي أدافع عن نفسي.

– تفضّل.

– حضرتك تعلم كم أحبّ الثورة.

– كيف تحبّ الثورة وتردّد كلام أعدائها؟

– لقد كتبت الشكوى لأنّي أحبّ الثورة وأثق بالقائد. أنا لم أتجاوز ولا استعملت عبارات مسيئة. لقد وجّهت نقدًا موضوعيًا لما حدث. أنا مارست النقد الذاتي كما تعلّمنا من الميثاق.

قاطعه بدوي وصاح:

– يا جليل، أنت عايش في أوهام وحتضيّع نفسك!

لاذ جليل بالصمت وتطلّع إليه بدوي وقال:

– عارف نتيجة تهوّرك وحماقتك؟ بالطبع توصّلت أجهزة الأمن إلى شخصيّتك رغم أنّك وقّعت باسم «ثوري مخلص». إنّما هم عرفوك ورصدوك. السيّد مدير مكتب وزير الداخليّة يعلم أنّني مسؤولك في التنظيم الطليعي وهو تفضّل وعرض عليّ الموضوع. من حسن حظّك أنّ الرجل يحبّني ويقدّرني وهو يعتبر أنّك من رجالي ولا يمكن أن يتّخذ معك أيّ إجراء قبل الرجوع إليّ.

ظلّ جليل صامتًا واستطرد بدوي:

– قل لي يا جليل. عاوز تنحبس؟ عاوز ترمي في المعتقل أربع خمس سنين وأسرتك تتشرّد؟ إذا كان ده هدفك، اعتبر المقابلة خلصت وأنا أؤكّد لك أنّك حيتمّ اعتقالك خلال يومين بالكثير وساعتها إيّاك تطلب منّي أساعدك. ردّ عليّ. غرضك تروح المعتقل؟

قال جليل بصوتٍ خافت:

– لا.

– لو عاوز تتجنّب المعتقل بعد المصيبة اللي عملتها فيه حلّ واحد. خذ. ده خطاب كتبته باسمك على الآلة الكاتبة بتشكر فيه سيادة الرئيس على قرار تأميم المصنع وتجدّد له البيعة. وقّع هنا تحت اسمك.

54

كانت الساعة تقترب من الواحدة صباحًا واقترح توني على عبّاس أن يتناولا العشاء في مطعم محمّد أحمد في محطّة الرمل. رحّب بهما الجرسون وقادهما إلى مائدة بجوار الشبّاك في الدور العلوي. طلب توني فلافل وفولًا وسلطات وبعد قليل كان يقطع بيده قطعة من الخبز الساخن ثمّ يضع فيه قرص الفلافل بعد أن يغمّسه في سلطة طحينة. قال عبّاس:

– الأكل لذيذ فعلًا.

ضحك توني وقال:

– فلافل محمّد أحمد لا يُعلى عليها.

أصرّ توني على دفع الحساب وقال:

– لازم أعزمك الليلة.. للتاريخ.

بعد ذلك ذهبا إلى قهوة سعيد. قهوة صغيرة على الترام في محطّة الرمل. ميزتها أنّها لا تغلق أبدًا وتخدم زبائنها على مدى 24 ساعة. كان لتوني وعبّاس ذكريات في قهوة سعيد منذ أن كانا تلميذين في فيكتوريا كوليج. عندما كانا يسهران ويسرفان في الشراب كانا يعرّجان على قهوة سعيد ليحتسيا القهوة قبل أن يعودا إلى البيت. كان الجوّ معتدلًا فجلس توني وسعيد على مائدة فوق الرصيف وطلبا القهوة. تطلّع عبّاس بودٍّ إلى توني وقال:

– كيف الحال؟

قال توني:

– نشكر ربّنا، استوعبت أخيرًا.

– قصدك إيه؟

– بعد ما الحكومة أخذت المصنع، كنت محتاج وقت لأجل أستوعب الصدمة.

– بعد كلّ هذا العمر اكتشفت أنّي لا أعرفك.

– لماذا؟

– لم أتوقّع أن تكون بهذه الصلابة.

– كنت تتوقّع أن أصرخ وأولول؟

– عرفت رجالًا انهاروا تمامًا أمام مشكلات أقلّ من ذلك.

ابتسم توني وقال بهدوء:

– لمّا الإنسان ينهزم الأحسن أنّه يعترف بالهزيمة.

هبّت نسمة من الهواء وقال توني بصوتٍ خافت:

– طبعًا أنا ألوم نفسي.

– تلوم نفسك؟

– طبعًا. لأنّي لم أسمع نصيحة أبي. عندما يكون الإنسان شابًّا يعتقد أنّه يعرف كلّ شيء ولا يحتاج إلى نصيحة أحد. وهذه النتيجة..

– لا يجب أن تلوم نفسك. من كان يعرف المستقبل؟

– أبي توقّع ذلك وحذّرني من فتح مصنع في بلد غير مستقرّ لكنّني استسلمت لأوهامي.

– ما هي أوهامك؟!

– أنا عشت عمري وأنا أؤمن بأنّني مصري. لم أفكّر لحظة في أنّني أجنبي. كلّ النجاح الذي حققته في الصناعة كنت فخورًا به باعتباري مصريًّا.

– الديكتاتور لا بدّ أن يحتكر الوطنيّة ويشكّك في وطنيّة الآخرين.

– لماذا يصرّ النظام على معاملتنا كأجانب؟

– التأميم تمّ تطبيقه على المصريّين والأجانب.

– لا أتحدّث عن التأميم بل عن الطريقة التي تتعامل بها السلطات معنا. أنا وليدا وكارلو. لماذا لا يصدّقون أنّنا مصريّون؟ أنا مولود هنا. أنا مصري من أصل يوناني. لست حالةً استثنائيّة. عندما سحبت شركة قناة السويس المرشدين الملاحيّين عقابًا لعبد الناصر على تأميم القناة، المرشدون اليونانيّون لم ينسحبوا وظلّوا يعملون لأنّهم يعتبرون مصر بلدهم. في عام 1956عندما تعرّضت مصر لعدوان من فرنسا وبريطانيا وإسرائيل، دافع اليونانيّون عن مصر بلدهم وكوّنوا مجموعات مسلّحة لحماية بورسعيد وسقط منهم شهيد مصري يوناني اسمه الشهيد بنايوتي مافروماتي Panayotis

Mavromatis. تصوّر أن تموت دفاعًا عن بلدك ثمّ تُفاجأ بأنّها تعاملك كأجنبي.

– كلّ هذه البطولات لا تساوي شيئًا في نظر الديكتاتور.

– لست متأكّدًا إن كانت هذه وجهة نظر الديكتاتور وحده.

– ماذا تقصد؟

– أحسّ أنّ الشعب يرانا تمامًا كما يرانا الديكتاتور.

– لا تنسَ أنّ هناك بروباجندا جبّارة تنشر التوجّس من الأجانب.

– ما السبب في هذه البروباجندا؟

– أيّ ديكتاتور يحتاج إلى ترويج نظريّة المؤامرة حتّى يقدّم نفسه باعتباره حامي الشعب.

ابتسم توني بحزن وقال:

– سأقول لك شيئًا لم أقله من قبل وأرجو أن تصدّقني.

– أنا أصدّقك.

– خسارة مصنعي ليست فقط ما يحزنني.

تطلّع إليه عبّاس صامتًا واستطرد توني:

– «شقاء الحبّ المردود إلى صاحبه». هل تذكر هذه الجملة؟

– قالها هاملت.

– المحزن حقًّا أن تحبّ بصدق ثمّ تكتشف أنّ من أحببتهم قد نسوك تمامًا بمنتهى السهولة.

قال عبّاس:

– لقد رفض العمّال قرار التأميم لكنّهم تعرّضوا لقمع شديد.

قاطعه توني قائلًا:

– كلّ هذه التبريرات حاولت إقناع نفسي بها لكنّها ليست الحقيقة يا عبّاس.

– ما هي الحقيقة؟

– الحقيقة أنّ العمال بعد يومٍ واحد من التأميم قد هتفوا بحياة بدوي خضير لأنّه منحهم مكافأةً. إنّهم ببساطة لم يحبّوني قطّ كما أحببتهم.

قرّر عبّاس أن ينهي النقاش فنهض فجأةً ودفع الحساب ثمّ عاد إلى توني الذي سأله:

– هل لدينا وقت لنزهة بالسيّارة؟

نظر عبّاس إلى ساعة يده وقال:

– لدينا ساعة أخرى.

ركبا سيّارة عبّاس وطلب توني أن يرى فيكتوريا كوليج. كان المبنى الضخم يبدو في الظلام وكأنّه قلعة. راح عبّاس وتوني يتأمّلان مدرستهما القديمة. كانا يدخلان من هذا الباب وكانا ينامان في هذا المبنى. عبّاس حجرته في الدور الأول وتوني حجرته في الدور الثالث. استعادا الذكريات وضحكا معًا ثمّ تطلّع توني إلى عبّاس وقال:

– ممكن أبصّ على المصنع بسرعة؟

قاد عبّاس السيّارة إلى المصنع ووقف بالسيّارة أمام البوّابة على الناحية الأخرى من الشارع.

نزل توني من السيّارة وأشعل سيجارة وراح ينظر إلى المصنع. بعد لحظات ابتسم وسأل عبّاس:

– النهار ده إيه؟

– الجمعة.

هزّ توني رأسه وقال:

– يبقى الدور في الحراسة على برعي ومفيد. الاثنين كسلانين. ساعات يسيبوا الحراسة ويناموا. كثير كنت وأنا راجع من الكوكاس أدخل عليهم واقفشهم وهم نايمين. لما كانوا يفتحوا عينيهم ويلاقوني واقف قدّامهم كانوا يترعبوا.

أطلق توني ضحكة ثمّ سأل فجأة:

– تفتكر بدوي خضير ناوي يحتفظ بنادي المصنع؟

لم يردّ عبّاس فقال توني:

– حرام يقفل نادي المصنع. الأولاد ما لهمش ذنب.

قال عبّاس وهو يشير إليه:

– توني، لازم نرجع البيت. الوقت ضيّق.

ركب توني بجواره وانطلقت السيّارة. كانا قد اتّفقا على التفاصيل. سيسافر توني إلى لندن ولن يعود. كان قد عمل توكيلًا لعبّاس لكي يبيع ما بقي من ممتلكاته ويقوم بشحن متعلّقاته إلى لندن. أكّد توني على عبّاس ألّا يخبر أحدًا بسفره، حتى أعضاء الكوكاس. من ناحيته لم يخبر توني العاملين في بيته. قال لهم إنّه سيقضي يومين في عزبة صديق. وصلا إلى البيت فصعد توني إلى الطابق العلوي حتى يأخذ حمّامًا ويغيّر ثيابه ويلقي نظرة أخيرة على

الحقيبة. ظلّ عبّاس جالسًا في البهو وجاء السفرجي فطلب منه عبّاس فنجانًا من القهوة السادة وراح يدخّن ويقرأ الصحف. بعد ما يقرب من ساعة نزل توني وجلس بجواره وقال:

– طبعًا سينزعج الأصدقاء في الكوكاس لأنّي سافرت بدون أن أخبرهم.

– أنا واثق أنّهم سيتفهّمون الموقف.

قال توني:

– لن أتحمّل مشاهد وداع. الموقف فعلًا غريب وصعب. سوف أترك الاسكندريّة إلى الأبد. 44 عامًا من حياتي سأطوي صفحتها وأضعها في الدرج. أنا حزين لكنّي أيضًا أستغرب الموقف. هكذا سأعود إلى لندن لأبدأ من جديد وكأنّ كلّ هذه الأعوام لم تُحسب من حياتي.

نظر عبّاس إلى ساعته وقال:

– أمامنا ثلاث ساعات حتّى نصل إلى مطار القاهرة. يجب أن نتحرّك الآن وإلّا فسنتأخّر على موعد الطائرة.

حمل السفرجي الحقيبة ووضعها في شنطة السيّارة. عندما خرج عبّاس وتوني من الباب كان النهار قد طلع. قال عبّاس بلهجةٍ جادّة:

– من فضلك تأكّد من الباسبور والتذكرة.

مدّ توني يده في جيب الجاكيت وأخرج الباسبور والتذكرة ثمّ أعادهما. ركب توني بجوار عبّاس الذي انطلق بالسيّارة لكنّهما ما إن خرجا من باب الفيلّا حتّى اضطرّا للتوقّف.

كان هناك حشد من الناس ينتظرون على الباب. نزل توني من السيّارة وتطلّع إلى الواقفين. كانوا جيرانه في الشارع والعاملين في المحالّ المجاورة وبعض العمّال من المصنع ومن بينهم الأسطى كرّار الذي اقترب من توني وصافحه بحرارة وقال بصوتٍ عالٍ:

– تسافر بألف سلامة يا مسيو توني وان شاء اللّه ترجع مصر بلدك عن قريب.

كانت هذه الجملة بمثابة البداية. صار كلّ واحدٍ من المودّعين يقترب من توني ويصافحه ويتمتم بكلماتٍ ودّية. استوعب توني المفاجأة وسيطر على مشاعره وراح يصافح المودّعين بحرارة وقد بدا عليه الامتنان. لم يعرف توني ولا عبّاس كيف عرف هؤلاء المودّعون

بسفر توني. كاد مشهد الوداع ينتهي بهدوء. فقط عندما ظهر الأوتوبيس الأزرق المكتوب عليه بالعربيّة والفرنسيّة «مصنع كازان للشوكولاته» و فقط عندما انفتح الباب و قفز الأطفال وركضوا نحو توني، فقط عندما تعلّقوا به وراحوا يحتضنونه بأجسادهم الصغيرة ويقبّلونه ويصيحون: «مع السلامة يا مسيو توني.. مع السلامة»، فقط في تلك اللحظة، عندما تطلّع توني إلى الأطفال وابتسم ثمّ مدّ ذراعيه ليحتضنهم، اختلج وجهه فجأةً وأجهش بالبكاء.

تمت

تتناول الرواية أجواء مدينة الإسكندرية في عهد الرئيس جمال عبد الناصر، مركّزةً على التغيرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي واكبت التحوّل من الملكية إلى الناصرية، وانعاكسها على مجتمع الإسكندرية الكوزموبوليتاني. يسلّط الكاتب الضوء على مجموعة من الأجانب الذين كانوا يملأون الإسكندرية في ذلك الوقت ويشكّلون نسيجًا متجانسًا مع أهل البلاد، يصف يومياتهم وعالمهم الهانئ المسالم إلى أن عصفت الثورة وقلبت الموازين: فمنهم من أُمّمَت تجارته ومنهم من تعرّض للتوجس والمكائد بسبب أصوله الغربية ومنهم من أصرّ النظام على تجنيده عبر الترغيب والترهيب لخدمته. كذلك، نرى في الرواية مصريين جُرّدوا من ألقابهم ومكانتهم الاجتماعية، وآخرين نكّلت بهم طبقة أثرياء المال والسلطة الجدد، وآخرين آمنوا كثيرًا بالثورة والعدالة التي تعد بها فتعرضوا لخيبات جسام. كالعادة، رواية جديدة ممتعة للأسواني بأحداثها وشخصياتها الغنية وبأسلوبها الذي يبدو بسيطًا ومسليًا بينما هو محمّل بالقضايا الكبرى.